# الخليج

## بلدانه وقبائله



تأليف

س. ب. مايلز

ترجمة

محمد أمين عبد الله

الطبعة الثانية

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

# الخليج
## بلدانه وقبائله

تأليف
س. ب. مايلز

ترجمة
محمد أمين عبد الله



9 789996 907319

# الخليج

## بلدانه وقبائله

س. ب. مايلز

الطبعة الثانية
١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

رقم الإيداع المحلي : ٢٠١٦/٧٠
رقم الإيداع الدولي (ISBN) : ٩٧٨-٩٩٩٦٩-٠-٧٣١-٩

سلطنة عُمان – ص. ب: ٦٦٨ مسقط ، الرمز البريدي ١٠٠
هاتف : ٢٤٦٤١٣٢٥/ ٢٤٦٤١٣٠٠ فاكس : ٢٤٦٤١٣٣١
البريد الإلكتروني : info@mhc.gov.om
الموقع الإلكتروني : www.mhc.gov.om
تصميم الغلاف : فريق التصميم والإخراج والطباعة – وزارة التراث والثقافة

# الخليج

## بلدانه وقبائله

تأليف

س. ب. مايلز

ترجمة

محمد أمين عبدالله

بسم الله الرحمن الرحيم

المعلومات والآراء الـواردة بهذا الكتاب على مسؤولية المؤلف، ولا تتحمل حكومة سلطنة عُمَان إزاءها أيّة مسؤولية

## مقدمة

## بقلم ج. ب. كيلي

تعتبر عُمَان كاليمن من تلك الأجزاء المجهولة من شبه جزيرة العرب، والمؤلفات التي صدرت عنها قليلة تعد على أصابع اليد. ويتناول هذا الكتاب الذي ألفه الكولونيل مايلز تحت عنوان (الخليج بلدانه وقبائله) تاريخ وجغرافية وأثنوغرافية عُمَان. فقد عرف مايلز هذه البلاد من أي أوروبي آخر، أو حتى الفترة الأخيرة كان مايلز أكثرهم معرفة بها. وعند صدور هذا الكتاب في سنة ١٩١٩م، لم يتعتبر حدثًا ذا أهمية، ومع ذلك فلم يسبق أن ظهر كتاب بنفس المستوى والأهمية عن عُمَان، أو بالقياس إليه، عن الخليج بوجه عام، منذ صدور كتاب بادجر (سلاطين عُمَان وأئمتها) الذي صدر عن دار هاكليوت سوسايتي (Hakluyt Society) في سنة ١٨٧١م. وكتاب بادجر ترجمة لكتاب آخر لا يرقى إلى مستوى كتاب مايلز. غير أنَّه على أيّة حال هناك كتاب (دليل الخليج - عُمَان وأواسط شبه الجزيرة العربية) وهو كتاب هام قام بإعداده جي. جي. لوريمر، وأصدرته حكومة الهند في مجلدين أحدهما تاريخي والآخر جغرافي، وذلك في عام ١٩٠٨م، ثم أعيد طبعه عام ١٩١٥م.

غير أن تداول هذا الكتاب الذي يعد أوسع نطاقًا من كتاب مايلز ظلَّ مقصورًا على الرسميين البريطانيين لعدة أعوام، ولم يتح للجمهور إلا في الخمسينات من هذا القرن. وخلال هذه الفترة الفاصلة لم يظهر غير كتاب واحد يمكن مقارنته بأهمية ومستوى كتاب مايلز، ونعني به كتاب (تاريخ الخليج) تأليف أرنولد ويلسون وصدر عام ١٩٢٨م، ثم أعيد طبعه عام ١٩٥٤م، وحتى يومنا هذا فقد كان هذا الكتاب أحد أربعة كتب كانت متوفرة خارج نطاق المكتبات القليلة الكبرى، أو بالنسبة للباحث السعيد الحظ في بعض المكتبات الشرقية القليلة. وعلى أيّة حال تبقى مؤلفات مايلز وبادجر ولوريمر وويلسون المؤلفات الوحيدة التي تناولت التاريخ الحديث للخليج، كما أن أصحاب هذه الكتب هم المرجع الأوروبي الوحيد في هذا المضمار، وكان كل هؤلاء يخدمون في سلك العمل السياسي والعسكري لحكومة الهند البريطانية، وجميعهم تقلد مناصب من وقت لآخر في الخليج، كما أنَّهم جميعًا قد قضوا نحبهم. ونحن لا نأمل إطلاقًا أن يظهر جيل جديد من هذا النوع من الرجال.

ولد سمويل باريت مايلز مؤلف هذا الكتاب في شهر أكتوبر من عام ١٨٣٨م، وهو نجل الميجور جنرال ويليم مايلز الذي عمل في الفرقة المشاة التاسعة في بومباي وتلقى تعليمه في جامعة هارو، وفي عام ١٨٥٧م وهو عام الثورة التي أندلعت في الهند التحق بالخدمة العسكرية التابعة لشركة الهند الشرقية برتبة ملازم في البحرية التابعة لفرقة بومباي السابعة. وخلال السنوات التسع من عمله في هذه الفرقة خدم مايلز في مناطق عديدة في الهند - أحمد أباد، وبومباي، وكولاجي، ودو - وار ويونا، ثم رقي إلى رتبة ملازم أول في سبتمبر ١٨٦٤م، وفي شهر نوفمبر ١٨٦٦م رأى مايلز لأول مرة شبه الجزيرة العربية عندما نقلت فرقته إلى عدن، ثم بعد ذلك باثنى عشر شهرًا ذاق لأول مرة طعم العمل السياسي عندما تم تعيينه نائبًا للمقيم في عدن وبقى في هذا المنصب حتى شهر مارس ١٨٦٩م عندما استدعيت الفرقة السابعة إلى بومباي، وبعد وقت قصير طلب مايلز نقله إلى السلك السياسي، وفي عام ١٨٧١م عين مايلز قنصلًا مساعدًا في مكران، ثم بعد عام من ذلك في شهر أكتوبر ١٨٧٢م نقل إلى مسقط؛ ليتقلد منصب المعتمد السياسي والقنصل البريطاني في عُمَان، كما أنعم عليه برتبة رائد في شهر مايو ١٨٧٣م.

قضى مايلز الشطر الأكبر من عمله السياسي في مسقط (عاصمة عُمَان)، وقد مدَّ إقامته فيها من سنة ١٨٧٢م حتى سنة ١٨٨٠م، أكثر من أي معتمد سياسي قبله، بل وحتى بعده، رغم أنَّه رشح أكثر من مرة للعمل في مناطق أخرى، وهكذا فابتداء من عام ١٨٧٩م حتى عام ١٨٨٠م ظلَّ مايلز يشغل منصب المعتمد السياسي بالنيابة في المناطق العربية الخاضعة للأتراك، ثم قنصلًا عامًا في بغداد من سنة ١٨٨١م حتى سنة ١٨٨٢م، ومعتمدًا سياسيًّا وقنصلًا في زنجبار، ثم معتمدًا سياسيًّا في منطقة الحدود الشمالية الغربية في سنة ١٨٨٥م، وأخيرًا مقيمًا سياسيًّا بالنيابة في الخليج في سنة ١٨٨٦م. وبعد أن أنهى مايلز جولته في عُمَان والخليج عاد إلى الهند، حيث رقي إلى رتبة زعيم في سنة ١٨٨٧م، وعين مقيمًا سياسيًّا في ميوار وبقى في هذا المنصب حتى أواخر عام ١٨٩٣م، ثم عاد إلى الإدارة العسكرية وغادرها إلى إنجلترا في إجازة أحيل بعدها على التقاعد.

وإذا كان تقيمنا لمايلز يتم على أساس هذا العمل الذي أبدعه بالرغم من الظروف القاسية التي واجهها أو من خلالها فإن هذا الكتاب (الخليج - بلدانه وقبائله) يقف

شاهدًا على ثبات مايلز، وعلى نشاطه وسعة أفقه. فقد كانت أغلبية البريطانيين العاملين في سلك الخدمة السياسية في الهند ترفض العمل في مسقط. فهي في الصيف تعتبر من أحرِّ المناطق، كما أنَّها مشهورة وحتى زمن قريب على الأقل برداءة المناخ، وقد أفتتحت أول ممثلية بريطانية في عُمَان سنة ١٨٠٠م إبان الحرب ضدَّ الثورة الفرنسية، ثم أغلقت في سنة ١٨٠٩م بعد أن أودى مناخها بحياة أربعة ممثلَين بريطانيين على التوالي. وبعد ثلاثين سنة أعيد فتح الممثلية كوكالة سياسية في أعقاب توغل القوات المصرية في منطقة الساحل الشمالي للخليج كنتيجة لاستيلاء محمد علي باشا على وسط وشرقي شبه الجزيرة. وأخذ يهدد الوجود البريطاني في الخليج. غير أن المعتمد السياسي الذي تم تعيينه هناك سرعان ما نقل إلى زنجبار، حيث كان سلطان عُمَان السيّد سعيد بن سلطان يدير شؤون السلطنة من هناك، وظلت مسقط بلا وكالة سياسية فترة اثنتى عشرة سنة أخرى، وعند انفصال زنجبار عن مسقط في عام ١٨٦١م أعيد فتح الوكالة وزود المعتمد بصلاحيات قنصلية أيضًا.

عند وصول مايلز إلى مسقط كانت عوامل تمزق السلطنة لا تزال تلوح في الأفق، فقد أغتيل سلطانها وخلفه نجله في سنة ١٨٦٦م، ثم خلع هذا السلطان بعد عامين من الحكم من جانب أحد أعضاء الفرع الثانوي من أسرة البوسعيد.

وقد زاد الطين بلة تخلخل ميزان القوى في الخليج كنتيجة للتوسع التركي في المناطق الشرقية من شبه الجزيرة – من الكويت حتى قَطر في سنة ١٨٧١م.

كانت هذه طبيعة الظروف التي واجهت مايلز في عام ١٨٧٢م، وترتب عليه أن يتعامل معها طوال الأعوام التي أعقبت وصوله. وعلى أيّة حال فقد مارس مايلز مهمنته بذكاء، ونجاح ليس في تمكين حكومة الهند البريطانية من التغلب على تلك المرحلة الصعبة في علاقاتها مع السلطنة وبدون مشقة فحسب، بل وفي الإسهام في تحقيق الاستقرار للأحوال المضطربة في عُمَان.

غير أن فضوله الفطري قد دفعه إلى التعرف على أحوال المنطقة الداخلية من عُمَان والحرص على جمع معلومات دقيقة عن تلك المنطقة وعن أهلها، وذلك لكي يتيح لحكومة الهند أن تتعامل بكياسة مع الأحداث السياسية في البلاد. كما قام مايلز برحلات استكشافية عديدة إلى داخلية عُمَان:

"عُمَان بلدٌ صحراوي؛ ولكنه جميلٌ أيضًا، رغم أن جماله هذا يكتسي طابعًا حادًا قد لا يظهر بسهولة. وتشق عُمَان سلاسل جبلية عظيمة تسمّى الحجر تبدأ من رؤوس الجبال عند مدخل الخليج في الشمال حتى أقصى الحدود الشرقية من عُمَان، أي رأس الحد الواقع على البحر العربي، وتتوسط السلسلة هذه مجموعة من القمم يبلغ ارتفاعها ١٢,٠٠٠ قدم تسمّى بالجبل الأخضر، ولعلها اكتسبت تلك التسمية من الوديان الخصبة التي تجري فوق قممها القاحلة".

إن أول أوروبيين يتوغلان داخل عُمَان ويضعان قدميهما على الجبل الأخضر هما: الفتنانت جي. آر. ويلستد (J. R.Wellsted) والفتنات هواتيلوك (F. Whitelock) من الأسطول الهندي، وقد قاما برحلة خطيرة عبر عُمَان كلها بدآها من جنوبها الشرقي حتى شمالها الغربي، وذلك في سنة (١٨٣٥-١٨٣٦م)[١]. ثم بعد عامين من تلك الرحلة جاء دور عالم النبات الفرنسي بيير مارتن أو شرالوي (Picrre Martin)، فقد وصل هذا الفرنسي إلى وادي سمائل وهو الممر الذي يشطر جبال الحجر شطرين، ومنها واصل رحلته إلى نزوى العاصمة القديمة لعُمَان على الجانب الداخلي من سلسلة الجبال، ومنها صعد إلى الجبل الأخضر.

أما الكابتن أتكنس همرتون (Capt. Atkins Hamerton) من الجيش الهندي، فهو أول أوروبي يدخل المنطقة الشمالية من عُمَان، وذلك في شهر فبراير ١٨٤٠م[٢]. وقد بدأ همرتون رحلته من الشارقة، ومنها توجه إلى واحة البريمي التي تبعد مائة ميل أو أكثر إلى الداخل، وتعد هذه الواحة المدخل الأستراتيجي إلى عُمَان، وتسيطر على مداخل البلاد من وسط شبه الجزيرة وشرقها عبر منطقة من الرمال والمنحدرات.

وكان الدافع وراء رحلة همرتون ما توارد من أنباء عن احتمال تحرك القوات المصرية المرابطة في شرقي شبه الجزيرة إلى البريمي تمهيدًا لشنِّ هجوم منها على عُمَان، كما كان هذا التخوف وراء قرار الحكومة البريطانية بإعادة فتح الوكالة السياسية في مسقط، وتعيين همرتون معتمدًا سياسيًا في أواخر سنة ١٨٤٠م. دخل همرتون إلى البريمي من الشارقة، وبعد أن قام بفحص دفاعاتها أتجه شرقًا عبر وادي الجزي.

(١) رحلات في شبه الجزيرة العربية (مجلدان) طبعة لندن ١٨٣٨م، وملاحظات عن رحلة إلى عُمَان عبر الساحل الشرقي لشبه الجزيرة (من منشورات جمعية بومباي الجغرافية).

(٢) انطباعات رحلات في أقطار المشرق عام ١٨٣٨م (مجلدان) طبعة باريس ١٨٤٣م.

وفي نهاية عام ١٨٤٥م توجه اللفتنانت سي. إس. دي كول من الأسطول الهندي وقائد سفينة المسح باليني‌روس (Palinurus) المكلفة بمسح الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة إلى وسط عُمَان الداخلية مرورًا بالأشخرة على ساحل جعلان، وسلك نفس الطريق الذي سلكه ويلستد عبر وادي البطحاء إلى بدية، ومنها إلى نزوى، ومن نزوى قام بزيارة قصيرة للجبل الأخضر، ثم عاد إلى مسقط عبر وادي سمائل[١].

وعلى امتداد عشرة أعوام من ١٨٣٢م إلى ١٨٤٥م قام خمسة من الأوروبيين باكتشاف المناطق الداخلية من عُمَان، ثم انقضت ثلاثون عامًا قبل أن يقوم أوروبي آخر هو مايلز (مؤلف الكتاب) بوضع قدميه في المنطقة الداخلية من عُمَان وباستثناء رحلات مايلز إلى قلهات على الساحل الشرقي لعُمَان في سنة ١٨٧٤م، ثم رحلته إلى الأشخرة على الساحل الجنوبي، حيث قاتلت فرقته العسكرية في (١٨٢٠-١٨٢١م)، تعتبر رحلته إلى واحة البريمي في سنة ١٨٧٥م أول رحلة له إلى هذه المنطقة. وفي هذه الرحلة سلك مايلز نفس الطريق التي سلكها همرتون في عام ١٨٤٠م، ونعني بها طريق صحار ومنها إلى الظاهرة عن طريق وادي الجزي. والظاهرة: هي المنطقة الواقعة في الجزء الداخلي من سلسلة جبال الحجر. وقبل ستة أعوام تقريبًا من زيارة مايلز للحامية في البريمي كان الوهابيون قد انسحبوا منها للمرة الخامسة خلال خمسين عامًا.

وعند وصول مايلز إلى البريمي وجدها هادئةً نسبيًّا بالرغم من أن أهميتها الجغرافية والأستراتيجية كانت توحي بأنَّها قد تكون ميدانًا للصراع من وقت إلى آخر.

وابتداء من سنة ١٨٧٥م قطع مايلز مئات الأميال متنقلًا في أرجاء عُمَان من ساحل الباطنة حتى الجبل الأخضر حتى ظَفَار في أقصى الأقاليم العُمَانية. ولمّا كانت تنقلات مايلز في هذه المنطقة لا تصل إلى مستوى وجرأة رحلات ويلستد وهواتيلوك قبل أربعين سنة، إلا أنَّ المعلومات التي خرج بها مايلز كانت تفوق في قيمتها رحلات هواتيلوك وويلستد. فلقد كان مايلز دقيق الملاحظة وأستاذًا كلاسيكيًّا بارعًا ومستشرقًا ودارسًا متحمسًا للتاريخ القديم، وقد تجلت مواهبة هذه وبصورة إيجابية في المعلومات التي جمعها من الوثائق التي قدمها إلى الجمعيات

(١) للاطلاع على تقرير همرتون راجع مقتطفات من سجلات حكومة بومباي.

العلمية أثناء حياته[1]، وكان مايلز يركز اهتمامه على التنقيب في تاريخ عُمَان الوسيط ومطلع العصر الحديث، فقام بأعمال بحث واسعة سواء أثناء عمله كمعتمد سياسي في مسقط، أو بنوع أخص بعد إحالته إلى التقاعد في مؤلفاته الكُتَّاب الأوروبيين والشرقيين عن هذه البلاد.

ولعل الذي حفز مايلز إلى تأليف كتابه هو عدم اقتناعه بكتاب جي. بي. بادجر. وكان بادجر قد ترجم كتابًا تاريخيًّا ألفه أحد العُمَانيين، ويدعى حميد بن محمد بن رزيق الملقب بابن رزيق وكتب له مقدمة. ويحكي هذا الكتاب تاريخ عُمَان منذ نشوء المستوطنات الأولى حتى وفاة السيّد سعيد الكبير في سنة ١٨٥٦م، وقد حصل بادجر على مخطوط الكتاب في سنة ١٨٦٠م كهدية من السيّد ثويني نجل وخليفة السيّد سعيد أثناء وجود بادجر في السلطنة كعضو في لجنة تقصي الحقائق التي شكلها اللورد كاننج نائب الملك في الهند؛ لتسوية الخلاف الذي نشأ بين نجلي السيّد سعيد حول خلافة الحكم بعد وفاته. وكان مايلز قد أطلع على مخطوطة تاريخية أخرى بعنوان (كشف الغمة) ألفها الشيخ سرحان بن سعيد من سكان إزكي في عُمَان في حوالي سنة ١٧٢٨م. وقد لاحظ التشابه الغريب بين المخطوطين الكولونيل أي. سي. روس (السير أدوارد روسي فيما بعد) الذي شغل منصب المعتمد السياسي في مسقط في بداية السبعينات من القرن التاسع عشر، ثم عين مقيمًا سياسيًّا لبريطانيا في الخليج (كرئيس لمايلز)، وفي سنة ١٨٧٠م نشر روس ترجمة لكتاب (كشف الغمة) في مجلة الجمعية الآسيوية لأقليم البنغال (مجلد ١٤) ذيلها بهذا التعليق: (لقد توصلت إلى نتيجة هامة، وهي أن ابن رزيق قد نقل نقلًا حرفيًّا مادة الأجزاء الأولى من كتابه من كتاب (كشف الغمة)، وعلى أيّة حال وكما يحدث أحيانًا كان المؤلف يخرج عن النص، كما أن مسار الأحداث في كتاب ابن رزيق يطغى عليه الأرتباك، وأن كثيرًا من الملاحظات التي لم ترد في النص الأول أوردها هو.

وقد جاء مايلز فأيد رأى روس. وعندما تطرق مايلز إلى تاريخ عُمَان حتى القرن الثامن عشر (وهذا يشكل الجزء الأكبر من كتابه) أدرج فيه كثيرًا من المعلومات الواردة

---

(١) ملخص لأربع كتب عربية تتناول تاريخ وجغرافية شبه الجزيرة (مجلة الجمعية الآسيوية الملكية، مجلد ٦، سنة ١٨٧٣م)؛ في الطريق بين صحار والبريمي في عُمَان (مجلة جمعية البنغال الآسيوية) (١٨٧٧م)، ملاحظات بليني عن الساحل الشرقي لشبه الجزيرة (١٨٧٨م)؛ مذكرات رحلة في عُمَان، المجلة الجغرافية، مجلد ٧، (١٨٧٨م)؛ الجبل الأخضر في عُمَان، المجلة الجغرافية، المجلد ١٨، (١٩٠١م).

في (كشف الغمة). وعلى أيّة حال فلا يصح أن نستنتج من ذلك أن مايلز أو روس كانا أكثر تضلعًا بالتاريخ العربي من بادجر، أو أن بادجر لم يحالفه الصواب لاعتماده اعتمادًا كلّيًّا على مخطوطة ابن رزيق، وإنما على العكس من ذلك تعد ترجمة بادجر للكتاب ذات أهمية كبيرة لا تقل عن تعليقاته وتذييلاته على الترجمة. وقد استعان مايلز بكل هذه المعلومات في تناوله لتاريخ أسرة البوسعيد في الفصل الخامس من الكتاب.

بقية الفصول تناولت وصف التركيبات القبلية والجغرافية لعُمَان وبدرجة أقل تفاصيل رحلات مايلز نفسه. وعلى الرغم من أن المعلومات التي يضمها الكتاب على جانب كبير من الأهمية بالنسبة إلى مضمون الكتاب ومستواه، إلا أنَّها لا تسجل لمايلز نجاحًا كاملًا في هذا الميدان. فمعظم معلومات الكتاب، وبالأخص فيما يتعلق بأسرة البوسعيد، سبق لمايلز أن قدمها في صورة تقارير دَورية إلى حكومة الهند، وهي التقارير[1] التي كانت كل من الوكالة البريطانية في مسقط والممثلية البريطانية في الخليج تزود بها حكومة الهند، وهي تضم معلومات أكثر تفصيلًا مما جاء في الكتاب.

كما أن تقارير مايلز التي كان يبعث بها من مسقط في السبعينات من القرن التاسع عشر تضم جانبًا كبيرًا من المعلومات الدقيقة مما كان حريًّا بمايلز أن يدرجها في هذه الدراسة؛ ولكن القول بهذا هو من قبيل طلب الكمال. والكتب التي عن عُمَان أو الخليج قليلة جدًّا؛ ولكن هذا الكتاب من أحسنها.

بيد أن لكل عمل عيوبه، فإنه كلًّا من عنوان الكتاب وبعض عناوين الفصول تكاد تشي بذلك الثوب الفضفاض الذي أسدله المؤلف على كتابه وتجاوز به المضمون الفعلي للكتاب، غير أن التلاعب بالمعلومات كان سيؤدي بالمؤلف إلى تحويل الكتاب عن الهدف المنشود.

أما مايلز فقد كان يفضل طبعًا لو خرج كتابه في صورة أفضل مما هي عليه، غير

(١) (راجع تقرير عن موارد وتجارة عُمَان) (التقرير الإداري ١٨٦٧ - ١٨٧٧م)؛ ملاحظات عن قبائل عُمَان - التقرير الإداري ١٨٨٠- ١٨٨١م؛ (نبذة عن حياة السيّد سعيد بن سلطان) - التقرير الإداري ١٨٨٣- ١٨٨٤م؛ (البرتغاليون في شبه الجزيرة) التقرير الإداري ١٨٨٤- ١٨٨٥م؛ (ملاحظات عن رحلة عبر عُمَان والظاهرة التقرير الإداري ١٨٨٥- ١٨٨٦م (نبذة عن حياة السيّد سلطان بن الإمام أحمد) القرير الإداري ١٨٨٧- ١٨٨٨م.

أنَّه في السنوات الأخيرة من حياته أستحال عليه العمل بعد أن تدهورت صحته وأصيب بالعمى، وتوفي في ٢٨أغسطس ١٩١٤م، ثم بعد ثلاث سنوات من وفاته أي في ١٩يوليو ١٩١٧م لقى ابنه الماجور مايلز مصرعه وهو على متن الطراد فانجارد (Vangnard)، وقد طبع هذا الكتاب بعد الحرب العالمية بطلب من أرملته التي حرصت على أن يكون هناك إنجازًا تذكاريًا لزوجها الراحل، وأنَّه لجميل أن تكون أرملته قد فعلت ذلك، وأن كتابه قد ظهر إلى حيز الوجود.

* * *

# الفصل الأول

# الاستيطان في شبه الجزيرة العربية

من الطبيعي أن يقترن تاريخ السكان الأوائل الذين استوطنوا عُمَان أقترانًا وثيقًا بتاريخ بقية سكان شبه الجزيرة العربية، غير أن معلوماتنا عن هذا الموضوع يكتنفها كثير من الغموض نظرًا لقلة المعلومات التاريخية عنه. والمعلومة الوحيدة التي يعتد بها عن أولئك السكان. إذا استثنينا (سفر التكوين)، هي مجموعة الوثائق والآثار المصرية والعراقية، التي تلقي بعض الضوء على هذا التاريخ، وعلى أي حال فإنَّ موضوع أصل أولئك السكان الأوائل ليست في حدِّ ذاتها مثيرة للاهتمام بقدر ما يثيره دورهم في مجال تطوير الحضارة وإثرائها، من خلال ربط الشرق والغرب بعلاقات تجارية، وهو الدور الذي ساهم فيه العُمَانيون بالقسط الوافر.

ومن الواضح أن أول الشعوب التي انتشرت واستقرت في أرض شبه الجزيرة العربية، هم الكوشيون، الذين ذكرهم الانجيل؛ ولكن المعلومات عن أصل هذا الشعب تفتقر إلى التأكيد، وإن كان من المعتقد أنَّهم مصريون؛ ونتيجة لذلك فإنه لا بُدَّ من الاعتماد على التكهن والتخمين في تحديد الحقبة أو الفترة التاريخية التي عاش فيها هؤلاء القوم، ورغم ذلك فإننا لا نستطيع أن نقلل من النتائج الهامة التي تمخضت عن استيطانهم في المنطقة، وبالتالي فإن الفضل في تلك المغامرات الشجاعة التي قام بها أولئك الأقوام لا في مجال إدخال تجارة القوافل وحسب، بل وفي المحاولات الأولية للملاحة والتجارة البحرية في البحر العربي إنما يعود إليهم، وسوف نعود في الفصول القادمة من الكتاب إلى مناقشة تلك الآراء التي تؤيد الرأي القائل بأن الفضل في المحاولات الملاحية يعود إلى الكوشيين.

وعلى الرغم من أن الأجناس الحامية التي انتشرت في الانحاء الشرقية والجنوبية من شبه الجزيرة العربية وأقامت أكثرية المستوطنات على امتداد سواحلها ليست هي الجنس الوحيد الذي استوطن ذلك الجزء من العالم في تلك الحقبة المبكرة من التاريخ، وإنما كان هناك الفينيقيون، وقد جاءوا كما يقول هيرودتس إلى فلسطين من الخليج، وإنَّهم على ما يبدو قد عاشوا فترة من الزمن في عُمَان خلال هجراتهم الأولى إلى المنطقة.

وعلى سبيل المثال يوجد على ساحل البحر الأبيض المتوسط ميناء يسمى صور، على اسم ميناء صور الساحلي، الذي يقع على الساحل العُمَاني قريبًا من رأس الحد. وأما بلدة صور نفسها، التي يُسمَّى أحد أجزائها بالعيجة، فإنها تقع على

بروز صخري أمام مدخل لخليج متعرج وتعتبر أصلح المرافئ وأكثرها أمانًا واستيعابًا للمراكب المحلية.

وعلى الرغم مما حققه سكان عُمَان من الأحباش من مشروعات تجارية، إلا أنَّهم أخذوا يضمحلون تدريجيًّا عبر العصور، ثم أنَّهم في النهاية استهدفوا لغزو عارم من الساميين الذين وفدوا من شبه الجزيرة، وتمكنوا من طرد الأحباش وامتصاص بعضهم، وهذه الموجة المبكرة من القبائل السامية كما يقول المؤرخون العرب نقلًا عن كتاب (كوسين دي برسفال) يعرفون بالعرب البائدة أو العاربة، غير أنَّهم انقرضوا فيما بعد.

وهذه القبائل التي تبعثرت، ثم استوطنت شبه الجزيرة العربية تنحدر من سلالتين، وقد تفرغت من الجيلين الرابع والخامس من جدِّهم سام، فكان أحد الفرعين فرع: قحطان بن عابر الذي استوطن اليمن، أو النصف الجنوبي من شبه جزيرة العرب، والثاني: هو عدنان الذي ينحدر من إسماعيل، واستوطن النصف الشمالي من شبه الجزيرة، وقد بقيت ذرية الأخير حتى يومنا هذا. ومن هذين الفرعين للجدين قحطان وعدنان ينتمي الجنس الذي يستوطن أرض شبه الجزيرة العربية.

وفي الفصل العاشر من (سفر التكوين) نقرأ أن قحطان قد ترك ثلاثة عشر ولدًا، اسوطنوا سلسلة الجبال الواقعة في الشرق. ولعل الصلة بين لفظتي جوكتان وقحطان، التي هي عربية الأصل تقطع جميع الدلة بصحتها، وبالتالي فإن السلالة من ثلاثة عشر فرعًا أو قبيلةً هي التي استمرت في استيطان النصف الجنوبي من شبه الجزيرة العربية بصفة مستمرة.

ولقد حفلت الكتب التاريخية بمعلومات وفيرة عن توزيع تلك القبائل غير أن النزر اليسير من تلك المعلومات هو الذي أمكن تتبعه بشكل أكيد، وهناك شبه تأكيد عن ثلاثة من تلك الفروع القبلية، ونعني بها الحضارمة، وجذام وشيبان، أما مرَّة وحضارم فربما تعني يعرب وجرهم، أما فرع همدان فقد تكون الخولان، وهي التي تقطن منطقة معروفة جدًّا في اليمن.

أما اسم عوبال أو وبال الذي يرمز إلى إحدى القبائل القديمة فلا يزال على ما يبدو قائمًا في عُمَان، بينما توجد أيضًا قرية بهذا الاسم في وادي بني رواحة بعُمَان، وقد أطلق علماء السلالات العرب أسماء مختلفة على أبناء قحطان، كما أنَّهم يختلفون

عن بعضهم البعض في تحديد تلك الأسماء، وقد نكتفي بسرد بعضها، وفقًا لرأي المؤلف كريمر، وعددها ستة عشر اسمًا هي يعرب، وقحطان، أنمار، معد، لؤي، ومينا، وجرهم، وسلمة، وغوث، وظافر. غير أنَّه لا بُدَّ لنا من العودة إلى المؤرخين العرب للتأكد من الآراء الأصح في هذا الشأن، ففيما يختص بالإنسان والسلالات، فلقد بذل المؤرخون العرب جهودًا مُضنيةً للوصول إلى معلومات دقيقة عن تلك الأنساب والسلالات منذ أقدم عصورها، ومن ثم فليس من المستغرب أن يكون المؤرخون العرب قد تفوقوا على غيرهم من المؤرخين في هذا المضمار، كما أننا إذا وضعنا في الاعتبار ما يمكن أن يكتنف هذا العمل من صعوبات، فإننا لا نستغرب أن تتضمن تلك المعلومات الكثير من الأخطاء والتناقضات، غير أنَّها بوجه عام تعد عملًا موثوقًا به ومقبولًا عند النّاس، على الرغم من أن تاريخ تلك الفترة لم يُدوّن أو يوثق من جانب المؤرخين العرب إلا بعد وفاة الرسول محمد ﷺ.

إن أقدم الجماعات التي استوطنت شبه الجزيرة العربية، كما يقول علماء السلالات: هم الذين يسمون بالعاربة أو القبائل المنقرضة، وقد سرد المؤرخون عددًا كبيرًا من هذه القبائل وأفاضوا في التحدث عن مغامراتهم وهجراتهم وأسباب انقراضهم، ولعل أعظم تلك القبائل شهرة هما قبيلتا عاد وثمود، التي تقول عنهما الروايات: أنَّهم قوم ضخام الأجسام، ثم طسم وجديس شقيقتا ثمود وعاد، بالإضافة إلى قبائل أخرى تنسل منها قبائل متولدة ولها وجود في عُمَان.

أما القبائل التي أنحدرت من طسم وجديس اللذين نزحا إلى عُمَان واستطونا على ما يبدو منطقة الجو وتوءام، ثم أطلقوا على هاتين المنطقتين أسماء المناطق التي نزحوا منها في موطنهم الأصلي - اليمامة.

ويذكر وستنفيلد (Westenfield) أن صحار هو اسم أحد أبناء نوح عليه السلام، وقد أحتلت قبيلة صحار منطقة الباطنة في عُمَان وأطلقت هذا الاسم على نفسها، كما أن قبيلة جشم هي من سلالة اللمكات ويقال: بأنَّها استوطنت عُمَان أيضًا، حيث لا يزال أحفاد هذه القبيلة يعيشون في عُمَان حتى اليوم؛ ولكن بأسماء أخرى، أما ثمود فقد كانوا آخر العنقود من قبائل العاربة إذ أنَّهم عاشوا حتى عهد السيّد المسيح، على حدِّ رأي كل من سترابو وديود وريس وغيرهم من المؤرخين القدماء.

ومن بين القبائل التي استوطنت عُمَان قديمًا، ثم انقرضت بعض القبائل الهامة التي ساهمت في عمليات الاستيطان، والتي تفرع أحفادها الذين ينتمون إلى أصول مشتركة وإلى تسقيمات قبلية أخرى بأسماء جديدة. وقد يكون من المناسب أن نشير إلى بعض تلك القبائل التي ذاع صيتها في وقت من الأوقات؛ ولكن تاريخها ظلَّ يكتنفه الغموض.

إن الأزد الذين يشكلون جانبًا كبيرًا من سكان عُمَان المعاصرين أصلهم مجهول، فالبعض يرجعه إلى الجد قحطان، والبعض يرجعه إلى الغوث بن نبت بن مالك، وقد انقسمت هذه القبائل إلى ثلاثة فروع:

١- أزد شنوءة

٢- أزد السراة

٣- أزد عُمَان

ثم تفرعوا فيما بعد إلى تسعة فروع أخرى هي: غسان، الأوس والخزرج، وابن حضرم، وبريك، ودوس، وعتيق، ويافع، وبني الجلندى، ثم من هؤلاء أيضًا تفرع عددٌ من القبائل اتخذت لنفسها ألقابًا أخرى، كما أن قبيلة مازن التي استمدت منها شبه الجزيرة العربية اسم مزون لبضعة قرون، كانت من القبائل المشهورة في مزاولة الملاحة وارتياد البحار، وهي تنحدر من مازن بن أزد، ويرى سبرنجر أن الملاح العربي الذي اكتشف رأس مسندم أثناء الرحلة ينتمي إلى تلك القبيلة، وفي القاموس، أن قبيلة مازن هي من جنوب الجزيرة العربية، وأن أفرادها من الأزد، ثم انضموا بعد ذلك بزمن طويل إلى الغساسنة، وكان المازنيون يؤلفون أربعة تقسيمات قبلية ويبدو أنَّهم استقروا في الشمال أو رأس مسندم، ثم حلَّ محلَّهم هناك فيما بعد الشحوح، وهي إحدى القبائل الصغيرة.

وتعتبر قبيلة القمر إحدى القبائل التي استوطنت جنوب شبه الجزيرة منذ عهود بعيدة، وأنَّها أطلقت اسمها هذا على خور القمر، وبنو ريام سكان الجبل الأخضر في عُمَان، وكذلك قبيلة بني جديد، وغيرها من القبائل تنتمي إلى قبيلة القمر، أما بني قدعة فقد كانت من القبائل الهامة، وتمتد مواطنها على طول الساحل الجنوبي من شبه الجزيرة العربية من اليمن حتى الخليج، وقد أفرزت هذه القبيلة عددًا من الفروع، ويعتقد بعض علماء السلالات أن هذه القبيلة تعود في أصلها إلى مالك بن حمزة،

غير أنَّه من الجائز أن تكون هذه القبيلة من القبائل القديمة جدًّا، وأنَّه من المحتمل أن تكون هناك مدافن لهذه القبيلة في منطقة الشحر، وقد سَمَّى البطالسة هذه القبيلة (باسم القصابين)، ولا تزال توجد فروع لهذه القبيلة في عُمَان إلى اليوم.

وهناك أسماء كثيرة أخرى لقبائل هامة ذات حول وطول، تُحدثنا عنها الروايات، وأنَّ بعضها قد ترك بصماته في المناطق التي أقاموا فيها كأسماء الأودية والمدن والقرى، وكان من عادة العُمَانيين أن يطلقوا أسماءهم وألقابهم على المدن والمناطق والقرى التي يستوطنونها.

ومن بين تلك القبائل أيضًا قبيلة العق، وكانت قبيلة مشهورة، وإن كان أصلها مجهولًا، وقد استوطن أفرادها اليمن، وشاركهم الأزد في ذلك بعد انهيار سدِّ مأرب، ويوجد في عُمَان وادي باسم هذه القبيلة يقع على بعد نحو خمسين ميلًا فقط عن العاصمة، مسقط.

وقبيلة البهلاني: وهي قبيلة قديمة مجهولة الأصل، وهذه القبيلة هي التي أسست البلدة التي تعرف باسمها وتقع في قلب عُمَان.

وقبيلة دبا: وهي قبيلة من نجد، ولعلها نفس القبيلة التي أنشأت البلدة التي تسمّى باسمها، وتقع في منطقة رأس مسندم، وهي المنطقة التي نشبت فيها إحدى المعارك الفاصلة في العام الحادي عشر بعد الهجرة (٦٣٢م).

وقبيلة جعلان: وهي قبيلة تنحدر من عبد القيس، الذي كان من علماء اللاهوت القدماء في البلاد العربية، وقد استوطنت قبيلة جعلان المنطقة المعروفة الآن باسمها، والواقعة في الشرقية.

ويُحدثنا (كوسين دي برسفال) في بحث له، بأنَّ يعرب الذي ينتسب إلى قحطان قد استطاع أن يفرض سلطانه المطلق على قبيلته في كافة جنوب شبه الجزيرة. وذلك بعد انهيار حكم الأزد، واستطاع أن يركز نفوذه عن طريق تعيين شقيقه جرهم حاكمًا على الحجاز وشقيقيه الآخرين على المناطق التي تسمّى باسميهما، ويقرر هذا المؤرخ بأن هذه الواقعة التي تمت في عام (٧٥٤ق. م) ذات دلالة خاصة. إذ أنَّها توافق قيام وتأسيس مملكة روما، وإذا سلمنا بهذا الرأي، فإن ذلك يعني أن قبيلة عُمَان قد نزحت إلى شرقي شبه الجزيرة في نفس ذلك العام، وعلى كل فإن تحديد عام (٧٩٤ ق.م) كتاريخ لميلاد يعرب من قبل المؤلف، والذي يعتبره المؤلف

شقيقًا لحضرموت الابن الثالث لقحطان، أو أنَّه في الفترة الواقعة قبل الميلاد بألفي عام. ومن ناحية أخرى فلو سلمنا بأن عُمَان هو شقيق حضرموت فإن عدم ورود اسمه بين أسماء أبناء قحطان في الفصل العاشر من (سفر التكوين) يعتبر أمرًا غريبًا. وعلى أيّة حال فأيًا كانت الفترة التي عاش فيها يعرب فمن المحتمل أذن أن تكون هجرة العُمَانيين قد تمت على نطاق واسع، بحيث أنَّهم عند وصولهم إلى تلك البلاد استطاعوا فرض سيطرتهم على المناطق الرئيسية، بل والمناطق الإنتاجية، التي تعرف حتى الآن بعُمَان الأم، ومع مرور الزمن اتسع هذا الاسم حتى أصبح يطلق على الأراضي العُمَانية كلها، وذلك على غرار ما حدث بالنسبة لإقليم فارس الذي أصبح اسمه يطلق على المملكة الفارسية كلها.

كان خليفة يعرب في اليمن هو يشجب، وكان أميرًا ضعيفًا، مما مكن معظم الأقاليم من أن تستقل بنفهسا في عهده، وبعد وفاته انتقل الحكم إلى نجله عبد شمس، الذي اقترن عهده بكثير من الإنجازات الهامة، فقد قام هذا الحاكم بغزو مصر، وأتم بناء سد مأرب المشهور، ونجح في إخضاع كافة المناطق التي تمردت على ابيه. وهذه الحقيقة تقودنا إلى الاعتقاد بأنَّ تكون المناطق الشرقية من شبه الجزيرة، شأنها شأن غيرها من المناطق، قد عادت لتخضع لسلطانه، غير أنَّه لا توجد أدلة تقطع بهذا الاعتقاد.

وقد ترك عبد شمس عددًا كبيرًا من الأبناء، برز منهم اثنان، هما كهلان، وحمير، وفي رأي البعض أن كهلان هو الذي خلف أباه على الحكم، ثم تلاه شقيقه حمير، الذي أطلق عليه اسم حمير؛ بسبب أنَّه كان يرتدي دائمًا ثوبًا أحمر اللون. وقد دانت لهذا الحاكم منطقة جنوب الجزيرة بأسرها من اليمن حتى عُمَان، وأسس أسرتين حاكمتين من الحميريين تمكنتا من فرض سيطرة شاملة على اليمن، حتى ظهور سيدنا محمد ﷺ.

ويبدو لنا أن حمير قد نصب ابنه مالكًا حاكمًا على عُمَان، وذلك أثناء حياته، غير أن حكمه تداعى بعد وفاة حمير، مما سمح لمالك أن يستقل بحكم عُمَان على غرار ما فعل غيره من حكام الأقاليم، غير أن اثنين من أشقائه أحدهما وائل حاولا اغتصاب الحكم منه؛ ولكن التوفيق لم يحالفهما، واستطاع مالك الاحتفاظ بالحكم وتوريثه لابنه الذي لم يُعرف اسمه. ويبدو أن نجل مالك استهدف لهجوم ناجح من

جانب نجل وائل، وتم له الحكم في عُمَان، وخلال حكم حفيد وائل نشبت ثورة ضدّه، واستمرت الحرب بينه وبين أنجال مالك زمنًا طويلًا. وخلال فترة نورمان نجل ياسر حفيد وائل الذي ولد بعد وفاة أبيه تقلد وصاية الحكم ذو الريش. غير أن هذا الرأي لا يتفق مع رأي بقية المؤرخين، الذين يذكرون، أن وائلًا هو الذي ظلَّ يحكم عُمَان سنوات طويلة.

وعلى أيّة حال فإن حكم أسرة حمير الأولى لعُمَان لا يمكن أن تكون قد استمرت طويلًا؛ نظرًا لأنَّها مثل بقية بلاد اليمن الأخرى، وربما خضعت خلال نصف القرن الساس قبل الميلاد لجحافل سيروس ملك الفُرس الذي كان في تلك الفترة يسعى إلى توسيع رقعة الأمبراطورية الفارسية.

أما إلى أي مدى وإلى أيّة حدود امتد حكم الفُرس لعُمَان، فإن هذا الأمر لم يتأكد؛ لأنَّ تاريخ عُمَان القديم في تلك الفترة يشوبه الغموض؛ ولكنه من المحتمل أن سيطرة ذلك الملك على عُمَان كانت اسمية، واقتصرت على استيفاء الزكاة، بينما احتفظ حكامها العرب من الوجهة الواقعية بالحكم.

وفي مؤلف أسيدور ورد اسم ملك يدعى ذو الجوشن، وكان يعيش في الشحر ويحكم منها عُمَان، أما المؤرخ بلوه فيقول: إن ذلك الملك هو ذو الجوشن بن أكران ابن علي بن مالك الذي أشار إليه حمزة الأصفهاني، ويضيف بلوه: أن ذا الجوشن كان يحكم عُمَان في عهد الملك دارا بن دارا بن بهمان، وقد دام حكمه سبعين عامًا، وأنَّه خاض حروبًا ضدَّ طسم وجديس، وأنَّ خليفته عاش حتى عهد حضر بن كنانه، وكان ذو الجوشن ينتسب إلى عائلة ملكية من حمير، ويعود سبب وجوده في عُمَان إلى أحد أسلافه وهو كهلان بن يعرب بن زهير بن عجم، وكان أول من أخضع عُمَان، وقد تربع كهلان على عرش عُمَان، وكان مستشاره مازن بن أزد، الذي كان سيِّد عُمَان، وكان بيان العرش كما يلي:

"هذا بيان من مالك إلى جميع الذين يستوطنون بلاد العجم والعرب والشحر...".

وهذا المقطع من البيان يعتبر هامًا، ويؤكد بالضرورة الحاجة إلى الكشف عن أسرار التاريخ العُمَاني، وربما تكمن في هذه العبارة تلك الأسطورة التي أماط عنها اللثام المؤرخون الفُرس، والتي تذكر بأنَّ كاي قادوش ملك الفُرس بعد أن تم له إخضاع عُمَان لسلطانه قام بعقد معاهدة سلام مع الحاكم العربي، اشترط فيها بأن

يوافق الأخير على تزويجه من كريمته، التي كانت تمتاز بجمال لا نظير له، وقصة هذا الحاكم، الذي يكنى بذي الصاري وبذي الزند، قد أشار إليها المؤرخ فرخوند في كتابه (روضة الصفا)، كذلك فإن ما قام به الزوجان سبريا والأمير سياواش نجل الملك كاي قادوش من مغامرات قد تحدث عنها الفردوسي في الشاهنامة في عبارات رومانتيكية.

وكانت المرة الأولى التي يشاهد فيها الأوروبيون بلاد عُمَان هي في عهد الإسكندر الأكبر، فقد اكتشف نياركوس قائد أسطول الإسكندر رأس مسندم، عندما كان يعبر الخليج، وعرف أشياء كثيرة عن الأسواق العُمَانية الهامة، وكان ميناء صحار هو مركز تلك الأسواق، وقد احتفظ بأهميته التجارية منذ عهد الرسول الكريم ﷺ، وبناء على تلك المعلومات قبل الإسكندر إيفاد بعثة؛ لتطوف بسواحل شبه الجزيرة وبحارها، غير أن وفاة الإسكندر المبكرة في بابل وضعت نهاية لتلك الأحلام، ولم تسلط أيّة أضواء على المنطقة قبل انقضاء قرن من الزمان تقريبًا.

كان الحارث أول ملك في الأسرة الحميرية الثانية، وهو ينحدر من أسرة حمير من خلال وائل بن غوث، وكان من الفاتحين المشهورين، ويقال: أنَّه غزا الهند، وخضعت له كل الأقاليم الجنوبية من شبه الجزيرة العربية، وكان يلقب (بالتبع)، وقد انتقل المُلك بعد ذلك إلى خلفائه من بعده وإن كان قد انحصر بنوع أخص في أولئك الحكام الذين خضعت لهم حضرموت والشحر وعُمَان، بالإضافة إلى اليمن، وقد لقب بالريس؛ بسبب الغنائم التي عاد بها من الأقطار الخارجية، وقد ذكر ذلك دي برسفال في كتابه الذي سبق الإشارة إليه، وهو يتفق مع رأي الثعالبي، في أن الحارث عاش قبل ٧٠٠ عام قبل المسيح و ١٠٠ عام قبل ظهور الرسول، ومن المحتمل أن تكون قد خضعت له عُمَان بعض الوقت، إلا أنَّها وقعت بعد ذلك تحت سيطرة البارثيين (أي الفُرس)، ومن الجائز أن يكون الجزء الشرقي من شبه الجزيرة الذي وقع تحت سيطرة البارثيين قد تم في عهد مليكهم ميثر أدبتيس، وهو الذي أسس تلك الأمبراطورية، وحكم منذ عام (١٧٤-١٣٦ق.م)، وبسط سيطرته على منطقة واسعة، شملت فارس وبابل وسوزيانا.

ولما كانت عُمَان في ذلك الوقت تعدُّ من ضمن المناطق التابعة لفارس، فقد أصبح مصيرها بالضرورة كمصير تلك البلاد، واستمر هذا الوضع في عُمَان تحت حكم الأزد.

والآن نصل إلى مرحلة من هذا التاريخ تشتمل على فيض من المعلومات عن الأوضاع العامّة في شبه الجزيرة العربية، وذلك من واقع النشاطات الفكرية والتجارية للإغريق الذين بعد أن استولوا على الإسكندرية، وفرضوا سيطرتهم على مصر، وشرعوا فورًا في عمليات تجارية في المشرق، ومن سوء الحظ، أنَّه على الرغم من توافر مراجع قيمة حول هذا الموضوع ككتاب (بريبلس) و(جغرافية البطليموس)، فإن الجانب الأهم من مؤلفات الإغريقيين عن شبه الجزيرة العربية قد ضاع واندثر. وربما كان أول مؤلف إغريقي يتطرق إلى تاريخ العرب هو أسشيلوس، إلا أنَّ أول إغريقي قام بوضع وصفه لشبه الجزيرة العربية هو العالم الفلكي أراتوتبتنس، الذي وضع مؤلفًا جغرافيًا عندما كان شغل وظيفة أمين مكتبة الإسكندرية، والذي توفي فيها عام ١٩٦ق.م. وبما أن هذا العالم قد توفرت له مصادر واسعة من المعلومات فإنَّ كتابه لا بُدَّ وأن يضيف كثيرًا من المعلومات عن تاريخ اليمن، وإن كان من المرجح أن الكتاب لم يتضمن شيئًا عن المنطقة الشرقية من شبه الجزيرة، إذ أنَّه من بين القبائل الأربع الكبرى التي ذكرها في كتابه لم يمتد سوى نفوذ قبيلة واحدة إلى عُمَان، وهي قبيلة قديمة.

وقد نعثر على معلومات أوفى وأدق عن بلاد العرب وتاريخهم في مؤلف آجارتا سيدس، الذي عاش في مصر، وأخرج في عام ١٢٠ق.م كتابًا من خمس مجلدات، تحدث فيه عن البحر الأحمر والمنطقة الشرقية من شبه الجزيرة العربية. وإذا استثنينا بضع شذرات مما كتبه عن العرب، فإنَّ معظمه قد ضاع، شأنه شأن أعمال أبراتوسيثينيس، وعلى أيّة حال فقد عرفنا من كتابات الأول أن العرب قد وصلوا إلى شواطئ الهند.

ولقد صاحب التوسع في نشاط مصر التجاري توفر المزيد من المعلومات والحقائق عن جزيرة العرب، بما يسمح لنا أن نقطع بصحة البحوث التي كتبها بيليني عن عُمَان، وإن كان بحثه لم يتضمن إلا القليل من المعلومات عن الأجزاء الداخلية من عُمَان، كما أن بيليني لم يتعرض إلى تاريخ هذه البلاد إطلاقًا. ويمكننا أن نعتبر كتاب بري بيلس عن البحر الإريتري، والذي ألفه عام (٨٠م) من المراجع الدقيقة عن تلك المنطقة التي تمتد حتى رأس فرتك، إلا أنَّ المؤلف على ما يبدو لم يذكر شيئًا عن عُمَان، ولم يذكر أي ميناء بين مسقط والخليج، كما أن أفكاره عن عُمَان غائمة ومضطربة،

والشيء الوحيد الذي يمكننا استخلاصه من كتاب المؤلف، هو أن عُمَان كانت في تلك الفترة يحكمها البارثيون[1].

ورغم أهمية مؤلف بطليموس وضخامته فإنَّه لا يعطينا معلومات وافية تقودنا إلى التوصل إلى تاريخ عُمَان القديم، وعلى الرغم من أنَّه ذكر أسماء قرى ومناطق وقبائل عديدة في شرقي شبه الجزيرة العربية إلا أنَّ تلك المناطق والقبائل، حتى ولو سلمنا بوجودها في وقت من الأوقات قد اختفت من الوجود. وقد سمَّى هذا المؤلف رأس مسندم (أسابون برومتوريم) ويبدو أن هذه التسمية صحيحة إذ لا يزال هناك قرية بهذا الاسم في خصب، وتقع بين أحد الأودية الصغيرة، ولعل الاسم قد اشتق من قبيلة كانت قد استوطنت المكان في الأزمنة القديمة، وفي الأسماء التي ذكرها في سياق حديثه عن المدن والقرى اسمًا لمدينة عُمَانية تدعى رابينا راجيا، وهذه بلا شك موطن قبيلة ربان بن حلوان بن عمران، وهي فرع من قبيلة قديمة استوطنت منطقة في عُمَان قريبة من موطن الأزد، وذلك بعد نزوحها من اليمن، وطوافها في اليمامة، حيث تركت بعض أفرادها هناك، هذا على الرغم من أن الموقع الأصلي للقبيلة غير معروف؛ نظرًا لأنَّ اسم ربان قد انمحى من الذاكرة.

أما فيما يتصل بالتاريخ القديم للمنطقة الشرقية من شبه الجزيرة العربية، فقد جاء كتاب بطليموس مخيبًا للآمال بشكل واضح، إذ أنَّه لا يقدم لنا معلومات تساعدنا على تكوين فكرة عن الأوضاع السياسية في تلك الحقبة، كما أننا لا نعرف من كتابه إلا القليل عن الطريقة التي تجمع فيها العُمَانيون، واستوطنوا عُمَان، ولا عن هجرات القبائل وصراعاتها وغزواتها، والأسر التي تعاقبت على الحكم، بحيث تمدنا بمعلومات وافية عن تاريخ عُمَان، وتؤكد لنا أن مجد عُمَان وشهرتها التي كانت مصدر فخر لها إنما جاءت عن طريق ما كانت تقوم به من نشاط بحري وملاحي، وليس عن طريق النشاط البري، وأن الكوشيين في عُمَان، رغم فقر البلاد وجفافها، كانوا يعتمدون إلى حدٍّ كبير على النشاط الخارجي، وإنَّهم بحكم كونهم روادًا للملاحة في المحيط الهندي فإنَّهم قد استطاعوا أن ينقلوا مختلف أدوات ومنتجات الشرق الهامة إلى العالم الغربي عبر الخليج، وبذلك النشاط ساهموا في تطوير الحضارة وتنميتها في منطقة آسيا الغربية.

(١) جماعة كانت تقطن المنطقة الغربية من آسيا جنوب شرق بحر قزوين، وقد أحتلها الفُرس عام ٢٢٦م، وهي الآن جزء من الشمال الشرقي لإيران.

وأنَّه ليجدر بنا بهذه المناسبة أن نقدم ملخصًا عن التجارة البحرية التي كان العُمَانيون من روادها، وبحكم موقع عُمَان الجغرافي فيما بين العراق من جهة، والهند الغربية من جهة أخرى، فإنَّها قد احتلت مركزًا تجاريًّا فريدًا ومتحكمًا، أتاح لها تدعيم التجارة البحرية مع تلك الأقطار، ولعله من المنطقي أن نتصور أن الكوشيين بما كانوا يتميزون به من روح المغامرة والشجاعة قد استفادوا من الفرص التي تهيأت لهم، بحيث أصبحوا من الشعوب الرائدة العظيمة في البحار، وإنَّهم بعد وصولهم إلى سواحل الهند أصبحوا سادة التجارة الشرقية على الإطلاق، وعلى أساس تحكمهم في هذه التجارة بشكل قاطع، لم يبق لهم من منافس سوى سكان الهند الغربية؛ ولكن انعدام الأدلة القاطعة على وجود منافسة ما فإنِّي لا أتصور أن هذا الأمر يستحق البحث أو النقاش. وعلى أيّة حال فإنَّه على الرغم من أن الفضل يعود إلى العُمَانيين الأوائل في نقل منتجات البلاد الشرقية على أساطيلهم التجارية إلى بلاد ما بين النهرين، إلا أنَّ هؤلاء العُمَانيين لم يتمكنوا من الوصول إلى الأسواق المصرية وإلى منطقة البحر الأبيض المتوسط الهامة.

ولعله لو قدر لعُمَان أن تحتل مركزًا متميزًا في ميدان التجارة على البرِّ، كما كانت في البحر، أو لو أنَّها تمكنت من اجتذاب رجال الأعمال والتجار الأجانب إلى موانئها، وتسيير القوافل مباشرة عبر شبه الجزيرة فلربما تمكنت من احتكار التجارة في تلك المناطق كُلّها، ولأصبحت أقوى وأغنى دولة في العالم، غير أن الصحارى الشاسعة التي تحيط بها من الغرب وعزلتها عن بقية شبه الجزيرة العربية كانت حاجزًا منيعًا أمام القوافل التجارية، ولهذا كانت تضطرها إلى تفريغ شحناتها التجارية في منطقة (تمره)، حيث كان يتسلمها التجار الأجانب؛ ليقوموا بنقلها إلى وجهتها.

من هذا يتضح لنا أن سكان عُمَان وقد عرفوا كيف يستغلون موقع بلادهم الجغرافي كانوا من أهم الوسطاء، وتجار النقل للسلع الهندية إلى الغرب، وإنَّهم نجحوا في احتكار تلك الصنعة واستبعاد غيرهم من حيز المحيط الهندي، حيث كانت سفنهم تتنقل بين الهند والعراق، ولهذا فقد كانوا يمارسون أربح تجارة في ذلك الوقت، خصوصًا وأن هذه التجارة لم تكن معروفة من قبل أن تظهر حضارة بابل ومصر، ثم أن السلع التي كانت تصدر إلى هاتين المملكتين كانت كلها تقريبًا سلعًا كمالية وترفية لا يقبل عليها إلا المتحضرون.

ومع التقدم الحضاري التي كانت تحققه دولة بابل على الفرات، والتي أخذت تبدي مزيدًا من الاهتمام في تذوق المنتجات الأفريقية والهندية فإنها قد أصبحت المركز التجاري الأول فيما بين الشرق والغرب، كما كانت أكبر مستهلك للكماليات، ومن ناحية أخرى كانت تجارة النقل العُمَانية تتطور باطراد، من حيث الكمية، وكانت تتيح لها الفرصة في تفريغ السلع في موانئ أريدو والمغير، وغيرها من المناطق، أما ميناء غرة الذي يحتمل أن يكون هو ميناء ديدان، الذي جاء ذكره في سفر التكوين، فربما يقع في نفس المنطقة التي تحتلهما مدينة الإحساء حاليًا والمجاورة للبحرين، ولعله من المحتمل أن تكون هذه التسمية قد أطلقت على تلك المنطقة بعد وصول قبيلة غرة واستقرارها فيها، ولعلها هي التي أطلقت عليها تلك التسمية. ومن المؤكد على ما يبدو أن اختيار تلك المنطقة قد تم نظرًا إلى صلاحيتها كمرفأ وكمستودع للسلع والبضائع شمال عُمَان، حيث كانت تفرغ فيه السلع التي ترد من الشرق، ويعاد تصديرها من ذلك الميناء إلى فلسطين ومصر. ولهذه الاعتبارات كان التجار الفينيقيون وغير الفينيقيين يرتادون هذا الميناء كثيرًا لنقل البضائع التي كانت تجيء بها السفن العُمَانية إلى ذلك المكان. وبفضل هذه العمليات أخذ النشاط التجاري يصب الثروة والرخاء إلى العواصم الكبرى في العراق وسوريا وتدمر التي أنشأها الملك سليمان، وإلى بعلبك ودمشق ونينوى، وكثير غيرها من المدن والعواصم، التي يعود الفضل في ازدهارها وعلو مركزها إلى تجارة الشرق.

وخلال العصور الذهبية لهذا النشاط التجاري أقيمت شبكة واسعة من الطرق في سوريا، وأقيمت عليها مراكز ومحطات؛ لتستخدمها القوافل في التموين، وأخذ قسط من الراحة. أما مصر فقد كانت في تلك الفترة تركز نشاطها على الزراعة، فلم تكن تولي التجارة أي اهتمام، كما كان المصريون يخافون ويتشككون في رجال البحر الأجانب؛ ولهذا كان الطلب على المنتجات الشرقية في مصر ضئيلًا جدًّا.

ويتحدث حزقيل المتوفى سنة (٥٧٠ ق.م) بإعجاب كبير عن النشاط التجاري الذي كان يشهده ميناء طيرة في سوريا، إلا أنَّ معلومات هذا المؤرخ عن شبه الجزيرة العربية يجانبها الصواب؛ نظرًا لأنَّ معرفته بأوضاع تلك المنطقة كانت واهية، ولم يشر إلى وجود منطقة تقع بين ريدان وكين فيما عدا رعامة التي ظلَّ موقعها من الخريطة مجهولًا حتى الآن.

كما أشار هذا المؤرخ إلى وجود معدن الذهب كأحد السلع التجارية المتداولة في تلك الفترة، إلا أنَّ الذهب الذي أشار إليه حزقيل، ربما كان مصدره أفريقيا أو الهند، إذ لم تتأكد أيّة معلومات عن وجود مناجم للذهب في شبه الجزيرة العربية، على الرغم من أن ابن حوقل المؤرخ قد ذكر نحو ستين منجمًا، منها عشرة للذهب وأحد عشر للفضة.

وكان الأسطول العُمَاني في البحر الأبيض المتوسط يجيء في المرتبة الثانية بعد أسطولي قرطاجنة وطيرة، فقد كان العُمَانيون في ذلك العهد يملكون أقوى أسطول في العالم وأكثره عددًا، وكان يقوم بنشاط تجاري واسع فيما بين الهند ومنطقة الخليج، كما يمكننا القول بأن النشاط التجاري العربي في نفس الفترة أو ربما قبلها كان بلا ريب الوسيلة الوحيدة لنقل حضارة مينا، وبابل، وسوسه إلى الهند، فعن تلك الحضارات أخذ الهنود علوم الفلك والفلسفة والتنجيم والرياضيات، وكل معالم الحضارة والتقدم الفكري، وأنَّه لمن المؤكد أن الحضارة الهندية لم تكن من صنع يدها، وأن الهنود لم يبتكروا أو يسهموا بأية ابتكارات، وإنما استطاعوا أن ينقلوا كل شيء من حضارتي فارس والعراق، ولعل أحد مخلفات الحضارة التجارية التي أسلفنا الحديث عنها هي لفظة مان أو من، أي (موند) التي هي من أصل أكادي أو بابلي، وقام العرب بإدخالها واستعمالها في فارس وشبه الجزيرة والهند، وهذه اللفظة لا زالت شائعة حتى اليوم، وتشكل وحدة وزنية وقياسية مرَّ على استعمالها ما لا يقل عن ٥٠٠٠ عام.

وفي خلال تلك الحقبة التي امتدت نحو سبعة قرون قبل عصرنا حاول عرب عُمَان تجربة قوتهم البحرية، كما يقول البروفسور ديلاكو بيري بالإبحار إلى منطقة أكثر بعدًا وهي الصين، مستفيدين في ذلك مما تكون لهم من خبرة في مجال الملاحة البحرية، وبهذه الخطوة التي تنطوي على توسيع النشاط التجاري ساهم العُمَانيون في تطور الصلات التجارية، ونشر أكبر قسط من خبرتهم ومعرفتهم بين أقطار العالم متخذين من التجارة وسيلة أساسية لتطوير مجتمعهم وإثرائه. غير أن هذه المعلومات عن التبادل التجاري للعُمَانيين مع الصين لا يمكن قبولها على علاتها دون الحصول على أدلة مؤكدة.

وفي عهد الملك بختنصر بدأت تجارة الخليج في التدهور بعد أن ظهر بسرعة منافس خطير لها في البحر الأحمر. وعلى أيّة حال فقد بذل ذلك العاهل العظيم أقصى ما

في وسعه لإحياء الخط التجاري القديم وتطويره، فقد أقام السدود على نهر الفرات، وشق قناتين بالقرب من مدينة بابل، وأنشأ مدينة تريدون (والتي سمّيت فيما بعد بالأبلة) واتخذ منها مدينة حرة وخطًا دفاعيًا ضدَّ العدو، وبعد أن فرغ هذا الملك من هذه الإنجازات اتجه بقواته نحو صحراء سوريا، وشنَّ هجومًا على مدينة طيرة، التي كان سكانها قد ركزوا اهتمامهم في ذلك الوقت نحو طريق البحر الأحمر، إلا أنَّ محاولاته لوقف تدهور الازدهار التجاري في العراق لم يكتب لها النجاح، وبعد وفاته مباشرة في عام (٥٦١ ق.م) تعرضت نينوى وبابل لغزو عسكري من جانب الفُرس والميد فاحتلوها وقاموا بتدميرها، وهكذا اختفت من الوجود وإلى الأبد أكبر سوقين عالميتين للسلع الهندية، وبالتالي لم يسترد طريق الخليج التجاري منذ ذلك الوقت أهميته التجارية والملاحية، وإن كان النشاط فيه لم يتوقف كلية، بل استمر في مدٍّ وجزر عدة قرون، شأنه في ذلك شأن طريق عدن للقوافل الذي يمتد على طول الساحل العربي حتى مصر.

ولنلتفت الآن إلى أنواع السلع والمنتجات التي كان العُمَانيون يتعاملون فيها باعتبارهم من كبار تجار النقل والوسطاء التجاريين في تلك الفترة من الهند إلى الأرخبيل الشرقي، ومن أفريقيا إلى شبه الجزيرة العربية.

وقد أشار إليهم الإنجيل، كما ورد ذكرهم في مؤلفات الإغريق، أمثال هيرودتس، وغيره من المؤرخين، ولعل هذا يضفي أهمية أكبر على دور العُمَانيين في تلك المجالات. وكان اللبان أهم السلع والمحاصيل التي كان العُمَانيون يزاولون تجارتها، بل أن سبرنجر (يعتقد بأن اللبان كان أساس النشاط التجاري، وكان يستورد بشكل رئيسي من رأس غضروفي) كما كان يستورد من ظَفَار، وبالإضافة إلى اللبان كانت هناك تجارة الرقيق، والعاج، والتوابل، والذهب، والأحجار الكريمة، والحرير، والمطرزات، بالإضافة إلى الأبنوس والصندل والأخشاب والصبار والمعادن والمنسوجات القطنية على اختلاف أنواعها. وإلى جانب السلع التي كانت تستورد من الهند وأفريقيا كانت هناك مواد وسلع أخرى تأتي من الموانئ العربية نفسها، كالصمغ والبلسم (المجذاعة).

أما فيما يختص بتجارة الرقيق الأفريقي، فقد كان عرب مسقط في مقدمة الذين يزالون تلك التجارة، وربما من أقدم العصور، فكانوا يجلبون الرقيق بأعداد كبيرة

إلى أسواق العراق، وكان العُمَانيون يستفيدون في عمليات نقل العبيد من أفريقيا من خبرتهم بالملاحة والرياح الموسمية، وكانت هذه الخبرة تمكنهم من قطع المسافة التي تربو على ٢٠٠٠ ميل في أيّام معدودة. والواقع أن أولئك العرب كانوا يلمون إلمامًا دقيقًا بطبيعة الرياح الموسمية الجنوبية والشمالية منذ آلاف السنين، وذلك قبل أن يعزو الملاح الإغريقي المتواضع الشأن هيبالوس الفضل إلى شخصه في اكتشاف تلك العوامل الجوية.

ولعل المنطقة الحرة (التي ذكرها القائد الإغريقي نياركوس) في تقريره عن رحلته إلى الشرق هي ميناء صور. وقد أيّد هذا الرأي هيرين، وبالتالي فإن وجود منطقة حرة عند مدخل الخليج يؤكد وجود علاقات تجارية بين الهند وبين ساحل عُمَان. ثم يتنقل القائد إلى ذكر النقطة الهامة في هذا التقرير، وهي ما إذا كان العرب هم وحدهم أصحاب تلك التجارة في منطقة الخليج أم أنَّهم الهنود الذين كانوا يعملون لحساب العرب؟ ثم يضيف المؤلف: إن ذلك النشاط التجاري كان نشاطًا واسعًا، وأنَّه كان موجودًا قبل قيام الأمبراطورية الفارسية، وبأنَّ العرب باعتبارهم من أوائل رواد الملاحة التجارية كانوا يقومون بنقل البضائع والمنتجات الهندية إلى بابل.

إن الفوضى التي سادت في كل من فارس والعراق بعد موقعة أربيلا، أو على وجه التأكيد في أعقاب وفاة الإسكندر في عام ٣٢٣ق.م، لا بُدَّ وأن تكون قد ساهمت في الكساد التجاري الذي أصاب تلك المناطق وتدني الطلب على الكماليات والبضائع الأجنبية إلا أنَّها من ناحية أخرى أدت إلى المزيد من الازدهار في التجارة التي تمر عن طريق عدن، وبالأخص على أثر التدهور الذي حدث في مصر بعد وقوعها في قبضة حكم أجنبي، كان أكثر نشاطًا وبراعة من الحكم السابق المنهار. ومن هنا فإن الثراء والأبهة اللذين تمخضا عن ذلك النشاط الملاحي لمأرب ولغيرها من المدن اليمنية التي تأثرت بالفن الإغريقي قد تحدث عنه بإسهاب وحماس المؤلف الإغريقي أجارثيسيدس وغيره من كُتّاب تلك الفترة.

أما عُمَان فعلى الرغم مما حققته من ازدهار بفضل احتكارها الملاحة التجارية خلال الفترة الذهبية لبابل، إلا أنَّه لا يبدو قد تأثرت بشكل أو بآخر بأي من الفن الفارسي أو الإغريقي؛ ولهذه الأسباب لم يتم العثور على أيّة آثار أو مخلفات لفنون معمارية هامة في البلاد. ومنذ عهد المسيح حتى ظهور الإسلام ظلّ التاريخ

الأسطوري لعُمَان بمثابة شذرات هنا وهناك، وباستثناء بعض الأحداث الهامة لم يبق شيء من تاريخ عُمَان؛ ولأنَّ أسماء معظم حكامها وملوكها قد ضاعت ولم يعثر عليها، وأننا لو نقبنا في كتب التاريخ العربي عن أيّة معلومات عن تلك المرحلة من تاريخ الجزء الشرقي من شبه الجزيرة لما عثرنا على شيء، والمؤلف التاريخي الوحيد الذي قد يعول عليه في هذا الصدد لا يسعفنا بالكثير من المعلومات.

وهذا المؤلف يحمل عنوان (كشف الغمة)، وكان مؤلفه قد كتبه في مدينة إزكي العُمَانية عام ١٧٢٨م، وقد عَثَرَ عليه الكولونيل السير إي. سي. روسي، وظهرت ترجمته الإنجليزية في مجلة جمعية البنغال الآسيوية التي كانت تصدر في كلكتا، وذلك في عام ١٨٧٤م، وصدرت الترجمة له تحت عنوان (تاريخ عُمَان). ويبدو لنا أن الكتاب الذي أصدرته جمعية هاكلتون بعنوان (سلاطين عُمَان وأئمتها) ليس إلا نسخة طبق الأصل من كتاب (كشف الغمة)، والغريب في الأمر أن مؤلف (كشف الغمة) قد حذف الفصل الأول من الكتاب، وهو الفصل الذي يتناول هجرة الأزد إلى عُمَان في القرن الثاني بعد الميلاد، وفي هذا الفصل يستشهد المؤلف بالكلبي عالم السلالات المشهور، الذي ذكر أن أول رجل من الأزد نزح إلى عُمَان هو مالك بن فهم ابن غانم بن دوس بن عدنان بن عبدالله الأزدي، وبأنَّ سبب خروجه هو أن أبناء أخيه عَمْرو بن فهم قد اعتادوا عند أخذ إبلهم للرعي أن يمروا على منزل أحد الجيران، وكان لهذا الجار كلب ينبح الإبل عند مرورها، فتنفر وتتفرق، فبادر أحدهم فطعن الكلب برمح أودى بحياته، وعندما اشتكى صاحب الكلب إلى مالك، الذي كان يمنحه حمايته غضب مالك، وأقسم بأنَّه لن يبقى في بلد يعامل فيها أحد أتباعه بتلك المعاملة. وهناك رواية أخرى حول سبب الهجرة، وهو أن كلب أحد عبيد دوس هاجم أحد الرعاة مما دفع العبد إلى قتله، ورد صاحب الكلب على ذلك بأن قتل الراعي.

صحيح أن كثيرًا من الصراعات القبلية قد نشبت بسبب أمور تافهة، وأما بالنسبة لهذه القضية فمن المحتمل أن تكون قصة الكلب قد اختلطت على الرواة، وأن الأمر كانت حربًا بين بني كلب بن وبرة وبين فرع من قبيلة قدعة، وأزد سراة، وبالتالي فقد ارتبط ذلك الخلاف بموضوع هجرة الأزد إلى عُمَان.

ولعل أغرب شيء في كتاب (سرحان) هو إغفاله الكُلِّي لأي إشارة إلى انهيار سد مأرب الذي أجمع كل المؤرخين على أنَّه كان السبب الأساسي لتفرق القبائل

ونزوحها. ويتحدث كتاب (كشف الغمة) بتفصيل عن تلك القبائل التي رافقت مالك بن فهم في رحلته عبر حضرموت وعن نجاحه في طرد البارثيين أي الفُرس. وهذه النقطة لها دلالتها وأهميتها؛ نظرًا لأنَّه لم يشر إليها أي من المؤرخين.

وقبل أن نشرع في سرد قصة هجرة الأزد إلى عُمَان نرى من المناسب أن نشير إلى ذلك الحادث الفاجع الذي يعتبر في نظر المؤرخين السبب الحقيقي لثورة الأزد وانقسامها، ثم نزوحها من موطنها الأصلي، ونعني بها انهيار سد مأرب، وهو الحدث الذي تناوله كثير من المؤرخين العرب، الذين يعتقدون بأنَّ الذي بنى ذلك السد هو لقمان الذي عاش في فترة ١٧٠٠ق.م. كما يقال بأنَّ عبد شمس بن سبأ قام بإعادة بناء السد وترميمه بعد مرور أحد عشر قرنًا على بنائه. أما مدينة مأرب فقد كانت تقع شمال شرقي صنعاء فوق أحد المرتفعات القريبة من أحد الوديان الصغيرة الذي يقع بين سلسلتين من الجبال، يُسمَّى أحدهما الأبلق، ويُسمَّى الثاني مأرب. ففي الطرف الأسفل في هذا الوادي بُنيَّ حائطٌ بطول ألف قدم وارتفاع عشرين ومائة قدم؛ لحصر مياه الأدوية الصغيرة السِتة التي كانت تتجمع وتًصب في الوادي، وقد بُنيَّ الحائط من الصخر الصلب، وقد تم وصل وضغط الكتل الحجرية المربعة للحائطِ بملازم معدنية، وكان الحائط واسعًا، بحيث أمكن بناء بيوت فوقه؛ ونتيجة لهذا المشروع تكونت بحيرة كبيرة من الماء، سعتها مِيلان.

وقد زود السد بفتحات تصريفية عديدة؛ لتقوم بدفع المياه، إذا تطلب الأمر، إلى الحوض الكبير الذي أنشيء تحت السد؛ وذلك لتوزيع المياه إلى المزارع والحقول. ولا يزال جزء من هذا السد قائمًا حتى الآن، كما لا تزال بعض فتحاته في حالة جيّدة، كما ذكر أرنولد أحد الرحالة الفرنسيين وقد أسهب في وصف السد والضفاف التي تحيط بها على الجانبين.

ويُسمّي أسترابوا، وأراتوتينيس، وأرثميدوريس، وبيليني، مدينة مأرب بما ريا، وكانت مدينة مستديرة الشكل، قطرها نحو أربعة أميال، وأن بقايا تلك المدينة وأنقاضها المعمارية تغطى المنطقة التي أقيمت عليها، وهي شاهد على الأبهة والفخامة لتلك المدينة العظيمة في عصور رخائها وازدهارها، يوم كان يقيم فيها طبقة من أثرياء التجار، يزاولون أعمالًا تجاريةً مربحةً بين الهند ومصر، وهكذا تدرجت مدينة مأرب في التطور والرقي حتى أصبحت أضخم وأجمل وأغنى

مدينة في شبه الجزيرة العربية.

وقبل انهيار السد كانت مظاهر الخطر الذي يتهدده بادية للعيان؛ ولعل ذلك بسبب الإهمال في اصلاحه وترميمه، ويقال بأن السيدة طريفة زوجة عمر قد تنبأت بانهيار السد، وعزت احتمال انهياره إلى وجود فئران فيه، غير أن أحدًا لم يهتم بذلك التحذير، ولم يتخذ الترتيبات اللازمة لاصلاح السد وترميمه، فقد تولى الحكم ابن الملك وهو صغير جدًّا، إلا أنَّ شخصين آخرين من الأزد، وهما عمر وعمران، وكانا يقيمان في مأرب في ذلك الوقت قد أطاحا بأكرأن الملك، وأسفر الحادث عن وقوع اضطرابات وخلافات سياسية خطيرة.

وبينما كانت اليمن في ذلك الوضع المؤلم من الصراعات والحروب القبلية إذا بها تفاجأ بذلك الحادث الذي أدى إلى انهيار السد وذوبانه تحت تيار المياه المندفع في البحيرة، ومنها إلى المزارع والقرى والمدن الآهلة بالسكان، ودمرها بطوفانه مسببًا الموت للكثير من المواطنين، وجرف ممتلكاتهم ومساكنهم. ومن السهل أن نتصور الدمار الذي حاق بالمدينة من جراء تلك الكارثة؛ ولكن بما أن المؤرخين الإغريق والعرب الذي عاصروا تلك الفترة لم يتناولوا تلك الكارثة القومية فإننا لا نملك غير الاعتماد على روايات المؤرخين الذين ظهروا فيما بعد.

لقد كان الملك الذي يحكم البلاد في ذلك الوقت هو أكرأن وكان اسمه الأصلي زيد، وقد حكم من عام ١٢٠ إلى ١٤٠م، وبالتالي يمكن اعتبار عام ١٣٠م هو انهيار السد، ومن ثم فلا وجه للغرابة أن يحدث ذلك التبعثر في القبائل العربية كنتيجة للخلافات التي نشأت بينها من جهة وانهيار السد من جهة أخرى، غير أن آراء المؤرخين لتلك الفترة كانت معلوماتهم متناقضة وقليلة.

وبعد انهيار سد مأرب لم يقم أحد بإعادة بنائه؛ ولهذا دبَّ الكساد والتدهور في مأرب وفي حياتها الاقتصادية، وهجر أسواقها التجار الإغريق وغيرهم من الأجانب، كما أخذ عدد السكان يتناقص، وبعد قرن من الزمان قام الساسانيون حكام فارس بإحياء طريق الخليج، ونقل تجارة الهند من مصر إلى زيزفون، وهكذا انحدرت مأرب إلى مجرد قرية عربية صغيرة. أما عن أخبار القبائل التي كانت تستوطن ضفاف الوديان والسهول الخصبة القريبة من مأرب فكل ما نعرفه عنها أن الفرع العدناني من تلك القبائل اتجه شمالاً نحو نجد والحجاز، بينما اتجه إلى الحجاز

بعض الأزد وأتباعهم الذين كانوا يمثلون أهم مجموعة من سكان مأرب وتوجه البعض الآخر منهم إلى الشرق.

وقد اتجه عمر بن عامر في البداية هو وأتباعه إلى منطقة العق، واحتفت بهم القبائل وبعد وفاة عمر تولى نجله طالب قيادة الجماعة إلى مكة ومنها إلى البحرين. وعلى كل فإن القسم الأكبر من الأزد من مقاطعتي السراة وعُمَان في اليمن اتجهوا إلى عُمَان؛ ولكنهم نزحوا إلى تلك المناطق على مراحل وعلى مدى سنوات.

ويذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن قيادة المجموعة الأولى من هؤلاء المهاجرين كانت بيد نصر بن الأزد، إلا أنَّ غالبية الثقاة وفيهم العرب قد أجمعوا على أنَّ مالك ابن فهم هو الذي قاد الأزد في رحلتهم المضنية إلى موطن المستقبل.

وبعد خروج الأزد من مدينة مأرب شقوا طريقهم عبر حضرموت، ومنها في أتجاه الساحل الشرقي مباشرة إلى أن وصلوا ريسوت على بعد خمسمائة ميل من مأرب، وكانت ريسوت في ذلك الوقت بلدة مزدهرة وميناء يعج بالحركة التجارية، وقد توقفوا هناك للراحة، حيث انضمت إليهم مجموعات من قبائل المهرة وغيرهم من القبائل الذين قرروا أن ينفصلوا عن جماعتهم والاستقرار في عُمَان.

وعند وصول هذه القوافل البشرية إلى ريسوت كان الإرهاق والتعب والجوع قد هَدَّهم بعد تلك المسيرة التي امتدت شهورًا طويلةً عبر مناطق مقفرة قليلة السكان، وهم يصحبون أسرهم وماشيتهم وأمتعتهم، ولمَّا كانت بقية الطريق إلى عُمَان تمرُّ في أراضي صحراوية مقفرة، اضطر مالك بن فهم إلى أن يقوم بإرسال النساء والأطفال والشيوخ عن طريق البحر، ويذكر مؤلف تاريخ عُمَان أن الأسر والأمتعة الخاصّة بالأزد وصلت إلى قلهات، وهي إحدى الاستحكامات العسكرية على الساحل العُمَاني، حيث بقيت هناك في الانتظار تحت الحراسة المشددة.

وقد علم الأزد، وهم هناك، بأنَّ البارثيين يسيطرون على عُمَان فاختار مالك نحو ستة آلاف مقاتل من خيرة المقاتلين من المشاة والفرسان، وَطَلَبَ منهم أن يتقدموا الموكب، كما انضمت إليهم قوة أخرى استطلاعية بقيادة أصغر أنجاله هناءة، أو كما يقول بعض المؤرخين بقيادة فراهيد، وذلك للقيام بعمليات الاستطلاع. وعند وصول مالك بن فهم إلى عُمَان أقام في البداية في قلهات، ريثما ينتهي من عمل الترتيبات اللازمة لإيواء النساء، ثم عاد إلى الجوف أو الوادي الذي يقع بين بلدتي أدم، وبهلاء،

وذلك للإشراف بنفسه على عمليات الاستيطان واختيار المكان المناسب، وبعد أن انتهى من هذا الأمر بدأ يفاوض الفُرس، وأوفد مبعوثًا إليهم يطلب منهم الإذن بالاستيطان في عُمَان. وعند وصول مبعوث الأزد إلى صحار التي كانت عاصمة الفُرس في ذلك الوقت جمع الحاكم الفارسي (المرزبان) وزراءه، وبعد المناقشات قرر رفض طلب الأزد، وبعث برده إليهم على ذلك، ويقال بأنَّ مالك بن فهم عاد، وأوفد رسولًا آخر إلى المرزبان ينتقده على رفضه الطلب، ويصر على تنفيذه. وعلى أيّة حال فإن المرزبان لم يرفض الطلب هذه المرة فحسب، وإنما أخذ يستعد ويحشد قواته العسكرية؛ لطرد الأزد من عُمَان.

وكان جيش الفُرس يتألف من ٣٠ ألف إلى ٤٠ ألف رجل، تعززه قوات من راكبي الفيلة، وقد تحرك هذا الجيش نحو وادي سمائل، حيث رابط في سلّوت، وهي منطقة تقع بين إزكي ونزوى. أما مالك بن فهم كما ورد في (تاريخ عُمَان) فلم يكن لديه أكثر من ٦٠٠٠ رجل، وبالرغم من ذلك فإنَّه بعد معارك استمرت أربعة أيّام نجح مالك في إبادة قوات الفُرس عن بكرة أبيهم، وبناءً على نتائج تلك المعركة وقعت هدنة بين الفريقين المتحاربين، وتعهد الفُرس بالجلاء عن البلاد خلال عام واحد وتركها للعرب، إلا أنَّ المرزبان استغل تلك الهدنة، فطلب تعزيزات من الأمبراطور الفارسي، فولوكاسيس الثاني، أما مالك بن فهم فإنَّه لم يدخر وسعًا هو الآخر في سبل إعادة توزيع قواته في مناطق الوادي القريب من الجوف، وعند سماع الأمبراطور الفارسي، بما حدث لقواته في عُمَان عين حاكمًا جديدًا، وبعث بتعزيزات وقواتٍ جديدة إلى صحار، مع تعليمات مشددة بوجوب طرد الأزد من عُمَان. غير أن مالكا هو الآخر لم يقف مكتوف اليدين، فما أن بلغته نوايا الأمبراطور حتى بادر إلى شنِّ هجوم على الفُرس أسفر عن انتصار الأزد وانسحاب الفُرس ومغادرتهم البلاد نهائيًا، ويقال في هذا الصدد إن نجلي مالك، وهما معن وهناءة قد تمكنا من قتل عدد كبير من الفيلة التي اشتركت في القتال وأنَّهُمَا استخدما في ذلك أيديهما فقط.

وبعد أن تمت لمالك السيطرة على عُمَان بأسرها بقى في الحكم سنوات طويلة، وكان يحكمها بالعدل، وعاش ١٢٠ عامًا، وجاءت وفاته بضربة سهم من نجله الثالث سليمة، وكان أكثرهم حبًا وقُربًا له، ثم هرب الابن إلى مدينة كرمان في فارس. ونحن إذا استثنينا مظاهر التحيز والمبالغات في روايات غزو الأزد لعُمَان، كما وردت في

(كشف الغمة) فإنَّ مؤلف هذا الكتَاب سرحان بن سعيد قد ذكر في وضوح أن الرواية إنما تستند على الحكايات والَأساطير الشعبية التي كانت متداولة في أوساط العرب، وأنَّه يمكن اعتبارها صحيحةً وموثوقًا بها. ويقول بعض المؤرخين: أن مالك ابن فهم قد بعث بعدد من أتباعه للاستيلاء على البحرين والحيرة والفرات، وإنَّهم أقاموا إمارة هناك، حكمها اثنان من أنجاله، وأن عملية اغتياله قد تمت هناك، وأن النجل القاتل هرب بعد ذلك، والتجأ إلى عُمَان على أن قسمًا كبيرًا من المعلومات المتعلقة بمالك بن فهم وبأفراد أسرته تتضمنها التعليقات الَتي كتبها روس في كتابه (تاريخ عُمَان).

وبعد مرور ستين أو سبعين عامًا على غزو الأزد لعُمَان، يبدو أن موجة جديدة من الهجرة قد تمت إلى عُمَان، وكان نتيجة لذلك أن طغت العناصر اليمنية فيها على العناصر الأخرى، والتفصيلات عن الدفعة الثانية من هجرة تلك القبائل موجودة بشكل مباشر في (تاريخ عُمَان)، ويمكن تلخيصها على النحو التالي:

جاء إلى عُمَان أعداد كثيرة من قبائل الأزد وكان أول من أنضم إلى تلك المجموعات عمران بن عَمْرو بن عمير ماء السماء مع نجليه الحجر والأسود، وقد تفرعت عن الاسمين الآخيرين كثير من القبائل العُمَانية، ثم بعد ذلك تحرك ربيعة ابن الحارث بن عامر الغطريف مع بعض أخوته، ولحقهم دوس بن عمر بن عدي ابن حارثة الذي توجه إلى الحديدة، وكذلك عمران بن عمر بن الأزد، ثم جاء اليحمد بن حمد وأنجال غانم بن غالب بن عثمان وزياد، ثم الموالح وأنجال شمس وكذلك الدناق وبعض بني يشكر وبني عبد ورجال من الهويلة، وكل هذه القبائل اتجهت إلى عُمَان، ومعها شعاراتها وأعلامها، وكانوا أثناء رحلتهم يستهلكون موئن سكان البلاد التي يمرون بها حتى وصلوا إلى عُمَان، وهناك انتشروا في عُمَان كلها، واستقروا في أرضها الخصبة الواسعة، وأطلقوا على تلك الأرض اسم عُمَان تيمنًا باسم مواطنهم الأصلية الخصبة في اليمن التي من المرجح أن يكون اسمها عُمَان، أما الفُرس فقد أطلقوا على عُمَان اسم (مزون).

ولم ينقطع سيل هجرات الأزد إلى عُمَان إلى أن كثرت أعدادهم وذاع صيتهم، وقويت شوكتهم، واستطاعوا في النهاية السيطرة على البلاد كلها، ثم امتدت سلطتهم حتى البحرين والإحساء. وبعد أولئك وصل إلى عُمَان سامه بن لؤي بن

غالب، واستقر في توأم أو الجو، وهي منطقة قريبة من مواطن الأزد، كما كان يقيم في نفس المنطقة بعض بني سعد وبني عبد القيس، كما أقام أيضًا بعض قبائل بني تميم، كذلك نزح إلى عُمَان قبائل ابن حازم الذين هاجروا واستطونوا منطقة عبري والسليف وتنعم والسر، كما جاءها بعض من بني الحارث بن كعب الذين استطونوا ضنك، التي استطونها مئات من بني قدعة، كذلك وفد إلى عُمَان بعض قبائل بني رواحة بن قتيبة بن قيس، وكان من بينهم أبو الهاشم.

وقبل أن يبلغ سابور الثاني سن الرشد، وهو الذي حكم فارس من عام (٣١٠-٣٣٠م)، أغار العرب على فارس، إلا أنَّ سابور بعد ذلك ببضع أعوام أنزل قواته العسكرية في القطيف، واستولى على الهجر والمناطق المجاورة لها، وأنَّه كاد أن يبيد القبائل العربية فيها.

إن الإرهاب الذي عمَّ أواسط شبه الجزيرة من خلال الفظائع التي ارتكبتها قوات سابور قد أدى إلى تفرق القبائل التي من أصل عدنان، فتوجه معظمهم إلى عُمَان، وظلوا يتدفقون، حتى أنَّهم أخذوا يهددون سيطرة العناصر اليمنية، وقد ذكر بادجر في مقدمته عن بعض تلك القبائل، كقبيلة سحبان، ويطي وعاربة، وسعيد، وراشد، وواهي، وأخزم، ومعين، وبني السنت، وحديه، والمشرفي.

وفي بداية القرن الخامس أخذت فصائل أخرى من قبائل عدنان تتدفق على عُمَان، وإن كان عدد كبير منها قد اتجه إلى حضرموت واستقر فيها، ومن بين القبائل النجدية التي نزحت إلى عُمَان بعد نحو قرنين من ذلك التاريخ قبائل عبس التي لا يزال خلفاؤها بنو رواحة يقيمون حتى الآن في المنطقة التي تسمّى وادي بني رواحة.

وإن حرب الأربعين عامًا التي نشبت بين عبس وذبيان؛ بسبب سباق جرى بين الفَرسين داحس والغبراء عام ٥٦٣م، تعتبر من أشهر الأحداث في التاريخ العربي، فبعد هذا الحادث هاجر قيس بن زهير زعيم قبيلة عبس إلى عُمَان مع بعض أتباعه واعتنق النصرانية، وأصبح راهبًا.

وفي ذلك الوقت بالذات كان عدد المسيحيين في جنوب وشرق شبه الجزيرة العربية كبيرًا، وفي أعقاب بعثة فرومنتيوس الشهيرة بذلت جهود كبيرة كما يذكر رايتس لإدخال العرب إلى المسيحية، وذلك في الفترة الأخيرة من القرن الرابع عندما كلف سيفولوس أندس، وهو من سكان دابل في السند، وكان شخصية موهوبة، بمهمة إلى

ملك الحميرين من قِبل الملك قسطنطنيوس الثاني، وقد حمل معه هدايا نفيسة.

وقد نجح سيفولوس في مهمته واستطاع إقناع أفراد شعبه بإنشاء ثلاث كنائس في اليمن، أقيمت إحداها في ظَفَار بالقرب من صنعاء، والثانية في عدن، والثالثة في الخليج، لعلها على الأرجح في صحار بعُمَان، وقد زارها سيفولوس أثناء رحلته، حيث أقام فيها قيس بن زهير بعد مائتي عام من ذلك التاريخ إلى أن وافته المنية.

وربما ساهم وإلى حدٍّ كبير استيلاء المسيحين الأحباش على اليمن وتدمير الأمبراطورية الحميرية عام ٥٢٥م، الذي صاحبه تصاعد النفوذ الروماني وساعد في انتشار المسيحية حتى كادت أن تصبح الديانة السائدة في شبه الجزيرة العربية، لولا ظهور عقيدة جديدة وهي الإسلام.

ومنذ غزو الأزد بزعامة مالك بن فهم حتى قدوم الساسانيين الفُرس فإن معرفتنا بتسلسل الأسر الحاكمة في عُمَان تكاد تكون معدومة.

وأنَّه لمن المحتمل أن يكون مالك بن فهم قد ترك الحكم لأحد أنجاله الذين كانوا كثيري العدد، ونستدل من (تاريخ عُمَان) على وجود شخص يدعى مالك بن زهير كانت سيطرته لا تقل عن سيطرة مالك بن فهم نفسه، غير أن الأسرة الوحيدة التي تأكدت معرفتنا بها وهي أسرة الأمراء الجلندانيين، ويقول أبو الفداء في هذا الصدد: إن كل الذين كانوا يتولون الحكم في عُمَان يلقبون بالجلندى. ومعروف أن أسرة الجلندى ترجع في نسبها إلى قبيلة المعاول التي لا تزال موجودة حتى الآن، وتقيم في إحدى مناطق الجبل الأخضر لعُمَان، وعلى أيّة حال فهناك رواية أخرى عن هذه الأسرة الحاكمة ترجع نسبها إلى بني كركر، ويؤيد هذا الرأي المؤرخ سيل.

وعند ظهور النبي ﷺ كان الجلندانيون يحكمون عُمَان غير أننا نجهل تمامًا المرحلة التي ظهر فيها هؤلاء الحكام، وتولوا سلطة الحكم.

وقد أسفر نجاح الحملة الحبشية عام ٥٢٥م عن قيام حكم أسرة قوية في صنعاء عاصمة اليمن، وكان لا بُدَّ لهذا الانتصار المسيحي أن يلقى ترحيبًا حارًا من أمبراطور القسطنطينية الذي بادر إلى إيفاد مبعوث إلى أكسوم للتفاوض لعقد حلف مع النجاشي، ولكسب ولائه للأمبراطورية الرومانية، غير أن حكومة مادين أو سينسافون كانت تنظر إلى المشكلة من زاوية مغايرة، وبالتالي فإن استيلاء الأحباش على اليمن قد قوبل باستياء شديد في بلاط كسرى أنو شروان.

ولا يمكن التقليل بأي حال من أهمية المركز الدولي للعاصمة الرومانية، وما حققته من إنجازات على المستوى الدولي، بالنسبة إلى فارس؛ ولهذا أدرك أنو شروان، بما كان يتمتع به من بعد نظر، كيف أن مصالح فارس قد أصبحت تحتم وضع حدٍّ للتوسع الروماني في ذلك الجزء من العالم، والقضاء على نفوذ الأسرة الحاكمة الجديدة في اليمن قبل أن يستفحل أمرها، وتتحول إلى مركز ديني نشط، أو تحقق من القوة ما يسمح لها بتقديم المساعدات إلى روما؛ ولهذا أخذ يتحين الفرص للانقضاض على المغتصبين الأفريقيين، وقد كانت الحملات الرومانية حتى ذلك الوقت تشغله عن التفكير في مثل هذا الأمر، غير أن الفرصة التي كان يحلم بها قد وأتته أخيرًا من خلال المعاهدة التي عقدها مع جوستنيان في عام ٥٦٢م، وقد ضمنت هذه المعاهدة فترة من السلم دامت خمسين عامًا، كانت حافلة بالأحداث الحاسمة فيما يختص بجنوبي وشرقي شبه الجزيرة العربية. فقد هيأت المعاهدة في المقام الأول التخلص من الحروب، مما أتاح لأمبراطور فارس أن يقوم باعداد حملة ضد سيطرة الأحباش في اليمن، ولم يدخر وسعًا في تعبئة إمكانياته لتحقيق ذلك الهدف، وإن كانت تلك الحملة قد كلفته أعباء كثيرة من الموارد والامكانيات.

ولقد كانت عدن، وهي الهدف النهائي للحملة، بعيدة أكثر من ألفي ميل عن الأبلة، وهي الميناء الذي أبحرت منه القوات الفارسية، وبصرف النظر عن النشاط التجاري الذي كانت تشهده المنطقة في تلك الفترة، فإنَّ وسائل النقل وتخزين المؤن لتلك الرحلة الطويلة كان يتطلب وقتًا طويلًا، وعلى كل حال فمهما كان تحمس خسرو لضرب النفوذ الروماني في اليمن، فقد كان من المشكوك فيه أن تنجح الخطة التي وضعت لولا تواجد أحد ملوك حمير، وهو ذي اليزن، أبو مرة، في عاصمة الفُرس في ذلك الوقت، وكان ذلك الحميري قد ترك اليمن فرارًا من تعسف الملك الحبشي، مرزوق بن أبرهة ولجأ إلى فارس.

وعلى حد رأي البعض أن ذا اليزن قد توجه أولًا إلى الأمبراطور الروماني للحصول على تأييده، ولما لم يفلح في ذلك المسعى عاد واتجه إلى الحيرة، ومنها إلى زيزفون، حيث توفى هناك بعد وصوله مباشرة، ويجمع معظم الكُتّاب على الإشارة إلى نجل ذي اليزن، سيف، وأن هذا النجل قابل أمبراطور الفُرس، وعرض عليه كنوز اليمن وثرواتها، مما شجع العاهل الفارس على تجهيز الحملة.

وقد مكنت المشورة القيمة والمعلومات السياسية والجغرافية التي قدمها سيف بن ذي اليزن إلى كسرى من وضع خطة شاملة وواسعة لا لمهاجمة اليمن وحدها، بل وساحل شبه الجزيرة العربية كله. وقد ذكر المؤرخ الطبري في تاريخه أن وهرز كان قائدًا للحملة، وكان من كبار رجال الدولة، غير أنَّه في رأي حمزة الأصفهاني كان هذا القائد يدعى خرزاد، وأن وهرز هو اسم عائلته، وكان من سلالة ملكية، تنتسب إلى أزدشير، وأن قيادته للحملة تدل على أنَّه كان من القواد العسكريين المحنكين.

وتختلف آراء المؤرخين العرب والفُرس على السواء حول حجم القوة العسكرية للحملة التي أبحرت من الأبلة عام ٥٧٠م على وجه التقريب في حملتها البحرية الشهيرة، ويقدر بعضهم عددها بنحو ٣٦٠٠ رجل، بينما ذكر ابن قتيبة أنَّها كانت تتألف من ٧٥٠٠ جندي، ويحدثنا الطبري بأن الحملة كانت تتألف من ثماني سفن، في كل منها مائة رجل فقط، وأن سفينتين غرقتا بمن فيهما، ولم يبق من الحملة عند وصولها إلى عدن سوى ستمائة رجل، وإذا صدقنا هذا القول فإنه يدل على مدى غرور الفُرس واعتدادهم بأنفسهم.

ولعل الطبري لم يكن يعرف أي شيء عن فتح الفُرس لعُمَان، وتصور العجز الذي طرأ على حجم القوة من خلال عدد الجنود الذين ركبوا من شط العرب، والعدد الفعلي الذي وصل إلى عدن بأنَّه يعود إلى فقد ربع الحملة في البحر، وقد نفترض ونحن مطمئنون، أن الحجم الحقيقي للحملة هو ١٦٠٠٠ رجل، اشترك منهم ١٢٠٠٠ في الهجوم على الأحباش في اليمن.

لقد اتجه القائد الفارسي بأسطوله أولًا إلى البحرين، التي كانت خاضعة لعُمَان في ذلك الوقت، وتمكن من إخضاعها بسهولة، ثم أقلع منها إلى صحار عاصمة عُمَان يومئذ، وقام بإنزال قواته فيها، وتمكن من إخضاع سكانها العرب للسلطة الفارسية. والمعلومة الوحيدة التي أطلعنا عليها عن الحملة الفارسية على عُمَان هي ما ذكره كتاب (كشف الغمة) غير أن المؤلف لم يفض في شرح أخبار تلك الحملة، رغم أن معلوماته، على ضآلتها تعتبر الدليل الذي لا يسعنا إلا التسليم به، وهو:

"لم يعد الفُرس إلى عُمَان بعد أن أخرجهم مالك بن فهم منها حتى نهاية حكمه، وتولى أنجاله الحكم. وبعد ذلك دخلت عُمَان تحت حكم الجنلدى بن المستكبر المعولي، بينما دانت فارس لبني ساسان وقد ساد السلام عُمَان أيَّام فهم، واستبقى

الفُرس في عُمَان قوة عسكرية من ٤٠٠٠ رجل، ومندوبًا ساميًا لهم لدى ملوك الأزد. وأقام الفُرس على الجانب الساحلي، بينما كان الأزد يحكمون السهول والمرتفعات الداخلية، وكانت شؤون البلاد في أيديهم. أما الفُرس فقد درجوا على إيفاد مندوبين لم يكونوا يحوزون على رضاء العُمَانيين، أو بالأحرى كان العُمَانيون يرتابون فيهم، وبقي الوضع على تلك الحال إلى أن شاء الله للإسلام أن يظهر وينتصر".

ويضيف المؤلف:

"بأن الفُرس أقاموا عاصمتهم في جمسترد، وهي منطقة قريبة من صحار، واتخذوا منها المركز الرئيسي وتعرف هذه المنطقة الآن بجبل غرابة أو فلج السوق، ولا تزال آثارها باقية، وعلى كل حال فإنَّ احتفاظ الفُرس بقوة من ٤٠٠٠ رجل لإرهاب أهل عُمَان والاحتفاظ بمظاهر السلطة الفارسية على عُمَان لدليل قاطع على نوايا الفُرس في احتلالها، إلى أن السيطرة على عُمَان لم تتحقق إلا من خلال صراعات طويلة ومقاومة مستمرة من جانب أهلها.

وقد تم تعيين مرزبان أول حاكم فارسي على إقليمي عُمَان والبحرين، وكان اسمه دافيروز هاشمشفان، وقد أنشأ ذلك الحاكم قصرًا له في جمسترد التي تحولت إلى مدينة للفُرس. ومن ناحية أخرى فإنَّه من المحتمل أن يكون الحاكم الفارسي خاضعًا للمنذر بن النعمان بن لخم الذي كما يقول الطبري: هو الرجل الذي عهد إليه كسرى بحكم عُمَان والبحرين واليمامة وجزء من الحجاز.

أما بالنسبة لعلاقة هذا الحاكم بالأمير الجلندى فإنَّ المؤرخين يشيرون إلى أنَّ الأمبراطور الفارسي قد سمح للأمير الجلندى بالاحتفاظ بنزوى كعاصمة لمملكته، والاستمرار في ممارسة السيادة على القبائل العربية التابعة له، بشرط دفع الزكاة للفُرس والتبعية لهم. ومن ناحية أخرى يبدو أن المندوب السامي الفارسي أو المزربان، كما كان يُسمَّى قد حصر مرابطة قواته في منطقة الشريط الساحلي، كما لم يكن يتدخل تدخلًا مباشرًا في الشؤون الداخلية للعُمَانيين.

وبعد مغادرة الأسطول الفارسي صحار واصل طريقه عبر الساحل الغربي، وبعد ضمِّ ظَفَار وحضرموت، ألقى مراسيه في ميناء عدن، حيث قام بإنزال قواته. وقد انتصر الفُرس بعد معارك مريرة بفضل المساعدة التي تلقوها من أتباع سيف بن ذي يزن، وبذلك الانتصار أضيفت إلى الأمبراطورية الفارسية مساحات جديدة لا

تقل عن ١٥٠٠ ميل من المناطق الساحلية إلى جانب أربعة أقاليم أخرى هي عُمَان والبحرين وحضرموت واليمن. وقد بعث الانتصار حماسًا شديدًا في عاصمة الفُرس وشعورًا بالفخر. واستطاعت فارس الاحتفاظ بتلك الفتوحات خلال الفترة المتبقية من حكم أنو شروان، الذي توفي عام ٥٧٩م، غير أن خليفة أنو شروان كان ضعيفًا فتراخت قبضته، ومن ثم فإن الموجة الأولى من المدِّ الإسلامي بعد ستة وعشرين عامًا استطاعت أن تكتسح الفُرس من عُمَان وغيرها من الأقطار.

وكان إخضاع الأجزاء الشرقية والجنوبية من شبه الجزيرة العربية نقطة تحول بارزة باعتباره آخِر حدث هام في شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام. وأنَّه لمن سوء الحظ أن المعلومات عن تلك المرحلة الهامة من تاريخ شبه الجزيرة العربية قليلة جدًّا. وعلى أيّة حال فإن أحداث ذلك الغزو الفارسي لا تزال عالقة بالذاكرة العربية وأن آثارها لتتجلى في كثير من أرجاء شبه الجزيرة العربية.

* * *

# الفصل الثاني

## ١-عُـــــمَــــــــان

## ٢-الخـلـيـج في ظـلِّ الإســلام

خلال سيطرة الحكام الساسانيين على جنوب شبه الجزيرة العربية، ولد في مكة أعظم رجل أنجبته الإنسانية في تاريخ العالم، وهو الرجل الذي كان مقدرًا له أن يبعث الثورة الروحية إلى آسيا الغربية، وأن يضع أسس أروع أمبراطورية عرفها تاريخ البشرية، وأن يكون الرسول والقائد لأهم النظم الدينية التي عرفتها الإنسانية.

ويختلف المؤرخون حول التاريخ الصحيح لمولد الرسول محمد بن عبدالله ﷺ، غير أن المؤرخين والكتاب الأوروبيين متفقون بوجه عام على أن تاريخ مولده يقع فيما بين عام ٥٦٩م، وبين عام ٥٧٤م، أما المؤرخون المسلمون فهم يؤكدون أن تاريخ مولد الرسول هو عام الفيل، وهو العام الذي انقض فيه أبرهة الحبشي، بعد أن فرغ من تشييد أروع كنيسة مسيحية في صنعاء، على مكة في محاولة لتدمير الكعبة، إلا أنَّه مُنيّ بأشر هزيمة على يد أهلها، بعد تدخل طير الأبابيل إلى جانب سكان مكة، وهي التي أرسلها الله تعالى لإبادة قوات الغزو الحبشي.

وربما يكون هذا الحادث قد سبق غزو الحكام الساسانيين لليمن بسنوات كثيرة، وكان هناك في السلطة حفيد أبرهة عند وصول فافريزز، غير أنَّه من الطبيعي أن يتجه المؤرخون المسلمون إلى تحديد مولد النبي بتلك الفترة الحاسمة، والتي أمكن فيها إبعاد الخطر عن المدينة المقدسة.

ولم يمض وقت طويل على إعلان سيدنا محمد بن عبدالله دعوته حتى أخذ بصيص تلك الدعوة التي هزت أرجاء شبه الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها يستلل إلى عُمَان، ومن الجائز ألا تكون أنباء تلك الأحداث قد انتشرت في أجزاء واسعة من العالم، إلا أنَّه مع تصاعد شهرة النبي ونفوذه أخذت أنباء تلك الحركة تمتد إلى أقصى مناطق شبه الجزيرة العربية بدافع الانتصارات العسكرية التي كانت تشهدها أرض الحجاز.

والمصادر التاريخية العربية لا تلقي الكثير من الضوء على الموجات الأولى للإسلام في امتدادها المتواصل إلى الأجزاء الشرقية والجنوبية، من شبه الجزيرة، وحسب ما ذكره النووي، أن شخصًا يدعى أبو بشير بن أسد، أو عتبة، كان قد اعتنق الإسلام وأقام لاجئًا في عُمَان لأسباب لم تعرف، واستطاع أن يجمع حوله نفرًا من المسلمين في محاولة لنشر هذا الدين في عُمَان، غير أن محاولته لم تنجح، وأخذ يتضاءل، عدد مؤيديه حتى انخفض إلى ستين أو سبعين رجلًا.

بيد أن المؤرخين العُمَانيين لهم رأى آخر، فهم يذكرون أن رجلًا يدعى مازن

ابن غضوبة قد توجه إلى مكة فاعتنق الإسلام، وكان أول عُماني يعلن إسلامه أمام الرسول، وهذا الدليل الذي قد لا يصح أن نرفضه يكفي لإظهار حقيقة واحدة، وهي أن رسالة محمد إلى شيوخ عُمان التي دعاهم فيها إلى الإسلام (والتي أوردها الصحاري في نسخة في مؤلفه) (أنساب العرب) - وهي ولا شكَّ وثيقة مزورة - لم تكن المؤشر الأول للتغيير الكبير في البناء الروحي لأهل عُمان.

أما أن محمدًا (ﷺ) قد وجه رسائل إلى زعماء عُمان مثلما ما وجه إلى غيرهم من الزعماء في شتى أنحاء العالم، فإن تلك حقيقة مؤكدة، وقد نقل رسالة النبي إلى العُمَانيين عَمْرو بن العاص، وأثناء مرور هذا المبعوث بالبريمي سلم رسالة إلى والي الفُرس بالباطنة، ومنها توجه إلى نزوى، حيث يقيم الزعيمان الأزديان، وحسب أكثر من مصدر، فقد كان الزعيمان العُمَانيان هما جيفر وعبد نجلي أو حفيدي الجلندى بن المستكبر.

وكان رد الحاكم الفارسي، ويدعى مسكان، ردًّا فوريًّا ورفضًا قاطعًا، غير أن زعماء الأزد، بحكم طبيعة الحذر والتروي التي طبعوا عليها، استغرقوا بعض الوقت في اتخاذ القرار للرد على رسالة النبي.

منذ ذلك الوقت ظلَّ العُمَانيون يراقبون سير الأحداث في الحجاز وتطور الصراع الغريب ضدَّ الوثنية الذي كان يقوده نبي الإسلام، بالإضافة إلى أنَّ العُمَانيين كما سبق أن أشرنا، لم يكونوا يشعرون بحاجة إلى دين جديد، ما لم يكونوا في عجلة من أمرهم لإعلان ولائهم للنبي، خصوصًا وأن العُمَانيين كانوا يعرفون مناعة بلادهم الطبيعية وبعدها عن مقر الإسلام في شبه الجزيرة، حيث تفصلها الصحراء عن بقية أجزاء الجزيرة العربية، ولهذا فقد كانوا يعتقدون أنَّهم يعيشون في مأمن من أي غزو أو عدوان، وأن في وسعهم الانتظار؛ ليعرفوا تطور الأحداث التي تدور في الحجاز.

وفي القرن الأول الهجري (٦٣٠م) وهو عام الوفود، أرسل عَمْرو بن العاص، وهو أحد دهاة السياسة في ذلك الوقت، إلى عُمان وعند وصوله عقد اجتماع هام لزعماء عُمَان، يضمُّ القبيلتين الرئيسيتين، وفي هذا الاجتماع وافق العُمَانيون على طلب الرسول بدفع الزكاة، بعد أن اقتنعوا أنَّه لم يعد في وسعهم أن يتجاهلوا دعوة النبي، أو التقليل مما حققته من مكاسب سياسية أو أدبية.

ولقد أثرت اعتبارات كثيرة في النتائج التي توصل إليها العُمَانيون، والتي

ساهمت في تأكيد الاقتراحات التي طرحها رسول النبي، ومما لا شكَّ فيه أن أنباء وفود قريش إلى النبي محمد في أعقاب فتح مكة، والهزيمة التي منيت بها قبائل ثقيف وهوازن في معركة حُنين قد وصلت إلى عُمَان بالفعل، وكان لها تأثير على الرأي العام هناك. وبالإضافة إلى ذلك كانت هناك الرغبة عند العُمَانيين في إلقاء نير الفُرس عن كاهلهم، وما كانوا يتوقعونه من مكاسب سياسية مع الحكومة العربية الجديدة القوية في المدينة، ولعل تلك الاعتبارات كان لها أثرها على اجتماع نزوى، وعلى القرارات التي اتخذت فيه، وأصبح هناك اعتقاد أكيد بأنَّ عقلًا مدبرًا كبيرًا قد ظهر في المنطقة، وبأنَّ حكومة مركزية قوية قد قامت في شبه الجزيرة، ويمكن لكل أن يتطلع إليها لاستمداد التأييد والتوجيه.

غير أنَّه من الواضح أن الاعتبار الديني لم يكن له أي تأثير على قرار أهل عُمَان، وقد خضع الاجتماع في مداولاته للاعتبارات السياسية وحدها، وهكذا اقتنع العُمَانيون بأنَّ اعتناقهم للإسلام وتحالفهم مع الرسول أكثر أهمية من احتفاظهم بالأصنام، ومن هذا المنطلق اتخذوا قرارهم كما اتخذت السلطات المختصة في نزوى الإجراءات الفورية لوضع ذلك القرار التنفيذ.

وتم تشكيل وفد من بعض زعماء القبائل للتوجه إلى المدينة والإعراب عن قبول العُمَانيين الدخول في الإسلام، وفي الوقت نفسه أوفد عبد وجيفر مبعوثين إلى صحار وإلى دبا، الواقعة شمال عُمَان، يطلبون فيها من النّاس الدخول في الإسلام ونبذ الوثنية، ولم تعارض تلك المناطق طلب الزعيمين العُمَانيين، وهكذا فإنَّ التحول الذي طرأ على عقيدة أهل عُمَان تم بطرق سلمية دون إراقة أي دماء، وإن كان ذلك التحول اسميًّا وسطحيًّا فقط، ولا تذكر كتب التاريخ وقوع أي عمليات اضطهاد أو شغب، كما لم يقع أي صراع على ذلك التحول من الوثنية إلى الإسلام، والواقع أن العُمَانيين لم يكونوا يدركون تمامًا نتائج ما أقدموا عليه، وحتى تلك اللحظة لم تتيسر لهم معرفة تفاصيل دعوة الرسول وأهدافها، كما لم يكن في وسعهم أن يتنبأوا بتلك التغيرات الهائلة التي سوف تحدثها دعوة الرسول (ﷺ) في حياتهم وظروفهم من الناحيتين الروحية والاجتماعية.

ومن المحتمل أن يكون العُمَانيون قد ظلُّوا متمسكين بالعقائد الدينية السائدة في مجتمعهم فترة من الوقت. وربما حاولوا مقاومة العقيدة الجديدة في الوقت الذي قبلوا

فيه التغيير بصورة شكلية، بينما لم تتأثر مشاعرهم أو مصالحهم بتلك التطورات، ولم يتمكن الإسلام من الرسوخ في عُمَان إلا بعد مضي وقت طويل وبالتدريج.

إن الفكرة الأساسية التي يقوم عليها الإسلام هي الوحدانية، وقد جاءت هذه الصفة كرد فعل على الثلاثية المسيحية. وعلى عبادة الأصنام، ووثنية الطبيعة، ولعل هذا الجانب الحقيقي في الإسلام كان السر في قوته وحيويته وسموه الروحي، فقد جاء سيدنا محمد (ﷺ)؛ ليدعو النّاس إلى صيغة دينية جديدة، وإدخال أنماط جديدة من السلوك تحقق الخير والرفاهية للمجتمع بدلًا من السجود للأوثان، واتسمت دعوته بالتأثير الروحي، وليس عن طريق العنف، واقترنت الدعوة في تطورها لعامل الزمن، وللقدوة وللتثقيف المتواصل في الدين الجديد.

وعند مغادرة وفد عُمَان يحمل ردَّ العُمَانيين على دعوة الرسول، لم يرافقه عَمْرو ابن العاص الذي بقي في عُمَان؛ لتعليم العُمَانيين وتثقيفهم تعاليم الدين الإسلامي.

ولما كان الفُرس قد رفضوا دعوة الرسول لأعتناق الإسلام، وحرصًا من عَمْرو بن العاص على إخضاع الفُرس، فقد شجع العُمَانيين على الثورة ضد الوجود الفارسي في عُمَان وطردهم من البلاد. ولقد كان طرد الفُرس من أراضي عُمَان مطلبًا قديمًا للعُمَانيين، إلا أنَّه لم تكن لديهم القوة الكافية لتنفيذ تلك الرغبة؛ ولهذا لم يترددوا في اغتنام تلك الفرصة؛ لتحقيق آمالهم في التخلص من الاحتلال الفارسي، وهكذا استطاعوا بفضل التأييد الذي حصلوا عليه من عَمْرو بن العاص.

وقامت القبائل العُمَانية بحشد قواتها استعدادًا لخوض معركة فاصلة مع الفُرس، وطردهم نهائيًّا من عُمَان.

وعندما رفض الفُرس إنذار العُمَانيين بالدخول في الإسلام والتخلي عن مطالبهم في السيادة على البلاد العُمَانية، نشبت المعركة بينهما، وهي المعركة التي سقط فيها حاكم الفُرس المرزبان، وأصيبت قواته بهزيمة ساحقة اضطرتهم إلى الإنسحاب إلى معاقلهم الداخلية؛ ولكن العُمَانيين لاحقوهم، وقاموا بمحاصرة فلولهم، إلى أنْ أرغموهم على الاستسلام في النهاية، مقابل أن يسمح لهم بالجلاء عن البلاد، والعودة إلى فارس، وبتلك المعركة تم تخليص عُمَان من الغزاة الفُرس.

ولقد كان استقبال الرسول (ﷺ) للوفد العُمَاني استقبالًا وديًّا كما يبدو، وقد وافق الرسول على إعفاء العُمَانيين من دفع الزكاة، شريطة أن توزع على الفقراء في

عُمَان. ومن المحتمل أن يكون الزعماء العُمَانيون الذين ذهبوا إلى الرسول قد انتهزوا فرصة وجودهم في المدينة؛ لدراسة الأوضاع السائدة في غرب شبه الجزيرة العربية، كما أنَّه من المؤكد أنَّهم قد تأثروا جدًّا بشخصية الرسول (ﷺ)، والاحترام والتقدير الذي كان يحظى به بين أتباعه.

وعلى الرغم من أن ممثلي الأغلبية العظمى لقبائل عُمَان التي اجتمعت في نزوى قد اتخذت قرارات للاعتراف بالنبي ﷺ رسولًا من عند الله واعتناق الإسلام، غير أن هذا لم يكن هو الموقف الغالب بين العُمَانيين، فقد امتنعت بعض القبائل من الدخول في الإسلام، حتى بين قبائل الأزد نفسها، وهم الذين كان من المفروض أن يحذوا حذو زعمائهم في الدخول في الإسلام، إلا أنَّهم تمسكوا بدينهم، وزيادة على ذلك فإن تلك الفئات لم تعدم الزعيم الشجاع الطموح الذي يتبنى موقفها في معارضة قرار الأمراء الجلندانيين، وقد كان ذلك الشخص هو ذو التاج لقيط بن مالك من شيوخ الأزد. وإن كانت القبيلة التي ينتمي إليها غير معروفة، فلقد عارض هذا الزعيم عَمْرو بن العاص في قبوله الدخول في الإسلام.

وبعد مضي عامين تقريبًا على عودة الوفد العُمَاني من المدينة مرض الرسول (ﷺ) مرض الوفاة، ولبى نداء ربه، وذلك في العام الحادي عشر للهجرة. وحتى ذلك الوقت كانت جميع أقاليم القبائل العربية في شبه الجزيرة العربية قد دخلت الإسلام، غير أن تيار الانتصارات الإسلامية لم يكن قد بدأ يتدفق إلى ما وراء شبه الجزيرة.

وبعد وفاة الرسول حدثت بعض الارتدادات عن الإسلام وفي عُمَان أيضًا، مما اضطر عَمْرو بن العاص إلى العودة بسرعة إلى مكة وأطلاع المسؤولين بهذه الأحداث.

أما الجلندانيون وعدد من القبائل الأخرى فقد ظلُّوا متمسكين في ثبات بالإسلام؛ ولكن الأغلبية من العُمَانيين وقفوا موقف المعارضين، وقد انتهز ذو التاج لقيط تلك الحالة؛ ليعلن نفسه زعيمًا للجبهة المعارضة للإسلام، ويضم إليه عددًا من الأتباع، وقد حقق نجاحًا سريعًا في ذلك، ولقد ظنَّ هؤلاء أن الدولة الإسلامية قد لا تصمد أمام تلك التيارات. مما جعلهم يلتفون حول لقيط والسير وراءه كزعيم لاستقلالهم الديني والوطني.

وبدأت خلافة أبي بكر (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) في أجواء عاصفة، ولقد لقى انتخابه شيئًا من

المعارضة، وسرعان ما أخذت تفد إليه الرسل من كافة أنحاء شبه الجزيرة تحمل إليه أنباء الارتدادات والتمرد التي وقعت في بعض المناطق.

ولقد هال الخليفة أبا بكر أن يرى البناء الشامخ الذي أقامه الرسول (ﷺ) يتعرض لتلك المفاجآت، إلا أنَّه لم يكن أمامه من سبيل إلا التركيز على المناطق الأقرب إلى المدينة، وبعد أن انتهى من تصفية تلك المشكلات، وبدأت غيوم الخطر على الإسلام تنقشع، وجه اهتمامه إلى المناطق الأخرى النائية.

أما في عُمَان فقد أخذت القبائل التي ظلَّت على ولائها للإسلام تلتف حول الزعماء الجلندانيين في نزوى، وعلى رأسهم عبد وجيفر، وأخذت تتطلع إلى خليفة المسلمين أن يخف إلى نجدتها ومساعدتها.

وبما أنَّ أقاليم جنوبي وشرقي شبه الجزيرة العربية كانت قد أعلنت التمرد، فقد ترتب على ذلك وضع الخطط الكفيلة بإخضاع تلك الأقاليم، بحيث يشملها كلها، وعليه فقد تم اختيار قواد عسكريين كلف كل منهم للعمل مستقلًا عن زملائه في البداية، ثم أخيرًا تجمعوا في عُمَان؛ لتوحيد قواتهم. وكان هؤلاء القواد هم عكرمة ابن أبي جهل الذي وبخه أبو بكر توبيخًا عنيفًا عن هزيمته على يد مسيلمة الكذاب، ثم أوفده إلى عُمَان؛ لكي يقوم بعمل يرد به اعتباره، وعرفجة بن هرثمة، وحذيفة ابن محصن، وقد قام هؤلاء القواد بتنفيذ الخطة بنجاح. وبعد مسيرة طويلة منهكة عبر الصحراء وصلوا إلى توأم في عُمَان، وطلبوا من جيفر وعبد زعماء الجلندى بملاقاتهم في صحار، حيث تم إعادة تنظيم القوات الإسلامية.

وانقسم العُمَانيون إلى فريقين، أحدهما ضد الآخر، وأحدهما وهو أكثرهم عددًا كان يتزعمه لقيط بن مالك ذو التاج الذي أدعى النبوة، ونصب نفسه زعيمًا للفريق المناهض للإسلام، مستغلًا الظروف التي كانت تمر بها الحكومة المركزية الإسلامية بعد وفاة الرسول (ﷺ)، ونجح هذا الرجل في إقناع كثير من القبائل العُمَانية بالارتداد عن الإسلام. وعلى الجانب الآخر المسلمون الذين كان يتزعمهم عبد وجيفر، وكان هذان الزعيمان قد قبلا عرض عَمْرو بن العاص فيما يتعلق باستقرار الأوضاع في المدينة وتأكيداته لهم بأن الخليفة لن يتخلى عنهم وأنَّه سوف يقدم إليهم المساعدات اللازمة؛ لمواجهة أعداء الإسلام.

وقد رأى القواد المسلمون ألا يبدأوا الهجوم ضدَّ قوات ذي التاج التي كانت

تفوقهم عدةً وعددًا؛ ولكنهم فضَّلوا أن يلجأوا إلى الحيل العسكرية، فكلفوا عمر مزيقيا بمحاولة إقناع قبائل الأزد بالوقوف إلى جانب المسلمين والتخلي عن لقيط، ولقد نجحت هذه الخطة بدرجة تفوق التصور، فقد أنقلب قسم كبير من قوات ذي التاج وانضمُّوا إلى المسلمين، بحيث تساوى عددهم مع قوات ذي التاج. ولا شكَّ في أنَّ وصول عكرمة وحذيفة من المدينة بقوة رمزية قد أقنع العُمَانيين بأنَّ الحكومة في المدينة لا تزال قوية وثابتة، وتتمتع بالقدرة على إثبات وجودها، مما حمل المترددين على إعادة النظر في موقفهم، والعودة إلى معسكر المسلمين الذي كان يزداد قوة.

بعد هذا الحادث قرر المسلمون بدء الهجوم على القبائل المرتدة، وكانت قد تجمعت قواتها في دبا، وقد نشبت معركة عنيفة وفاصلة بين المسلمين والمشركين امتدت رحاها طوال النهار وتخللتها مذابح، غير أن نتائج هذه المعركة بقيت مجهولةً وقتًا طويلًا.

أما قوات ذي التاج فبحكم موقعها الأستراتيجي لم تصمد لهجمات المسلمين فحسب، بل ونجحت في صدِّها، وإنهاك قوة المسلمين حتى كادت أن توقع بها الهزيمة، لولا أن وصلت تعزيزات في آخِر النهار؛ لتدعيم قوات عكرمة، وهكذا قَلَبَ وصول تلك القوات فجأةً ميزان المعركة لصالح المسلمين، غير أن المسلمين دفعوا ثمنًا باهظًا لتحقيق ذلك النصر، وقد خسر المشركون عشرة آلاف قتيل، وقام أنصار عبد وجيفر باجتياح ميناء دبا وإحراقه، والاستيلاء على ما كان فيه من موجودات، بحيث لم يستعد ذلك الميناء أهميته، كما أنَّه ظلَّ مرتبطًا في أذهان المسلمين بذلك النصر الذي تحقق لهم من عند الله. ومنذ ذلك الوقت أُخرست أصوات المشركين في عُمَان، وَقُبرت الوثنية فيها إلى الأبد؛ ولهذا دخلت موقعَة دبا في التاريخ واعتبرت بداية للعهدَ الإسلامي في عُمَان.

أما زعماء الجلندى ومؤيدوهم من القبائل فقد ظلُّوا متمسكين بالإسلام؛ ولهذا فقد كوفئ بعضهم من الغنائم التي تم الاستيلاء عليها، وذلك تقديرًا لهم على مساهمتهم في النصر الذي تحقق للمسلمين. وفي نفس الوقت بادرت القبائل التي أيدت المرتدين عن الإسلام إلى إعلان ولائها للزعماء المسلمين في عُمَان، أما ما حدث لذي التاج لقيط، مدعي النبوة، فإن الروايات لم تذكر شيئًا عن ذلك، ولعله

تعرض لمطاردة حذيفة الذي بقي في عُمَان، بناء على التعليمات التي وصلت من أمير المؤمنين أبي بكر (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) لإعادة الاستقرار والنظام وتدعيم الوجود الإسلامي في عُمَان وتعميق العقيدة الإسلامية في نفوس أهلها.

وقد كلف عرفجة بنقل الحصة الخامسة من الغنائم إلى الخليفة، وقد توجه بها إلى المدينة على الفور.

وتقضي التعليمات التي تلقاها عكرمة أن يتولى قيادة جيوش المسلمين، ثم يتحرك نحو حضرموت التي ارتدت هي الأخرى عن الإسلام بعد وفاة الرسول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)؛ ولكن بعد أن ينتهي من تحقيق الأمن والاستقرار في عُمَان.

وأخذ عكرمة يستعد؛ لتنفيذ تلك التعليمات، وقام بتجهيز القوات المحاربة من أبناء الحجاز، ثم غادر بالحملة إلى حضرموت والمهرة مصطحبًا معه وحدتين عسكريتين إضافيتين من قبيلتي عبد القيس والنجيه، بالإضافة إلى قوة صغيرة من رجال سعد بن زيد بن مناة بن قيم.

وعند وصول عكرمة إلى بلاد المهرة رأى أن أهلها منقسمين إلى فئتين، فئة يتزعمها رجل يدعى سخريت، والأخرى: يتزعمها مصبح، وقد ساعد هذا الانقسام المسلمين في تحقيق الانتصار، فقد نجح عكرمة في كسب سخريت إلى صفوف المسلمين، وأما مصبح فقد قُضي عليه، وفي ختام ذلك الانتصار عقد مؤتمر كبير من أهالي المهرة وحضرموت الَذين أعلنوا فيه قبولهم الدخول في الإسلام وإعلان ولائهم للخليفة.

وبعد سفر عكرمة من عُمَان خلفه حذيفة، وكانت الأوضاع في ذلك الوقت هادئةً في مظهرها؛ ولكنها في واقع الأمر كانت في حالة اضطراب وقلق؛ بسبب المرحلة الانتقالية التي كانت تمر بها البلاد. وواضح أن عبد وجيفر قد عجزًا عن تقدير أهمية النتائج التي ترتبت على دخولهما في الإسلام، وعن التغييرات التي كانت ستشهدها عُمَان بل العالم كله.

فقبل ثلاث سنوات فقط من ذلك التاريخ كان العرب يعيشون في حالة من الجهالة والبربرية، ومنقسمين إلى طوائف ومشيخات، بينما هم الآن قد أصبحوا أُمّةً عظيمةً موحدةً تربطها عقيدة في غاية القوة والنقاء، وعلى رأسها خليفة يوجهها ويقودها إلى مزيد من الانتصارات والفتوحات.

إن الإسلام لم يكن مجرد عديد من العقائد الدينية الجامدة، وإنما هو دستور كامل من الشرائع والقوانين الدينية التي تدعو العرب إلى أن ينبذوا الوثنية؛ لينتظموا في مجموعة جديدة من القوانين التي لا تتناول أشخاصهم فحسب، وإنما تنظم علاقاتهم بعضهم ببعض، وتحدد موقفهم ورؤيتهم من المِلل الأخرى.

ولقد مسَّ التغيير الذي جاء به الإسلام كل شيء، غير أن الأركان الأساسية للإسلام، وهي شهادة أن لا إله إلا الله، والصلوات الخمس، والصوم، ودفع الزكاة، وحج البيت، وهكذا حلَّ الإسلام، وهو أكثر الأديان سموًّا في تاريخ الإنسانية، محلَّ الوثنية التي كانت عقيدة تنحط بالإنسان.

وإنه لمن العسير على المحللين أن يقدروا أهمية النتائج التي أسفرت عنها دعوة الرسول للمسلمين، والتغيير الذي أدخله على حياتهم، وعليه فإنَّ الرسول (ﷺ)، بوصفه مبعوثًا إلاهيًّا للدين الإسلامي، فقد كان يستحق التوقير والإجلال من العالم كله، ذلك أن مهمة الأنبياء هي توسيع آفاق العمل الإنساني، ووضع القوانين التي تحرر النّاس من الاضطهاد والعبودية والتخلف، وتحديد العقوبات على المخالفين والعصاة، وقد حقق الرسول هذه القيم في أكمل صورها، وجاءت تشريعاته مُعبّرةً عن روح عصره وأمته العربية، ونجحت تلك التشريعات في محو الإساءات والتشويهات التي كانت تعاني منها شعوب الإنسانية، كما أحدثت تغيرات ليس لها مثيل في أوضاعهم، وسمت بالرفاهية الاجتماعية للأمة العربية.

ولكي نفهم أهمية التغيرات فإنه من الضروري أن نلقي نظرةً فاحصةً على معالم الحياة الروحية للنّاس في العصور الوثنية. والواقع أنَّه من الصعب رسم صورة دقيقة للإنسان العربي في عهوده الوثنية ومرحلته الهمجية؛ نظرًا لأنَّ الحماس المتدفق من ظهور الإسلام قد محا كلَّ أثرٍ لصور تلك الحقبة، إلا أنَّه أمكن استخلاص بعض الملامح من الأدب العربي.

كان العُمَانيون مثل الحميريين والصابئين من عبدة الأوثان قبل الإسلام، وكان يشاركهم الهنود سكان السواحل، وكانت الآلهة التي يعبدونها متعددة، فقد كان منهم من يعبد الكواكب ومنهم من يعبد الصخور، وكان لكلٍّ قبيلة من هذه القبائل آلهتها التي تحتمي بها، وإن كانت الآلهة في الواقع مجرد وسيط بينهم وبين الخالق الأكبر، ومنهم من كان يؤمن بتناسخ الأرواح؛ ولهذا فقد كان أعظم إنجاز حققه

الرسول هو تحريمه وأدَّ البنات، والزواج غير المحدود من النساء واستعبادهن، وزواج الربائب وزوجات الأب، والخمر، ولعب الميسر؛ ولكن الإسلام احتفظ بالختان، وتملك الأسري، وإن كان الحق الأخير قد قام على قيود ولم يتحول إلى مهلكة وقسوة، كالتي اقترفت في بعض البلاد المسيحية، أو البلاد التي تعتبر أكثر تقدمًا.

أما أن الرسول كان مدفوعًا إلى تلك الثورة التشريعية بحكم دراسته ومراقبته للأوضاع التي كانت تسود الأديان الأخرى والمسيحية بوجه خاص، فإن تلك حقيقة لا يرقى إليها الشك، وربما كان في وسع المسيحية التي سبقت الإسلام بعدة قرون أن تحلَّ محلَّ الأديان الأخرى في آسيا الغربية لولا سلوك رجال الكنيسة الذين أرهقوا المسيحيين بشذوذهم، فإن ميزة التفوق التي كان يتحلى بها الإسلام هي في مجال تحرره من سلطة رجال الدين، فكان هذا أمرًا غايةً في الوضوح؛ ولهذه الأسباب فإن المسيحية فشلت في تلك المناطق، ولم تتمكن بعد ذلك أن تستعيد مكانتها. ولا مِرَاءَ في أنَّ سيّدنا محمد (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قد وضع عناصر لحياة إنسانية جديدة سواء في مجالاتها السياسية أو الاجتماعية أو الأدبية، وهكذا استحوذت تلك العناصر على العقل العربي بصورة عجزت عنه المسيحية عجزًا تامًا؛ ولهذه الاعتبارات فإن الرسول سيدنا محمد (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يعدُّ أكبر مُصلح عرفه التاريخ. ولعل حيوية الإسلام وفاعليته تكمن في المشاعر والأحاسيس التي فَجرها بنفس القدر الذي كانت تكمن في مثل القرآن الكريم ومبادئه، وإنَّ سيطرة هذه الدوافع على عقل الإنسان هي التي ميزت بوضوح مفهوم الحياة في ذلك العصر، ذلك أنَّ أحداث التاريخ الإسلامي لا تزال حيّةً في أذهان أصحابه حتى الآن، وأنَّها قد أثرت على سلوك المسلمين ومواقفهم إلى حدٍّ كبير. وبطبيعة الحال فإنَّ التغيير في أفكار النّاس وعاداتهم من جراء الإسلام قد استغرَق وقتًا أطول في عُمَان، ولم يتسنَّ للاصلاحات أن تكون في عُمَان بصورة واسعة قبل أن يذهب الجيل القديم ويظهر جيل عُمَاني جديد لا يعرف أي شيء عن النظام القديم، غير أن الإسلام وتشريعاته كانت مساهمة كبرى في تطوير المجتمع العُمَاني، وتحقيق أقصى ما يمكن من الرخاء والرفاهية لأصحابه، وهذا ما جعل العُمَانيون يرحبون بالإسلام ويفتحون له قلوبهم.

بقى حذيفة في الحكم ثلاث سنوات وكان معتدلًا في سياسته، وفي ممارسته للسلطة، ولم يسجل المؤرخون وقوع أيّة حوادث أو شكاوى في عهده بالنسبة

لإدارته لشؤون البلاد. وقد ركز اهتمامه على إزالة كل مظاهر مجتمع الوثنية، وفي تعليم العُمَانيين مبادئ وتشريعات الدين الجديد، وعمل ما في وسعه ليمهد الطريق للدين الإسلامي تنويرًا لعقول العُمَانيين، ولابد من الاعتراف بأنَّ عُمَان قد أخذت تشهد عهدًا جديدًا من الإشراق والسمو الروحي والرخاء يوشك أن يطل على مجموعة الشعوب الإسلامية.

وهكذا فإن الحضارة المندرسة للفُرس، والديانات الغامضة كالزرادشتية وغيرها، والأشكال النمطية للمسيحية، والفساد الذي كان يستشري بين رهبان الشام، كل تلك المظاهر كان عليها أن تختفي وأن يحلَّ محلّها نظام أقوى وأوضح؛ ليعم الدنيا كلّها من سواحل الأطلسي إلى سمرقند.

والواقع أن العُمَانيين بوجه عام لم يتخلوا نهائيًّا عن عاداتهم ومعتقداتهم الخرافية بسهولة أو بغير صراع، إذ لا بُدَّ أن تكون قد تخللت تلك المرحلة بعض مظاهر المرارة والحقد والاضطهاد قبل أن يستقر القرار بالدين الإسلامي، ولعل تمرد لقيط قد أماط اللثام عن مدى رسوخ المؤسسات القديمة في باطن الوعي العربي، وعن كيفية سيطرة المعتقدات الخرافية القديمة على العقول.

ولا بد أن يكون قد خرج إلى الوجود أكثر من جيل عُمَاني واحد قبل أن تختفي العصبيات القديمة، وتحلّ محلّها التغيرات والتطلعات الجديدة للإسلام.

ولا يتحدث المؤرخون العرب عن العملية التدريجية لتلك التغييرات، ولابد من التكهن لتحديد ملامح عمليات التصحيح التي سادت المجتمعات العربية في تلك الفترة؛ لكي تخلي مكانها للأفكار والمبادئ الجديدة.

ولكي نتعرف على الحالة المعنوية للعُمَانيين بعد ظهور الإسلام فإنَّه يمكننا ذلك عن طريق مقارنتها بأوضاع أهل دمشق وبغداد اللتين تعتبر عُمَان صورة مصغرة لهما.

عند ظهور النبي (ﷺ) كان عبد وجيفر أمراء الجلندانيين يقيمان في نزوى أثناء ولاية حذيفة لعُمَان. وكان عبد قد توجه إلى المدينة ضمن قافلة الغنائم والأسرى التي رافقت عرفجة في رحلة العودة، وعند وصول عبد إلى المدينة التحق بالعمل على ما يبدو لدى الخليفة أبي بكر (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، وفي العام (١٣هـ/ ٦٣٤م) توفى الخليفة أبي بكر (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، وكان عمره حينئذٍ ٦٣ عامًا، بعد أن نجح بكثير من الجهد والمعاناة من

لَمِّ شمل البلاد العربية التي كادت أن تؤدي بها الانشقاقات.

وخلفه عمر بن الخطاب (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، الذي اشتهر في سلوكه بالشدة والصرامة في تطبيق الشريعة الإسلامية. ولأسباب ظلت خافية قرر الخليفة عمر استدعاء حذيفة من قيادته لقوات المسلمين في عُمَان، والسماح لعبد وجيفر بتولى السلطة بدلًا منه وإخضاعهما لسلطة الأمير الإسلامي في البحرين أبي العاص الثقفي، وكان من أشهر المحاربين.

وجدير بالذكر أن الوضع الخاص الذي منحه الرسول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) للعُمَانيين في العام التاسع للهجرة بتوزيع قيمة الزكاة العُمَانية على فقراء عُمَان، قد سُحِبَ في أعقاب تمرد لقيط، وتلقى المسؤول في البحرين تعليمات بإرسال الزكاة العُمَانية إلى الخليفة.

وطوال خلافة عمر بن الخطاب (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، بقيت الإدارة الذاتية في عُمَان تخضع للزعيمين الجلندانيين، وكانا يمارسانها بالاشتراك، ونظرًا لموقع عُمَان الطبيعي، حيث يحدُّها البحر من جهة والصحراء من جهة أخرى، فإنَّها لم تكن أقل المناطق تطورًا عند ظهور الإسلام، غير أن حوافز التطور التي فجرها الإسلام لا بُدَّ أنَّها كانت هائلة.

وكانت لعُمَان علاقات تجارية مع الهند والخليج. وعلى أيّة حال فإن اعتناق العُمَانيين للدين الإسلامي قد أيقظها من سباتها وبدأت تسري في أوصالها روح جديدة من الحماس الديني والثقافي والعسكري، وأخذ تعداد السكان في عُمَان يتزايد والحِرف الصناعية تنتشر في البلاد، كما انضمَّ كثير من شبابها للخدمة العسكرية مَدفوعين بحماس العقيدة، كما أخذت كل أسرة في عُمَان تقريبًا تشجع أبناءها على الانخراط في الأعمال الملاحية والتجارية، كما اختفت الصراعات والعصبيات القبلية، وأخذ سيلٌ من الثورة يتدفق عليها، ويفسح لها الطريق لحياة الازدهار والترف، كما تدعم التعاون الاجتماعي والاستقرار العائلي، وأخذت القرى والأحياء المزدهرة تبرز وتنمو في كل بقعة من البلاد، واتسعت رقعة الأراضي الزراعية، وساد البلاد نموذج من الحياة المتحضرة بعد أن كانت قبل وقت قصير غارقة في الجهالة الوثنية والجمود.

وهكذا كانت الوضاع في عُمَان تبشر بخير عميم عند وفاة الإمام جيفر بن الجلندى في نزوى، وبما أنَّه لم ينجب ذرية فقد خلفه في الإمامة ابن أخيه عباد بن عبد، وذلك في عهد خلافة عثمان بن عفان.

وتحت نبض الإسلام وقوة تأثيره واصل عباد حكم الدولة العُمَانية بالسلام والرخاء إلى أن وقع حادث اغتيال الإمام علي بن أبي طالب، وأسفر عن أحداث وانقسامات أصيب بها المسلمون، وأدت إلى نشوب صراع ضدّ بني أمية.

وقد رفضت عُمَان سلطان الخليفة الأموي الأول واحتفظت باستقلالها، وكغيرها من أقطار شبه الجزيرة.

وإنَّه من المناسب أن نشير هنا إلى أن فترة نصف القرن التالية قد شغلتها أحداث هامة في إنجلترا ابتداء من عام ٦٢٠م إلى ٦٧٠م وتمثلت في الصراع البريطاني بين السلتيين أي الشماليين والأنجلو سكسونيين الذين قاموا بغزوها، وانتهى الصراع بانتصار الأخيرين.

ولقد ترك الإمام عباد حكم مملكته التي كانت تنعم بالاستقلال والرخاء إلى نجليه سليمان وسعيد، ويبدو لنا أن كلًّا من يزيد ومروان خليفتي بني أمية لم يتدخلا في شؤون عُمَان في ذلك الوقت، وربما لانشغالهما بأمور أكثر أهمية.

وفي عهد عبدالملك بن مروان الذي نجح في توطيد دعائم حكمه بعد وفاة عبدالله ابن الزبير، تم تعيين الحجاج بن يوسف واليًا على العراق في سنة ٧٥هـ، كما تبع ذلك فتوحات السند وعُمَان وساحل بلوشستان.

واقتصر الأمر في البداية على إيفاد مندوبين إلى تلك المناطق؛ لتحصيل الزكاة لحساب الخليفة إلا أنَّ العُمَانيين وقد شجعتهم الانتصارات التي حققها الإباضيون في مناطق أخرى من الأمبراطورية رفضوا مطالب الحجاج بن يوسف مما اضطره إلى التفكير في استخدام القوة العسكرية لإخضاعهم.

وعلى الفور جُهّزت حملة عسكرية عقد لواؤها القاسم بن شعوة المازني، وأبحرت في العام السابع والسبعين للهجرة تقريبًا.

ويعتقد المؤرخون بأن الحملة رست بالقرب من ميناء الجصة على ساحل عُمَان، بحيث تمكنت من مفاجأة العُمَانيين بمجيئها من وراء خطوطهم؛ ولكن يبدو أن القوة نزلت في مكان آخَر وهو يتّي الواقعة في منطقة وادي الميح، وهي منطقة وعرة متعرجة تتناثر فوقها سلاسل من الصخور.

وعلى الجانب الآخَر كان الإمام سليمان قد أعد العدة لمواجهة قوات الحجاج، وكانت قبائل الأزد ونزار تقف كلها من خلفه، وأقامت القوات العُمَانية معسكرها في نقطة تمكنها من مواجهة الخصم عند الاحتكاك به.

وفي وادي حطاط التقى الجيشان، ونشبت المعركة بعد أن تدفقت القوات القبلية العُمَانية إلى ميدان المعركة عبر وادي سمائل، وهو الطريق العام في عُمَان.

وإذا كانت المراجع التاريخية لا تعطي رأيًا حاسمًا عن حجم القوتين، إلا أنه من المؤكد أن العُمَانيين قد حشدوا جيشًا جرارًا، وكان جيشًا واثقًا من نفسه ومن معرفته الدقيقة بأراضيه، وهكذا نشبت معركة ضارية قاتلت فيها قوات الخليفة ببسالة نادرة، غير أنَّه كان في وسع العُمَانيين أن يهاجموا جيش الخليفة من نقاط كثيرة، وكانت هجماتهم ساحقةً لا تقاوم.

وقد قتل قاسم المازني قائد جيش الخليفة أثناء المعركة، وخسر عددًا كبيرًا من أفراد جيشه لم ينجح منهم إلا عدد قليل لاذوا بالفرار عن طريق البحر.

ونتيجة تلك المعركة أنقذت عُمَان مؤقتًا من الغزو، غير أن ذلك النصر كان نصرًا قصير الأجل؛ لأنَّ عبدالملك بن مروان الذي هزمت قواته بصورة مشينة على أيدي العُمَانيين ثارت ثائرته؛ ولهذا أصدر أوامره لإعداد قوة أكبر لغزو عُمَان، لمحو العار الذي لحق به: (ومعاقبة المتمردين العُمَانيين).

وكانت الحملة الجديدة التي خطط لها وأشرف على إعدادها الحجاج بن يوسف شخصيًّا، وأظهر فيها كل مهاراته العسكرية، وقد عقد لواءها لمجاعة بن شعوة شقيق قاسم، بلغ من حرص الحجاج على إنجاح حملته العسكرية الجديدة على العُمَانيين أنَّه حذر جماعة الأزد في البصرة من الاشتراك فيها أو تقديم المساعدة للعُمَانيين بأي شكل من الأشكال.

وقدر عدد أفراد الحملة هذه بنحو أربعين ألفًا من الفرسان والمشاة وبالرغم من أن هذا الرقم قد يكون فيه مبالغة، إلا أنَّ الذي لا شكَّ فيه هو أن الحملة الثانية كانت أقوى وأكبر من الأولى.

ولكن حتى هذه الحملة منيت بالفشل؛ وذلك بسبب فقدان التعاون والتنسيق بين فصائل قوات الحجاج، وإن كان الانتصار الذي حققه العُمَانيون هذه المرة قد كلفهم ثمنًا باهظًا.

وبما أنَّ الإمام سليمان قد عرف بأمر الحملة مُقدمًا، فقد حرك قواته التي كانت تتألف من ٣٠٠٠ فارس، و٣٥٠٠ من راكبي الجمال، وبعد عبور هذه القوة منطقة البريمي التقت بجيش الحجاج في أبوظبي، وأنقضَّ بعنف على قوات الحجاج رغم تفوقها في العدد فاضطرت إلى التقهقر عبر صحراء الدهناء.

وفي الوقت الذي كانت هذه الأحداث تجري كان مجاعة يبحر بأسطوله عبر الخليج فنزل بقواته على ساحل الباطنة في منطقة قريبة من المصنعة، ومنها تحرك نحو بركاء، والتحم بقوات سعيد بن عباد بن الجلندى الذي انهار جيشه بسرعة.

هرب سعيد بن عباد إلى الجبل الأخضر غير أن مجموعة من الجيش النزاري تعقبته إلى هناك وحاصرت قواته، أما سليمان الذي كان قد طهر منطقته من الغزاة في الناحية الشمالية من عُمَان وبلغه وصول مجاعة فقد عاد إلى الباطنة، وعند وصوله إلى مسقط وجد أسطول الخليفة الذي يتكون من ٣٠٠ سفينة راسيًا في الميناء، فهاجمه وتمكن من اقتحام وتدمير وحرق نحو ٥٠ سفينة من الأسطول، بينما فرت بقية السفن إلى عرض البحر.

وبعد أن تمكن سليمان من القوة البحرية لخصمه، تحرك بقواته إلى وادي سمائل في محاولة لانقاذ أخيه سعيد. وكانت قوات مجاعة بن شعوة ترابط فوق التلال، ويبدو أن جيش مجاعة كان قويًا وكان قد وزع توزيعًا إستراتيجيًّا؛ ولهذا فلم تسفر المعركة التي نشبت بين الجانبين عن نتيجة حاسمة، وفي النهاية أدرك مجاعة أن مركزه غير مضمون، فقرر أن يتراجع وهكذا انسحب من مواقعه عبر ساحل الباطنة وتوجه إلى جلفار.

علم الحجاج بهزيمة مجاعة في موقعة أبوظبي على يد الإمام سليمان بن عباد، وأصيب بخيبة أمل كبيرة، إلا أنَّه لم يستسلم، وأخذ على الفور في إعداد قوة أخرى بنحو ٥٠٠٠ فارسٍ، وعَين قائدًا عليها عبدالرحمن بن سليمان الذي تحرك على الفور متجهًا إلى عُمَان عبر طريق الصحراء، وفي سمائل التقى الجيشان، وبوصول القائد الجديد عبدالرحمن إلى ميدان المعركة، وبجيش قوي تغيرت الصورة، وتمكن مجاعة من استئناف هجومه على العُمَانيين الذين كانوا قد انهكوا من طول القتال، واستنزفت قواهم من جراء المعارك المتواصلة، التي كانوا يخوضونها دفاعًا عن بلادهم، كما أن وصول إمدادات جديدة إلى قوات الحجاج قد أثر على معنوياتهم،

ومن ثم فقد قرر الأميران الجلنديان وقف الحرب ومغادرة البلاد، وهكذا خرجا من عُمَان، هما وعائلاتهما واتجها إلى شرقي أفريقيا، وهناك قضيا بقية حياتهما. وهكذا كانت النهاية لحكم أسرة الجلندى في عُمَان.

وأعقب ذلك خضوع أهل عُمَان لسيطرة الحجاج وتعرضهم لعمليات اضطهاد قاسية انتقامًا للمقاومة العنيدة الباسلة التي أظهروها ضدَّ الخليفة.

وقد غمرت الحجاج السعادة في الانتصار الذي حققه جيشه على العُمَانيين بعد نكسات وهزائم عديدة، وقد عيّن على عُمَان الخيار بن سبرة المجاشعي، ومنحه لقب أمير، كما فرض ضريبة جديدة على العُمَانيين، بالإضافة إلى الزكاة.

بعد هذا الفتح الذي أسفر عن تشريد عائلات الأزد، قرر عبدالملك بتحريض من الحجاج بن يوسف أن يمد سيطرته إلى الهند، ولمَّا كان جزءٌ كبيرٌ من ساحل مكران قد خضع بالفعل لبني أمية، فقد عيّن الحجاج سعيد بن أسلم بن زرعة القلالي حاكمًا على ساحل مكران، وأعطاه التعليمات بمواصلة الحرب، وقد قام سعيد بإعدام شخص يدعى صفن بن لام الحمامي، وينتمي إلى أسرة العوفي العُمَانية ذات النفوذ، وهي من بني عصمة. وقد ثار على ذلك العمل محمد ومعاوية نجلا حراص العوفي – وهاجما الوالي سعيد بن أسلم وقتلاه واستوليا على السلطة.

وبمجرد أن أبلغ الحجاج بن يوسف بذلك الحادث أمر باعتقال سليمان العوافي من أهل البصرة وإعدامه، كما اتخذ في الوقت نفسه إجراءات صارمة لتأكيد سلطته، وذلك بإيفاد جناح بن سيرة التميمي على رأس قوة عسكرية وأمره بالتوجه إلى كرمان.

حلَّ محمد بن هارون بن زرعة المعمري محلَّ مجاعة، وفي عهد محمد هذا قام بعض القراصنة من السند بالهجوم على ثماني سفن كانت في طريقها من سيرلانكا بشحنة من الهدايا للخليفة ونهبوها، وعندما بلغ الحجاج ذلك سير حملة بقيادة عبيدالله ابن نبهان؛ لتأديب القراصنة، غير أن الحملة هزمت، وذبح قائدها عبيد الله باشتراك بعض العُمَانيين، إلا أنَّ الحجاج لم يرضخ لتلك النتيجة وجهز حملة أخرى أكبر بقيادة بديل بن تحفة البجلي، وكان هذا يرأس بعض وحدات الجند التابعة للخليفة في عُمَان. وقيل أن الحملة توجهت بطريق البحر؛ ولكن هناك احتمال آخَر، وهو أن تكون الحملة قد تحركت عن طريق مكران، حيث كان الوالي هناك محمد بن قاسم

قد تلقى تعليمات من الحجاج بتزويد الحملة بـ ٣٠٠٠ مقاتل بالإضافة إلى إمدادات أخرى أرسلت من عُمَان بقيادة عبدالله بن قحطان، غير أن محمد بن قاسم الذي فتح السند أصدر فيما بعد عفوًّا عن جميع العُمَانيين.

في عام (٨٦هـ/ ٧٠٥م) توفي عبدالملك بن مروان، وخلفه أكبر أنجاله الوليد الذي أطلق عليه (فرعون بني أمية) وفي عهده اتسعت آفاق الأمبراطورية الإسلامية، وارتفعت إلى أعلى ذراها وقوتها من حيث المساحة التي شملتها.

وبالرغم من أن الوليد أبقى الحجاج في العراق، إلا أنَّه أجرى حركة تنقلات لبعض الحكام الصغار العاملين تحت سلطة الحجاج في بعض الأقاليم، ومن بينها عُمَان التي عين فيها صالح بن عبدالرحمن الليثي.

وحلَّ يزيد بن أبي أسلمة محلَّ الحجاج في العراق مما ترتب عليه تعيين يزيد بن سيف بن هاني الحميدان واليًا في عُمَان.

وفي عام ٩٦هـ تولى سليمان بن عبدالملك الخلافة بعد أخيه الوليد، وعلى الفور أجرى حركة تنقلات بين المناطق العُمَانية، فعين صالح بن عبدالرحمن حاكمًا عامًا، إلا أنَّه أدرك فيما بعد ضرورة إعادة أولئك المسؤولين إلى وظائفهم، بينما ترك صالح أميرًا على عُمَان.

ولم يستمر صالح بن عبدالرحمن طويلًا في السلطة، فعندما تولى يزيد بن المهلب ولاية بغداد عام ٩٨هـ قام بتعيين أخيه الصغير زياد محل صالح بن عبدالرحمن، ولما كان آل المهلب قد ذاع صيتهم في الكرم والأريحية، فلم يكن من المستغرب أن يؤكد المؤرخون العُمَانيون على تأييد العُمَانيين لحكم زياد ورضاهم عنه.

وعندما تولّى عمر بن عبدالعزيز الخلافة تورط يزيد بن المهلب في فضيحة في دمشق، فحلّ محلّه زياد بن علي الفزاري كحاكم على عُمَان، غير أن هذا الأخير عيّن شخصًا آخر بالنيابة عنه لحكم عُمَان، فأفسد هذا في الحكم مما اضطر العُمَانيين إلى أن يطلبوا من الخليفة سحبه. وعلى العموم فقد كانوا راضين عن زياد. إلا أنَّ عمر كان غير راضٍ عن آل المهلب، ورفض تثبيت زياد في عُمَان. وأخيرًا عين أميرًا جديدًا هو عمر بنَ عبدالله بن صبيحة العوسري، وقد أيده العُمَانيون لعدله ونزاهته في الحكم وبقي في هذا المنصب حتى نهاية عمر.

وبعد اغتصاب يزيد للحكم في البصرة استدعى عمر بن عبدالله العوسري وعيّن بدلًا منه أخاه زيادًا كحاكم على عُمَان.

وبالنسبة لمعركة دبا، التي وقعت في العام الثاني عشر بعد الهجرة، أشرت إلى أن أبا صفرة الأزدي كان أحد الشبان الذين وقعوا في الأسر بعد سقوط تلك المدينة.

وبالتالي فإن تعيين حفيد هذا الزعيم وهو زياد كحاكم على عُمَان يسمح لنا برسم صورة مصغرة لهذه الأسرة العُمَانية التي ذاع صيتها في العالم الإسلامي؛ من حيث المركز والإنجازات، التي قامت بها خلال حكم بني أمية على نفس المستوى الذي ذاع فيه صيت البرامكة خلال حكم العباسيين، والاسم الكامل لأبي صفرة هو سالم بن سراق العتيكي الأزدي، وقد أقام في البصرة كما يبدو، وأنجب ثلاثة أبناء هم المهلب، وصفرة، وورق.

ولقد كان المهلب من أبرز الرجال وأعظمهم موهبة، وكان أحد زعماء عصره، وقد ولد على ما يبدو بعد عشرين عامًا من وفاة الرسول الأعظم (ﷺ)؛ ولكنه لمع وهو لا يزال في سنِّ الشباب.

ولقد لعبت قبائل الأزد دورًا هامًا في الحروب التي نشبت فيما بين المسلمين أنفسهم، مما كان له تأثير على مجرى الأحداث في تلك المرحلة من التاريخ.

ويبدو أن هذه الأسرة العُمَانية بما كانت تتمتع به من قوة ونفوذ والتي استولت على بعض الأقاليم الفارسية كهرمز، ولارستان، قد أسهمت بدور كبير في بناء الأمبراطورية الإسلامية، ولقد تغنى الشعراء العرب بشجاعتهم وفضائلهم وأريحيتهم. واستطاعوا إلى حدٍّ ما أن يستعيدوا بعض أمجادهم في عهد العباسيين، أما في أواخر عهد بني أمية فقد وصل الحقد والعداء عليهم إلى أقصى الحدود.

وبعد خمسة عشر عامًا من اعتناق العُمَانيين للمذهب الإباضي انهار حكم بني أمية، وقامت دولة العباسيين بزعامة عبدالله بن محمد الملقب بأبي العباس السفاح، ومؤسس الدولة العباسية الذي اتخذ من الهاشمية مقرًا له.

وفي عام ١٣٣هـ منح أبو العباس حكم البصرة وتوابعها- البحرين وعُمَان- إلى عمِّه سليمان بن علي الذي كلف بدوره جناح بن عبيدة بين قيس بن عمر بن علي الهنائي بحكم عُمَان. وبالصدفة فإن عددًا كبيرًا من أصدقاء بني أمية ومؤيديهم الذين

كانوا قد فروا من البصرة بعد الأحداث التي وقعت فيها، وتمثلت في المعركة التي قادها ضدّهم جيش من خراسان، لجأوا إلى عُمَان التي استضافهم أهلها ومنحوهم الحماية، غير أن المسؤولين في الدولة العباسية لم يشاءوا في البداية التعرض لتلك الأسر انتظارًا لفرصة مواتية.

في ذلك الوقت كانت عُمَان قد تحررت من السيطرة الخارجية، كما كان العُمَانيون راضين عن النهاية التي انتهى إليها الأمويين بعد أن ذاقوا على أيديهم مرَّ العذاب، فقد كانوا يشعرون بالقلق من حكم أولئك الخلفاء؛ ولذلك فإنَّهم لم يرحبوا بالدولة العباسية، غير أن المرحلة لم تكن مواتية لإعلان ثورتهم، كما لم يرغبوا في أن يجعلوا من أنفسهم هدفًا لنقمة أبي العباس السفاح. ولهذه الأسباب فضل العُمَانيون السكوت مؤقتًا والسماح لمبعوث العباسيين بممارسة مهامه، وبدفع الزكاة إلى الخليفة.

كان جناح بن عبيدة حاكمًا حذرًا وحصيفًا، وكان يعي تمامًا ما يسود موقفه من حساسية وظنون؛ ولهذا فقد سعى إلى كسب رضى العُمَانيين وانتهاج سياسة الاعتدال والليونة، وتجنب كل ما من شأنه أن يثير المشاعر، كما كان على ما يبدو يتعاطف مع العُمَانيين لدرجة أنَّه اعتنق المذهب الإباضي بنفسه، وأصبح من أكبر الدعاة لهذا المذهب. غير أن ذلك الموقف كان لا بُدَّ أن يغضب المسؤولين في الهاشمية، وسرعان ما صدر قرار بعزل ابن عبيدة وتعيين نجله محمد خلفًا له.

وعلى أيّة حال فقد أطلق تعيين محمد بن جناح الاضطرابات السياسية من عقالها في كل أنحاء عُمَان، وأما والده فقد أعلن بعد صدور القرار بفصله بأنَّه من أتباع المذهب الإباضي، وشرع في تأليب الشعور المعادي للخليفة، وتحريض العُمَانيين على الثورة ضدَّ السيطرة العباسية.

وانحازت الطوائف السنية من العُمَانيين إلى الحاكم محمد بن جناح؛ ولكن الفئات الإباضية التي كانت تشكل الجانب الأقوى في عُمَان رفضت سيطرة الخليفة وجمدت الزكاة، مما اضطر الحاكم محمد بن جناح بعد أن أصبح موقفه حرجًا أمام تهديدات الطوائف المنشقة، إلى مغادرة عُمَان، والتوجه إلى الخليفة في بغداد لعرض الأمر عليه.

ولقد أعقب ذلك فترة من الاضطرابات والصراع المرير، وتفجرت الأحقاد القبلية

القديمة والعداوات المذهبية، وبالرغم من أن جناح بن عبيدة كان قد ربط مصيره بالطائفة الإباضية، إلا أنَّه على ما يبدو لم يكن له دور قيادي في الحركة المناهضة للخليفة، مما اضطر العُمَانيين إلى اختيار رئيس جديد لهم، ولم يطل الوقت بهم فقد قام العلماء ورجال الدين بانتخاب أمام جديد هو الجلندى بن مسعود.

كان هذا الاختيار نقطة تحول في تاريخ عُمَان؛ لأنَّ هذا الإمام كان الرجل الذي أجمع الإباضيون على انتخابه بمحض إرادتهم، وعليه فقد لقب (بالإمام الصالح)، ولقد برهن الجلندى بن مسعود على كفاءة ومقدرة نادرتين مما أتاح له الفرصة لتصفية الاضطرابات وبعث الروح الثورية والحماس المذهبي في العُمَانيين.

غير أن تلك التطورات قد هيأت، من ناحية أخرى، الفرصة التي كان يتحينها الخليفة العباسي لتوجيه الضربة إلى عُمَان، فقد كان مصممًا على اتخاذ كافة الإجراءات لإشباع شهوته وتثبيت سلطته.

ولم ينس الخليفة العباسي الأمويين الذين تمردوا عليه ولجأوا إلى عُمَان، فقد كان مصممًا على الانتقام منهم، وعلى الرغم من أنَّهم كانوا يتمتعون بالحماية في عُمَان إلا أنَّه كان واثقًا من أنَّهم في متناول يده، وليس هؤلاء وحدهم فحسب، بل الزعماء العُمَانيون الذي آووهم وتمردوا على سلطته وقاموا بطرد ممثله.

وهكذا في عام ١٣٣هـ صدرت الأوامر بإعداد حملة عسكرية وضعت تحت قيادة الشيخ شيبان. غير أن الخليفة العباسي هو الآخَر أرتكب نفس الخطأ الذي وقع فيه عبدالملك بن مروان وذلك للتقليل من قوّة خصومه، ثم تبيّن له أن الحملة كانت أضعف مما يجب، كما كان يجب أن تبحر الحملة من ميناء البصرة، (ثم تلتقي عند وصولها بكتائب قبائل السنية والنزارية بقيادة هلال بن عطية الخراساني ويحيى بن نجيح).

وقد تمت العملية في موعدها المحدد. وفي مدينة توأم تقابلت القوتان العُمَانية والخليفية، وقد كلف الإمام الجلندى كلا من هلال ويحيى بقيادة القوات العُمَانية غير أن نتيجة تلك المعركة، والتي سقط فيها القائد الإباضي يحيى من الجانب العُمَاني، وشيبان القائد العام لقوات الخليفة من الجانب الآخر، لم تحسم الموقف بين الجانبين.

وحال مصرع شيبان من مواصلة العمليات من جانب قوات السفاح، وقد تم إبلاغ نتائج المعركة إلى السفاح الذي ثارت ثائرته عند سماع أخبارها، وأمر على

الفور بإعداد حملة من الامدادات وكلف خازم بن خزيمة بقيادتها.

وقد وصلت الحملة الثانية إلى عُمَان دون أن يتعرض لها أحد، ولما كان القائد الجديد للحملة واثقًا من نفسه، فقد خيّر الإمام الجلندى بين الدخول في طاعة الخليفة وتسليم اللاجئين الهاربين أو الحرب.

رفض الإمام الجلندى إنذار خازم بن خزيمة بعد أن عقد مجلس حرب مع كبار زعماء البلاد، كما رفض الزعيم العُمَاني تسليم ختم وسيف القائد القتيل شيبان، وهكذا أصبح لا مفرَّ من القتال الذي دارت معاركه في جلفار، وانتهى بهزيمة ساحقة للعُمَانيين ومصرع قائدهم هلال بن عطية وأسر الإمام الجلندى وإعدامه، بعد حكم ناجح دام عامين وشهرًا.

كان هذا في عام ١٣٥هـ، وكان خامس غزو تتعرض له عُمَان منذ أن أسلم جيفر وعبد في (عام الوفود) أي قبل ١٢٥ عامًا من ذلك التاريخ.

وفي أعقاب تلك المعركة انفسح المجال للطوائف السنية في عُمَان لإثبات وجودها. فلم تتردد في اغتنام تلك الفرصة في ظِلِّ حكم خازم بن خزيمة للانتقام من الإباضيين بشنِّ حملة من عمليات الاضطهاد والنهب والإرهاب، حتى أنَّ المؤرخين العُمَانيين أطلقوا عليهم اسم (جبابرة عُمَان) لما اقترفوه من فظائع ضدّ الإباضيين بدرجة تقشعر منها الأبدان.

وتقول الروايات التاريخية: أنَّ خازم بن خزيمة عاد بالقوات إلى العراق دون أن يعيّن ممثلًا للخليفة في عُمَان؛ ولهذا وقعت البلاد في غمرة من الفوضى والاضطرابات.

غير أن الجلندانيين عادوا إلى المسرح، فخرج منهم محمد بن زائدة، وراشد بن شاذان بن النّضر وبمجرد أن استولى هذان الزعيمان على السلطة، قام غسان الهنائي من بني محارب بالهجوم على نزوى في شهر شعبان ١٤٥هـ، ونهبها، كما هاجم قبائلِ بني نافع وبني هميم، وتمكن من إجلائهم عن تلك المدينة بعد مجزرة مروعة. إلا أنَّ غسان استهدف هو الآخَر في الانتقام، فاغتيل من جانب مجموعة من بني الحارث الذي كانوا قد تمركزوا في العتيق، الواقعة بين صحار ودبا؛ لكن هؤلاء أيضًا استهدفوا لهجومٍ من الجلندانيين في إبراء، إلا أنَّ بني الحارث صدوا الهجوم بعد أن فقدوا أربعين رجلًا.

كل هذه الأحداث وقعت في عهد الخليفة المنصور الذي كان قد أمر بتدمير المدائن ونقل مقر الحكم من الأنبار الواقعة على نهر الفرات إلى بغداد على نهر دجلة، وهو نفس المكان الذي سبق لبختنصر الملك الحصيف البسيط قبل ١٣ قرنًا أن يختاره ويشيد عليه مدينته المعروفة.

أما في عهد الخليفتين المهدي والهادي (١٥٨- ١٧٠هـ/ ٧٧٥- ٧٨٦م)، فلا توجد معلومات مسجلة عمَّا كان يجري في عُمَان، كما أنَّه من غير المؤكد أن حكومة الأمبراطورية كانت في وضع يسمح لها بممارسة أي سيطرة على الإدارة أو جباية الضرائب والزكوات. وأما عن الأوضاع الداخلية، فهناك الكثير من المعلومات عن الصراع الطائفي المرير، بين المتزمتين والمعتدلين للسيطرة على الأمور، وقد ظلَّ محتدمًا على امتداد نصف القرن، الذي أعقب ذلك مسببًا هوةً سحيقةً بين الطوائف الدينية المتناحرة.

وخلال تلك الأجواء تمكن الإباضيون أخيرًا من الإمساك بزمام الأمور، من خلال تمكنهم من انتخاب إمام جديد لهم في العاصمة نزوى سنة ١٧٥هـ، وهو الشيخ موسى بن أبي جابر الأزكاني، والذي على ما يبدو كان له دور مؤثر في عملية الانتخاب، غير أن هذا الإمام تخلى عن الإمامة للشيخ محمد بن أبي عفان بعد أن رشحه لذلك المنصب.

وعلى مدى عامين تمكن هذا الإمام من ممارسة الحكم بحزم بمساعدة مؤيده القوى، بالطبع، الشيخ موسى. غير أن سلوكه في الحكم وتعجرفه أرغمه على التخلي والانسحاب وقد عقد مؤتمر بعد ذلك أقر تنحية أبو عفان، وتولية الشيخ الوارث بن كعب الخروصي الشاري اليحمدي وذلك عام ١٧٧هـ.

وخلال هذه الفترة لم تكن العلاقات بين الإقليم العُمَاني والحكومة المركزية في بغداد على ما يرام؛ نظرًا لامتناع العُمَانيين عن دفع الضرائب، مما جعل حكومة بغداد تفكر في اتخاذ التدابير العسكرية لفرض الطاعة عليهم. وبما أنَّ الأسباب الحقيقية لتوتر العلاقات لم تعرف، فإنَّنا سنعول على الافتراضات في تحديد الأوضاع العامة، والعوامل التي تملي على الحكام سياستهم القومية.

وينبغي أن نتذكر بأنَّ هذه هي المرة الرابعة أو الخامسة التي يتحدى فيها أهل عُمَان حكومة الخليفة؛ ولكن ذلك الموقف ليس مقطوع الصلة بالنجاح الذي حققه

العُمَانيون في الميدان السياسي بعد أن ادركوا أن وضع حكومة الأمبراطورية قد يسمح لهم بتأكيد استقلالهم. وكانت تصوراتهم كما يتبين فيما بعد صحيحة إلى حدٍّ مَا، وكانت نقطة الضعف الوحيدة في ذلك الموقف تكمن في الانقسام الذي يسببه التطرف الطائفي.

وليس من شك في أنَّه لو استطاعت القبائل العُمَانية المحاربة أن تهضم خصوماتها المذهبية وتنضوي تحت لواء جيش قوي موحد؛ فلربما استطاعت الحفاظ على استقلالها. وصدَّت بغداد عنها، فسلسلة الجبال في عُمَان تهيئ مانعًا دفاعيًّا طبيعيًّا، يسمح للعُمَانيين بالتحصن فيما بين الاستحكامات والقلاع والأودية التي تتناثر فيها، وتجعل من الصعب على أي قوة غزو أن تنال منها.

ويقول أحد ثقاة المؤرخين العرب، وهو البلاذري: أن أهل عُمَان امتنعوا عن دفع الضريبة المفروضة عليهم في عهد الخليفة هارون الرشيد، فأرسل الأخير حملة بقيادة عيسى بن جعفر من البصرة؛ لفرض الطاعة عليهم؛ ولكن جنود الخليفة ارتكبوا فظائع مما حمل العُمَانيين على مقاومتهم وقتل قائدهم، وإعلان عُمَان دولة مستقلة. ويعزز أقوال البلاذري المؤرخون العُمَانيون الذين يقدمون معلومات مفصلة عن تلك الحملة التي انتهت نهاية مفجعة لهيبة الخليفة. وكان جيش هارون الرشيد يتألف من ١٠٠٠ من الخيالة، و٥٠٠٠ من المشاة وتم نقله عبر أسطول نقل ضخم. ووصل هذا الجيش إلى عُمَان في نحو سنة (١٨٧هـ/ ٨٠٢م).

وعند نزول الجيش لم يواجه أيّة مقاومة تذكر واستطاع احتلال الساحل دون قتال. ولو أن قائد الجيش واسمه الكامل عيسى بن جعفر بن سليمان بن علي بن عبدالله بن العباس (وكان من أسرة البيت الحاكم في بغداد) استطاع أن يسيطر على أصحابه، وينهج سياسة العدل والمرونة مع أهل عُمَان فلربما نجح في كسب ودّ العُمَانيين وإعادة فرض سلطان الخليفة دون حاجة إلى استخدام القوة وسفك الدماء. غير أن عيسى لم يهتم بذلك، ثم أنَّه لم يدخل في اعتباره ضعف موقفه العسكري. وهكذا فجرت تصرفات أفراد جيشه غضب العُمَانيين. فعند نزول القوة الغازية أظهر الشعب هدوءًا غريبًا، ولم يدرك قائد جيش الخليفة أن براكين الثورة كانت تشتعل في ثنايا الشعب، وهكذا اشتعلت نارها من أقصى عُمَان إلى أدناها.

وفجأة أعلنت عُمَان الثورة، وفي إطار من السرية وسرعة التعبئة التي عرفت بها

القبائل العُمَانية في فترات الحروب، أخذت جموعها تتدفق هادرة كالسيل؛ لتنضوي تحت قيادتها القومية، وأخذت فرقها تهرول نحو سهول الباطنة؛ لتضع نفسها تحت إمرة القائد العسكري العُمَاني، فارس بن محمد، الذي كلفه الإمام الوارث بتولي القيادة العامّة.

كان أسطول الخليفة قد ألقى مراسيه في الطرف الشمالي الغربي من ساحل الباطنة في مكان يقع بين صحار وشناص، أما القائد عيسى فقد عسكر في وادي حطاط، أو بالأحرى بالقرب منه؛ ولكنه لم يفكر في التقدم بقواته مسافة أبعد نحو المنافذ الداخلية للبلاد.

وقد انخدع قائد الخليفة بالموقف السلبي الذي اتبعه العُمَانيون في البداية، غير أنَّه كان بين شعب يتصف بالصلابة والعنف، وحيث لا يستقر السيف أو النصل في غمديهما ولا مكان للضعفاء أو الغرباء، وهكذا فقد لقي عيسى نفس المصير الذي لقيه الغزاة السابقون، الذين لم يحترموا أقدار العُمَانيين. فما أن التحم الجيشان حتى أسفرت النتيجة عن المعركة. لقد عجز الغزاة عن صدِّ تيار الهجوم العُمَاني الخارق الذي تخللته مذبحة رهيبة لمعت فيها سيوف العُمَانيين. ولاذ بعض أفراد جيش الخليفة بالفرار ونجح في الوصول إلى السفن الراسية التي أطلقت عنانها للريح، وكان عيسى من بين أولئك، غير أن القائد العُمَاني فارس بن محمد أوفد مجموعة من رجاله برئاسة أبو حميد بن فالح السلّوتي وعَمْرو بن عمر فتمكنا من القبض عليه واحضاره إلى صحار، حيث أودع القائد عيسى السجن، وأثناء وجوده في السجن. هاجمه فريق من العُمَانيين بقيادة يحيى بن عبدالعزيز وبتروا عنقه، وقد جاءت تلك العملية من جانب يحيى انتقامًا للفظائع التي ارتكبتها قوات عيسى.

ولقد فجرت تلك الهزيمة المدمرة غضب الخليفة هارون الرشيد وخيبت أمله في النهاية المأساوية لحملته ضدَّ العُمَانيين، وعلى الأخصِّ ما حدث لقائده عيسى؛ ولهذا فقد قرر إنزال أقسى الانتقام بالثوار، وأصدر أوامره بإعداد حملة ضخمة. غير أن هذه الخطة لم تنفذ، ربما بسبب وفاة الخليفة هارون الرشيد، وإن كانت وفاته لم تحدث قبل مضي أربع أو خمس سنوات على تلك المعركة. وربما كان السبب هو عودة العُمَانيين إلى إرسال الزكاة إلى بغداد، سواء بانتظام أو بغير انتظام، كما أن الإمام بعث بهدايا ورسل إلى الرشيد ووعد بالولاء له.

أما بعد وفاة هارون الرشيد فقد شعر أهل عُمَان بالارتياح من سياسته وبخاصة الأزد؛ بسبب موقفه منهم، فإن خليفته الأمين والمأمون شغلتهما خلافاتهما وصراعاتهما عن التفكير في القيام بأعمال عسكرية ضدَّ عُمَان التي ظلّت على امتداد قرن من الزمان في مأمن من الغزوات والاعتداءات.

كانت إمامة الوارث خيرًا وسلامًا على عُمَان، فقد حكم بالعدل والحكمة حتى وفاته غرقًا أثناء محاولة قام بها لإنقاذ بعض السجناء في أحد الوديان، وقد حدثت وفاته سنة (١٨٩هـ/ ٨٠٤م) في نزوى بعد حكم استمر اثنى عشر عامًا ونصف العام.

إن الانشقاقات السياسية على إثر وفاته حالت دون انتخاب خليفة للإمام الوارث وكانت فترة فاصلة بين عهدين استمرت زهاء ثلاثة أعوام. وفي شهر ربيع الثاني من عام ١٩٢هـ، عقد مؤتمر عام للقبائل العُمَانية تمخض عن انتخاب الشيخ غسان بن عبدالله الفجحي اليحمدي إمامًا للبلاد. وكان هذا الاختيار سليمًا، فقد كان هذا الإمام ذا عزم وحسم، وعلى خُلق مستنير، وبذل أقصى ما في وسعه؛ ليجعل عُمَان تمتطي موجةً التقدم ًالروحي والمادي، وهي السمات التي كانت تشكل خصائص الأمة الإسلامية في عهد هارون الرشيد.

والواقع أن المؤرخين لم يترددوا في التحدث إلينا عن روح العلم والتحضر التي سادت بلاط الخليفة، والتي كانت ترسل إشعاعاتها إلى أقصى زوايا الأمبراطورية الإسلامية، وامتدت إلى عُمَان بأقصى ما فيها من شمول الوحدة. وهكذا ازدهر التذوق للثقافة والأدب، وسمت القيم الدينية، وخرجت أعداد من الكتب المؤلفة في عهد الإمام غسان.

في هذه الحقبة بالذات (كما سوف نبين فيما بعد) تطورت المشروعات التجارية والملاحية، وازدهرت إلى حدٍّ أكبر بين سكان العالم الإسلامي. وكانت من سمات نشاط أهل عُمَان وسرُّ تطورهم ورخائهم، كما اتخذت بعدًا أوسع، وأدت إلى نمو ثروة أهل عُمَان وقوتهم إلى حدٍّ هائل، ولا يخامرنا الشك إطلاقًا في أنَّ عُمَان قد وصلت في ذلك الوقت إلى الثراء والحضارة والتطور الثقافي والتقدم العام، وأنَّها أخذت تنعم بحياة الترف، وزاد عدد سكانها بشكل لم يعرف في أي مرحلة سابقة، كما تمتعت في الوقت نفسه بقوتها العسكرية وباستقلالها الذي يكاد أن يكون تامًا.

غير أن هذه المكاسب كان يشوهها، أو بالأحرى يهددها، ذلك العداء الكامن من المجتمع العُمَاني بين السنيين وبين الإباضيين والصراع العنصري بين قبائل نزار وبين قبائل يمن، وهو الأمر الذي كان يعوق الاستقرار والسلام الاجتماعي، وكان سببًا في عرقلة عجلة التقدم الذي بات من المؤكد أن تجني عُمَان ثمراته خيرًا وسعادة وأهمية بين الأوطان.

وفي عهد هذا الإمام كما تشير كتب التاريخ لأوّل مرة تم إنشاء أسطول بحري مسلح لحماية الشواطئ العُمَانية وتجارتها البحرية من هجمات القراصنة. وكان قراصنة السند يعتدون منذ وقت طويل على سواحل الهند الغربية، غير أنَّه لم يعرف مَا إذا كانوا قد مارسوا نشاطًا كهذا في المياه العربية؛ ولكن ما إن بدأت السفن التجارية المحملة بالسلع تقطع مياه الخليج في طريقها من وإلى الهند حتى انطلق هؤلاء القراصنة يعيثون فسادًا في السواحل العربية، ويهاجمون قوافلها البحرية للسلب والنهب والقرصنة لما كانت تضمه أسواق المدن العربية مثل صحار وسيراف ومسقط من ثروة ومنتجات لدرجة أن العُمَانيين بعد أن استفحل خطر هؤلاء اللصوص أعدوا أسطولًا خاصًّا من السفن الصغيرة الحجم؛ لكبح جماحهم. ولمَّا كان العُمَانيون أقدر وأمهر في الشؤون الملاحية من الهنود، فقد نجحوا في حملاتهم التأديبية إلى الحدِّ الذي لم يعد أولئك القراصنة يفكرون في القيام بالاعتداء على السفن والملاحة.

وبعد حكم دام خمسة عشر عامًا وسبعة أشهر مرض الإمام ووافته المنية في شهر ذي القعدة عام (٢٠٧هـ/ ٨٢٢م) أثناء خلافة المأمون.

وفي شهر شوال من العام التالي انتخب الشيخ عبدالملك بن حميد من أسرة سودة ابن علي بن عَمْرو بن عامر، والملقب (بماء السماء) إمامًا للإباضيين في نزوى.

وعلى أيّة حال فقد اشتهر الإمام الجديد بالورع والنزاهة وحبِّ العدل، غير أن كهولته مكنت القاضي الطموح موسى بن علي من اغتصاب السلطة (دون أن يجرد الإمام من سلطته الروحية) وأخيرًا من تركيز السلطة السياسية بكاملها في يديه.

ومن قبيل التكهن أن نقول أن القاضي موسى قد بذل جهدًا في الوصول إلى الإمامة، وإذا كان هذا التكهن صحيحًا فإن مخططات موسى قد فشلت أمام رفض شيوخ الأمة الذين كانوا يعرفون سلوكه.

في عام (٢١٨هـ/ ٨٣٣م) تولى الخليفة المعتصم مقاليد السلطة في بغداد؛ ولكنه قرر أن ينقل مقره من بغداد إلى سامراء، وبذلك وضع سلطة الخلافة كلها في أيدي حفنة من الحرس التركي، وهو الحرس الذي كونه بنفسه.

من ذلك الوقت بدأت مظاهر الانهيار تسري في أوصال الأمبراطورية واستمرت هكذا. وفي عهد هذا الخليفة كانت وفاة الإمام عبدالملك بعد حكم استمر ١٨ عامًا وخلفه الشيخ مهنا بن جيفر الفجحي اليحمدي الذي تم انتخابه في شهر رجب عام (٢٢٦هـ/ ٨٤٠م).

كان الإمام مهنا يمتلك عزيمة فولاذية، وكان إباضيًّا دقيقًا. وفي عهده تمرد سكان المهرة ورفضوا دفع ضريبة الصدقة التي كانت تجبى منهم عينيًّا؛ ولهذا أصدر الإمام أمرًا إلى ولاة أدم وجعلان بالقيام بمحاولة اعتقال وسيم بن جعفر زعيم المهرة. وهكذا أدخل وسيم السجن وبقي فيه إلى أن نجح أهل المهرة في الإفراج عنه، عن طريق قبيلة اليحمد التي تم الاتفاق عن طريقها على أن يقوم المهرة بتسليم الإبل المخصصة إلى العُمَانيين شخصيًّا وإلا يضطروا حكومة الإمام إلى إيفاد مندوبين لتحصيلها. إن هذه الحادثة الصغيرة لها أهميتها، وهي تعني أن أهل المهرة كانوا في ذلك الوقت معترفين بالسيادة العُمَانية عليهم، وبالتالي فلن يعود صعبًا أن نقتنع بأن تبعية الساحل الجنوبي لحكومة عُمَان قد استمرت قرونًا فيما بعد.

وثمة حادثة أخرى في عهد الإمام مهنا تلقي ضوءًا أكثر على الأحوال السياسية في عُمَان، وعلى الغموض الذي يكتنف تاريخ قبيلة الجلندى. فقد نشب تمرد في الظاهرة قامت به القبائل السنية، ومنها قبيلة الجلندى. وقد زحف اتحاد القبائل السنية تحت قيادة المغيرة بن روشن الجلنداني على البريمي وهاجموها واستولوا عليها. وكان الوالي عليها في ذلك الوقت أبو الوضاح الذي عيّنه الإمام، وقتل أثناء الهجوم، وسرعان مَا وصلت أنباء الهجوم إلى صحار التي كانت في ذلك الوقت تحت سيطرة الإمام، فبادر والي صحار أبو مروان إلى العمل على وضع حدٍّ للتمرد، وتحرك فورًا إلى توأم، يرافقه المطار الهندي زعيم الهنود مع قوة ضخمة قيل أن عدد أفرادها اثنا عشر ألف رجل؛ ولكنه عدد مبالغ فيه، وعند التحام القوتين نجح أبو مروان في توقيع هزيمة ساحقة بالمتمردين إلى درجة أنَّهم أبيدوا واحرقت مستوطناتهم، وأرغمت عائلتهم على التيه في الصحراء، وبعد هذا الحادث لم يسمع شيءٌ عن أسرة

الجلندى التي انقرضت بفعل عمليات الامتصاص. ومن هذا يتضح أن الجلندانيين رفضوا دائمًا المذهب الإباضي وظلُّوا متمسكين بالمذهب السنِّي، كما نفهم من سياق الأحداث أن نفوذ الإمام كان النفوذ الأقوى، حتى أن وكيل حكومة الخلافة لم يستطع تقديم أيّة مساعدة للتمردين.

لم يحظ تصرف الإمام مهنا بموافقة كل مؤيديه غير أنَّه سمح له بالبقاء في السلطة إلى أن توفي في شهر ربيع الثاني سنة (٢٣٧هـ/ ٨٥١م)، وذلك في عهد الوالي السفاح والخليفة المتوكل بالله. وقد دامت إمامته عشر سنوات وبضعة أشهر.

ويحدثنا المؤرخ (قدامة) الذي كتب عن الحالة الاقتصادية للأمبراطورية في تلك الفترة أنَّه في نفس ذلك العام بلغت قيمة الضريبة التي تدفعها عُمَان لبغداد ٣٠٠,٠٠٠ دينارًا ذهبيًّا، أو ما يعادل ٤,٥٠٠,٠٠٠ درهم، كما ذكر ألفون كريمر كيلر، ويؤيد هذا القول ابن المدثر. وعلى أيّة حال فإنَّ ضخامة هذا المبلغ الذي كانت تدفعه عُمَان لحكومة الخليفة لدليل على حالة الازدهار التي وصلت إليها بفضل صناعتها وفنونها وتجارتها، كما أنَّه برهان ساطع على ثروة البلاد العُمَانية، وكثافة سكانها ونشاط أهلها الذي وصل في تلك الحقبة من التاريخ إلى ذروة وجودها القومي.

في نفس اليوم الذي توفي فيه الإمام مهنا، انتخب شيوخ القبائل الإباضية الصلت ابن مالك الذي مارس حكمًا عادلًا لعدد من السنين حتى أنَّه عاش بعد معاصريه وكبار مؤيديه، وأصبح عاجزًا جسمانيًّا إلى أن شاخ وهرم، ورغم أن قواه العقلية لم تتأثر على الإطلاق حتى آخر يوم من حياته. وفي عام (٢٧٣هـ/ ٨٨٦م) طُردَ من نزوى لقيام مؤامرة دبرها ضِدّه القاضي موسى بن موسى (٨٨٨م) ولجأ إلى فَرق، حيث وافته المنية هناك في شهر ذي الحجة عام (٢٧٥هـ/ ٨٨٨م).

ولقد دام حكم هذا الإمام فترة تفوق غيره من الأئمة الذين سبقوه، بحيث امتدت نحو ٣٧ عامًا وسبعة شهور، جلس خلالها على عرش بغداد ستة من الخلفاء. أمَّا الأجواء السياسية في عُمَان فقد ظلّت على مَا يبدو هادئةً، لم تعصف بها التيارات الهادرة أو على الأقل لم يسجل المؤرخون نشوب اضطرابات خلال تلك الفترة من التاريخ. وعلى أيّة حال فإن الأحداث المتتابعة أظهرت بجلاء أن ثمة مشكلات حادة كانت تؤرق أذهان النّاس تحت ذلك الهدوء، وأن الجو كله كان ينذر بعواصف

تفجر الصراع والفوضى والحرب الأهلية، وكل فظائع الغزو والهيمنة الخارجية.

ولا يخامر المؤرخين العُمَانيين أي شك في أن عهد الصلت هو العهد الذي شهد تحرر عُمَان من تبعية بغداد، وامتناعها عن دفع الزكاة. ويعود الفضل في هذه المعلومة إلى ابن خرداذبة الذي تناول الموضوع في عام (٢٧٠ أو ٢٧٥هـ/ ٨٨٣ أو ٨٨٨م)، والذي أكدَّ دون لبس أن شرقي أفريقيا كان في أيدي الإباضيين، وليس تابعًا للخليفة المعتمد.

بعد خلع الإمام الصلت تسلم الإمامة راشد بن النضر، وذلك في شهر ذي الحجة عام (٢٧٣هـ/ ٨٨٦م)، ويرجع الفضل في تنصيبه إلى موسى بن موسى وكان صنيعته، غير أنَّه برهن عن عجز وضعف في ممارسته صلاحيته في تلك الفترة الدقيقة من تاريخ عُمَان. وإن السلبية التي رافقت تجريده من السلطة وحرمانه من طموحات حياته كان سببها على ما يبدو خضوعه للقاضي موسى بن موسى الذي استغله في تحقيق أطماعه من التعصب الديني والاستبداد. وكانت نتيجة تلك السياسة صراعات تتفجر في كل بقعة من عُمَان، على شكل خصومات دينية تؤدي إلى شطر وحدة الأمة العُمَانية، ونشوب حربٍ أهليةٍ دامت سبع سنين.

أما السبب المباشر لذلك الخلاف الذي أدى إلى نتائج خطيرة، فلا يتحدث المؤرخون الإباضيون بشيءٍ عنها، غير أن ذلك الصمت بالنسبة لبعض نقاط الخلاف ربما يدل على أن موسى بنٍ موسى هو السبب الأساسي للمشكلة، وهو السبب الأول للحرب الأهلية الضروس التي فرقت عُمَان، وجلبت لأهلها البؤس والخراب، وأدت في النهاية إلى وصول وفود من الخارج. وهذا لا يعني أن الطوائف الإباضية في الأقاليم الأخرى لم يكن لهم دور في تأجيج نار العداء الديني في عُمَان.

ومما يعزز الاعتقاد بأن السنيين العُمَانيين لم يكونوا سببًا في ذلك الصراع هو أن السنيين كانوا يشكلون أقلية في عُمَان، وبالتداعي فليس من المحتمل أن يكونوا هم البادئين بالصراع غير المتكافئ. وفي كلِّ الأحوال، ففي المرتين اللتين قام فيهما السنيون العُمَانيون بالنزاع خلال الأعوام الثلاث التي أعقبت تلك الحرب، كان النزاريون مرغمين إلى الخروج من عُمَان على أثر المعركة التي نشبت بالقرب من وادي تنوف، وكان يتولى قيادتهم كل من فهم بن وارث ومصعب بن سليمان، ثم في المعركة الثانية التي نشبت بالقرب من الرستاق عندما هزمت قوات شاذان بن

معن بن الصلت وأرغم أفرادها على الفرار.

ويبدو أنَّه في أعقاب تلك الأحداث سقط كل من موسى بن موسى والإمام راشد بعد ما تبيَّن أن ذلك الإمام لم يكن يخضع بصورة تامة لسيطرة القاضي موسى بن موسى، وبالتالي فقد استغل نفوذه لخلع راشد بن النضر، كما استغل نفوذه سابقًا في خلع الصلت. وبعد أن تم له التخلص من الإمام راشد، عيّن صديقه الشيخ عزان بن تميم الخروصي وذلك في شهر صفر من عام (٢٧٧هـ/ ٨٩٠م).

في البداية سارت الأمور سيرًا طبيعيًّا، غير أن العلاقات بين الإمام الجديد ومجموعة القضاة ما لبثت أن تأزمت. فقد استاء الإمام الجديد عزان من تدخل موسى بن موسى في صلاحياته، ومن محاولاته المستمرة لتقليص سلطته؛ ولهذا قرر أن يحسم الموضوع وانفجر بينهما الخلاف، وكان من نتيجته أن جُرد موسى بن موسى من منصب القضاء وهرب إلى إزكي، حيث لجأ إلى نفس الفئات التي ظلّ يناصبها العداء لفترة طويلة، غير أن استقبال تلك الطوائف لموسى بن موسى أثار القلق لدى الإمام الأمر الذي ضاعف من العداء بين الطائفتين.

وهكذا انفجر الصراع من جديد، وفي شهر شعبان (٢٧٨هـ/ ٨٩١م) أي بعد مرور ثمانية عشر شهرًا على تقلد الإمام عزان لمنصب الإمامة قام بإرسال قوة عسكرية من الإباضيين إلى إزكي؛ لمحاصرة المداخل المؤدية إلى القلعة التي يقيم فيها موسى بن موسى في الحيِّ الذي يقطنه النزاريون.

كانت الحملة من القوة بحيث استحالت مقاومتها، فبعد قتال قصير استولت قوات الإمام على القلعة ودمرتها ووقعت مجزرة رهيبة أسفرت عن انتصار ساحق لقوات عزان، وكان موسى بن موسى من بين القتلى.

استقبل الإمام عزان بشرى ذلك النصر بتكريم الرسل الذين جاءوا بها إليه، وكافأ جنده بسخاء، بعد أن شعر بالارتياح؛ لخلاصه من رفيقه ومؤيده السابق موسى بن موسى.

إن المعلومات عن أخلاق وسلوك موسى بن موسى قليلةً جدًّا، بحيث لا تسمح بإصدار أحكام دقيقة، إلا أنَّ سياسة ذلك القاضي كانت على ما يبدو سياسة رعناء يتحكم فيها الطموح والتعجرف، غير أن مثل هذه الاستنتاجات في كتابة التاريخ لا تشكل أدلة حقيقية، ولا تبرر اعتبارها أحكامًا أكيدةً، فلربما كانت له أسباب حقيقية

في خلع الصلت وراشد وفي مخاصمة عزان. غير أن مثل تلك الأحداث قد أملتها أنانية رجل ماكر خداع كان مدفوعًا بشهوة وحبِّ السلطة.

وقد أزداد الخصام بين تلك الأطراف بعد تلك الحادثة، وأخذت قبائل نزار تجنح إلى الانتقام. فقد كان ذلك الصراع أكثر الصراعات دموية وخطورة خلال السنوات الخمس التي استغرقتها الحرب الأهلية، ومع ذلك فقد كانت تلك بداية الشقاء والمعاناة التي أخذ الشعب يشرب من كؤوسها.

منذ ذلك الوقت ورغم أن النزاريين كانوا أقل عددًا من الأزد وكانوا مغلوبين على أمرهم في أكثر الأحوال، وعاجزين عن التصدي لخصومهم علنًا، إلا أنَّهم كانوا مصممين على مواصلة النضال ضد الأزد والقيام بهجوم مضاد على الإمام وأتباعه.

إن الرجل الذي تولى مقاليد النزاريين بعد ذلك هو الفضل بن الحواري وكان الشيخ عبدالله من بني حدان، والحواري بن عبدالله السلّوتي وبني الحارث في الباطنة وغيرهم من زعماء النزاريين من مؤيدي الفضل. توجه الفضل أوّلا إلى البريمي؛ لجمع الأنصار، ثم عاد إلى موطنه في الظاهرة، وبعد أن فرغ من تدبير مؤامرته مع شيوخ المنطقة تحرك بقواته في اتجاه صحار التي وصلها يوم ٢٣شوال (٢٧٨هـ/ ٨٩١م)، وفي الوقت نفسه لم يكن الإمام عزان غافلا عمَّا يجري حوله.

وقد حلَّ شهر رمضان فتوقف القتال، غير أن الإمام عزان بن تميم استغل ذلك الشهر في تعبئة قواته التي وضع على قيادتها شيخ بني هناءة أهيف بن حمحام الهنائي. ولمَّا كان هذا القائد على علم بتحركات جيش الفضل، فقد سار بقواته عبر الباطنة لمواجهته، وفي الطريق انضم إليه فهم بن وارث اليحمدي (ولعله نفس القائد الذي انهزم في موقعة القاع قبل ثلاث أو أربع سنوات).

التقى الجيشان في مجيس، وهي قرية تبعد قليلًا عن مدينة صحار وذلك يوم ٦شوال. وفي المعركة التي نشبت أبيدت قوات الفضل عن بكرة أبيها، وأنهت تلك المعركة الحرب تقريبًا، وسمحت للجناح اليمني في عُمَان بأن يكون سيّد الموقف. غير أن المعلومات القليلة التي بقيت لنا عن تلك الأحداث لا تترك مجالا؛ لرسم صورة صحيحة عن القوى التي كانت تتصارع، بيد أنَّه من الواضح أن كفة الحرب قد تغيرت تمَامًا، منذ أن بدأ الخلاف بين الإمام والقاضي موسى بن موسى. ففي بداية الأمر كانت الحرب حربًا مذهبية بين السنة والإباضية، أما فيما بعد فقد تحولت إلى

حرب طائفية بين النزاريين واليمنيين، بحيث أن فهم بن الوارث والجناح السني في بني هناءة وغيرهما، والذين كانوا من المعارضين سابقًا تحولوا إلى صفِّ الإمام.

وعلى الرغم من أن عزان ظلَّ محتفظًا بمنصبه كإمام، إلا أنَّ المؤرخين يذكرون أنَّ الإمامة أصبحت ألعوبة وهدفًا للمطامع الشخصية، بحيث تولاها خلال فترة لا تزيد على العام الواحد ما لا يقل عن ثلاثة عشر إمامًا، عجز كل منهم عن كسب تأييد الأمة. وكان هذا بعد غزو محمد بن نور لعُمَان. ويبدو أن ذلك الطاقم من الحكام لم يكونوا من العناصر التي تتمتع بموهبة الزعامة والحكم، وهكذا تدحرجوا الواحد تلو الآخر عن كرسي السلطة.

وإنَّه لمن الواضح أن العُمَانيين قد أصبحوا في وضع حرج نتيجة للخلافات الداخلية المدمرة، وإنَّهم قد غرقوا في تيارات من الأحقاد والحروب ضدّ بعضهم البعض، وذلك بدافع من الغيرة ونزعة الثأر، وعلى الرغم من أن زعمائهم كانوا يعالجون تلك المشكلات بشيء من الكياسة والوطنية إلا أنَّ الأئمة كانوا بوجه عام يواجهون حملات الغزو بروح التحزب، وليس من منطلق الروح القومية، بينما كان التجانس والوحدة مفقودين بين مواطنيهم.

وفي شهر رجب (٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) توفي الخليفة المعتضد، وخلفه ابن أخيه المكتفي بالله، الذي كان والده الموفق ناصر الدين قد أرغم الخليفة الضعيف المعتمد بالله بأن يختاره للخلافة على حساب نجل الأخير والوريث الشرعي للحكم. أما المعتضد بالله (شأنه شأن والده)، فقد كان الحاكم الفعلي للأمبراطورية منذ وفاة والده، وقد برهن عن كفاءة وكياسة سياسية، وتمكن من توثيق قبضته على أرجاء الأمبراطورية بحزم بحيث شعر الكلّ في أنحاء الأمبراطورية بقوة نفوذه.

ولم تغرب عُمَان عن باله. إذ لم يكن من المعقول أن يقبل خليفة قوى وطموح كالمعتضد بالله ذلك الموقف المناهض من هذا الإقليم دون أن يقوم بمحاولات لاخضاعه وإعادته إلى الطاعة.

وقد ظلَّت عُمَان على امتداد عشر سنوات تمتنع عن إرسال الزكاة المفروضة عليها إلى بغداد، كما لم تكن تسمح لأي مبعوث من بغداد بالحضور إلى عُمَان لجمع تلك الضريبة. ومن هنا فقد كان طبيعيًّا أن يشعر الخليفة بالاستياء الشديد من العُمَانيين غير أنَّه لم يكن من المتوقع أن يتفجر غضب الخليفة ضدَّ العُمَانيين بتلك السرعة، لو

لم تعجل به الأحداث التي كانت تجري في عُمَان نفسها. ذلك أن الصراع الدموي الطويل قد ولد الكراهية بين الفئتين المتناحرتين ونعني بها قبائل نزار ويمن وشطرتهما إلى معسكرين متعاديين، كلّ منهما يحاول سحق الآخر، كما أن الكراهية التي ولدها ذلك العداء كانت السبب الحقيقي للثورة التي كانت تعتمل في صمت فيما بينهم. وعلى الرغم من أن الأحداث التي أشرنا إليها قد ساهمت في شدّ انتباه حكومة بغداد لما يجري في عُمَان، إلا أن معاملة الفئات الإباضية للسنيين قد أثارت استياء شديدًا بين إخوانهم في المذهب، مما دفع الطوائف السنية في النهاية إلى طلب تدخل بغداد ونجدتها لهم.

بعد موقعة مجيس سنة (٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) على ما يبدو تحرك زعماء قبائل نزار بعد أن يئسوا من إمكان المحافظة على مركزهم عن طريق القوة، ورغبة منهم في الانتقام من مضطهديهم إباضية عُمَان، فقد قرروا أن يطلبوا تدخل الخليفة الإسلامي؛ لمساعدتهم على استرجاع نفوذهم.

وعلى الرغم من أنَّه كان هناك استفزازًا فعليًّا من جانب الفئات الإباضية ضدّ قبائل نزار، إلا أنَّ تحريض الفئات السنية لدولة أجنبية لغزو بلادهم، من أجل تعزيز سيطرتهم المذهبية والسياسية لم يكن يعتبر عملاً غير حكيم فحسب، بل ومناف للوطنية؛ نظرًا لأنَّ مثل ذلك الإجراء لن يؤدي إلى استئصال جذور المذهب الإباضي في عُمَان بأي شكل من الأشكال، وبالتالي فقد كان إجراء مَقضيًّا عليه بالفشل، ثم أن الدمار الذي لحق بالبلاد، والقسوة التي استخدمت في تلك الحروب والدماء البريئة التي أهدرت، كان أبشع ما عرف، كما يؤكد ذلك المؤرخون ويقولون بأنَّ حجمه فاق كل ما سبق من فظاعات وانتهاكات للقيم الإنسانية، ويشكل وصمة عار في جبين الفئات المسؤولة عنه.

ويذكر بعض المؤرخين العرب بأنَّ المبعوثين الذين اختيروا لعرض مطالب النزاريين ودعوتهم للخليفة هما الشيخ محمد بن أبي القاسم السامي وبشير بن المنذر وكلاهما ينتمي إلى قبيلة بني سامه بن لؤي بن غالب، وتعتبر من أقوى القبائل النزارية في عُمَان، وغير معروف ما إذا كانت تلك البعثة قد توجهت سرًّا، أو أنَّه سبقها محاولات للتفاهم قبل تقديم طلب المساعدة الخارجية. وبما أننا لا نملك معلومات عن دعوة المجلس العام لشيوخ عُمَان للانعقاد قبل ذلك، فإن الاستنتاج الوحيد هو أن قبائل

يمن لم تُخطر بعزم النزاريين عن طلب تدخل الخليفة في عُمَان، ومهما يكن من أمر فمن المحتمل أن يكون الوفد قد توجه إلى البحرين أوّلا، حيث كان يقيم أمير منطقة الشرقية في شبه الجزيرة، والذي تشمل سلطته إقليم عُمَان.

كان أمير المنطقة الشرقية في ذلك الوقت هو محمد بن نور، وكان يتبع والي العراق، ونحن لا نعرف، أي شيء عن هوية ابن نور، غير أن العملية الناجحة والبارزة التي قام بها والتي أبرزته كقائد ممتاز، وصمت اسمه في الوقت نفسه بالعار وبالقسوة الفائقة.

أنصت محمد بن نور باهتمام بالغ لما قاله له وفد الإمام عن الحرب الأهلية في عُمَان، وعن الآلام التي تعانيها الطوائف السنية على يد الإباضيين؛ ولهذا قرر في دخيلة نفسه أن يقتنص الفرصة التي أتيحت له لممارسة نفوذه على إقليم عُمَان، وبأن (يدوس بأقدامه على الذين داسوا على كرامته واضطهدوا الجماعة الإسلامية في عُمَان). ومما لا شكَّ فيه أن محمد بن نور كان يفكر منذ مدة في إخضاع عُمَان، وكان يسابق الزمن حتى واتته تلك الفرصة التي تحقق له مشروعاته وطموحه مقتديًا في ذلك بالمهلب، قاهر الإباضيين، وقد شدَّ من أزره التأييد الذي وعدته به قبائل معد، كما أنَّ مناقشة تفاصيل الفكرة مع رسل الطوائف السنية قد مكنته من إعداد خطة الحملة، وذلك قبل عرضها على الخليفة في بغداد لدراستها، واتخاذ القرار بشأنها.

وقد احتفظ أمير منطقة الشرقية ببشير، وأوفد زميله محمد بن أبي القاسم إلى بغداد بخطاب إلى الخليفة، يشرح له فيه الأوضاع العُمَانية وانقسام العُمَانيين على أنفسهم ويطلب فيه التعجيل بإرسال حملة تأديبية لمعاقبة الإباضيين وأكد له بأن الظروف التي تسود عُمَان تسمح باتخاذ مثل ذلك الإجراء.

وأتاح وجود ذلك الخطاب مع محمد بن أبي القاسم من سرعة المثول أمام الخليفة المعتضد بالله الذي فهم مضمون الخطاب، وبما أنَّه كان يعلم بأن الحروب الإباضية السابقة قد عمقت من هوة الخلاف بين المنشقين والتقليديين، وأنَّ عُمَان قد أصبحت كلّها في قبضة الإباضيين، فقد واتته الفرصة؛ لتسديد ضربة إلى (وكر الفتنة)، وبذلك يمكن إخماد جذوة تلك الفئة التي أخذت تهدد العالم الإسلامي. كما أدرك الخليفة أهمية طلب الطوائف السنية والنزارية للحماية، نظرًا للروابط المذهبية التي لم يكن في الإمكان تجاهلها؛ ولهذا قرر المعتضد بالله بأن يقبل طلب الوفد العُمَاني ومقترحات

محمد بن نور، فأصدر أوامر عاجلة؛ لتنظيم وإعداد حملة عسكرية ضخمة، مستفيدًا من الأخطاء التي أسفرت عنها حملة هارون الرشيد السابقة.

وهكذا ذاعت أنباء الحرب الوشيكة بسرعة في أوساط القبائل القريبة التي أخذت تبعث بنصيبها من المقاتلين للانضواء تحت لواء (جيش الثأر ضد الأزد)، وقد لقيت الحملة تجاوبًا شاملًا، كما كانت القبائل الشمالية تبدي لهفتها للغنائم والأسلاب، حتى أنَّه خلال شهور خمسة استطاع محمد بن نور وابن أبي القاسم استكمال كافة الاستعدادت اللازمة للحملة.

وهكذا أخذت الطوائف والقبائل السنية والنزاية تفد من كلِّ مكان من شمال شبه الجزيرة وسوريا والعراق ويدفعون بأنفسهم إلى الصراع بكل حماس انطلاقًا من الروابط الطائفية، بأمل تصفية الهراقطة، وجمع الغنائم والأسلاب من الإقليم العُمَاني. وتطوع المئات من الشيوخ هم وأسرهم وأتباعهم البدو الشرسين للمعركة، وبذلك ضاعفوا من حجم الحملة، وكان أهم القوات التي تطوعت للقتال كتيبة من قبيلة طيء الشهيرة من الشام، وبذلك تألف جيش قوامه خمسة وعشرون ألف رجل بما فيهم خمسة آلاف من الفرسان الآليين الذين تم تشكيلهم من قبائل معد المحاربة، التي انضوت تحت راية الحلفاء.

ويبدو أن هذه الحملة الكبيرة الجيّدة التسليح قد قسمت إلى فرقتين تحركت إحداهما بحرًا من البصرة بحمولاتها من المعدات والمؤن، والأخرى وتتألف من الرجال بقيادة محمد بن نور تحركت بطريق البرِّ من الإحساء.

وبعد أن عبرت السبخة وصلت إلى أبوظبي ومنها إلى البريمي بعد أن شغلت بعض قبائل المنطقة في اشتباكات محدودة. وقد وصلت طلائع تلك القوات إلى الجو (كما كانت تسمّى في ذلك الوقت) يوم ٢٤ محرم سنة (٢٨٠هـ/ ٨٩٣م)، وهناك التقت على ما يبدو بالفرقة الأخرى القادمة من جلفار ثم تحركت الحملة بكاملها، وعبرت منطقة الظاهرة لكي تشنّ هجومها على نزوى عاصمة الإباضيين.

إن اقتراب جيش بذلك الحجم الهائل، وهو مصمم على إخضاع العُمَانيين ومعاقبتهم، لا بُدَّ وأن يثير القلق والاضطراب في جميع أنحاء عُمَان، ولقد تأكد للعُمَانيين في تلك اللحظة أن بلادهم من أقصاها إلى أقصاها أمام تهديد خطير بكارثة قومية، وأنَّه ليس لهم مفر منها إلا بمعجزة، وهكذا وجدت عُمَان نفسها أمام خطر داهم.

كانت الخلافات والصراعات الدموية المحتدمة بين الطوائف المتخاصمة لا تسمح بقيام جبهة موحدة قوية في وجه العدو؛ نظرًا لأنَّ بعض القبائل العُمَانية كقبائل نزار كانت هي المسؤولة وحدها عن تلك المحنة التي تتعرض لها البلاد. وهكذا ففي وجه تلك القوة العاتية للجيش الغازي، والتي أخذت تحدق بحدود الوطن العُماني فقد القادة العُمَانيون ثقتهم في أنفسهم وفي قدرتهم على التصدي للمهاجمين، وسيطر شعور بالفزع واليأس عليهم.

أما القائد محمد بن نور فقد دخل وإلى صفِّه مجموعة من العوامل المشجعة. فقد كان جيش الإمام عزان صغير الحجم، كما كانَت إمكانياته محدودة، وكانت سلطته مقصورة على قسم واحد من الأمة، فكان عليه والحالة تلك أن يتولى قيادة الأمة ويتصدى في الوقت نفسه لقوات الغزو.

ومن ناحية أخرى فإن الإمام عزان على ما يبدو لم يكن يتمتع بمواهب وخصائص القائد المدرب الذي يمكنه أن يقوم بتوحيد صفوف الأمة، وأن يوحي إليها بالثقة، غير أنَّه على أيّة حال لم يتخل عن المسؤولية التي ألقيت على كاهله؛ ولهذا فقد أدى واجبه في رجولة وإخلاص. فقام بمحاولات مضنية للتوفيق بين أتباعه وإشاعة الانسجام بينهم، ورفع الروح المعنوية في صفوفهم، وحثهم على الانضمام إلى الواجب الوطني المقدس ومواجهة الغزاة، غير أن الاستجابة لندائه لم تكن في مستوى الموقف، هذا على الرغم من نجاحه في إقناع بعض القبائل السنية على الوقوف إلى جانب المصلحة الوطنية. وعلى أيّة حال فإنَّ بعض القبائل العائلات العُمَانية الثرية، وبعض الشيوخ المتنفذين الذين أسهموا بدور ملحوظ في السياسة المعادية لقبائل نزار، فرت هاربة من عُمَان دون أن تشترك في مواجهة الموقف، وقد نشير في هذا الصدد إلى شخصية معينة هو سليمان بن عبدالملك بن بلال السليمي الذي خرج هو وأفراد أسرته وخدمه إلى هرمز، بالإضافة إلى بعض الذين غادروا البلاد من صحار ومنطقة الباطنة ولجأوا إلى البصرة وشيراز، بينما توجه البعض الآخر إلى شرقي أفريقيا.

والواقع أن أولئك المهاجرين كانوا يمثلون الفئة الأكثر ثراء، ففضلوا أن يعيشوا بما يملكونه في مأمن حتى تمر العاصفة ويعودون إلى البلاد.

عسكر محمد بن نور بقواته في البريمي، ومنها بدأ زحفه عبر منطقة الظاهرة في

اتجاه العاصمة نزوى، ولقد أزداد جيشه حجمًا بمن انضم إليه من قبائل نزار المنشقة، بحيث وصل عدده بعد ذلك إلى ٣٠,٠٠٠ رجل.

وفشل الإمام في وقف الغزو رغم الجهود التي بذلها. وهكذا فإزاء تلك الأوضاع وتخلي أعداد كبيرة من رجاله عنه أدرك أنَّ الدفاع عن العاصمة أصبح غير ممكن، فتراجع بما بقي عنده من بضع ألوف من الرجال إلى سمد الشان، حيث قرر أن يبقى هناك؛ ليصمد ويقاوم، ومن سوء الحظِّ أن القبائل التي صمدت في القتال إلى جانب الإمام في تلك اللحظات الحرجة الحاسمة من الصراع غير معروفة.

وبينما هو في طريقه إلى نزوى مرَّ محمد بن نور على السرِّ وعبري وبهلاء، وبعد أن احتلَّ العاصمة نزوى دون مقاومة وأقام مقره العام، واصل تقدمه إلى سمد الشان. وفي هذه القرية وفي يوم ٢٥ صفر (٢٨٠هـ/ ٨٩٣م) نشبت معركة عنيفة استمرت طوال اليوم، غير أن قوات الخليفة بحكم تفوقها في العدد والسلاح والتنظيم انتصرت على العُمَانيين رغم شجاعة العُمَانيين ومقاومتهم اليائسة وانتهت بمذبحة رهيبة.

وهكذا انفجرت العاصفة في عُمَان وأطبقت عليها الغيوم السوداء التي أخذت تهدد البلاد بالطوفان، وقدر لشعب عُمَان أن يواجه تلك المأساة القومية وقتل الإمام عزان وقام محمد بن نور بإرسال رأس الإمام إلى الخليفة المعتضد بالله، ثم عاد بجيشه المنتصر إلى قاعدته في نزوى، واحتفل بانتصاره بسلسلة من المجازر الوحشية تلتها عمليات سلب ونهب من قبل قوات الخليفة، كما فرضت الطاعة بقوة السلاح، وعربد في البلاد بعجرفته التي لم يعرف لها مثيل، وهكذا تم إخضاع عُمَان كلها.

أما قبائل نزار التي كانت في وضع يائس قبل ذلك، فقد أصبحت الآن سيّدة الموقف، ومما لا شكَّ فيه أنَّهم لم يتركوا أيّة فرصة للانتقام والتعويض عن الاضطهاد والخسائر التي تحملوها سابقًا على يد القبائل الإباضية.

لقد احتفظت عُمَان بكامل استقلالها لفترة امتدت ١٦٣ عامًا، وأوقعت الهزيمة بقوات هارون الرشيد الذي حاول فرض الطاعة عليها. غير أن الخلافات الداخلية والصراعات الطائفية والمذهبية التي اجتاحت البلاد وبعثرت قواتها وإمكانياتها، قد عرضتها لكارثة أقسى وأكبر وأشد هولًا، كما يقول روسي في (تاريخ عُمَان).

ولقد كانت الرغبة في ممارسة الأعمال التجارية التي تدر الأرباح، وانتشار روح الخنوع والترف والتواكل والكسل التي سادت المجتمع في أعقاب انتعاش التجارة

من بين الأسباب التي أدت إلى الاستسلام والموقف السلبي للعُمَانيين من الغزو الأجنبي لبلادهم.

وقد جاءت تلك التطورات فجأة وبصورة شاملة، بحيث اعتبرت مولدًا لمرحلة جديدة في تاريخ الخليج، كما أن الثروات التي جمعت من خلال تلك الحركة الصناعية والتجارية قد ساهمت في إدخال تغييرات اجتماعية هامة على حياة السكان. وبحكم تلك التغييرات أصبح سكان المناطق الحضرية أو المدن أقل رغبة في الحروب، وأقل قدرة على تحمل مصاعبها، كما أن العناصر البدوية التي كانت دائمًا المصدر الرئيسي للمقاتلين في الصراعات والحروب الأهلية أصبحت أقل قدرة على مواجهة الجنود المدربين والخبيرين بالحرب كجنود الخليفة.

وفي الوقت الذي كان محمد بن نور يمارس عمليات الإبادة والقتل ضدَّ العُمَانيين كان (ألفريد الكبير) يرقد على فراش الموت. ومن المصادفات التاريخية الغريبة أن تمر البلدان في تلك المرحلة بظروف متشابهة.

فخلال القرن التاسع هاجم إنجلترا واحتلها الدايفون، وبما أن الألفجار قد عجزوا عن صدِّهم حتى انقلب الحظ لصالحهم وتمكن ألفريد من إحراز النصر في موقعة برايتن هيل، أو أتا ندون، يوم ٥ مايو سنة ٨٧٨م، مما قلب كفة الحرب، وتم طرد الشماليين من البلاد. وكإنجلترا وجدت عُمَان ألفجارها، وفشلت هي أيضًا بحكم افتقارها إلى الرشد والمهارة العسكرية.

أما الفجار عُمَان فهو شيخ بني هناءة- الأهيف بن حمحام الذي تولى قيادة العُمَانيين في محاولةٍ لطرد الغزاة من البلاد، ويحكى أن حمحام كان شجاعًا وذا عزيمة وسياسيًّا محنكا؛ ولهذا فقد وقع على كاهله عبء مواجهة العاصفة، وقيادة الأمة بعد وفاة الإمام عزان.

فمنذ يوم الكارثة التي حاقت بالعُمَانيين في سمد الشان لم ينفك يبحث عن فرصة؛ لبعث روح الثورة في الشعب ضدّ المحتلين، وسرعان ما واتته تلك الفرصة عندما أدرك الشعب العُمَاني المقهور الذي كانت لا تزال جروحه تنزف، بأن العدو قد بات مطمئنًا على وجوده، متشبثًا بقوته، غير عابئ بشيء، بل أنَّه غارق في فجوره وملذاته.

إن قسمًا كبيرًا من القبائل الشمالية التي انضوت تحت قيادة محمد بن نور كانت

مدفوعة بغاية واحدة، وهي السلب والنهب، وقد عادت إلى البصرة، بينما وزع عدد آخر من قوات الغزو على عدد من المناطق في البلاد؛ لبث الرعب في قلوب المواطنين، والمرابطة في القلاع والحاميات العُمَانية؛ لحفظ الأمن، ورغم ذلك فقد بقي في العاصمة مالا يقل عن ١٢ ألف أو ١٥ ألف رجل من تلك القوات التي كانت ترابط مع القائد في مقره. وقد وجهت التعليمات كتابيًّا إلى زعماء القبائل الإباضية واليمنيين تدعوهم إلى الثورة ضدَّ المحتل، وطرده من أرض الوطن، وقد لبى النداء كثيرون وبحماس بالغ، وهكذا غدت عُمَان تعج بالثوار والعزم الأكيد على تطهير البلاد من الغاصب. وأخذ العُمَانيون يتجمعون تحت قيادة واحدة يشدُّهم إلى ذلك هدف مشترك. وهكذا أصبح تحت تصرف الإمام العفيف عدد ضخم من المقاتلين البواسل الذين احتشدوا وانقضوا فجأة على نزوى وأرغموا محمد بن نور بضربة مفاجئة على إخلاء العاصمة والتراجع بسرعة نحو المنطقة الساحلية. وفي طريق تقهقر جيش الاحتلال مرَّ بوادي الطائيين، ثم منه إلى مدينة قريات الساحلية، وكانت قوات الإمام تلاحقه، وفي هذه المنطقة أرغم محمد بن نور عن التوقف والصمود في مواجهة المصير المحتوم، فقد أصبح في وضع يائس بين البحر والجبل، بحيث لم يعد أمامه طريق للتراجع.

وبعد معركة عنيفة أبلى فيها الجيشان بلاءً حسنًا وقاتلًا بشجاعة قتل وجرح خلالها عددٌ كبيرٌ من الجانبين، وبدأت كفة الحرب تميل لصالح العُمَانيين، غير أنه في اللحظة التي كاد أن يتقرر فيها مصير تلك الحرب لصالح العُمَانيين تلقت قوات محمد بن نور إمدادات جديدة أرسلها أبو عبيدة بن محمد شيخ بني سامة، وهي نفس القبيلة التي ينتمي إليها محمد بن نور، وانضمت إلى قواته. وقد قلب وصول تلك القوة الإضافية إلى جيش العدو ميزان الحرب، واستطاعت قوات محمد بن نور انتزاع النصر الذي كاد أن يحرزه العُمَانيون. وقد قتل الأهيف بن حمحام بينما كان يقاتل ببسالة نادرة، ولم ينج سوى عدد قليل من الإباضيين.

عاد محمد بن نور منتصرًا مرة أخرى إلى نزوى وبسرعة، وما أن عاد حتى أخذ يشفي غليل انتقامه من المواطنين الأبرياء.

وبموت الإمام فشلت الثورة، ولم يبق في الساحة قوى تتحدى محمد بن نور، غير أن ذلك كله لم يشف غليل محمد بن نور الذي أصدر أوامره للتنكيل والبطش

والإرهاب بالعُمَانيين، وتخريب المنشآت وحرق المزارع وهدم المرافق، وتعرض المواطنون لضروب وحشية من التعذيب والتمثيل بأجسادهم. فقد أمر بقطع الأيدي والأرجل والآذان وفقأ الأعين ومصادرة الممتلكات، وتحويلها إلى النزاريين، واستعبدت وأذلت النساء، كما أمر محمد بن نور بتدمير قنوات الري التي يعتمد عليها العُمَانيون في حياتهم، وهكذا انتشر الدمار في كل مكان.

إن هذه الفظاعات التي ارتكبها محمد بن نور وقواته قد قضت بضربة واحدة على التطور الذي حققته الحضارة العربية في عُمَان. وانحدرت به إلى أدنى درجات البؤس والخراب لدرجة أن عُمَان قد قضت وقتًا طويلًا قبل أن تنهض من هول تلك الكارثة المروعة التي نزلت بها. وإلى هذا اليوم يذكر العُمَانيون محمد بن نور بمزيج من الكره والاحتقار، ويروون الحكايات عن جرائمه ومساوئه وهم يطلقون عليه اسم (الخارج على طاعة الله).

وإننا لا نعرف الفترة التي امتد إليها حكم هذا الأمير الجائر على عُمَان، غير أنَّه من غير المحتمل أن تكون تلك المرحلة الرهيبة طويلة الأمد. وبعد رحيله عيّن على عُمَان أحمد بن هلال سنة (٣٠٤هـ/ ٩١٦م)؛ ليخلفه على إمارة عُمَان، كما يبدو أنَّه سحب الجزء الأكبر من القوات، بحيث ارتأى الأمير أحمد أن ينقل مقره إلى بهلاء، وهي بلدة قديمة تطل على أحد وديان الجبل الأخضر، كما كانت البلدة الرئيسية للقبائل النزارية والسنية في عُمَان.

## والآن جاء دور القرامطة

لقد ظهرت القرمطية في عهد المعتمد بالله، وقد سددت أوّل ضرباتها إلى الخلفاء، ثم تحولت إلى حركة إرهابية ضدَّ الإسلام، ونحن مدينون بكل معلوماتنا عن القرامطة إلى أم. دي. جوجي. وكان مؤسس القرمطية من أصل فارسي، وكان يتميز حقدًا وكراهيةً ضدَّ الإسلام والعنصر العربي. وقد ظلَّ هذا الزعيم الديني ينشر الخراب والدمار، ويهدد الكيان الإسلامي لفترة امتدت قرنًا من الزمان. وكان يدعى عبدالله القداح. وبعد أن اجتاح القرامطة البحرين والإحساء بدأوا يوجهون اهتمامهم إلى الأقطار المجاورة كاليمن وعُمَان، وكانوا يخططون لإخضاعها لنظامهم.

إن الخليفة المكتفي بالله الذي خلف المعتضد بالله سنة (٢٨٩هـ/ ٩٠١م) كان خليفةً قويًا وحاكمًا قديرًا، وقد حاول استرداد أمجاد الخلافة ومكانتها غير أن حكمه

كان قصير الأجل جدًّا، ولم يتمكن من تحقيق الكثير في ميدان الإصلاح. ولقد كان من نتيجة ذلك الاندفاع، ربما في سنة (٢٩٣هـ/ ٢٩٥م) أن قام أبو سعيد بأول مرحلة للاستيلاء على عُمَان. وهناك مراجع عديدة عن هذه الحملة، غير أنَّه لا يوجد في أي منها تحديد للسنة التي تم فيها ذلك الغزو، ويذكر المويري وغيره أن حملة الغزو كانت تتألف من ٦٠٠ رجل وأنَّها أبيدت عن آخرها.

وعلى أيّة حال فإنَّ البيهقي يذكر بأنَّ القرامطة قد حققوا بعض الانتصار في حملتهم باحتلال إحدى الحاميات العُمَانية التي يعتقد أنَّها توؤام (التي هي البريمي الآن) أو جلفار. ويعود فشل الحملة القرمطية إلى شجاعة قبائل نزار، والحامية التابعة للخليفة بقيادة أحمد بن هلال، الذي تمكن من حشد قوة كافية لردع الإباضيين ومنعهم من تعبئة قواتهم، كما استطاع أن يسحق غزو القرامطة في نفس الوقت. ولم يفكر أبو سعيد في القيام بمحاولة أخرى بعد ذلك الفشل. وفي سنة ٣٠١هـ اغتيل أبو سعيد بينما كان في منزله في الإحساء.

في عام (٣٠٥هـ/ ٩١٧م) قام القرامطة بزعامة سعيد الذي خلف والده أبو سعيد في الرياسة في الإحساء بمحاولة جديدة لإخضاع عُمَان. غير أن المسعودي لم يشر إلى هذه الحادثة، ورغم أن هذا الرحالة والمؤرخ المشهور يذكر لنا أن أحمد بن هلال كان لا يزال أميرًا على عُمَان عند زيارة المسعودي لصحار في تلك السنة، أما الجوزي فيذكر أن الأمير أحمد بن هلال أرسل هدايا ثمينة إلى الخليفة المقتدر في سنة (٣٠٥هـ/ ٩١٧م) وأرفقها بطلب لإرسال قوة عسكرية للمساعدة في صدِّ الغزو المتوقع من جانب أعداء الإسلام الذين تحركوا من الإحساء للاعتداء على عُمَان، ومن بين الهدايا التي أرسلها أمير عُمَان إلى الخليفة المقتدر، كما يقول السيوطي: دمية تتكلم، وكانت تردد كلمات هندية وفارسية أفضل من الببغاء. وقد بعث الخليفة بالقوة فورًا، بحيث أن العملية القرمطية ضدَّ عُمَان بقيادة أبو طاهر سليمان شقيق سعيد الأصغر فشلت مثل سابقتها، مما جعل القرامطة يصرفون النظر نهائيًا عن غزو عُمَان.

ونظرًا للضغوط السياسية التي كانت تتعرض لها بغداد في تلك الفترة قرر الخليفة المقتدر بالله سحب واليه وقواته من عُمَان، والسماح لها بشيء من الاستقلال، بشرط أن تدين بالولاء للخليفة، وتدفع الزكاة السنوية إلى خزينة الدولة. ولقد أدرك

المسؤولون في بغداد أن الاحتفاظ بعُمَان كإقليم تابع للخليفة يكلف الخزانة نفقات باهظة، ويشكل عبئًا على القوات العسكرية؛ ولهذا رأت السلطة في بغداد أن تضع حلًّا يحقق الاستفادة من عُمَان دون أي تكاليف أو أعباء عسكرية.

وبعد أن تحررت عُمَان من اعتداءات القرامطة وسيطرة الخلفاء العباسيين تنفس شعبها الصعداء، واستطاع أن يستأنف حياته في ظلِّ الانسجام القومي والوحدة الوطنية، ويتخلص من الصراع الطائفي الذي ابتليت به البلاد. وهكذا سارت الأمور سيرًا طبيعيًّا. ولا يقول المؤرخون شيئًا عن مجموعة الأئمة الذين بويعوا في عُمَان على التعاقب السريع، كما لا يحددون تواريخ توليهم الحكم ... الخ، وكان أحد هؤلاء الأئمة هو عبدالله بن محمد وكان يلقب بأبي سعيد القرمطي، ربما لتشبيهه بتاجر الحبوب المشهور أو شيء من هذا القبيل. وهناك الشيخ الحواري بن مطرف الحداني وهو الإمام السابع في السلسلة بعد أن استردت عُمَان استقلالها. ويقولون عن هذا الإمام أنَّه عندما كان يحضر مبعوث الخليفة؛ لتحصيل الزكاة كان هو يغادر مقره؛ ليقيم فيه المبعوث، ثم يعود إليه بعد أن ينهي مبعوث الخليفة مهمته. غير أن هذا التصرف لم يرتفع بهيبة الإمام بين قومه. ورغم أنَّه كان إمامًا عنيدًا في الحق وعادلًا، وكان يأخذ المنحرفين بمنتهى الشدة. غير أنَّه بسبب ما تعرضت له البلاد العُمَانية من استنزاف رهيب من جانب محمد بن نور وأتباعه من النزاريين فإننا لا نعتقد بأنَّ المبالغ التي كانت تتجمع من الزكاة تعادل المبالغ التي كانت تجمعها عُمَان أثناء خلافة المتوكل، والتي بلغت (أربعة ملايين ونصف مليون درهم أي ما يعادل ١٨٠,٠٠٠ جنيه إسترليني).

بعد وفاة الإمام الحواري، بويع ابن أخيه عمر بن محمد بن مطرف ويقول المؤرخون أنَّه سار على منوال عمِّه في السياسة، وكان يتبع نفس النظام الذي كان يتبعه عمّه عند قدوم مبعوث الخليفة؛ لجمع الزكاة السنوية.

ويقول روس نقلًا عن مؤلف (كشف الغمة) أن جميع الأئمة بعد الصلت بن مالك، لم يكونوا يتمتعون بتأييد كامل من الشعب، كما أنَّ نفوذهم كان يقتصر على بعض مناطق البلاد.

في عام (٣١١هـ/٩٢٣م) شنَّ القرامطة هُجومًا على ميناء البصرة، واقترفوا فيه سلسلة من جرائم القتل والإرهاب والتدمير للبلاد وأهلها، وقد أدى ذلك النجاح

الذي حققه القائد القرمطي، وهو أبو طاهر سليمان إلى خلع أخيه سعيد من الحكم، وتنصيب أبو طاهر نفسه.

أمضى أبو طاهر السنوات القليلة التالية في إنشاء قلعة ضخمة في الإحساء، اكتمل بناؤها في عام (٣١٥هـ/ ٩٢٧م) وسمِّيت المومنية، كما سمِّيت بدار الهجرة.

بعد ذلك أخذ القرامطة يستعدون لعدوانهم على مكة المكرمة، وهو العدوان الذي ارتكبوا فيه من المجازر ضدَّ المسلمين ما تقشعر له الأبدان. وقد تربصت قوات ذلك الغزو لقافلة الحج التي أوفدها الخليفة المقتدر عام ٣١٦هـ، برياسة منصور الديلمي، وانقضَّ أفرادها بقيادة أبو طاهر على الحجيج قتلًا وتنكيلًا، وبثوا الرعب والفزع في قلوب الحجاج حتى غطت دماؤهم أرض تلك البقعة الطاهرة. وقد عاد أبو طاهر من مكة محملًا بالغنائم والأسلاب والأشياء النفيسة يسوق وراءها أسراب الأسرى المذعورين من الرجال والنسوة والأطفال.

ولفترة من الوقت خضعت أقطار شبه الجزيرة لطوفان القرامطة الوحشي المدمر بما في ذلك عُمَان نفسها، غير أن ذلك البلاء لم يدم طويلًا. ولما كانت عُمَان هي آخر قُطْر يسقط في يد القرامطة، فقد كان الأولى التي تثور عليه. كما أن الرباط الذي كان يربط عُمَان بعرش الخلفاء قد تمزق، وتحولت الزكاة التي كانت تحصل عليها بغداد من العُمَانيين إلى الإحساء لفترة من الوقت لم تعرف مدتها، غير أن الفترة التي توقف فيها إرسال الزكاة إلى بغداد لم يتحدث عنها أي مؤرخ، وكل ما نعرفه عنها أنَّ وكيل الخليفة قد فرَّ إلى فارس.

ويشير ابن خلدون إلى هذه الحادثة، غير أن معلوماته عنها غامضة لا تفيد، رغم أنَّه يذكر بوضوح أن خضوع عُمَان للقرامطة حدث بعد احتلالهم لمكة.

وعلى أيَّة حال فهناك الكثير من الأسباب التي تدعو إلى الاعتقاد بأنَّ استيلاء القرامطة على عُمَان لم يرافقه تدخل ما في المؤسسات السياسية أو إلى اضطهاد الطوائف الإباضية، التي رحبت بالقرامطة باعتبارهم محررين وليسوا غزاة، ولعل قبائل نزار أبدت بعض المقاومة إلا أنَّها لم تؤد (كما تجمع الروايات التاريخية) إلى صراع دموي وأنَّ انتصار القرامطة كان انتصارًا سلميًّا نسبيًّا.

في عام (٣٢٠هـ/ ٩٣٢م) اغتيل الخليفة المقتدر بالله خارج أسوار بغداد نتيجة خلاف بينه وبين قائده مؤنس المظفر الذي كان قد استدعاه من الموصل.

خلف المقتدر بالله أخوه القاهر بالله، وهو أحد الخلفاء الذين حكموا وسيطروا وآخرهم أيضًا، كما أنَّه كان أشدَّهم قسوة. وخلال حكمه قامت ثورة بسبب تصرفات علي بن بليق الذي كان يهاجم زعماء الحنابلة، وقد اعتقل بليق هو وأتباعه، ثم شحنوا في بعض السفن من البصرة إلى عُمَان.

بعد اعتزال الإمام عمر بن محمد، في أعقاب غزوة القرامطة لعُمَان، مرت فترة لم يتم انتخاب أي إمام خلالها، وبما أن القرامطة اكتفوا بالزكاة من العُمَانيين، ولم يتدخلوا في شؤون الإمامة، فقد سعى الإباضيون إلى مبايعة الشيخ محمد بن يزيد الكندي إمامًا لهم، غير أن البلاد قاست من الحروب الأهلية كثيرًا في عهده.

ولما كانت عُمَان قد انفصلت عن الخلافة بحكم وجود القرامطة فيها، وكانت حكومة بغداد تدرك خطورة ضياع عُمَان وحرمانها من الزكاة السخية التي كانت تدفعها لها، فقد أخذت تفكر في القيام بإجراء ما. وهكذا أعدت حملة قوية وأرسلتها إلى عُمَان، ربما بتشجيع من القبائل السنية، وقد تمكنت هذه الحملة من إبعاد القرامطة إلى المناطق الجبلية، وإقامة معسكرين للمراقبة إحداهما على الساحل في نخل على سفح جبل الشيبة.

وقد أدى استمرار عمليات الحملة إلى فرار الإمام محمد بن يزيد واللجوء إمَّا إلى زنجبار أو اليمن. وهكذا تم احتلال نزوى، وأصبح الإباضيون مرة أخرى تحت رحمة الطوائف النزارية. وربما كانت تلك الحملة هي حملة يوسف بن وجيه الذي حدثنا عنه ابن الأثير، غير أنَّه من غير المحتمل وجود ابن وجيه في ذلك الوقت المبكر. ولعله من الأفضل أن نفترض أن تلك الحملة التي أرسلها الخليفة القاهر بالله قد حققت نجاحًا مؤقتًا، إلى أن عاد القرامطة بعد تلقيهم إمدادات من البحرين؛ لطرد الغزاة والاستيلاء مرة أخرى على عُمَان.

لقد مهدت عودة القرامطة الطريق لانتخاب إمام إباضي جديد هو الملا البحري الذي يصفه بعض المؤرخين بأنه كان معتوهًا، وتوفي بعد انتخابه مباشرة.

وليس هناك أدنى شك في أن الإباضيين العُمَانيين كانوا يفضلون سيادة القرامطة من الخضوع لنير الخلفاء، ليس لأنَّهم استطاعوا من خلال ذلك أن يستعيدوا مركزهم السياسي فحسب، وإنما وجدوا، ولو لبعض الوقت متنفسًا لهم في مزاولة الحروب والعودة إلى حياة السلم والفنون، وأن يتطلعوا إلى دفعة جديدة من الرخاء والثروة،

غير أن تلك المتغيرات وخلاص العُمَانيين من الطغيان لم يكن يكفي وحده لتحقيق تلك الآمال السعيدة، بل كان الأمر يحتاج إلى زعيم قوي ورشيد؛ ليسير بالأمة عبر الأخطار والمتاعب والفوضى التي تحدق بها. ويبدو أنَّهم وجدوا ضالتهم تلك في شخص أبو القاسم سعيد بن عبدالله بن محمد بن محبوب بن الرحيل بن سيف بن هبيرة، فارس الرسول الله (ﷺ)، فبايعوه إمامًا بعد وفاة الملا مباشرة.

ويكيل المؤرخون الثناء لهذا الإمام بلا حساب، ويصفونه بأنَّه كان مثالًا للورع والاستقامة والتبحر في العلم. ويؤكدون بأنَّ ما أنجزه ذلك الإمام الفذ يفوق كل ما حققه الأئمة السابقون، بما فيهم الجلندى بن مسعود الذي كان من الأئمة العُمَانيين القدماء، وفي عهد هذا الإمام خمدت نيران الصراع المذهبي، بينما ازدهرت الحياة الروحية للأمة، وذلك نتيجة حتمية لوجود حكم مستقر يكرس جهده إلى تنمية المواهب وتطوير الحرف والصناعات؛ ولهذا فقد كان عهده من أبرز العهود التي أخذت عُمَان فيها قسطها من الرقي الحضاري، وكان يمكن أن تسترد جانبًا كبيرًا من ازدهارها التجاري ووفرتها لو قدر لذلك الإمام أن يستمر في السلطة فترة أطول.

وحتى لو اعتبرنا رأي المؤرخين متحيزًا من الوجهة الدينية فمما لا شكَّ فيه أن الإمام سعيد بن عبدالله كان حاكمًا قديرًا وحكيمًا. ولا يذكر المؤرخون عودة القوات الأمبراطورية إلى عُمَان في عهده، وبالتالي فيمكن أن نستنتج بأن القرامطة قد كانوا سادة الموقف لبعض الوقت. غير أن عهد الرخاء والخير الذي جلبه حكم ذلك الإمام لعُمَان قد انتهى بوفاته المفاجئة، فقد قتل أثناء محاولة كان يقوم بها لقمع تمرد في سنة (٣٢٨هـ) في الرستاق إبان خلافة الراضي بالله. وتاريخ وفاته كما ورد في (تاريخ عُمَان). تأليف روسي هو (٣٢٣هـ/ ٩٣٨م) غير أن هذا التاريخ لا يمتد إلى أكثر من خمس سنوات على وصول القرامطة، لكي يشكل مرحلة فاصلة بينه وبين حكم الأئمة الثلاث؛ ولذلك فإني اعتقد بأنَّ التاريخ الذي يحدده ابن الأثير هو أكثر احتمالًا.

خلف الخليفة الراضي بالله عمّه القاهر بالله وذلك عام (٣٤٤هـ)، وتميز حكمه بالقسوة والبطش وسفك الدماء، بحيث خلع عن السلطة بعد عامين وأصيب بالعمى. أما الراضي بالله فقد كان حاكمًا رقيقًا وطيب النفس، غير أن الخلافة كانت قد بدأت في التفسخ والانهيار الذي إزداد سوءًا بتعيين محمد بن رائق كأمير للعمرة،

وتخويله صلاحيات غير محدودة إلى أن سقطت الأمبراطورية على أيدي المرتزقة الأتراك الذين عجلت تصرفاتهم بانهيارها.

أما في عُمَان فلم يكن قد مضى وقت طويل عندما بدأ الأتراك دورهم في غزو عُمَان واخضاعها لنفوذهم.

أدار الإمام سعيد بن عبدالله شؤون الإمامة بالكثير من الحكمة وأظهر كياسة نادرة في التوفيق بين فئات الأمة؛ ولهذا فقد اعتبرت وفاته محنة حقيقية للبلاد، فقد كان عهده عهد سلام. وعلى الرغم من أن بعث النشاطات التجارية قد أضفى على البلاد جوًّا من الهدوء والاستقرار، إلا أنَّ تلك العوامل لم تفلح في جعل القبائل تنسى مشاحناتها وأحقادها القديمة، إذ سرعان ما تبين أن عناصر الشقاق التي سكنت بعض الوقت كانت لا تزال حيّةً، وأنَّها كانت تنتظر اللحظة المناسبة لتنفجر. وقد جاءت تلك اللحظة عند انتخاب الإمام الجديد، الأمر الذي أدى إلى عودة الصراع والانقسام إلى جسم الأمة العُمَانية.

وفي الاجتماع الذي عقد في نزوى وافق المشايخ الثلاثة الذين لعبوا دورًا رياديًا في المشكلة على ترشيح راشد بن الوليد. غير أن ذلك الاختيار واجه اعتراضات كثيرة، وبالتالي فنظرًا إلى تعدد الآراء بين ممثلي الطوائف، استوجب الأمر عقد مجلس عام انعقد في منزل راشد بن الوليد نفسه، وحضرته على ما يبدو العناصر المؤيدة له، فأجمعت على انتخابه بسهولة. وعلى أيّة حال فمن خلال الدفاع عن تلك الإجراءات من جانب المؤرخين الإباضيين نستنتج أن المجلس كان يعي تمامًا ضعف موقفه، كما نفهم أيضًا أن المجلس رغبة منه في تجريد المعارضة من أسلحتها اتخذ قرارًا بانتهاج سياسة اللين بالنسبة لحكومة الإمام الجديد، ونسيان ما حدث من انشقاقات نتجت عن وفاة القاضي موسى بن موسى على عهد الإمام عزان قبل خمسين عامًا، وأدى إلى صراع مزمن جلب البؤس للبلاد.

وفي مجلس يضمُّ مثل تلك المجموعة لا يسع المرء إلا أنَّ يتشكك في النتائج، فعندما تم التصويت على القرار توجه الإمام المرشح إلى إحدى الساحات العامة، لعلها تقع بالقرب من وادي كلبوه، حيث كانت جموع غفيرة من الشعب قد توافدت؛ للاستماع إلى البيعة. وقرأ البيان على الشعب أبو محمد عبدالله بن محمد بن أبي المؤثر، الذي طلب إليهم التصديق على القرار بمبايعة الإمام ابن الوليد، وقد منح الشطر

الإباضي من السكان مباركته دون تردد على انتخاب الإمام. وانفض الاجتماع في هدوء وعلى الفور عين الإمام راشد نوابه ووكلاءه في الأقاليم والقرى العُمَانية، وطلب إلى الوكلاء تنفيذ تعليماته فيما يختص بجمع الصدقات والهبات والضرائب، كما أنَّه أعاد تجهيز الحاميات والقلاع، وهكذا أخذ يتصرف كأمير مستقل له كامل الصلاحيات، ولا يخضع لأوامر أي جهة فيما عدا مندوب القرامطة في نزوى الذي كانت وظيفته لا تتعدى جمع الزكاة من العُمَانيين.

وقد تحدث المؤرخون عن الإمام راشد حديثًا يفيض بالثناء على خصاله في العدل والمجاملة وحسن الأداء. ولعل تلك الخصائص هي التي تحمل على الاعتقاد بأنَّه كان يحظى بتأييد جميع القبائل بما فيها القبائل السنية والنزارية، الذين حتى ولو لم يبايعوه، إلا أنَّهم على الأقل لم يعارضوا حكمه. ولقد بدأ عهده باليُمن وتمتعت عُمَان فيه بقسط وفير من الرخاء والعدل والسلام.

غير أن الغيب كان يخبأ لعُمَان تغييرًا لتلك الأوضاع، وذلك عندما بدأ معارضوه يحيكون الدسائس ضدّه. وهكذا حلَّ محلَّ الوئام والولاء الانقسامات والتمرد والشرور. فقد انفض عنه قسم كبير من القبائل الإباضية وسحبوا تأييدهم له مما أضعف من مركزه.

ولقد فشلت كل تلك الفضائل التي يتحلى بها من إبقائه في الحكم، كما أنَّه على ما يبدو كان يفتقر إلى القدرة والحسم في قمع الفتن والانشقاقات التي عصفت بالبلاد.

خلال تلك الفترة تلقت عُمَان أنباء عن حملة عسكرية يجري إعدادها في بغداد لغزو عُمَان، وبأن السلطان كان بالفعل في طريقه إلى بلدة السر.

إن تلك الأنباء قد غيرت مجرى التطورات في عُمَان على ضوء ما أحدثته من بلبلة وقلق بين صفوف العُمَانيين. ويبدو أن الإمام راشد انتهز تلك الفرصة فقرر على الفور مسار العمل، وأخذ يدعو قبائل البلاد الهامة للالتفاف حوله للدفاع عن الوطن، غير أن دعوته ذهبت أدراج الرياح. فقد قررت القبائل الإباضية التزام موقف الحياد؛ بسبب الخلافات الأخيرة، بينما لم تتردد قبائل نزار من إعلان موقفها بالترحيب بالغزاة، وانتهاز الفرصة للتجمع تحت قيادة زعمائهم في بهلاء. وقد توجه الإمام راشد إلى بهلاء في محاولة لتوحيد الصفوف لمواجهة الخطر القادم وإقناعهم

بالتخلي عن قرارهم، وذلك من أجل المصلحة العامّة، غير أن العداوات الدينية وكرههم للهيمنة الإباضية كانت أعمق وأقوى من وطنيتهم.

في تلك الأثناء كان الجيش التركي بقيادة يوسف بن وجيه قد تقدم من أبوظبي إلى البريمي، أما الإمام راشد الذي خشي من البقاء وسط بني نزار في بهلاء فقد اعتزل في أدم أولًا، ثم انتقل إلى وادي المناخر.

ولا نعرف شيئًا عن طفولة وتاريخ يوسف بن وجيه الذي حكم عُمَان عدة سنوات، ثم مات غيلة هناك على يد أحد العبيد، كما أنَّ أحدًا من المؤرخين العُمَانيين أو غير العُمَانيين لم يذكر تاريخ فتحه لعُمَان، وإن كان ابن الأثير قد أشار إلى أنَّه كان سيّد عُمَان سنة (٣٣١هـ/ ٩٤٢م)، ومعنى ذلك أن الحملة قد وقعت قبل ذلك العام.

ولقد كان العراق في تلك الفترة في وضع يرثى له من الفوضى وانهيار النظام، وكان الخليفة يخلف الخليفة، والأمير يخلف الأمير في تتابع سريع.

وعندما كانت جيوش يوسف بن وجيه، أو السلطان الطاغية، كما كانوا يلقبونه، تزحف دون مقاومة عند الظاهرة، في طريقها إلى العاصمة العُمَانية (نزوى). كان الإمام راشد بن الوليد يبذل جهودًا مستميتة للحصول على مؤيدين، وما أن نجح في تسليح قوة كبيرة حتى تحرك بالاشتراك مع حلفائه القرامطة واتخذ له موقعًا فيما بين منح ونزوى. وعلى أيّة حال فلم يكن الهدف من حملة القائد التركي هو سحق الإباضية في عُمَان بقدر ما كان يهدف إلى طرد القرامطة منها، وتحويل الزكاة التي كانت يدفعها ذلك البلد من الإحساء إلى بغداد؛ ولكن القرامطة كانوا مصممين على الدفاع باستماتة، وكانت القوة المرابطة خلف خطوطهم تشكل العمود الفقري لجيش الدفاع عن عُمَان.

وربما كان الإمام راشد أكثر حكمة لو أنَّه وضع نفسه في قيادة قواته، وتحرك بهم مباشرة ضدّ العدو. غير أنَّه فضل أن يعسكر في عقبة الفيح وهي جدول ماء صغير شرقي منح، وحتى هناك أرسل قواته بقيادة الشيخ أبو محمد عبدالله بن محمد بن أبي المؤثر؛ لشنِّ الهجوم على الأتراك. وعلى الرغم من أنَّه لم يتخلف لنا معلومات عن نوع العمليات التي جرت بين الجانبين إلا أنَّ المعركة دارت في منطقة تسمّى القضيب القريبة من نزوى وذلك في شهر ذي القعدة سنة (٣٣١هـ/ ٩٤٢م)، وأنَّه بالرغم من أنَّ العُمَانيين قد قاتلوا ببسالة إلى أن الصراع لم يكن متكافئًا بين الجانبين،

وبالتالي فقد تعرضت القوات المشتركة للإبادة واستشهد القائد أبو محمد، ولم يبق على قيد الحياة، إلا نفرٌ قليلٌ من العُمَانيين والقرامطة.

بسقوط نزوى في أيدي القوات التركية، توقفت كل مقاومة، وأخذت الحاميات والحصون والقبائل تستسلم الواحدة تلو الأخرى، وهكذا سلم العُمَانيون رقابهم للسفاحين الجدد، وإن كان ابن وجيه قد حاول على ما يبدو كبح جماح جنوده، وإعادة النظام والهدوء إلى البلاد.

وهكذا عادت عُمَان مرة أخرى تحت سيادة بغداد، غير أن معلوماتنا عنها عن تلك الفترة ضئيلةً جدًّا مما لا يسمح بإعطاء تفسير حقيقي لذلك الاستسلام المطلق لقوات الغزو خصوصًا وأنَّ العُمَانيين لم يعودونا بذلك.

احتفظ الإمام راشد بمركزه في الفيح إلى أن عاد أفراد جيشه المهزوم ممن استطاعوا النجاة من المذابح وأبلغوه بما وقع للقوات العُمَانية، فبادر إلى الخروج عن طريق وادي سمائل والالتجاء بالمناطق الجبلية، وهناك ظلَّ تائهًا يتعقبه أعداؤه، وبعد أن تخلى عنه أصدقاؤه. وأخيرًا عاد إلى نزوى، غير أنَّه أرغم على إعلان فروض الولاء للأتراك، إلا أنَّه توفي بعد ذلك بوقت قصير منبوذًا ومنسيًّا من قومه.

لقد خرج القرامطة من عُمَان لفترة من الوقت، إلا أنَّهم واصلوا محاولتهم للعودة إليها وفرض الزكاة على أهلها. أما أبو القرامطة حمدان أو عبيد الله فلم يعش طويلاً؛ لينعم بانتصاراته في عُمَان، إذ توفي في عام (٣٢٢هـ/ ٩٣٣م) وخلفه على الزعامة أبو القاسم، الذي حوصر بعد ذلك بعشر سنوات في مقره بالإحساء من جانب يزيد قائد الخليفة، وهي فترة شهدت تغييرات في مسار الأحداث، إذ توفي في نفس العام أبو طاهر سليمان أبرز زعماء وقواد القرامطة العسكريين، والذي لم يوجد من يخلفه في الزعامة، غير أن اختفاء أبو طاهر قد مكن يوسف بن وجيه من الاحتفاظ بقبضته على عُمَان لفترة طويلة.

وما كاد يفرغ يوسف بن وجيه من فتوحاته في عُمَان ويتجه إلى تدعيم سلطته حتى تلقى تعليمات من أمير البصرة للقيام بحملة ضدَّ البريمي، وعلى أيّة حال فقد نجح يوسف حتى ذلك الوقت في تدعيم سيطرته على العُمَانيين، وفرض الوفاق فيما بينهم، بحيث أصبحت كل إمكانيات البلاد تحت تصرفه لدرجة لم يعد يخشى من قيام أي تحرك أو تمرد ضدّه. ولقد تمكن من حشد قوة بحرية ضخمة من السفن

والناقلات في ميناء جلفار، وهو الميناء الذي كان يستخدمه العرب في تلك الأيّام كميناء حربي ويفضلونه على ميناء مسقط وصحار وقام بنقل جنوده وعتاده الحربي إلى سفن ذلك الأسطول في أواخر (٣٣١هـ/ ٩٤٢م) واستطاع يوسف بذلك الأسطول أن يحقق نصرًا قصيرًا، غير أن الحظ عاد فانقلب عليه نتيجة للأستراتيجية التي أتبعها البريدي، والتي أدت إلى تدمير أسطول يوسف بن وجيه، الأمر الذي أرغمه على العودة إلى عُمَان ببقايا أسطوله المحطم.

ولا يبدو أن مركز يوسف بن وجيه في عُمَان قد تأثر بتلك النكسة، إذ يذكر ابن الأثير أن يوسف بن وجيه ظلّ محتفظًا بسلطاته في عُمَان، كما أنَّه وجد العُمَانيين ما يزالون مستكينين له كما كانوا عندما غادرهم قبل ذلك بشهرين.

وعندما تولى عز الدولة مقاليد الحكم في عاصمة الرشيد في عهد المستكفي بالله قرر أن يلعب هذا الأخير دوره في دراما التاريخ العُمَاني. وكان أخواه الأكبران علي وحسن، واللذان يلقبان بعماد الدولة وركن الدولة قد توسعا في فتوحاتهما في الأقاليم الفارسية، وعندما قررا مهاجمة شيراز انضم إليهما أحمد، غير أن المستكفي بالله قد أتهم بأنه كان يتآمر لإعادة الحرس التركي، فاقتيد إلى بيت الأمير، وتم خلعه عن السلطة في شهر جمادى الآخرة سنة (٣٣٤هـ/ ٩٤٥م) وخلفه خصمه ومنافسه المعطي بالله الذي كان سعيدًا كل السعادة لاشتراكه في عملية فقأ عيني ابن عمه السيء الحظ.

لم تتوفر أيّة معلومات عمَّا كان يجري في عُمَان في تلك الفترة؛ ولكن ثمة من الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد بأن القرامطة لم يستسلموا لمحاولات إقصائهم عن عُمَان، وإنَّهم قاموا بأكثر من محاولة لاسترجاع نفوذهم وانتزاع ما يمكن انتزاعه من أموال الزكاة.

ويذكر لنا ابن حوقل نقلًا عن دي جوجي بأنَّ الزكاة العُمَانية كانت من مصادر الدخل العادية، كما يروي عن قيام حملة بقيادة أبو علي حسن بن عاصم، زحف فيها زعماء القرامطة بجحفل على عُمَان. غير أن شجاعة جنود يوسف بن وجيه والأتراك قضت عليهم. ولعل هذه المحاولة قد تمت سنة (٣٣٢هـ/ ٩٤٣ أو ٩٥٠م). ولم يكف القرامطة عن محاولاتهم للاحتفاظ بعُمَان، كما يذكر ذلك ابن خلدون الذي يقول بأنَّ محاولات زعماء القرامطة للاحتفاظ بعُمَان ظلّت مستمرة ويائسة،

وأنَّها لم تتوقف حتى سنة (٣٧٥هـ/ ٩٨٥م).

وخلال عام (٣٣٩هـ/ ٩٥٠م) كان القرامطة يعملون في خدمة معز الدولة، وقد استطاعوا حتى ذلك الوقت استرداد بعض ما كان لهم من نفوذ في عُمَان وجزءًا من الزكاة من الحاكم التركي يوسف الذي كان يكره البويهيين، وكان مستقلًا بحكمه لعُمَان. ويبدو أن يوسف لم يضيع أي فرصة كانت تسنح؛ لتسديد ضرباته إلى الأسرة البويهية حتى أنَّه في عام (٣٨٠هـ/ ٩٥١م) انتهز فرصة نشوب خلاف بين القرامطة ومعز الدولة؛ ليخطط ويقود حملة ضدَّ البصرة لاحتلالها.

وقد استدعى معز الدولة القرامطة لمشاركته في حملته على البصرة، غير أنَّهم رفضوا طلبه. وما أن علم يوسف بن وجيه بذلك حتى بادر على الفور بفتح حوار مع القرامطة؛ لعقد حلف معهم مقابل أن يتعاون القرامطة معه على البَرِّ، بينما يتحرك أسطوله العُمَاني من ناحية البحر في شطِّ العربِ، للقيام بهجوم مشترك على المدينة. غير أن محاولة يوسف بن وجيه هذه تسربت أخبارها إلى الوزير المهلبي الذي كان قد عينه المعز؛ لتسوية شؤون إقليم الأهواز. فتحرك فورًا وتمكن من احتلال البصرة قبل أن يظهر أسطول يوسف بن وجيه، وفي نفس الوقت كان يوسف بن وجيه قد غادر بأسطوله عُمَان في مستهل (٣٤١هـ/ ٩٥٢م) وعند رسو الأسطول علم بما حدث، وأدرك أن الوزير قد فوت عليه الفرصة، ليس ذلك فحسب بل أن معز الدولة نفسه قد تحرك بقواته بسرعة لدعم الوزير، كما خاب أمل يوسف بن وجيه مرة أخرى عندما بلغه أن الكتيبة القرمطية بقيادة أبو العرب يوسف الحسن الجنابي أخي أبو طاهر قد اضطرت إلى العودة، ولم تقدم عونها له كما كان متفقًا عليه.

ورغم ذلك فقد تقابل الجانبان في معركة حامية استمرت يومين، ولم تؤد إلى نتيجة، وهكذا اضطر يوسف إلى الانسحاب والفرار وفقدان أسطوله كله.

ومن المحتمل أن يكون نافع عبد يوسف بن وجيه قد قام باغتيال سيِّده في العام التالي، وذلك انتقامًا منه ربما لإهانة أو إساءة وجهها إليه. وربما يكون تاريخ هذا الحادثة سنة (٣٣٢هـ/ ٩٤٣م)؛ ولكن بما أن يوسف بن وجيه كان على قيد الحياة سنة (٣٤١هـ/ ٩٥٢م)، فإن وفاته لم تحدث قبل عودته من البصرة. أما عن أسباب تلك المأساة فلا توجد معلومات يعتد بها، غير أن المؤرخين يذكرون بأن نافعًا استولى على السلطة وبقى حاكمًا على عُمَان حتى قيام معز الدولة بغزوها.

وقد مرت على تلك الأحداث نحو عشر سنوات، لا يشير المؤرخون إلى شيء عنها حول تاريخ هذه البلاد، والتي لم تقع فيها أي تغييرات سواء فيما يختص بمنصب الخليفة أو أمير البصرة.

وإذا كنا لا نعرف شيئًا عن طبيعة حكم هؤلاء لعُمَان؛ لأنه كان حكمًا اسميًّا؛ نظرًا لأنَّ العُمَانيين لم يكونوا يطمحون إلى أكثر من أن يتركوا وشأنهم، فإنه لا بُدَّ أنَّهم عانوا الكثير تحت حكم الأتراك، ومن المؤكد أن نافعًا وجماعته الأتراك كانوا يسيطرون على عُمَان أو على الجزء الأكبر منها.

في عام (٣٥٢هـ/ ٩٦٣م) صمم الأمير معز الدولة على مهاجمة خصومه في عُمَان بعد أن تخلص من مشاكله في العراق، وفي سبيل ذلك كلف رئيس وزرائه أبو محمد الحسن بن محمد المهلبي بالزحف على عُمَان على رأس جيش كبير. ووصل ذلك الجيش إلى ميناء جلفار، كما تم إعداد أسطول في ميناء البصرة وظلّ منتظرًا هناك لنقل الجنود. ويبدو أن المهلبي قد أجهد نفسه فوق طاقتها في إعداد وتنظيم ذلك الجيش، وعندما كان متوجهًا من بغداد إلى البصرة لقيادة الجيش فمرض في الطريق وعند وصوله إلى الميناء تدهورت حالته أكثر مما اضطره إلى صرف النظر عن الخطة والعودة إلى العاصمة. غير أن القدر كان له بالمرصاد، ففي شهر شعبان بعد شهرين من تلقيه تعليمات الأمير بقيادة الحملة إلى عُمَان، توفي متأثرًا من ذلك المرض.

وقد مرت سنتان قبل أن يجد معز الدولة نفسه في حالة تسمح له بتجميع طاقاته من جديد لغزو عُمَان. وقد قرر في هذه المرة أن يتولى القيادة بنفسه، ولا نعرف شيئًا عن حجم القوات التي تم جمعها في هذه المرة، غير أن معز الدولة لم يكن ليحتمل نكسة أخرى، وقد حرص على أن يكون الجيش المكلف بغزو عُمَان من القوة بحيث يرهب الأتراك، ويجعل كل محاولة لمقاومته في حكم المستحيل. ويبدو أن عملية إنزال ذلك الجيش قد تمت دون مقاومة، وبالتالي فإن نافع بعد أن أدرك أن خوض أي معركة مع جيش الغزو سوف يؤدي إلى إبادة قواته، رأي أن من الأفضل أن يسلم نفسه، وقد وافق معز الدولة، وأصدر قرارًا بذكر اسمّي الخليفة ومعز الدولة في خطبة الجمعة في الجوامع، وصكّ الاسمين على العملة العُمَانية، وهكذا أصبحت عُمَان مرة أخرى إقليم الخلافة الشرقي.

أما كيف كان ينظر العُمَانيون إلى تلك التغييرات التي تناولت الطغاة الذين كانوا

يحكمون البلاد، وكيف كانت معاملة أولئك الطغاة لهم، وما هي المواقف التي اتخذها العُمَانيون من طغيانهم، فلا توجد أدلة على ذلك. غير أن عدم الإشارة إلى وجود مقاومة من جانب القبائل العُمَانية يحملنا على الاعتقاد بأنَّ عملية انتقال السلطة وتهدئة الأوضاع في البلاد قد تحققت بدون عنف أو إراقة دماء أو عمليات سلب ونهب.

لم يبق معز الدولة في عُمَان وقتًا طويلًا؛ ولكن نافعًا استجاب لسيّده، بحيث نال حظوته وكسب ثقته لدرجة أنَّه تم تعيينه حاكمًا وجامعًا للزكاة بأمر من أمير البصرة، ثم أبحر معز الدولة مع قواته عائدًا إلى البصرة. ولقد لعب نافع لعبته بذكاء وحقق هدفه، فبعملية اغتيال غادرة لسيّده يوسف بن وجيه سنة (٣٤٢هـ/ ٩٥٣م) وصل إلى السلطة، ثم ها هو ذا في سنة (٣٥٤هـ/ ٩٦٥م) ينجح بتملقه للأمير في الاحتفاظ بسلطته على عُمَان بعد مغادرة معز الدولة.

وما أن عادت قوات البويهيين إلى البصرة، حتى تجمعت القبائل الإباضية بعد أن علمت بقدوم قوة كبيرة من القرامطة إلى عُمَان، فانتهزوا تلك الفرصة للتخلص من نير الأتراك وإعلان استقلالهم عن الخلافة. وقبل أن يتمكن نافع من قمع تلك الانتفاضة العُمَانية كان القرامطة قد وصلوا إلى الحدود العُمَانية، ودخلوا منطقتي الجو والظاهرة. وقد تصدى لهم الأتراك في هاتين المنطقتين محاولين وقف تقدمهم، غير أن الأتراك لم يعودوا يتمتعون بتأييد القبائل السنية في عُمَان، فدارت معارك ومناوشات بين الجيشين، غير أنَّه بعد قتال عنيف وجد القرامطة أنفسهم غير قادرين على التقدم وطلبوا من زعيمهم النجدة. ويبدو أن القبائل العُمَانية لم تشارك في تلك المعارك، ولم تؤيد طرفًا ضدَّ الآخر؛ لأنَّها كانت مستاءة من شيوخها الذين استكانوا للسيطرة الأجنبية، وبالتالي فبعد وصول تعزيزات جديدة لجيش القرامطة تلاشى كل أمل للأتراك في النصر.

وسرعان ما تغلغل القرامطة إلى نزوى نفسها، واحتلُّوا القسم الأكبر من المقاطعات الجبلية. أما نافع الذي منيت قواته بالهزيمة، فقد فرَّ إلى العراق؛ لإبلاغ سيّده معز الدين بالكارثة التي حلَّت بهم.

بعد أن أتم قائد القرامطة الذي قدر عدد أفراد جيشه بثمانية إلى عشرة آلاف جندي احتلال عُمَان فرض ضرائب باهظة على العُمَانيين وسامهم العذاب لدرجة

أن نفد صبرهم فثاروا للانتقام منه.

وبعد رحيل هذا القائد عن عُمَان عيّن شخصًا يدعى علي بن أحمد كوكيل أو نائب عنه لإدارة شؤون البلاد وجمع الزكاة. ويبدو أن هذا الشخص كان خسيسًا، إذ يقال أنَّه فرض لنفسه ضريبة إضافية تقدر بعشر قيمة الزكاة. وقد تسببت لصوصيته في تعيين شخص عُمَاني يدعى ابن طوغان كمحكم أو قاض. وكان ابن طوغان من صغار القادة في البلاد، وقد أثار تعيينه في تلك الوظيفة غيرة وعداء بعض المواطنين، مما جعله يخشى منهم. وبالتالي فقد هجم على ثمانين من أولئك القادة وقام بذبح بعضهم وإغراق البعض الآخر. غير أن مثل تلك الجرائم في شبه الجزيرة العربية لا تمضي بدون ردع أو عقاب. فقد انبرى اثنان من أقارب المقتولين الذين انتهزوا فرصة تواجدهم في إحدى المآدب وقاموا بذبح ابن طوغان.

حلَّ محلَّ ابن طوغان في تلك الوظيفة عُمَاني آخر اسمه عبدالوهاب بن أحمد ابن مروان الذي مارس سلطته كوكيل للقرامطة لفترة من الوقت، غير أن علي بن أحمد الوكيل السابق تآمر عليه ووضع خطة؛ لكسب ود العناصر الزنجية في جيش القرامطة، وكان هؤلاء الأفريقيون يقدرون بنحو ٦٠٠٠ رجل، وكانوا يشكلون القوة الرئيسية في جيش القرامطة. وعندما كان علي بن أحمد يوزع معاشات الجنود كان يدفع للعناصر العربية والفارسية، أو الجنود البيض، كما كان هؤلاء يتسلمون مستحقاتهم كاملة، بينما كان يدفع للسود نصف مستحقاتهم، برغم أنَّه كان يعمل بمقتضى أوامر من عبدالوهاب. وقد ثار الزنوج على ذلك الوضع ورفضوا أن يتسلموا مستحقاتهم ناقصة. وعلى أثر ذلك وعدهم علي بن أحمد بدفع مستحقاتهم كاملة شريطة أن يحترموه ويؤيدوه في طلبه بفصل عبدالوهاب. غير أن البيض في القوات القرمطية احتجوا على ذلك. وقد اشتدَّ الخلاف بين الطرفين، بعد أن تمسك كل طرف بموقفه، وبالتالي فقد تم الاحتكام إلى السيف. وفي الصدام الذي وقع بينهما حقق الزنوج انتصارًا على البيض؛ لتفوقهم في العدد. وبذلك فصل عبدالوهاب من وظيفته وهرب من البلاد وتولى علي بن أحمد منصب النائب.

كانت النتيجة الأساسية لمؤامرات علي بن أحمد هو إقصاء القرامطة من عُمَان. وقد خبر أهل عُمَان بما فيه الكفاية سلوك علي بن أحمد كحاكم، ولم يعودوا يحتملون جشعه ولصوصيته، وهكذا وجدوا الفرصة سانحة أمامهم؛ نظرًا لتدهور وانشقاق

صفوف القرامطة، ليجهزوا عليهم، وهكذا استعاد العُمَانيون وحدتهم الوطنية بنجاحهم في طرد القرامطة من البلاد، وتحررها من قبضتهم، وحتى لو لم يحدث ذلك، فإن سيطرة القرامطة على عُمَان لم تكن لتستمر أكثر من بضعة شهور، إذ أن الفترة الفاصلة بين غزو الأتراك الأول وغزوهم الثاني تقع بين منتصف عام (٣٥٤-٣٥٥هـ/ ٩٦٥م).

كان قد مضى أكثر من نصف عام ٣٥٥هـ عندما أعد معز الدولة جيشًا آخر لغزو عُمَان. وفي البداية تحرك الجيش إلى منطقة الواسط، حيث كان ينوي مهاجمة عمران ابن شيخان الذي كان قد استعد لمواجهتهم، وعند اقترابه من المدينة استقبله نافع الريجي ورحب به. وفي شهر رمضان كان قد انتهى من حربه مع عمران، وأصبح في إمكانه التقدم إلى الأبلة القريبة من البصرة، حيث مكث هناك لتجميع السفن والرجال والعتاد، وفي تجهيز حملته على عُمَان. وقد كلف أمير البصرة أبو الفرج محمد بن عباس بقيادة الحملة، وأبحر هذا بجيشه على ١٠٠ سفينة من البصرة في منتصف شهر شوال، وفي طريقه التقى في سيراف بالجيش الذي ألفه عضد الدولة في إقليم فارس لتعزيز قوات عمِّه معز الدولة. وبعد مناقشة مستفيضة للخطة ومسارها قرر القائدان جمع الجيشين في قوة واحدة والاتجاه به نحو جلفار، حيث رست الحملة في مينائها في اليوم التاسع من شهر ذي الحجة وهو آخر شهور عام (٣٥٥هـ/ ٩٦٥م).

وكما كشفت النتائج، أدرك العُمَانيون أنَّهم قد أخطأوا في طرد القرامطة إذ لو أنَّهم استمروا في عُمَان وتحالف العُمَانيون معهم، فلربما تمكنت القبائل العُمَانية من مقاومة غزو البويهيين والقائهم في البحر. غير أن مقاومتهم قد انهارت أمام جيش البويهيين، ووجدوا أنفسهم تحت رحمة عدو لا يرحم؛ لأنَّهم لم يجدوا مساعدة من أحد.

ولا توجد معلومات تفيد عن محاولات العُمَانيين الدفاع عن أنفسهم غير أنَّ أبا الفرج ما إن دخل عُمَان واستولى عليها حتى بدأ حملة من المذابح ضدَّ السكان، كانت من أفظع ما عُرف، وهكذا اجتاحت عُمَان موجة ضارية من الحرق والتدمير والبطش وهتك الأعراض، تركت العُمَانيين يعانون آلامًا لا توصف من جراء الإرهاب الوحشي الذي تعرضوا له أمّةً وبلدًا. وهناك قول أن ٩٨ سفينة عُمَانية

قد دمرت، وأنَّ قرارًا صدر مرة أخرى بالدعاء لمعز الدولة أثناء إلقاء خطبة الجمعة.

في العام التالي (٣٥٦هـ/ ٩٦٦م) غادر أبو الفرج محمد بن عباس الأراضي العُمَانية على عجل بعد أن تلقى خبر وفاة أمير البصرة معز الدولة في يوم ١٣ ربيع الأول. وكان معز الدولة قد كلفه بالإشراف على شؤون عُمَان بعد استيلائه عليها، وقد سلم مقاليد السلطة إلى نائبه عضد الدولة.

ما أن غادر أبو الفرج المسرح الذي شهد انتصاره، حتى تبعه نائب عضد الدولة الذي غادرها هو الآخر على ما يبدو إلى كرمان، تاركًا وزيره أبو القاسم المظهر بن محمد للإشراف على القوات الفارسية المرابطة في عُمَان، بينما أسندت القيادة العليا لشخص يدعى عمر بن نبهان الطائي كنائب عن أبي الفرج الذي حكم البلاد ست سنوات باسمي الخليفة وأمير البصرة. غير أن هذا الوضع استرعى في النهاية نظر عضد الدولة الذي بعد أن وجد ابن عمه عز الدولة قد أخذ ينفرد بالسلطة قرر أن يحتفظ بعُمَان لنفسه، وأعلنها كجزء لا يتجزأ من أراضيه.

في هذه اللحظة وقعت حادثة استدعت اتخاذ قرار حاسم بشأنها، وعجلت بقرار عضد الدولة في ضمِّ عُمَان بالقوة إلى ممتلكاته.

كان جيش الاحتلال الديلمي في عُمَان بقيادة النائب عمر بن نبهان الطائي، وكانت كل الجيوش في ذلك الزمن تتألف من الزنوج إلى حدٍّ كبير، وكان يتم جلبهم من ساحل أفريقيا الشرقي ويسميهم العرب الزنج. وكان هذا الجيشُ الذي بلغ تعداده بضعة آلاف قد قام بحركة عصيان سنة (٣٦٤هـ/ ٩٧٣م) واشترك معهم بعض الفرق من الجنود الديلم البيض. وقد اختاروا لهم قائدًا يدعى الحلاج، وتحت قيادته قاموا بتلك الثورة واستهلوها بقتل الحاكم النائب عمر، وبذلك أصبحت البلاد تحت تصرفهم ورحمتهم، وسرعان ما وصلت أنباء تلك الأحداث إلى العراق، غير أن عز الدولة كان في ذلك الوقت مشغولاً في محاولات الحفاظ على مركزه، بحيث لم يكن في مقدوره توجيه أي اهتمام إلى ما يحدث في عُمَان. ولا شكَّ أنَّ الثوار قد وضعوا ذلك في حسابهم عند قيامهم بحركة العصيان.

أما عضد الدولة أمير إقليم فارس فقد كان ينظر إلى الموضوع من زاوية أخرى. فقد كان يتحين الفرص منذ وقت بعيد لغزو عُمَان والاستيلاء عليها، وبالتالي فمَا أن وصلته أخبار تمرد القوات المرابطة في عُمَان والفوضى التي تسودها حتى قرر فورًا

إعداد حملة لإرسالها إلى عُمَان.

كلف بقيادة تلك الحملة أبو الحرب طوغان، وطلب منه بعد أن توفرت له وسائل النقل الإقلاع بقواته عبر الخليج وإنزالها في جلفار وبعد أن أتمَّ أبو الحرب إنزال القوات على ساحل عُمَان، بعث الأسطول إلى صحار؛ لمهاجمة الأسطول الذي كان في ذلك الوقت في يد المتمردين.

عندما بلغ خبر وصول الفُرس للزنج والديلم، تحركوا على الفور من المنطقة الداخلية لمواجهة العدو، ونشبت معركة عنيفة انتهت بتصفية الزنج وتشريدهم بعد مذبحة مروعة، كما حقق أسطول الفُرس هو الآخر انتصارًا على أسطول الزنج في صحار، مما دفع القائد أبو الحرب إلى إبادة سكان تلك المدينة وإباحتها لجنوده، وقد أشار إلى هذا الحادث ابن مجاور.

بعد تلك الهزيمة لجأ المتمردون إلى وادي الجزي، وتبعتهم هناك قوات أبو الحرب حتى البريمي. وفي هذه المنطقة استدار الزنوج على خصومهم مرة أخرى، ونشب قتال يائس جديد أسفر كسابقه عن انتصار الفُرس، وقد استولى أبو الحرب على عدد كبير من الأسرى، وبذلك ضمَّ عُمَان إلى ممتلكات سيّده عضد الدولة حاكم إقليم فارس.

إن دحر وتشتيت هذه العصابة من الخارجين على القانون والعصاة والذين كانوا ينشرون الرعب في عُمَان قد استقبل من جانب العُمَانيين بالترحيب؛ وذلك لما لاقوه على يدهم من قسوة وعنف وسلب ونهب.

غير أن قوات أبي الحرب التي غزت عُمَان وخلصت العُمَانيين من ذلك الوباء قد جلبت معها كثيرًا من الشرور؛ لأنَّها كانت مدفوعة بشهوة الفتح والإخضاع، وليس بدافع تحرير العُمَانيين أو تخليصهم من الاضطهاد. ومن هنا فلم يكن غريبًا أن تبدأ في عُمَان حركة قومية ضدَّ الغزاة الذين اشمأزت من أعمالهم وبشاعتهم كل الأطراف والطوائف العُمَانية.

وقد ساد صفوف الإباضيين بصورة خاصّة حماسٌ شديدٌ واجتمعوا في نزوى، وانتخبوا إمامًا وقائدًا لهم هو الشيخ وارث بن زياد والشيخ حفص بن راشد نائبًا له، وقد توافد على مقر قيادة هذا الإمام مجموعة ضخمة من المواطنين، وكونت من بينها قوة مهيأة لدخول المعركة وطرد الغزاة من البلاد نهائيًا.

لم تتوفر لنا تفاصيل عن هذا الصراع؛ لأنَّ المؤرخين التقليديين لم يكونوا يميلون إلى التحدث عن انتصارات الإباضية، بينما المؤرخون الإباضيون إلتزموا الصمت عن تلك الفترة من تاريخ عُمَان.

ومن المؤكد أن القبائل العُمَانية قد خاضت صراعًا باسلًا؛ لاستخلاص حريتها وكادت أن تحقق أملها في الاستقلال، غير أن الخلاص حتى ذلك الوقت لم يكن في متناول أيديهم، وأن النجاح النسبي الذي حققوه، كما سوف نرى تمخض فقط عن المزيد من البطش والتنكيل من جانب الغزاة.

ويبدو أنَّه في مستهل عام (٣٦٣هـ/ ٩٧٣م) نمى إلى علم عضد الدولة أمير إقليم فارس عن ثورة العُمَانيين ضدَّ سلطته، وما لقيته قواته من كارثة على يد الإباضيين. وعلى الفور أمر بتنظيم قوة من الإمدادات؛ لنجدة جيشه المنهار في عُمَان، وأقلعت الحملة بقيادة وزيره أبو القاسم، وقد أبحر الأسطول أوّلًا إلى خور فكان التي تقع شمال عُمَان وهاجموا البلدة، واحتلوها وسقط في القتال عدد كبير من القتلى والأسرى من أهل خور فكان.

وفي صحار عاد الوزير فشحن جيشه على السفن وأقلع إلى دغمر، القرية القريبة من قريات وتبعد ٢٠٠ ميل عن صحار، وفي هذا الجزء من الساحل العُمَاني يوجد سهل ساحلي عند فتحة وادي ضيقة، حيث كانت قد تجمعت القوات العُمَانية بقيادة الإمامين وارث وحفص. وهنا قام أبو القاسم بإنزال جنوده ونشبت معركة هائلة بين الجيشين المتحاربين أرغمت العُمَانيين على الفرار. ويذكر المؤرخون أنَّه قد تخللت المعركة مذبحة رهيبة، وأن عددًا كبيرًا من شيوخ عُمَان قد وقعوا أسرى، كما أن تلك المعركة قد حسمت مستقبل البلاد، ومنحت الفُرس مزية عظمى وقاعدة للعمليات العسكرية، أما الإمام ومن بقى من أتباعه فقد انسحبوا من وادي الطائيين إلى نزوى، غير أن الوزير لاحقهم إلى هناك، كما أن الإمام بعد أن اضطر إلى الانسحاب من العاصمة عند اقتراب جيش المعتدين عاد فصمد للمعركة التي دارت رحاها وراء السهل، غير أنَّهم منوا بهزيمة أيضًا، وحقق أبو القاسم نصرًا ساحقًا أباد فيه القوات العُمَانية في معركة دموية رهيبة، ويشاء الحظ أن يسقط الإمام شهيدًا، بينما نجح حفص من الهروب واللجوء إلى الساحل، ومنه سافر إلى اليمن حيث عمل مدرسًا هناك.

ومع ذلك فان العُمَانيين لم يستسلموا رغم هزائمهم المتكررة في معركتي قريات ونزوى، وكان بنو ريام يشكلون عصب القوة التي واصلت تحديها للغزاة، وتمكنت من تجميع قوة في سهل واد بالقرب من بهلاء غير البعيدة من الجبل الأخضر، وهناك حشدت قواتها لمواجهة الفُرس.

ويذكر ابن الأثير أن جيش العُمَانيين كان يتألف من ١٠,٠٠٠ مقاتل غير أن الرقم قد يكون مبالغًا فيه.

أما الفُرس فقد كانوا أقل عددًا بلا شك، غير أنَّهم كانوا منتشين بالانتصارات التي حققوها على العُمَانيين، كما أنَّهم بالإضافة إلى ذلك كانوا أفضل تسليحًا، وكانوا يشكلون قوة متراصة صلبة، وبهذا قاموا بهجوم مستميت على بني ريام، وتمكنوا من القضاء عليهم. وكانت تلك المعركة خاتمة الصراع، فبعدها خضعت البلاد العُمَانية كلها لسلطان أمير فارس، ولم يبق في عُمَان منطقة أو مقاطعة لم تستسلم له.

انشغل الوزير بتهدئة الوضع وتسوية شؤون البلاد وتعيين الولاة وتوزيع الجنود على الحاميات، إلى أن استدعاه عضد الدولة إلى كرمان في العام التالي (٣٦٤هـ/ ٩٧٤م).

بينما كانت هذه الأحداث تتبلور في عُمَان، كانت هناك تحولات أخرى تأخذ مجراها في الحكومة المركزية في بغداد، فلقد قرر الخليفة المتقي بالله التنازل عن الحكم لنجله، وذلك في شهر ذي القعدة سنة (٣٦٣هـ/ ٩٧٣م) بعد حكم استمر ٢٩ عامًا، وذلك نتيجة لاصابته بالشلل.

عند وفاة الخليفة (٣٧٢هـ/ ٩٨٢م) عن عمر يناهز السابعة والأربعين قسمت ممتلكاته فيما بين أنجاله، وكانت عُمَان من نصيب أمير فارس شرف الدولة أبو الفوارس شير زايد، الذي ثبت واليه أستاذ هرمز في منصبه. غير أن التنافس والصراع الذي دبَّ فيما بين أنجاله وشمل كل الأقاليم التابعة للبويهيين سرعان ما شعر به العُمَانيون وثاروا على الفُرس.

في سنة (٣٧٤هـ/ ٩٨٤م) دبر همام الدولة الأخ الأكبر مؤامرة للاستيلاء على عُمَان، ونجح في كسب حاكمها أستاذ هرمز، ورجال الحامية الذين على ما يبدو قد تخلوا عن سيّدهم، شرف الدولة، دون قتال، غير أن نصر المغتصبين لم يعمر طويلًا، إذ ما أن أبلغ شرف الدولة بما حدث حتى بادر إلى إرسال قوة كبيرة إلى عُمَان تمكنت

من القضاء على أستاذ هرمز، وإعادة عُمَان إلى سلطة أمير فارس شرف الدولة، وقد اعتقل أستاذ هرمز وزج به في السجن في إحدى القلاع، حيث توفي هناك بعد أن جُرِدَ من الممتلكات والثروة التي جمعها بالحرام خلال وجوده في عُمَان.

ولا نعرف ما إذا كان همام الدولة قد استولى على عُمَان عند وفاة شرف الدولة سنة (٣٧٩هـ/ ٩٨٩م) أم لا.

كما أنَّه لم يرد ذكر للقرامطة لفترة طويلة من الوقت، إلا أنَّهم كما يذكر ابن خلدون، كانوا في وضع حرج في عُمَان حتى سنة (٣٧٥هـ/ ٩٨٥م)، حيث لم يعد لهم وجود، وإنَّهم بالفعل قد اختفوا من مسرح التاريخ ولقد كانت آخر معاقلهم في عُمَان، كما نعتقد، هي البريمي.

ومن ناحية أخرى فإن تاريخ الأسرة البويهية في عُمَان، تاريخ غامض ومتضارب وحساس بدرجة يصعب معها أن تحدد اسم الأمير أو السيّد الذي كانت تتبعه عُمَان ابتداء من (٣٧٩- ٣٨٨هـ/ ٩٨٩- ٩٩٨م).

في العام السابق لذلك تولى بهاء الدولة أبو ناصر فيروز الأخ الأصغر لشرف الدولة منصب أمير البصرة في بغداد، وكان الأخير يخوض حربًا ضدَّ أخيه همام الدولة أمير فارس، وكان قد مُنيَّ بهزيمة نكراء على يد أبو علي بن أستاذ هرمز عندما اغتيل همام الدولة في شيراز علَى يد ابن أخيه في سنة (٣٨٨هـ/ ٩٩٨م).

وعلى أثر ذلك ضمَّ بهاء الدولة إقليم فارس إلى ممتلكاته السابقة وفي عام (٣٩٠هـ/ ٩٩٩م) عَيّن أبو محمد بن مكرم حاكمًا على عُمَان. أما عن ماضي هذا الرجل فيمكننا أن نستشف شيئًا من المعلومات من ابن الأثير، غير أننا لا نعثر على أيّة معلومات عن طبيعة حكمه لعُمَان، فيما عدا أنَّه كان حاكمًا يتسم بالاعتدال كما أننا نستدل من كتاب روسي (تاريخ عُمَان) عن إمام يدعى الخليل بن شاذان انتخبه العُمَانيون في أوائل القرن الخامس الهجري، ومن المسلم به أن صلاحيات هذا الإمام اقتصرت على الشؤون الدينية فقط، وإذا وضعنا في الاعتبار العداء الديني القائم بين الفُرس والعُمَانيين خلال تلك الفترة، فإنَّ هذه المسألة على ما يبدو جديرة بالاهتمام.

وفي عام (٤٠١هـ/ ١٠١٠م) أوفد الخليفة القادر بالله الذي خلف الطائع بالله سنة (٣٨١هـ/ ٩٩١م) القاضي أبو بكر البكالي إلى أمير البصرة بهاء الدولة يحذره من أنَّ

العلويين والعباسيين يقاتلون بعضهم بعضًا على طول المنطقة الممتدة من الكوفة إلى بغداد. وقد كوفئ هذا القاضي على الخدمات التي قدمها خلال تلك الفترة بتعيينه كبير قضاة عُمَان والساحل الشرقي من أفريقيا.

توفي أمير البصرة بهاء الدولة سنة (٤٠٣هـ/ ١٠١٢م)، وخلفه أكبر أنجاله سلطان الدولة أبو شرجه، الذي انتقلت في عهده إمارة عُمَان من أبي محمد بن مكرم إلى نجله أبي القاسم، الذي احتفظ بإدارة هذا الإقليم سنين عدة.

توفى سلطان الدولة في شيراز سنة (٤١٥هـ/ ١٠٢٤م)، وقد نشب نزاع على وراثة الحكم بين أخيه ونجله.

وكان الأخير عماد الدين الكاليجار مرزبان الذي كان لا يزال شابًا في ذلك الوقت يقيم في الأهواز، فاستدعى على الفور من جانب حاكم عُمَان الأخير، أبو محمد للحضور؛ لتسلم منصب والده، غير أن عماد الدين لم يكن مستعدًا لذلك. ومن ناحية أخرى كان عَمُّه قوام الدولة أبو الفوارس حاكم كرمان على استعداد لتولي المنصب والاستفادة من تلك الأوضاع، وعلى الفور زحف إلى شيراز واحتلها وتولى مقاليد السلطة دون مقاومة.

وقد حاول أبو محمد أن يهرب إلى عُمَان، غير أنَّه اعتقل وأعدم بأمر قوام الدولة، وعندما علم أبو القاسم بوفاة والده، أعلن موقفه ضدَّ قوام الدولة، وعرض حكم عُمَان على أبي الكاليجار الذي قبل العرض. ومضت سنة تمكن بعدها الكاليجار من جمع مؤيدين وأنصار، وشكل جيشًا ودخل به المعركة ضدَّ عَمِّه أبو الفوارس، وتمكن من سحقه والعودة إلى كرمان، ثم بعد ذلك استولى على مقاليد الحكم في إقليم فارس.

وفي سنة (٤٢٨هـ/ ١٠٣٦م) توفى أبو القاسم علي بن حسين بن مكرم سيّد عُمَان، والشخصية الليبرالية الهامة، وخلفه أكبر أنجاله أبو الجيش ابن مكرم.

أما أين كان الحكام البويهيون يقيمون ويحكمون، فلا توجد بيانات عن ذلك، غير أن هناك من الأسباب ما يحملني على الاعتقاد بأنَّ مقر حكمهم الرستاق. وكان يتولى قيادة جيش أبو القاسم علي بن حطان، وكان له مساعد أو نائب مقره نزوى ويدعى المرتضى.

كان أبو الجيش على ما يبدو من معدن ضعيف، وكان حكمه قصيرًا، غير أنَّه لم يخل من أهمية، وكان له ثلاثة أخوة هم المهذب، وأبو محمد، وأخ ثالث كان لا يزال في المهد.

ولقد أستاء الأخ الثاني، وهو المهذب، من مظاهر الاحترام التي كانت تكال للقائد علي بن هطال من أبي الجيش حتى أنَّه كان يقف له احترامًا عند قدومه، ويبالغ في تعظيمه. وكان المهذب يهجو هطال صراحة؛ ولكن القائد الماكر أحسَّ بذلك ودبر دسيسة لتحطيم المهذب، فقد دعاه إلى وليمة وأغرقه بالمجاملة والتكريم واستطاع أن يجعله يشرب كؤوسًا كثيرةً من الخمر حتى فقد وعية كلِّيةً. ثم أخذ يحدثه عن خطة للقيام بثورة ضدَّ أبو الجيش الذي قال عنه هطال: بأنه ضعيف وغير صالح للحكم، وأنَّهما بعد أن ينجحا في خلعه يقوم هطال بتنصيب المهذب مكانه، وقد وافق المهذب على الخطة؛ لأنه لم يكن يعي ما يقوله من شدّة تأثير الخمر. فطلب منه هطال أن يكتب له رسالة يخوله بتنفيذ تلك الخطة، ويتعهد بتكريمه والإغداق عليه في حالة نجاحها.

في اليوم التالي توجه هطال مباشرة إلى أبي الجيش، وأبلغه أن أخاه المهذب يدبر مؤامرة ضدّه، وأطلعه على الخطاب الذي كتبه المهذب. وقد ثار أبو الجيش وأمر باعتقال المَهذب، ووضع الأغلال في يديه، وبالتهور والتسرع الذي عرف به الحكام الشرقيون أمر بإعدامه خنقًا.

وقعت هذه الحادثة سنة (٤١٣هـ/ ١٠٣٩م) وبعد بضعة شهور من نفس العام توفي أبو الجيش.

في ذلك الجو وجد علي الهطال نفسه سيّد الموقف، وبدأ يضع الخطط لتمجيد نفسه.

فقد قرر أن يعين نجل أبو القاسم الثالث، وهو أبو محمد، حاكمًا على أن يبقى تحت سيطرته طالما شاء، ثم بعد أن يتخلص منه بطريقة أو أخرى يتولى سلطة الحكم في عُمَان.

غير أن الخطة فشلت بتدخل والدة الفتى التي رفضت أن تسلم ابنها إلى عهدة الهطال؛ ليكون وصيًّا عليه، وقالت له: بأنَّه في إمكانه أن يتولى أمور البلاد إذا شاء ذلك؛ ولكن ابنها لن يتدخل؛ لأنَّه لا يزال صغيرًا.

ولو كان علي الهطال حاكمًا رشيدًا وناجحًا لاستطاع أن يحتفظ بالسلطة في يده لوقت طويل، غير أنَّه ما إن ذاق حلاوة السلطة حتى شرع في الإساءة إلى تلك السلطة بتصرفاته الاستبدادية واستيلائه على ممتلكات الغير وأموال التجار بالقوة.

وما لبثت تصرفات علي الهطال وموقفه من أنجال أبو القاسم أن وصلت أخبارها إلى البلاط الملكي في شيراز، فكانت بمثابة الصدمة لأبي الكاليجار ورئيس وزرائه. فكتب العادل أبو منصور بن مهنا للنائب المستهدي باتخاذ الإجراءات اللازمة ضدَّ الهطال، وبارسال قوات من البصرة لمساعدته، وقد استجاب أهل عُمَان بسرعة لدعوة المستهدي عندما طلب إليهم أن يشاركوه في تلك العملية بعد أن ذاقوا الأمرين من بطش وقهر الهطال. وهكذا بتأييد قوات الديلم التي أرسلت إلى عُمَان استطاع النائب استرجاع أجزاءً كبيرة من البلاد، أما المناطق الباقية، فقد تمكن الهطال بمن معه من القوات الصمود في مراكزهم الحصينة فيها.

غير أن المستهدي قرر اللجوء إلى فكرة اغتيال علي الهطال بعد أن تعذر القبض عليه، وذلك عن طريق أخذ الذي اغتصبه علي الهطال من ابن مكرم، وبتلك الطريقة نجح المستهدي في إعادة الهدوء والاستقرار إلى عُمَان.

وبمجرد علم عادل أبو المنصور بوفاة علي الهطال، وبزوال الخطر عن عُمَان بادر إلى التوجه إليها، وهناك قام بتعيين الزعيم الشاب أبو محمد بن أبو القاسم بن مكرم حاكمًا على عُمَان، وذلك في سنة (٤٣١هـ/ ١٠٣٩م).

غير أن حكم أبو محمد لم يرض العُمَانيين، فقد كانت تنقصه الخبرة مما اضطره إلى توزيع سلطة الدولة على نوابه والمسؤولين الآخرين الذين كانوا ككل الطبقات الفارسية من ذلك الطراز، ظالمين ومبتزين ولصوص.

وقبل مضي عامين كانت البلاد العُمَانية قد هبت في ثورة، وتأزمت الأمور هناك، بحيث اضطر ملك فارس أبو الكاليجار إلى التوجه بنفسه.

وأبحر على رأس قوة عسكرية من أحد الموانئ الفارسية إلى صحار، حيث قام بإنزال الجنود والإستيلاء على المدينة. ولا توجد لدينا معلومات عن المناطق التي وصلت إليها قوات الكاليجار، أو المدة التي استغرقها في إخضاع ذلك الإقليم، وكل ما نعرفه أنَّ ذلك الملك الفارسي قد نجح في قمع الثورة، وبعد أن تم له ذلك عين ابنه

حاكمًا على عُمَان وعاد مع قواته إلى شيراز[١].

لقد بدأ الاحتلال الفارسي لعُمَان الآن يقترب من نهايته، وأن تخلي الأسرة البويهية مكانها لقوة أعظم وأطول عمرًا، ونعني بهم السلاجقة الأتراك. أن ازدياد عوامل الضعف في الحكام الديلم قد شجع العُمَانيين على الثورة، وآخر محاولة من هذا النوع لم تحقق إلا نجاحًا ضئيلًا، كما أن المحاولة الثانية؛ لتخليص البلاد من المحتلين باءت بالفشل هي الأخرى.

في عام (٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م) توفي الأمير عماد الدين أبو الكاليجار مرزبان أمير فارس في شيراز، وخلفه أبو نصر خسرا فيروز رحيم آخِر رجل في العائلة. وكان الأمير أبو مظفر نجل أبو الكاليجار هو الذي يحكم نزوى، والذي دحرجته الثورة عن عرشه سنة (٤٢٤هـ/ ١٠٥٠م) أي قبل ست سنوات من انهيار تلك الأسرة، ووضعت نهاية للسيادة الفارسية على عُمَان.

إن السبب الأكبر لتلك الثورة هو المعاملة القاسية والسلوك الاستبدادي لأحد العبيد الأفريقيين الذي كان سيّده أبو المظفر قد أسند إليه سلطة شؤون الدولة، والذي كان يحكم ويسيطر فعليًا على البلاد كلها. ولقد فجرت أعمال الإبتزاز والقسوة التي كان يتصرف بها ذلك العبد، استياء عامة الشعب، وبالتالي تحول الاستعباد إلى كره. ولقد جاءت اللحظة المناسبة والشخصية التي كان يبحث عنها العُمَانيون وقد تجسدت في رجل يدعى الإمام راشد بن سعيد الذي هو صورة طبق الأصل من السيّد أحمد بن سعيد مؤسس أسرة البوسعيد. وكان هذا شخصية قوية تتسم بالصرامة والعنف، وكان قد برز وتصدر الأحداث منذ عهد أبو القاسم بن مكرم في مكافحة المعتدين الفُرس، وفي محاولاته لتصحيح الأمور وحماية الضعيف. وبعد أن نجح في إثارة القبائل وجمع عدد كبير من المؤيدين حوله، بدأ حركته المناهضة ضدَّ المحتلين، وعندما تحرك أبو المظفر بجنوده لمواجهة راشد نشبت بينهما معركة قدر للعُمَانيين أن يخسروها[٢].

غير أن القبائل لم تستسلم لذلك الفشل، وأعادت تجميع قواها وصممت أن توجه ضربتها الساحقة هذه المرة إلى الغزاة، وانتزاع الحرية منهم. كما أنَّه على الرغم من

---

(١) من المحتمل أنَّ أبا محمد قد قتل خلال هذه الانتفاضة، إذ لم نعد نسمع عنه شيئًا بعد ذلك.

(٢) كانت تلك الثورة هي الفشل الأول للشيخ راشد.

فشل الهجوم الأول للعُمَانيين إلا أنَّهم لم يفقدوا ثقتهم في راشد كزعيم؛ ولهذا فقد توحدت الأمة مرة أخرى تحت قيادته وتوافرت عليه من كل جانب.

وفي المعركة الثانية انتصر الشيخ راشد وتمكن من تصفية الديلم نهائيًا. وقد تم إعدام العبد الذي أثار غضب الشعب، كما أخذ أبو المظفر نفسه أسيرًا إلى المناطق الجبلية، أما بقية الديلم الذين نجوا من الموت فقد أخذوا أسرى ولقوا نفس مصير أميرهم. وعلى أثر ذلك استولى راشد على مقاليد السلطة، وقام باستئصال عمال وجباة الضرائب من الديالمة، كما أنَّه أمر بهدم قصر الأمراء؛ لأنَّه كما صرح كان قصرًا يستخدم لتدمير الشعب وتحقير العدالة. ويذكر ابن الأثير أن راشد طغى بعد ذلك النجاح لدرجة أنَّه لقب نفسه بالراشد بالله، وأخذ يرتدي الأقمشة الصوفية، وشيّد لنفسه منزلًا على هيئة المسجد. غير أن المؤرخ العظيم للعصور الوسطى ابن الأثير، الذي بعث أعمال راشد من مهاوي النسيان: كان سنيًّا متعصبًا وقد أعقب ذلك الانشاقات المذهبية، وكان يبدي تجبرًا واضحًا ضدَّ العُمَانيين.

ويقول روسي في (تاريخ عُمَان) أن العُمَانيين هم الذين انتخبوا الإمام راشد الذي توفي في شهر محرم (٤٤٥هـ/ ١٠٥٣م)، وربما جاء انتخابه في أعقاب إقصاء الطغاة من البلاد، وكان تعبيرًا عن تقدير الشعب وامتنانه للدور الذي قام به في تحرير عُمَان من نير السيطرة الأجنبية، إن ذلك المؤرخ ومن غير أن يشير إلى مآثر ذلك الإمام قد استشهد ببيت من الشعر يشيد بسلوك راشد بن سعيد كحاكم.

وإننا نعرف من أحد مؤلفات محمد إبراهيم الفارسية أن الديلم لم يستسلموا لهزيمتهم وطردهم من عُمَان كنهاية لنفوذهم في عُمَان؛ لأن جيشًا جديدًا تم إرساله من جانب ملك فارس لإعادة احتلال عُمَان والثأر لأبي المظفر، وأسندت قيادة هذه الحملة إلى شهريار بن طفيل، ويبدو أنَّها نجحت في إعادة إخضاع عُمَان جزئيًّا وكليًّا، لأنَّ شهريار كان هو الحاكم خلال غزو السلاجقة لتلك البلاد، ومن المحتمل أن يكون الإمام راشد قد قُتِلَ في المعارك التي نشبت بغزو شهريار، أو على يديه بعد الانتصار.

على الرغم من أن إقصاء القرامطة عن عُمَان قد تم بعد انقضاء ٧٥ عامًا فإن العلاقات الودية بينهم وبين العُمَانيين ظلت قائمة، فالقصة التي حدثت في عام (٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م) تقريبًا تؤيد هذا الرأي.

فقد نشبت ثورة خطيرة في جزيرة أوال بعد فرض ضريبة باهظة على أهلها من جانب حكومة القرامطة في الإحساء، فقام رئيس الوزراء القرمطي يومئذ وهو عبدالله صنبر بإيفاد أنجاله إلى عُمَان؛ لطلب المساعدة المالية والعسكرية من أهل عُمَان. وقد استجاب العُمَانيون بسخاء للطلب، ورجع نجل الوزير ومعه ٥٠٠٠ دينار، و٣٠٠٠ رمح كمساهمة من أهل عُمَان لحكومة الإحساء، وعلى أيّة حال فإنَّ هذه المساعدة لم تصل إلى وجهتها؛ لأن عصابة اعترضت ابن الوزير وهو في طريق العودة فقتلته مع ٤٠ من مرافقيه واستولت على ما لديهم.

كان الجو في بغداد في ذلك الوقت ينذر بالعواصف نتيجة لما أصاب الحكم البويهي من ضعف وخلخلة، قد انتقلت مقاليد الخلافة إلى عناصر أخرى، وسيطرت الفوضى على البلاد، وأنَّ تلك الأمبراطورية العربية التي هزت العالم في يوم من الأيّام قد انحدرت إلى أحط دركات التفسخ والانحلال والضعف، وكادت أن تحتضر عندما استنجد الخليفة القاسم بأمر الله سنة (٤٧٧هـ/ ١٠٥٥م) بنجل الفاتح طغرل بك السلجوقي الذي دخل العاصمة وتولى شؤون الحكم، وأدخل دمًا جديدًا إلى الأمبراطورية بعد أن أقصى أمير البصرة عن السلطة، وهكذا تسنى له جمع شمل الأقاليم مرة أخرى، وعاد النظام والرخاء ليحلا محلَّ الاضطراب والتفسخ، ورغم أن رجال طغرل بك كانوا متوحشين ومتعطشين للدماء إلا أنَّ محاسن ذلك الحكم كانت أكثر من مساوئه.

كانت عُمَان هي آخِر إقليم تكتسحه جحافل الأتراك، أما تفاصيل ذلك الغزو فلم يمط اللثام عنها إلا منذ فترة وجيزة بفضل البروفسور هوتسيما.

أما ابن المجاور فقد أفادنا بالفعلِ في مؤلفه (تاريخ المستبصر) أنَّه علم من أبي بكر البصراوي أنَّ عُمَان كانت تابعة أولًا لملوك كرمان من أسرة السلاجقة، ثم حكمها الغُز، كما أن صحار قد أخليت من سكانها بعد أن قام العرب بتدميرها. وهذا في نظري هو الدليل الوحيد الذي بين أيدينا عن احتلال الغُز لعُمَان.

كما نجد أن السلاجقة كانوا المسيطرين على عُمَان ابتداء من (٤٣٣ أو ٤٤٨- ٥٨٣هـ/ ١٠٤١ أو١٠٥٦- ١١٨٧م)، وأن الملك دينار هو الذي خلفهم في الحكم وأنَّه اعتبارًا من (٦٢١- ٧٦٦هـ/ ١٢٢٤- ١٣٦٤م) كانت أسرة الغُز التي تنتمي إلى كرمان هي المسيطرة.

ولا شكَّ أن أمراء الأتراك قد هيمنوا على عُمَان جزءًا طويلًا في الفترة التي لم يؤرخ لها المؤرخون العُمَانيون، ومن المحتمل أن يكون سبب ذلك هو وحشية التركمان وعمليات إذلالهم لشعبها، إذ أن هؤلاء المؤرخين شأنهم شأن كل المؤرخين العرب لم يشاءوا أن يلطخوا صفحات تاريخهم بتلك الأعمال المخزية.

وفي عام (٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م) استولى قادر بك وهو الأول من أسرة السلاجقة على عُمَان، وذلك بعد أن تمت له السيطرة على إقليم فارس.

وفي عام (٥٤٦هـ/ ١٠٦٣م) وجه قادر بك اهتمامه كما أشرنا آنفًا إلى عُمَان التي كان يعتقد أنَّها بلد غني، وأنَّها حافلة بالكنوز من كل الأنواع، كما أنَّها عزلاء، ولم يكن يتوقع أيّة مقاومة لخطته أو خطر إلا من البحر الذي كان شيئًا غريبًا عليه.

وعلى هذا الأساس أصدر أوامره إلى أمير هرمز التي كانت على اليابسة في ذلك الوقت، وليست جزيرة أن يقوم بجمع أسطول من السفن واتخاذ كافة التدابير اللازمة لشحن الجنود ونقلهم إلى عُمَان. ولقد نفذ الأمير ما طلب منه. وهكذا ركب قادر بك البحر على رأس ذلك الأسطول، رغم أنَّها كانت المرة الأولى التي يرى فيها البحر، وتوجه به إلى الساحل العُمَاني.

كان الهجوم على ما يبدو مفاجأةً غير متوقعة سواء بالنسبة لأهل عُمَان أو بالنسبة للحاكم الديلمي والحامية، إذ أنَّ ظهور الأسطول وفي أعقابه نزول القوات قد فاجأ العُمَانيين تمامًا، الذين لم تتح لهم الفرصة لتنظيم قواتهم ومقاومة العدوان. وهكذا لم يكن أمام شهريار - أو تازيك كما كان يلقب - إلا أنَّ يختبئ. وقد انتشر السلاجقة بسرعة في البلاد دون أن يلقوا أي مقاومة من أحد، واقترنت الحملة بمذابح بشعة وهتك للأعراض واعتداء على الأطفال، كما عمد الغزاة إلى الحرق والسلب في كل مكان. واستولى قادر على البِلاد، وأصبح سيّدها غير المنازع، ثم أعلن نفسه الحاكم الشرعي والعادل، وأمر بصك العملة باسمه، ثم بدأ في ممارسة الهدف الأساسي من عدوانه وهو نهب الشعب وسلب ثروة البلاد.

في نفس الوقت كان البحث عن الأمير المختفي يجري على قدم وساق وأعلن الحاكم بأنَّه سوف يحافظ على حياته إذا سلم نفسه. وبدأت عملية بحث واسعة أسفرت عن العثور عن شهريار مختبئًا في أحد الأفران، وعند مثول شهريار بين يدي قادر أخذ يعنفه ويوجه إليه الإهانات، ثم غير من موقفه ووعد على حدِّ رأي المؤرخ

الفارسي بإعادته في منصب الحاكم على عُمَان، بشرط أن يعين معه مسؤولًا سلجوقيًّا في وظيفة وكيل سياسي. وبهذا تم إخضاع الديلم والعُمَانيين لسلطان السلاجقة، وقد ناشد شهريار أمير السلاجقة بالإبقاء على حياة أطفاله الذين اختطفوا كرهائن في بداية الغزو. ويبدو أن السلطان قد وافق على الطلب. غير أنَّه اضطر إلى أن يترك الكنوز والأموال التي استولى عليها أثناء سيطرته على البلاد. فخلال حكم السلاجقة لعُمَان وجهوا كلَّ نشاطهم إلى تدمير القرى والأحياء. وعندما تم جمع الأموال وغيرها من الغنائم على الميناء تمهيدًا لشحنها، غادر قادر وأتباعه التركمان البلاد وأبحروا إلى جرمسير.

لقد رأينا كيف أنَّه خلال ما يقرب من مائة عام تعرضت عُمَان لما لا يقل عن عشر موجات متتابعة من الغزو والعدوان، كان يتغير فيها الغزاة والحكام كثيرًا. فمنذ غزو الخلفاء بقيادة محمد بن نور، وما رافق حملته من قهر واضطهاد للمعارضين، استهدفت عُمَان لسلسلة متتالية من الغزاة: العرب، والترك، والفرس، والقرامطة، والديلم، والتركمان، كانوا جميعًا مدفوعين بشهوة التسلط والسيطرة والسلب والنهب، وبدون أقل استفزاز من جانب العُمَانيين، وارتكب أولئك الغزاة أهوالًا من المذابح والاعتداء على الأعراض والحرمات، واغتصاب أملاك العُمَانيين وأموالهم.

إن أقطارًا قليلةً جدًّا تعرضت لمثل تلك الأعمال المشينة، بل وأقل من ذلك؛ ولكن الشعب العُمَاني أظهر من الثبات والجلد والصمود والكبرياء القومي والشجاعة النادرة والطاقة الفائقة لاسترداد حقه في الحياة والحرية. إن التاريخ قلَّ أن يكشف عن مشهد أكثر إيلامًا من مشهد ذلك الشعب النبيل المعتز بنفسه الذي كان مصممًا المرة تلو الأخرى، وبعزيمة لا تلين على أن يقهر جحافل البرابرة القادمين من أواسط آسيا.

كان توارد أمير كرمان، السلطان عضد الدين ألب أرسلان الذي خلف طغرل بك سنة (٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م)، والخليفة بأمر الله معاصرين لهارولد وليم فاتح إنجلترا، كما أن غزو السلاجقة لعُمَان قد سبق ببضع سنوات أهم حدث في تاريخ إنجلترا وهو الفتح الروماني.

في سنة (٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م) قتل عضد الدين ألب أرسلان سلطان بغداد، وقبل مقتله كان قد حرم نجله الأكبر من حق الوراثة، وعين بدلًا منه نجله الثاني جلال الدين أبو الفتح، الذي خلفه على العرش بقلب ملكشاه، وما أن تولى هذا الأمير مقاليد

السلطة حتى انفجرت الاضطرابات في كل مكان من المناطق الخاضعة له ومن بينها كرمان، التي تمرد فيها قاوارد، وأعلن نفسه حاكمًا مستقلًا عليها؛ ولكن ملكشاه سير حملة ضِدَّه على الفور، وتمكن من دحره وأخذه أسيرًا في أشدِّ المعارك دموية في تاريخ فارس. وقد تم إعدام قاوارد بعد ذلك مباشرة، وبقي إقليم فارس وكرمان تحت إدارة عملاء ملكشاه مدة عامين.

في عام (٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م) عفا ملكشاه عن نجل قاوارد سلطان شاه ومنحه ولاية إقليم كرمان مع توابعها في عُمَان. ومن المحتمل أنَّه حكمها على غرار حكم والده مع وجود أمير سلجوقي في العاصمة للإشراف على الأمور واستلامه الايرادات.

وفي سنة (٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م) توفي الخليفة الكامل بالله بعد حكم طويل دام ٤٥ عامًا، وخلفه نجله المقتدي بالله، الذي بدأ بموافقة ضمنية من ملكشاه في ممارسة بعض الصلاحيات الخاصّة بالفُرس، كما حاول تطهير القضاء من الفساد في بغداد.

ويبدو أن عُمَان استمرت تحت حكم السلاجقة خلال حكم كل من طوران شاه (٤٧٧- ٤٨٩هـ/ ١٠٨٤- ١٠٩٥م) وإيران شاه (٤٨٩- ٤٩٤هـ/ ١٠٩٥- ١١٠٠م). غير أن الاضطرابات بدأت في عهد خلفه أرسلان شاه بن كرمان شاه الذي استمتع بحكم طويل دام ٤٢ عامًا، وكما جاء في الكامل أن الأمير أبو سعيد محمد بن مظهر بن محمود قد استولى في (٤٩٥هـ/ ١١٠١م) على الجزء التابع للبصرة من عُمَان. وفي ذلك الوقت كان الخطر يحدق بالإسلام من الداخل ومن الخارج. ولقد ولى عهد السلاجقة العظام وغدت الأمبراطورية ساحة لصراعات مزمنة، بينما بدأ البابا أوربان بتحريض من بيتير جوتيير سنة (٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م) أول حملاته الصليبية ودخل جودفري دي بويون القدس.

أما القول بأنَّ وضع السلاجقة في عُمَان في ذلك الوقت قد أصبح حرجًا، وأن القبائل العُمَانية قد استعادت إلى حدٍّ ما استقلالها، فيؤيده ما أشار إليه المؤرخون العُمَانيون عن انتخاب عدد من الأئمة، غير أنَّهم لم يوردوا أيَّة تفاصيل عن حكمهم. وأوّل أولئك الأئمة كما يذكر روس في (تاريخ عُمَان) هو محمد بن خنبش الذي تم انتخابه عام (٥١٠هـ/ ١١١٦م). أما الإمام الثاني فكان راشد بن علي الذي انتخب سنة (٥١٣هـ/ ١١١٩م) وكان هناك إمام ثالث هو أبو جابر موسى بن أبي المعالي موسى بن نجاد الذي توفي سنة (٥٤٩هـ/ ١١٥٤م)، والذي جاء بعده كما يحتمل

الإمام محمد بن خنبش الذي توفي سنة (٥٥٧هـ/ ١١٦١م) ويقال أن موت هذا الإمام سبب محنة للشعب العُمَاني تفوق ما قاساه من خلال وفاة السابقين غير أنَّه لا توجد أدلة على نوعية المشاكل التي تعرضت لها البلاد نتيجة لذلك.

أما الآن فيجدر بنا أن نعود قليلًا إلى سلاطين عُمَان، ونعني بهم سلاجقة كرمان. فقد توفي أرسلان شاه سنة (٥٥٦هـ/ ١١٤١م)، وخلفه الملك مغيث الدين محمد الذي كان تركيًا ومولعًا بأن يكون الحكم كله له، ولم يتحمل وجود أخ له، وبدأ حكمه بنفس الطريقة التي اعتادها قومه وهي اغتيال وفقأ عيون إخوته، الذي استطاع أحدهم لحسن حظه، وهو سلجوق شاه العرب واللجوء إلى عُمَان.

ويبدو أن الحامية هناك قد رحبت به، وربما أهل البلاد أيضًا الذين منحوه ولاءهم عن طيب خاطر، وذلك للتخلص من طغيان حكومة كرمان. ومن المؤكد على كل حال أن وكيل حكومة كرمان، لم يعد يقيم في نزوى أو يمارس السيطرة على الأمور فيها.

توفي ملك مغيث الدين في سنة (٥٥١هـ/ ١١٥٦م) بعد حكم امتد أربعة عشر عامًا. ولا يوجد ما يدل على أن هذا الحاكم قد حاول أن يسترد السلطة في عُمَان من أخيه سلجوق شاه ومن المحتمل أن تكون سيطرته على عُمَان انتهت في سنة (٥٣٨هـ/ ١١٤٣م) مما يحدد فترة طولها ٨٢ عامًا من هيمنة أسرة قاوارد الكرمانية على عُمَان.

أما ما الذي حدث عند وفاة سلجوق شاه وفي أي عام حدثت وفاته فهي أحداث لم يسجلها المؤرخون؛ ولكن من المحتمل أن وفاته سبقت الإمام الشيخ محمد بن خنبش الذي تقلد السلطة فيما بعد.

خلف محمد بن خنبش نجله حفص بن محمد، ثم بعد هذا نصل إلى عهد حكم النباهنة في عُمَان، والذي لا نعرف عنه إلا القليل، فالمؤرخون لا يذكرون شيئًا عن أصل وظهور حكم هذه الأسرة، وأسماء وتواريخ ملوكها أو زعمائها، وهي غير متوفرة على الإطلاق. وعلى أيّة حال فقد كان نفوذ النباهنة على ما يبدو يتركز في منطقة الظاهرة، ولم يشمل كل عُمَان، وإنَّ الزعماء كانوا يلقبون بالملوك، وكانت سلطتهم سلطة زمنية دنيوية فقط.

وعلى كل فلم تكن عُمَان في تلك الفترة بلدًا مستقلًا، فقد انتقلت من السيطرة السلجوقية بعد فترة قصيرة، إلى سيطرة الغُز الكرمانيين، وكان الغُز قبائل متوحشة

من التركمان قاموا في سنة (٦١٩هـ/ ١١٢٢م) تحت قيادة زعيمهم بوريك حجاب بغزو كرمان والاستيلاء عليها من أبي القاسم الززوني، ثم هاجموا عُمَان واستولوا عليها بعد ذلك، وبقيت في قبضتهم حتى سنة (٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م).

في سنة (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) أهتز العالم بسقوط الخلافة الشرقية، عندما استولى هولاكو خان (حفيد جنيكز خان) على بغداد عاصمة الأمبراطورية، وقام بذبح المعتصم آخِر الخلفاء مع أفراد أسرته.

إن سقوط بغداد الذي تسبب في تمزيق الأمبراطورية كان له تأثير هام على التجارة؛ نظرًا لأنه حول مسارها بعد أن كانت تتدفق من الشرق إلى الغرب، اتجهت إلى قنوات جديدة، وهكذا فعلى حين تضاءل شأن صحار والبصرة، ظهرت أهمية عدن ومصر.

أما الحادثة التالية التي سمعنا بها عن عُمَان فهي اعتداء هرمز على الساحل العربي وذلك سنة (٦٦٠هـ/ ١٢٦١م).

تأسست أسرة الحكم في هرمز على حدِّ قول تكسيرا على سواحل كرمان، وكان مؤسسها هو الشاه محمد الدغستاني، ولعلها غدت تابعة للغز حكام كرمان ففي عام (٦٦٠هـ/ ١٢٦١م)، كما ذكرنا آنفًا قام ركن الدين محمد، الملك الثاني عشر لهرمز، وكان أميرًا مقاتلًا ومغامرًا، وبدأ حكمه في سنة (٦٤١هـ/ ١٢٤٣م) بتوجيه حملة مشتركة من الهرمزيين والغُز إلى قلهات، عاصمة النبهانيين، وطالبًا زعيميها أبو المعالي كهلان بن نبهان وأخيه عمر بن نبهان بالزكاة؛ ولكنهما رفضا وأخذا يماطلان.

ولما كان ركن الدين غير قادر على ما يبدو أن يقوم بمحاولة للاستيلاء على داخلية عُمَان توجه عن طريق البحر إلى ظَفَار، بعد أن ترك حامية من الغُز في قلهات، وقد انتقل جزء من تلك الحامية إلى طيوي في محاولة لنهب سكانها، إلا أنَّهم هوجموا وطردوا بعد أن تكبدوا خسائر فادحة من جانب بني جابر، ولا تزال قبور هؤلاء الأتراك موجودة في طيوي، ولعله لم ينج من القتل إلا قليل منهم عادوا إلى قلهات.

أما عن تاريخ هذا الاحتلال فمن الملاحظ أن المؤرخ ياقوت الحموي الذي توفي سنة (٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م) يذكر بأنَّ عُمَان في ذلك الوقت كانت خاضعة لهرمز.

في عام (٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م) كانت عُمَان مسرحًا لغارة شنَّها مغول شيراز، عندما

قام فخر الدين وشهاب الدين نجلا الحاكم بإنزال قوة عسكرية قوامها ٤٥٠٠ فارس على ساحل صحار، ومنها زحفوا على نزوى فنهبوها وأحرقوها، كما قامت تلك الحملة بتدمير الأسواق والجوامع والكتب واختطاف النساء. وقد وقع هذا خلال حكم هلال بن عمر بن نبهان الذي هاجم الفُرس وخلفاءهم؛ ولكنه مُنيَّ بالهزيمة، وخسر ٣٠٠ من رجاله، ثم بعد ذلك قام فخر الدين أحمد من البداية بمحاصرة بهلاء؛ ولكنه رد على أعقابه. غير أن وفاة فخر الدين وضعت حدًّا لتلك الحملة، واضطر الفُرس إلى الخروج من عُمَان بعد إقامة دامت أربعة أشهر فقط.

ويذكر ياقوت الحموي أن صحار كانت في زمانه عاصمة لعُمَان، غير أن أبا الفداء الذي كتب بعده بنحو قرن واحد يقول: بأن صحار كانت مجرد أطلال وخرائب.

في سنة (٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م) تقريبًا، نقلت عاصمة هرمز من ساحل كرمان إلى جزيرة حيرون عند فمِّ الخليج التي عرفت فيما بعد بهرمز.

في (٧٣١هـ/ ١٣٣٠م) زار عُمَان الرحالة الشرقي ابن بطوطة، ووجد قلهات في يد قطب الدين ملك هرمز، ويخبرنا ابن بطوطة، أن سلطان عُمَان في ذلك الوقت كان أبو محمد النبهاني، وكان لقب محمد هو لقب كل السلاطين الذين كانوا يحكمون عُمَان من النباهنة.

في سنة (٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م) ظهر وباء الطاعون الأسود الذي يحتمل أنَّه جاء من الصين وانتشر انتشار النار في الهشيم في أوروبا، ورغم أن المؤرخين لا يشيرون إلى ذلك فإن من المحتمل أن يكون ذلك الداء قد انتشر في عُمَان وحصد أهلها.

وكما جاء فإن أسرة الغُز الكرمانية قد انتهت حوالي سنة (٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م)، مما يسمح لنا بالاعتقاد بأنَّ عُمَان قد استردت استقلالها، وذلك بعد رحيل الغُز، واستأنف النبهانيون سيطرتهم المطلقة.

وعلى امتداد أربعين عامًا لا يوجد ذكر لصراع أو تنافس على السلطة بين النبهانيين ورجال الدين الإباضيين، غير أننا نجد أنَّه في سنة (٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م) انتخب الإمام مالك بن علي الحواري الذي كان مقره نزوى، ومارس سلطته على القسم الأكبر من البلاد.

في عام (٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م) توفي الإمام الحواري، ثم بعد مرور سبع سنوات

خلفه أبو الحسن بن خميس بن عامر الذي انتخب سنة (٨٣٤هـ/ ١٤٣٠م) وتوفي هذا سنة (٨٤٦هـ/ ١٤٤٢م) وتبعه في تولي الإمامة الإمام عمر بن خطاب بن محمد ابن أحمد بن شاذان بن الصلت سنة (٨٥٥هـ/ ١٤٥١م)، أو على حدِّ قول روسي في سنة (٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م).

في سنة (٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) قام عبدالرازق بن إسحاق مبعوث شاه رخ من الهند برحلته التي وصل فيها إلى مسقط، ومنها إلى قريات وصور غير أن هذا المبعوث كان مريضًا لدرجة أنَّه لم يُدوِّن أيّة معلومات عن الحالة السياسية للبلاد العُمَانية. أما الإمام عمر فلم يكن مقدرًا له بأن ينعم بالسلم، إذ أنَّه بعد حوالي عام واحد من انتخابه هزمه سليمان بن سليمان بن مظفر النبهاني وتمكن من خلعه، وذلك في مدينة سمائل. ويبدو أن الإمام عمر قد أُعيد انتخابه، وفي عام (٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م) انتقم لهزيمته واستولى على أملاك بني نبهان وصادرها.

خلف الإمام عمر، القاضي محمد بن سلميان بن أحمد بن مفرج في سنة (٨٩٤هـ/ ١٤٨٨م) غير أن هذا الإمام خُلع بعد ذلك مباشرة، وانتخب الإمام عمر بن شريف، واستمر في منصبه عامًا واحدًا اعتزل الإمامة بعدها. وبعد ذلك أُعيد انتخاب محمد ابن سليمان في نزوى.

أما الإمام الذي تولى بعد ذلك فلعله الإمام محمد بن إسماعيل الذي بدأ حكمه في سنة (٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م)، والذي ظهر خلال حكمه الفاتح الأكبر ألفونسو البوكويرك الذي أحال المنطقة كُلها من رأس الحدِّ إلى رأس مسندم إلى حطام.

* * *

# الفصل الثالث

# البرتغاليون في شرقي شبه الجزيرة العربية

يعتبر انتقال السيطرة على التجارة الدولية للمحيط الهندي من الفينيسيين إلى البرتغاليين، ومن البرتغاليين إلى الهولنديين، ثم الهولنديين إلى الإنجليز خلال القرون السادس عشر، والسابع عشر، والثامن عشر موضوعًا مثيرًا، وبالغ الأهمية مما يستوجب رسم بعض الصور للأحداث التي سبقت الوجود البرتغالي في شبه الجزيرة العربية.

في منتصف القرن الخامس عشر كانت فينيسيا أو البندقية تعيش أوج قوتها، وذلك بفضل الثروة التي تدفقت عليها من احتكارها للتجارة بين الشرق والغرب. وبفضل تلك القوة البحرية التي توافرت لها، وأصبحت تمثل القوة التجارية للأقطار المسيحية، غير أن ذلك الصعود في الثراء والتطور قد توقف فيها عند ذلك الحد، وبعد أن توجت عظمة مجدها لتلك الإنجازات بدأت تخسر نفوذها وتتدهور، وكانت أول ضربة سلطت عليها هي احتلال الأتراك للقسطنطينية عام ١٤٥٢م، وهي نفس المدينة التي سبق لأهل جنوى أن طردوهم منها. وقد مكن ذلك الانتصار الأتراك في التحكم في تجارة الشرق ووضع نهاية مؤقتة لتجارة فارس والشام.

إن حروب الجمهورية الفينيسية مع جنوى، وأطماعها التوسعية في قلب الأراضي الإيطالية قد استغرق كلَّ اهتمامها، وشكل اختبارًا لها. وربما كان في استطاعتها أن تصمد طويلًا في صراعها مع منافسيها والاحتفاظ بالتفوق التجاري دون منازع لولا مغامرة وشجاعة دولة أصغر وأضعف منها في الغرب الأوروبي، ألا وهي البرتغال.

في شهر أغسطس من عام ١٤٩٨م تمكن المكتشف الأكبر فاسكو دي جاما من الوصول بسفينته إلى أحد الموانئ الهندية، وهي ميناء كليكوت، بعد أن دار بسفينته حول رأس الرجاء الصالح. وبفضل تلك الرحلة المشهورة في تاريخ الملاحة الشرقية، والتي لم تفئ بالثروة والصيت لصاحبها فحسب، بل عادت بالخراب على ثلاث دول قوية متنافسة، هي مصر، وتركيا، والبندقية، ولقد سقطت مصر خلال عشرين عامًا، وأغلقت البندقية أسواقها عام ١٥٧٣م، أي بعد احتلال الأتراك لقبرص، بالرغم من أن الجمهورية قد أطفأ نابليون بريقها، نهائيًّا عام ١٧٩٧م، أما تركيا فقد جاء سقوطها بالتدريج، فقد عاشت بعد ذلك سنوات أخرى تعرف برجل أوروبا المريض.

وعن الفترة التي نتناولها في هذا الكتاب فقد كانت التجارة البحرية بين الهند

والبصرة تمر عبر الخليج، وعلى امتداد ساحل البحر الأحمر حتى السويس في أيدي عرب عُمَان واليمن، الذين كانوا يحتكرون تلك التجارة منذ عصور بعيدة، وبالتالي فقد كان من الطبيعي أن يقاوم هؤلاء العرب وبأقصى الشدة تدخل فاسكو دي جاما؛ لأنَّهم كانوا الضحية الأولى للضربة القاتلة التي سددها الملاح البرتغالي إلى مصالحهم التجارية، كما أدركوا بأنَّ النظام التجاري الذي يمرُّ بسوريا ومصر وتتقاسمه أطراف عديدة أصبح مقضيًّا عليه.

لكل تلك الأسباب ما أن وصل فاسكو دي جاما إلى كليكوت حتى قام أولئك العرب بإبلاغ نبأ وصوله إلى حكام مصر طالبين أبلاغ السلطان العثماني عن احتمال التدخل البرتغالي في المنطقة، وحتى يكون على بيّنة من ذلك قبل أن تصل أخبار ذلك النجاح إلى ملك البرتغال، ومن ناحية أخرى أدرك تجار البندقية أهمية رحلة فاسكو دي جاما بعد أن وصلتهم أخبارها عن طريق مصر، وقد أثارت موجة من الذهول في أوساطهم غير أن البندقية لم تستسلم فورًا للضربة من الدولة المنافسة لها، وقامت بمحاولات كثيرة جادة، وإن لم تكن ناجحة لتفادي ذلك الخطر ولاستعادة سيطرتها التجارية، كما أنَّها أوضحت لكل من تركيا ومصر أبعاد ذلك الخطر، وطلبت مساعدتهما بالرد على تلك المؤامرة وعلى الرغم من أن تركيا ومصر لم تدركا مغزى ذلك الخطر، إلا أنَّهما استجابتا للطلب، وبالجهود المشتركة بين تلك الدول تم إعداد أسطول قوي في ميناء السويس أبحر إلى بحر العرب للتصدي للبرتغاليين.

وفي عام ١٥٠١م بعث دوق البندقية بسفيره السنيور بترو بيالجو إلى لشبونة لاستطلاع الأمور هناك، وقد استقبله الملك دوم مانويل بحفاوة بالغة؛ ولكنه ذكر بأنَّه إذا كانت حكومته ترغب في إرسال سفنها التجارية إلى لشبونة فإنَّه يرحب بذلك، وبأنَّ تجار البندقية سوف يجدون كل تسهيل وترحيب وحماية في البرتغال، غير أن السنيور بترو الذي أدرك بأنَّ عهد احتكار البندقية لتجارة الهند كان يقترب من نهايته، وبأنَّ طريق البحر الأحمر لم يعد يستطيع منافسة رأس الرجاء الصالح، الأمر الذي سيؤدي إلى دمار تلك الدولة؛ ولهذا قرر العودة إلى بلاده.

أما دوق فينيسيا فإنَّه لم يرحب بدعوة الملك دوم مانويل لفتح موانئ بلاده للجالية الفينيسية؛ بسبب اشتراكه الفعلي مع باشا مصر الذي كان في ذلك الوقت يعمل مستقلًا عن الباب العالي، ويشنُّ هجومًا على البرتغاليين في البحر العربي، مما يفرض

عليه القيام بدور مزدوج، وخوفًا من أن تتعرض مخازن السلع في كل من الإسكندرية والقاهرة للخطر، الأمر الذي سوف يدفع بحلفائه المصريين إلى أن ينقلبوا عليه ويصبح معزولًا عزلًا تامًا، كذلك فقد كان الدوق متأثرًا بعوامل الهيبة والكرامة إلى جانب العوامل السياسية، وذلك في رفضه شراء التوابل من حلفائه السابقين.

وإلى جانب تلك الاعتبارات فقد كان من الطبيعي أن يرفض أهل البندقية الذين لم يسبق لهم قط أن شاركوا في أي اكتشافات على الساحل الغربي في أفريقيا الاشتراك في التجارة البحرية الجديدة، على أثر أول رحلة يقوم بها فاسكو دي جاما للهند، ربما بدافع غرورهم وصلفهم وكرسوا جهودهم لإحباط محاولات البرتغاليين إيجاد مصدر تجاري جديد لهم، غير أن أهل البندقية لم يحققوا نجاحًا يذكر في تلك المحاولات شأنهم شأن التجار العرب في كليكوت في محاولتهم مقاومة فاسكو دي جاما.

وبإيعاز من البندقية بعث باشا مصر برسالة شديدة اللهجة إلى البابا والملك دوم مانويل يطلب منهما منع المسيحيين من الملاحة أو الاتجار في البحر العربي، ويهدد بقتل جميع المسيحيين في مصر وتدمير القدس. وبما أن ذلك التهديد قد قوبل بالإهمال، فقد قام اتحاد دول المشرق بإرسال أسطول إلى المحيط الهندي، غير أن ذلك الأسطول قد أبيد عن آخره عندما دخل في معركة مع الأسطول البرتغالي عام ١٥٠٨م. ومع توالي خروج الأساطيل من لشبونة، الواحد تلو الأخر، إلى الشرق أخذ معدل التجارة يتصاعد بسرعة ويقلب الأساليب القديمة السائدة. وكان الانخفاض في شحن السلع كبيرًا جدًا، بحيث انخفض إلى ٦٠٪، وبحيث تعذر على العرب أن ينافسوهم، وهكذا تدهورت أحوال الطرق التجارية القديمة عبر الخليج والبحر الأحمر.

وخلال الرحلات البحرية الأولى للبرتغاليين نحو الشرق في القرن السادس عشر برز اسم ألفونسوا البكويرك كأحد الملاحين العباقرة، وكان قد أبحر من لشبونة في اليوم السادس من فبراير عام ١٥٠٣م على رأس أسطول من ثلاث سفن، وكانت وجهته كوشين، وأثناء وجوده في الهند استغل وقته في جمع المعلومات ووضع الخطط عن المنطقة؛ لتقديمها إلى الملك، وعند عودته عام ١٥٠٤م عرض على الملك دوم مانويل مشروعات عديدة للغزو والضم والتجارة والسيطرة البحرية، وكان

ذلك الملاح يعتقد أن مشروعاته كلها قابلة للتحقيق؛ وذلك بسبب ضعف الشعوب الآسيوية، وقد اعتمدت الخطة الطموحة للبكويرك بعد مناقشات حامية في المجلس، حيث اعترض عليها الماركيز سلدانا وغيره من النبلاء ذوي النفوذ؛ ولكن الملك قرر أن يعهد بتنفيذ تلك الخطة إلى العقل المدبر الذي وضعها، وقد عين الدوق ألميدا حاكمًا عامًا للهند عام ١٥٠٥م، وقد قام بأعمال جليلة هناك مما استدعى إبقاءه في منصبه، أما البكويرك فلم يعد للهند قبل عام ١٥٠٦م، وغادر بلاده مزودًا بالتعليمات الخاصّة بوضع سياسة تهدف للتوسع والفتح وضمّ الأراضي في الشرق، وهي الخطة التي وضعها بنفسه، والواقع أنَّه كان مكلَّفًا بمهمة خاصّة من جانب الملك بوصفه نائبًا له وحاكمًا عامًا على الهند، وقد أمضى في هذا المنصب ثلاثة أعوام، وخلف الدوق ألميدا الذي تقرر أن يعود إلى أوروبا.

إن الفتوحات وعمليات الإخضاع التي قام بها البرتغاليون في الساحل الأفريقي كانت تشكل على ما يبدو أحد الفصول الهامة والممتعة في تاريخ العالم، وهي تنتظر من يسجل أحداثها، وذلك بالرغم من وجود مصادر عديدة قد تناولت هذا الموضوع، ومع ذلك فلا تزال هناك معلومات غزيرة لا تزال تنتظر من ينتزعها من طيات النسيان في محفوظات لشبونة وجنوى.

أما المؤرخ العُمَاني كما هو متوقع فقد لزم الصمت حول وصول البرتغاليين أو فتوحاتهم في عُمَان، غير أن بعض الحوار الذي ثار في فترة لاحقة بعد أن تداعت الحاميات البرتغالية في عُمَان قد سجلها العُمَانيون بشيء من الحماس، وعلى الأخص المراحل الأخيرة لطرد البرتغاليين من هذه البلاد كما يظهر ذلك في كتاب (تاريخ عُمَان) تأليف روس.

وفي عام ١٥٠٦م بعث ملك البرتغال بثلاثة أساطيل كان أحدها يتكون من ١٦ سفينة غادرت خليج تاجون يوم ٦ مارس، وكانت تقل الفاتح الأكبر ألفونسو البكويرك، وكان كبير ربابنة الأسطول هو ترستان داكونها الذي تلقى الأوامر بالإبحار إلى سُقطرى؛ لإنشاء قلعة فيها لحماية المسيحيين المقيمين في تلك الجزيرة، بالإضافة إلى استخدامها كقاعدة لتموين الأسطول المكلف بمواجهة التحالف المصري الفينيسي، كما عهد إليه أيضًا بفرض حصار على البحر الأحمر، وبعد أن يتم إنشاء القلعة عهد إلى داكونها بالتوجه إلى الهند ببعض قطع الأسطول، وترك

الباقي في عهدة البكويرك للقيام بالهجوم على جدة وعدن، واعتراض طريق سفن التجار العرب.

وبعد محاولات وخسائر كثيرة في الرجال وصل داكونها إلى سُقطرى في منتصف عام ١٥٠٧م، وأثناء سيره بالأسطول انضمّت إليه السفينة البرتغالية فلور ديليمار، التي كان يقودها الكابتن جواد نوفا الذي كان قد توجه إلى الهند بأسطول آخَر، إلا أنَّ داكونها وجد في سُقطرى استقبالاً غير الذي كان يتوقعه، فقد كانت الجزيرة في ذلك الوقت تخضع لحكم السلطان إبراهيم الذي رفض أن يسلم بمطالب الأميرال البرتغالي؛ ولهذا عمد القائد البرتغالي إلى قصف حامية البلدة، وتمكن في النهاية من احتلالها رغم المقاومة العنيفة التي أبداها المهرة، وقد قام البرتغاليون بإعادة بناء القلعة، وأطلقوا عليها اسم السينت توماس، وعين دوترونا قائدًا على الحامية، وفي نهاية شهر يونيو ١٥٠٧م تم تسوية جميع الأمور في الجزيرة، وأصبحت الظروف مواتية لكل من البكويرك وداكونها أن يفترقا كل في طريقه، وأن يتبع كل منهما الخط المرسوم له من جانب ملك البرتغال.

وقد تم توزيع قطع الأسطول على القباطنة البرتغاليين، وكان من نصيب البكويرك سفينة القيادة سيون، ثم بعد ذلك غادر القبطان ترستان إلى الهند يوم ٧ أغسطس تاركًا حرية التصرف للبكويرك في ممارسة عملياته البحرية ضدَّ التجارة العربية، وهناك خلاف كبير بين المؤرخين البرتغاليين حول التعليمات التي صدرت للبكويرك، أو ربما كانت الأوامر التي صدرت إليه كانت غامضة مما اضطره إلى التصرف وفقًا لإرادته، أو بما كانت تمليه عليه الظروف.

وكما جاء في يوميات البكويرك فلقد كانت الأوامر المعطاة له تقضي بأن يقوم بتدمير مدينة هرمز، وأن يعمل كل ما في وسعه لاعتراض وعرقلة النشاط الملاحي العربي المتجه إلى الشرق عبر الإسكندرية والبصرة، وذلك قبل أن يبدأ بالهجوم العسكري على المنطقة نفسها.

أما كوتو فيؤكد بأنَّ التعليمات التي كانت قد صدرت للبكويرك تقضي بالاستيلاء على ميناء عدن، واعتراض السفن العاملة في البحر الأحمر فقط.

غير أنَّ البكويرك كان لا يجهل بأنَّ الأسطول الذي تحت تصرفه لا يسمح له بالاستيلاء على قلعة عدن الحصينة؛ ولهذا فقد آثر بأن يخرج على الأوامر التي

صدرت إليه، فيبحر إلى شرقي شبه الجزيرة مباشرة؛ لأنه بعد أن يتمكن من احتلال قلهات ومسقط اللتين كانتا بالإضافة إلى هرمز أهم أسواق الخليج ومناطقه الحرة في ذلك الوقت، حيث كان النشاط التجاري كله يتركز فيها قبل أن ينتقل إلى موانئ شط العرب، وبالتالي فلقد قرر البكويرك احتلال هرمز وجعلها محطة للتجارة البرتغالية دون غيرها.

ولكن البكويرك قبل أن يتخذ قرارًا بهذا الشأن رأى أن يعقد مجلس حرب، وفي ذلك المجلس وبناء على التوقعات بشأن المؤن واتجاهات الرياح الجنوبية الغربية صرف النظر عن الهجوم على ميناء جدة، وتقرر بدلًا من ذلك أن يتوجه الأسطول إلى البحر الأحمر لاصطياد سفن العرب، ثم يواصل منها سيره إلى مسقط، وعند وصوله إليها يتم اتخاذ الخطوة التالية. وفي يوم ١٠ أغسطس خرج الأسطول البرتغالي ووجهته الساحل العربي مارًا بجزر كوريا موريا (الحلانيات)، غير أنَّه لم يتوقف عند تلك الجزر، بل واصل سيره، وفي تلك الأثناء قرر القائد صرف النظر عن الحملة النهائية خوفًا من نفاد المؤن، وكان قد وافق سابقًا على ذلك نزولًا على رغبة مساعديه.

ويبدو أن الأسطول البرتغالي بعد إقلاعه رسا بالقرب من جزيرة مصيرة في المياه العُمَانية، ثم اتجه منها بعد ذلك إلى رأس الحد، وألقى مراسيه في منطقة هادئة، حيث بدأ عملياته الحربية من هناك، وكان هناك نحو ثلاثين أو أربعين مركبًا تابعةً للعرب، فوجه نشاطه ضدَّها، كما اكتشف البرتغاليون وجود بعض السفن التابعة للعرب في خور جراما فقصفها بمدفعيته ودمرها، ثم بعد ذلك تحرك الأسطول إلى مدينة قلهات، وأخذ يستعرض قوته أمام الشواطئ العربية. وكانت هذه المرة الأولى التي تظهر فيها سفن حربية أوروبية في بحر عُمَان منذ أيّام الإسكندر، قبل ثمانية عشر قرنًا تقريبًا. ولم يضطر البرتغاليون إلى القيام بعمليات حربية ضدَّ سكان قلهات؛ لأنهم استسلموا بمجرد ظهور الأسطول البرتغالي. وفي تلك الأثناء علم الفُرس بتحركات البرتغاليين في المحيط الهندي وبنشاطهم الحربي وتفوقهم العسكري.

في ذلك الوقت كان يحكم عُمَان الإمام محمد بن إسماعيل الذي انتخب عام (٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م) وتوفي عام (٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م) وكان يمارس سيطرة تامة على المنطقة الداخلية من البلاد، وكان مقره الرستاق. بينما كانت المنطقة الساحلية تخضع منذ عام ١٢٧٠م لملك هرمز الفارسي الذي كان له نائبه في مدينة قلهات الساحلية.

في اليوم الأوّل لم يجر البكويرك أي اتصال بأحد في المدينة، غير أنَّه في اليوم التالي بعث بضابطين ومترجم إلى حاكم البلد، حيث لقيا استقبالاً وديًّا، وعلم الضابطان من الحاكم بأنَّ البلدة تخضع لملك هرمز؛ ولكن إذا كان البرتغاليون في حاجة إلى أي شيء، فإن الحاكم سوف يقدم لهم ما يطلبون.

في اليوم الثاني تم اتصال آخَر بين البكويرك وحاكم البلدة، حيث تلقى البكويرك سلة من الفواكه كهدية من الحاكم، وعلى أيّة حال فلقد رفض البكويرك الهدية، وأعادها إلى الحاكم مع مطالبته بالاستسلام دون قيد أو شرط، والاعتراف بتبعية قلهات لملك البرتغال.

وبما أن حاكم قلهات لم يكن مستعدًا لمقاومة البرتغاليين فقد ناشد البكويرك أن يتجه إلى هرمز للاتفاق مع ملكها بشأن تبعية البلدة؛ ولكنه وعد القائد البرتغالي باستعداده للاعتراف بسيادة البرتغال عليه أيًّا كانت النتيجة؛ وذلك لكي يجنب قلهات أخطار الحرب وسفك الدماء.

وقد فهم البكويرك المعنى الذي ينطوي عليه الرد الملتوي للحاكم، وبما أنَّه كان في حاجة ماسة إلى المؤن فقد قبل مقترحات الحاكم عملاً بنصيحة مساعديه إلى أن تحين الفرصة المناسبة، وقبل أن يغادر البكويرك شواطئ قلهات تعهد بالنيابة عن الملك دوم مانويل بضمان أمن قلهات وسلامتها من اعتداءات السفن البرتغالية الأخرى، غير أنَّه لم يخجل من المساومة على أحد المراكب التابعة لعدن واستولى عليها بالقوة وضمها إلى أسطوله.

وفي يوم الأحد ٢٢ أغسطس أبحر البكويرك من قلهات متوجهًا إلى طيوي التي كانت حسب اعتقاده إحدى الموانئ العُمَانية الهامة، إلا أنَّه عدل عن رأيه بعد أن تبين أنَّها ليست أكثر من مورد للماء، فغادرها إلى قريات، حيث قضى الأسطول الليلة هناك.

في اليوم التالي لم تصل إلى البكويرك أيّة سفينة من قريات، فأيقن بأنَّ البلدة قد أعدتها للمقاومة والحرب؛ ولذلك أخذ يرصد تحركاتهم ويضع الخطط للهجوم على البلدة. وعرف البرتغاليون بأنَّ هناك حاميتين في البلدة وقد أقاموا في إحداهما أربعة مدافع؛ ولهذا صوب البرتغاليون هجومهم على تلك المواقع لتدميرها. ونشب قتال عنيف وطويل، غير أن أهل قريات اضطروا في النهاية إلى إخلاء مواقعهم؛

ولكن البرتغاليين لاحقوهم وانهالوا عليهم قتلًا وإبادة دون تمييز بين النساء والرجال والأطفال، فكانت مجزرة، وقام البرتغاليون بقطع آذان وأنوف أهل البلدة تشفيًّا وزهوًّا بالنصر، ثم انطلقوا في عمليات سلب ونهب وحرق للمنشئات والمنازل، كما استولوا على كمية من الأسلحة كالسيوف والرماح والسهام والأقواس. ثم قاموا بتدمير وحرق السفن الراسية في الميناء التي كان عددها لا يقل عن ٨٣سفينة.

أما مسقط فقد كانت الهدف الثاني للغزو، فقد وصل إليها البكويرك بعد مسيرة أربعة أيّام؛ ولكنه وجد المدينة منيعة ومحصنة، كما كانت مسقط الميناء الرئيسي على الساحل، ولعل سكانها قد بلغهم ما حلَّ بأهل قريات. وبالتالي فعند وصول البكويرك إلى الميناء بادروا إلى إيفاد اثنين من زعمائهم إليه يعرضون الاستسلام له واستعدادهم لقبول أيّة شروط يمليها عليهم.

وبما أن الوفد لم يكن يحمل معه تفويضًا كتابيًّا من الحاكم، فقد طلب منهم البكويرك أن يعودوا إليه في اليوم التالي. وفي نفس الوقت قام البرتغاليون بعملية استطلاع؛ لمعرفة التحصينات العُمَانية المنتشرة على الساحل، فاكتشفوا بأنَّ العُمَانيين قد أقاموا المتاريس والاستحكامات حول المدينة، كما وضعوا داخلها بعض المدافع.

وعند عودة الوفد في اليوم الثاني إلى البكويرك طلب هذا القائد من أهل مسقط أن يدفعوا له جزية سنوية، وأن يزودوا أسطوله بالمياه والمؤن استعدادًا للعمليات التي كان ينوي القيام بها ضدَّ هرمز. وقد تم تزويد السفن البرتغالية بالمؤن على الفور، غير أنَّه أثناء الليل تلقى أهل مسقط إمدادات عسكرية من أحد زعماء الداخلية الأقوياء، مما جعلهم يعتقدون بأنَّهم قد أصبحوا من القوة بحيث يمكنهم التصدي للقائد البرتغالي ومقاومته. وما أن عرف القائد البكويرك بذلك حتى بادر بقصف المدينة؛ لتدميرها بأسرع وقت ممكن، فقام بتصويب مدافعه على التحصينات والبطاريات الساحلية، غير أن نيران مدفعية البرتغاليين لم يكن لها أي تأثير، وربما لبعد المسافة بينها وبين السفن الغازية، وبالتالي فقد قرر البكويرك أن يعقد مجلس حرب لاتخاذ القرار المناسب، غير أن مساعديه الذين ضاقوا ذرعًا بدكتاتوريته وصلفه، وبعد أن أيقنوا بأنَّ قائدهم قد عقد العزم على تنفيذ الخطة التي وضعها فإنَّهم لم يناقشوه أو يبدوا رأيهم في الخطة، بل أبلغوه استعدادهم لتنفيذها. ولهذا أصدر البكويرك أوامره بشنِّ الهجوم على مسقط. وقد أسفرت العمليات التي تولى قيادة أحدها البكويرك نفسه.

عن سقوط الاستحكامات العُمَانية رغم ما أبداه العُمَانيون من بسالة ومقاومة في الدفاع. وفي وسط المدينة التحم الجيشان في معركة ضارية تمكنت القوات البرتغالية في النهاية من دحر الجيش العُمَاني من وسط المدينة إلى منافذها الخارجية.

أما الزعماء العُمَانيون الذي أثار وصولهم الحماس والاصرار بين العُمَانيين فقد انسحبوا، غير أن عمليات الذبح والتقتيل في الأهالي كانت فظيعة، وكان بين القتلى الحاكم الفارسي للمدينة وعدد من النساء والأطفال، وقد قام مساعدو البكويرك بدور كبير في عمليات القتل والاعتداء على الحرمات، وإن كانوا في النهاية قد تخلوا عن قائدهم، إلا أنَّ البكويرك كان أكثرهم قسوة وهمجية وإجرامًا، فقد أطلق العنان لجنوده بعد أن جمعهم في ساحة المدينة؛ ليذبحوا كل من يصادفونه من المواطنين نساءً أو أطفالًا أو شيوخًا دون تمييز، ثم بعد ذلك أمر الجنود بنهب المدينة وحرقها والسماح لأتباعه بالاحتفاظ بالأموال والغنائم التي نهبوها من السكان، تعويضًا لهم عن التضحيات التي بذلوها، وبعد أن فرغ من كل ذلك أعلن استعداده لإخلاء البلدة. وكان بعض أهل المدينة قد لجأ إلى المرتفعات الجبلية فقاموا بإيفاد واحد عنهم ليرفع راية بيضاء دليلًا على طلب الهدنة، وناشدوا البكويرك بأن يكفَّ عن قتل النساء والأطفال وحرق السفن، غير أن البكويرك لم يستجب لهم، وأعرب عن أسفه على ما اضطر إليه؛ بسبب نقض سكان المدينة للاتفاق الذي عقدوه معه في البداية. إلا أنَّه وافق على إخلاء المدينة نظير عشرة آلاف أشرفي ذهبًا، على أن تدفع فورًا، غير أن أهل مسقط لم يكن لديهم ذلك المبلغ، وبالتالي فقد أصرَّ القائد البرتغالي على إشعال النار في البلدة والسفن بما فيها من قوارب الصيد، كما دمر جامع المدينة الذي وصفه بأنه مبنيًّا بأسلوب فني جميل، وعليه كثير من النقوش وأعمال الحفر الخشبية، ويقال: بأنَّ الرجال الذين تولوا حرق الجامع قد احترقوا هم أيضًا فيه بعد أن تساقط البناء فوق رؤوسهم وأصبحوا طعمة للنيران، هكذا كان الاعتقاد؛ ولكن الرجال الثلاثة عادوا فظهروا فجأة من بين الأنقاض؛ ولذلك فقد تقدم القائد بالشكر للعذراء عن تلك المعجزة التي حفظت أرواح الرجال: وفيما يلي وصف لمدينة مسقط كتبه البكويرك نفسه:

"مسقط مدينة كبيرة وسكانها كثيرون وتحتضنها من الجهتين سلسلة من الجبال العالية بينما تنفتح واجهتها على البحر. وخلف المدينة من الجهة الأمامية يوجد سهل

كبير كميدان لشبونة تغطيه سطوح الملح؛ ولكن لا علاقة للمياه في ذلك، وإنما لملوحة الماء، ويكاد الإنسان أن يعثر بالكاد على الماء العذب، وفي المدينة حدائق وأحراش وأشجار النخيل التي تسقى من مياه الآبار بطريق النزف وغيره من الوسائل.

أما ميناء البلدة فصغير على شكل حدوة الحصان، ومحاط بالجبال من الجانبين، بحيث تحميه من الرياح، ومسقط الميناء الرئيسي لمملكة هرمز وتزوره السفن التي ترتاد هذه المناطق؛ لكي تتفادى الساحل المفتوح، وكثير من المناطق الضحلة. كما أن هذه المدينة بها سوق قديم للجياد والبلح، ومسقط نفسها مدينة جميلة تضم بيوتًا جميلةً الشكل، وتتزود بحاجيتها من المواد الغذائية من المنطقة الداخلية التي ترسل إليها الحنطة، والشعير والبلح لتموين السفن الكبيرة التي ترتاد الميناء. ومدينة مسقط جزء من مملكة هرمز. وأما المنطقة الداخلية فإنها تخضع لحاكم اسمه ابن جابر، وله شقيقان وقسمت البلاد بينهما، ويحد البلاد من الشمال الخليج العربي، ومن هناك تمتد حتى حدود مكة، والعرب يسمون هذه المنطقة جزيرة العرب؛ لأن البحر العربي يستدير عليها حتى شواطئ البحر الأحمر، بحيث جعل للبلاد شكلًا دائريًّا، ويكاد الماء يحيط بها من كل الجهات، أي مياه البحر الأحمر ومياه بحر الخليج، أنَّها بلد صغير؛ ولهذا سميت بجزيرة العرب، وكل هذه المنطقة كان يحكمها سابقًا حاكم يدعى ابن جابر وكان لهذا الحاكم ثلاثة أبناء، ثم ترك البلاد وبعد وفاته قسمت بين أبنائه واحتفظ أكبرهم باسم جابر تيمنًا باسم الوالد واعترف به الأخوان سيّدًا عليهما، ويحكم ابن جابر هذا رأس فرتك وظَفَار وقلهات ومسقط، وتمتد حدوده إلى بلاد شيخ عدن، أما أخواه فإنَّهما يقيمان على ساحل فارس، كما أن أحدهما قد أخذ جزيرة البحرين، وكانت من ملك فارس وهي جزيرة اللؤلؤ، كما أخذ القطيف أيضًا، وكانت سابقًا خاضعةً لملك هرمز، وتقع على الساحل العربي، ويوجد في بلاد ابن جابر كثير من الخيول التي يربيها المزارعون للاتجار فيها، كما توجد فيها الحنطة بكثرة إلى جانب قطعان الإبل والماشية. وهناك جماعة تقوم بالصيد بالصقور، ويصحبون معهم ظباء صغيرة يدربونها على الجري؛ لكي تساعد الصقور على الإمساك بالفريسة".

وقد نشب خلاف بين كبير القباطنة وبين قبطان السفينة فلور دي لامار، فقد حصل البكويرك على معلومات تفيد بأنَّ ذلك القبطان يعتزم الانشقاق عنهم؛ ولكن

أمكن حلُّ الخلاف وواصل الأسطول مهمته.

رسا الأسطول البرتغالي على شاطئ مدينة صحار بعد أن مرَّ بجزر الديمانيات، وهناك تسلم البكويرك رسالة من حاكم المدينة يؤكد له فيها بأنَّ المدينة تابعة لملك هرمز، وبأنَّه لو فكر في النزول فسوف يلقى استقبالاً لا يروقه، كما تحدث الرسول عن الاستعدادات العسكرية الجارية على السواحل لمواجهة الغزو، غير أن البكويرك طلب من الرسول بأن ينصح الحاكم بأن يعدل عن موقفه، ويعلن تبعيته لملك البرتغال، وإلا فإن الحامية سوف تتعرض للقصف والتدمير.

أما مساعدي البكويرك فقد كان لهم رأي آخر، غير أن البكويرك لم يهتم برأيهم، وما أن غادر رسول الحاكم حتى أمر البكويرك ببدء الاستعدادات للهجوم على المدينة، وبينما كان الهجوم على وشك أن يبدأ إذا بمعوث من حاكم المدينة يصل لإبلاغ البكويرك بأن الحاكم قد أمر بتسريح قوة قوامها بسعة آلاف مقاتل أرسلها ابن جابر؛ لتدعيم وسائل الدفاع عن البلدة، وبأنَّه أصبح مستعدًا لإعلان خضوعه لملك البرتغال خصوصًا وأن ملك هرمز لم يبعث بالمساعدة العسكرية التي وعد بها، وأعلن عن رغبته في تسليم الحامية للبرتغاليين. ولقد أبدى البكويرك سروره من موقف الحاكم وفضل عرضه واشترط دفع جزية سنوية لحكومته. وقد وافق الوفد على شروط القائد بعد أن أذهلتهم قوة الاستعدادات التي شاهدوها على سفن الأسطول البرتغالي، وهكذا رفع علم البرتغال على الحامية وأديت التحية بتلك المناسبة.

وحينما شاهد البكويرك مناعة المكان قرر على الفور الاحتفاظ به وذلك لأهميته الأستراتيجية؛ لأنَّه يسيطر على الساحل العُمَاني. لكنه أعاد النظر في ذلك القرار، ورأى أن يعهد بالسلطة للحاكم المحلي مؤقتًا، وبالتالي فقد عينه مسؤولًا عن البلدة، وحدد المبالغ التي يتوجب دفعها كل عام من جانب الحامية العُمَانية في صحار. وقد اعترف الحاكم بسيادة ملك البرتغال، وبالمقابل يتعهد البكويرك بحماية المنطقة. وبعد أن تمت تسوية الأمور بذلك الشكل أبحر البكويرك إلى خور فكان.

قبل وصول البكويرك إلى خور فكان كان سكانها قد عرفوا بمقدمه من بعض بحارة السفن المحلية، فقاموا باستعراضات عسكرية على الساحل اعتقادًا أن ذلك سوف يردع البرتغاليين عن القيام بأيّة عمليات عسكرية، ولما لم يتسلم البرتغاليين أيّة رسالة من حاكم خور فكان، فقد قرر البكويرك شنّ هجوم في صباح اليوم التالي.

فقام أوّلًا بقصف الساحل؛ لاخلائه من الجنود، ثم قام بعمليات الإنزال، وتمكنوا من دفع العرب إلى داخل الحامية، ثم أطبقوا عليهم، وتمكنوا بعد قتال عنيف ومقاومة عنيدة من جانب السكان من الاستيلاء على الحصن. وكان بين الأسرى العرب رجل كهل أدلى بمعلومات هامة للبكويرك عن مملكة هرمز، كما أطلعه على تاريخ الإسكندر من وجهة النظر الفارسية، وقد كافأه البكويرك بإطلاق سراحه ومعاملته معاملة كريمة.

أمضى البكويرك والأسطول البرتغالي بضعة أيّام للتزود بالمؤن والماء، قام أثناءها السكان العرب بمحاولات عديدة لاسترداد الحصن دون جدوى. وقد وصف البكويرك خور فكان فقال عنها:

"إنه ميناء يقع على سطح جبل عالٍ ومحصن من الجانب البري، وأن المناخ في البلدة معتدل وصحي والبلدة كبيرةً، ويقطنها عدد من التجار الهندوس، وهي تابعة لهرمز، وتنتج الذرة والشعير والبرتقال والبلح والتين، كما أن بها مرفأ جيّدًا تحميه بعض الجزر الصغيرة، وتربى فيها الخيول التي تصدر إلى الهند، أما المنطقة الداخلية من البلدة فخاضعة لابن جابر، شأنها شأن الأجزاء الأخرى من عُمَان".

كانت خور فكان المحطة الأخيرة لغزوة البكويرك للساحل العُمَاني، ولم تأخذه الرحمة فيها، فأمر بحرقها وتدميرها مزهوًّا بقوته المتعجرفة، وبعد ذلك أطلق لسفنه العنان.

كان الهدف الأساسي لحملة البكويرك هو الاستيلاء على هرمز كما سبق أن أشرنا، ولقد اقترنت عمليات البكويرك في هرمز بنفس القدرة والكفاءة العسكرية والنجاح، وعلى كل فبسبب خلافاته مع مساعديه وقباطنته وعطب سفينيتن من سفنه فقد اضطر إلى التخلي عن خطته قبل أن توضع النهاية لرحلة فتوحاته. وقد توج البكويرك تلك الفتوحات ببناء قلعة للدفاع عن البلدة وحمايتها. ثم بعد ذلك أبحر إلى جزيرة سقطرى، وعند وصوله إليها وجد الحامية في حالة يائسة ومجاعة؛ بسبب توتر الوضع والموقف العدائي لأهل البلاد. غير أنَّه نجح في تسوية الأمور بسرعة بعد أن انضمت سفينتان جديدتان إلى أسطوله، قدمتا من البرتغال لتعزيز الأسطول. وفي يوم ١٥ أغسطس ١٥٠٨م أبحر من سقطرى عائدًا إلى هرمز، وأثناء عودته هاجم قلهات، وأخضعها انتقامًا من أهلها للمساعدات التي قدموها

لحاكم هرمز؛ ولنقضهم للإتفاقية التي وقعوها معه أثناء الحرب. وبعد رسو الأسطول في قلهات أوفد البكويرك ابن أخيه نورونها في أحد القوارب لاستطلاع الحالة في المدينة، وصادف أن التقى هذا المبعوث برسول كان قد أرسله حاكم المدينة مع هدايا لتقديمها إلى القائد البرتغالي، فعاد نورونها مع الرسول إلى سفينة القيادة.

وقد أخذ البكويرك في استجواب الرسول، فسأله عن اسم الحاكم وعن حجم القوات التي تحت تصرفه، وبعد أن حصل على المعلومات التي أرادها، عاد البكويرك فأوفد نورونها مرة أخرى إلى الحاكم في مهمة محددة، وعند وصول المبعوث إلى الحاكم ذكر له بأنَّ البكويرك مجرد ضابط وصل حديثًا من البرتغال ومكلف بايصال بعض المهمات إلى هرمز. غير أن شريف الدين كان لبقًا فاستقبل مبعوث البكويرك استقبالًا وديًّا إلا أنَّه رفض أن يذهب معه للاجتماع بالبكويرك في سفينته.

عند عودة نورونها من عند الحاكم أخذ البكويرك في الاستعداد لشنِّ هجوم على البلدة التي كانت تقع على سفح أحد الجبال، ولم تدم المعركة طويلًا، فقد انسحب شريف الدين في حالة يائسة مع قواته مذعورين من المجزرة التي نشبت، وتراجعوا إلى منطقة التلال ومن هناك أخذ شريف الدين يراقب تحركات البرتغاليين.

وقد أصدر البكويرك أوامره لجنوده بنهب المدينة وقام بتحديد نقاط عسكرية وتوزيع الجنود على المناطق الأستراتيجية.

ومن ناحية أخرى قرر شريف الدين أن يقوم بمحاولة أخرى لاستعادة البلدة من أيدي البرتغاليين فشنَّ هجومًا بخمسمائة رجل، حاول بهم شقّ طريقه عبر مداخل المدينة. وفي البداية تمكن شريف الدين من زحزحة البرتغاليين من مواقعهم؛ لكن هؤلاء عادوا فنظموا صفوفهم وانقضوا على الفُرس، واستطاعوا بعد قتال عنيف من إبادتهم.

وبعد أن أنهى البكويرك عملية تدمير المدينة، ونقل ما استطاع من الأموال والمؤن والأمتعة الثمينة أمر بحرقها؛ ولكنه حرص بصورة خاصّة على تدمير الجامع مما فجر غضب المواطنين عليه.

وتتفق أوصاف البكويرك لجامع المدينة مع أوصاف ابن بطوطة ذلك الرحالة العربي الذي زار المدينة قبل نحو مائتي عام. ومما ذكره الاثنان بأنَّ الجامع يعتبر عملًا لفن معماري رائع. غير أنَّه لم تبق أيّة قطعة من أحجار ذلك الجامع في مدينة قلهات،

وربما كانت بيوت قلهات ومبنى الجامع قد بنيت من الجص أو الحجر أو الآجر، غير أن المباني قد اندثرت نهائيًّا؛ بسبب التدمير والتخريب الذي تعرضت له المدينة على يد الفاتح البرتغالي ولم يبق لها أي أثر.

استطاع البكويرك أن يحصل من هذا المكان على معلومات هامة من مبعوث الحاكم شريف الدين الذي كان لا يزال تحت الحجز داخل سفينة القيادة. ثم سمح البكويرك لوفد الحاكم بالعودة، وقدم لأعضائه بعض الهدايا وبعد ذلك أصدر أمرًا بحرق وتدمير جميع السفن العُمَانية الموجودة في الميناء. ثم دعا مساعديه للاجتماع لمناقشة الأمر، وأصدر قرارًا بسفر الحملة إلى هرمز، وفي اليوم التالي أبحر الأسطول بعد أن توقف قليلًا في طيوي للتزود بالماء.

لقد انتهى الفصل الأول في تلك الدراما بتدمير قلهات، وأعقب تلك الرحلة العاصفة للفاتح، وهي الرحلة التي اتسمت بسلسلة من عمليات سفك الدماء والحرائق فترة هدوء. وقد مرت خمس سنوات على ما يبدو دون أن يتعرض عرب المنطقة لأيَّة أعمال عدوانية من جانب البرتغال، وقد كانت تلك فرصة لهم لإعادة بناء البلاد.

في شهر مايو ١٥١٤م اكتشف البرتغاليون جزيرة البحرين، فقاموا بزيارة لها، فبعد أن أنهى بدرو البكويرك في شهر مايو جولته في بحر العرب بإيعاز من عمه وصل إلى هرمز، ومنها اتجه إلى المنامة عاصمة البحرين التي كانت خاضعة يومئذ لحكم هرمز، وربما كان الهدف الأساسي من زيارة البرتغاليين للبحرين هي السيطرةً على مغاصات اللؤلؤ الذي كان يشكل في ذلك الوقت وحتى الآن المصدر الرئيسي للأسواق الأوروبية والآسيوية. وعلى كل فإن بدرو البكويرك لم يفعل شيئًا أكثر من تثبيت الاتفاقيات التي كانت قائمة بين ملك هرمز وشيوخ البحرين، ثم بعد ذلك قفل عائدًا إلى هرمز. وفي عام ١٥٢١م أي بعد مضي سبع سنوات على ذلك اليوم وخلال الفترة التي كان فيها دياجو دي سكويرا نائبًا للملك في الهند أرسلت قوة كبيرة من هرمز بقيادة أنتونيو كورسا إلى البحرين، فاستولى عليها، وبقيت منذ ذلك الوقت تحت حكم البرتغال لفترة طويلة من الوقت.

كان في نية البكويرك الذي عين النائب الثاني لملك البرتغال في الهند أن يعود إلى الخليج في عام ١٥١٢م، غير أن الظروف لم تكن مواتية له، وبعد عامين أبحر من جوا بأسطول مكون من أربع سفن كبيرة وثلاثة عشر سفينة صغيرة، وفي يوم ٢١

مارس ١٥١٥م لمح القائد أرضًا بالقرب من رأس الحد، ثم بعد أربعة أيّام وصل إلى قريات. وهناك التقى بأسطول آخَر كان قد وصل من هرمز للبحث عن القراصنة فلم يتحرش به. وواصل سفره إلى مسقط حيث بقى فيها يومين للتموين.

كان الحاكم الفارسي في ذلك الوقت هو حامد بن أخ الرئيس نور الدين، أحد رجال ملك هرمز. وقد تأثر البكويرك من الطريقة الاستبدادية التي كان يحكم بها ذلك الرجل البلاد. ولعله استعاد في تلك اللحظة فظائع البرتغاليين أنفسهم خلال حكمهم، فأراد أن يتصرف بطريقة أكثر إنسانية وبعد أن قام نائب الملك باحتلال هرمز بدأ يستعد للإبحار جنوبًا، فعين أحد أقاربه قائدًا للحامية، وزوده بقوات كافية لإرهاب السكان، فكان ذلك القرار هو آخِر قرار يتخذه في حياته، فقد داهمه المرض فمات بالقرب من جوا، وقد عجل من وفاته النبأ الذي تلقاه باستدعاء الملك البرتغالي له.

ويتحدث الكابتن دي باروز في إسهاب عن دخل هرمز الذي كان يبلغ نحو ١٩٨,٠٧٨ أشرفي، كان يتم جمعها من المناطق الخاضعة لهرمز في عُمَان والساحل، وهي قلهات ومسقط وصحار وخور فكان ودبا وليما وجلفار أو ساحل القراصنة. كما كان يساهم في ذلك الدخل ما تربحه السفن من صيد اللؤلؤ.

ويقدم نفس الكاتب لمحة عن الحالة السياسية في عُمَان في تلك الفترة، فيقول بأن الإمام محمد كان يمارس سلطات زمنية وروحية مطلقة في جميع الأجزاء الداخلية الرئيسية من البلاد وكانت أكثر مناطق الداخلية كثافة سكانية هي نزوى ومنح وبهلاء، وكان لكل من تلك المدن وسائل دفاعها وحامياتها وولاتها الذين كانوا يمارسون سلطاتهم بطريقة شعبية.

وبعد إخضاع هرمز تحولت ثلاث مناطق على الساحل العربي وهي مسقط وقلهات وصحار إلى مراكز للتجار البرتغاليين، وكانت تدار كلها من هرمز، وكانت سفن ملك البرتغال تقوم برحلات من الهند إلى هذه المناطق في دوريات لحمايتها، وبما أنَّه لم يكن يسمح لأيَّة سفينة بعبور المحيط الهندي بغير تصريح، فقد كان البرتغاليون يتحكمون في التجارة البحرية، وبالتالي يتحكمون في الأسواق، إلا أنَّه يبدو أن البرتغاليين لم ينشؤوا لهم حاميات على الساحل.

وفي عام ١٥١٩م تعرض البرتغاليون لأول عملية تحدٍّ لنفوذهم في الخليج، وقد انعكس رد الفعل على الوجود البرتغالي بين مواطني تلك المناطق في السنوات الأخيرة في تلك الانتفاضة الشاملة ضِدّ البرتغاليين في كل من المناطق العربية والفارسية.

ولمواجهة تزعزع الوجود الفارسي في قلهات فقد استنجد حاكم هرمز بالقائد البرتغالي هناك (دوم جراسيا) لمساعدته على فرض سلطته وتلبية لرغبة الحاكم الفارسي أصدر القائد البرتغالي أوامر إلى قائد الأسطول في الخليج باعتقال شهاب الدين وإحضاره إلى هرمز، غير أن القائد لم يتمكن من ذلك؛ لأن حاكم قلهات قد اتخذ الاحتياطات اللازمة لتقوية وسائل الدفاع، كما كان أذكى من أن يستدرج إلى الفخ الذي نصبه له البرتغاليون والفُرس. غير أن الفرصة قد سنحت للقائد البرتغالي عندما تجمعت تحت تصرفه قوة بحرية من سبع سفن كان قد أرسلت من موزمبيق بإيعاز من السلطات الحاكمة في لشبونة، وقد وصل الأسطول إلى مسقط في بداية ١٥١٩م، مما سمح للقائد بتنفيذ التعليمات. فقام بإنزال قوة صغيرة في قلهات بعد الغروب، ثم تحركت من هناك تحت جنح الظلام إلى منزل الحاكم شهاب الدين لاعتقاله، غير أن الهجوم قد فشل، فقد كان الفُرس متيقظين، وتمكنوا من صدِّ الهجوم في جميع الجبهات؛ وبسبب تفوق قوات قلهات في العدد والعدة فقد تقهقهر البرتغاليون ولجأوا إلى بعض البيوت، غير أن الفُرس اشعلوا النار في تلك البيوت، وبعد قتال عنيف وخسائر فادحة تمكنت البقية الباقية من البرتغاليين من العودة إلى سفينة الأسطول بفضل نجدة عاجلة أرسلت إليهم.

بعد فترة قصيرة من تلك الكارثة وفي السنة التالية ١٥٢٠م وصل نائب الملك دوم ديجولوبيس دي سكويرا على رأس أسطول من ثلاث وعشرين سفينة إلى ميناء مسقط. وكان وصوله منتظرًا منذ مدة، وعندما سمع بما حدث في قلهات استدعى الأميرال دوم جورج دي البكويرك والقائد دوروبي فنسكيلو، وبعد التحقيق في الأحداث أمر بإيداع القائد منديس السجن غير أنَّه لم يقم بأيَّة إجراءات انتقامية، وتمكن من اطلاق سراح ١٥ أسيرًا برتغاليًّا كانوا في قلهات.

وفي العام التالي ١٥٢١م أي بعد سنوات سبع فقط من سقوط هرمز ووفاة الفاتح الأكبر نشبت ثورة في هرمز، وامتدت إلى الساحل العربي والبحرين وقلهات ضدّ

البرتغاليين واجتاح الثوار جميع الحاميات البرتغالية بعمليات ساحقة مفاجئة ولولا استبسال المدافعين لأبيدوا عن آخِرهم.

ويبدو أن خطة الثورة قد أحكم إعدادها من جانب حاكم هرمز ووزرائه، فقد أرسلت تعليمات إلى حكام الفُرس في الأقاليم العربية الخاضعة لهم على الساحل تحثهم على الثورة ضدَّ الوجود البرتغالي، كما حددت ساعة الصفر لتلك الثورة. وقد تم إعداد الخطة بحيث تشمل الثورة جميع المراكز والحاميات البرتغالية، بحيث يستحيل عليهم مقاومتها بالانتقال من مركز إلى آخِر. ولكي تنجح الثورة في التغلب على الأسطول البرتغالي الذي كان يمثل عصب القوة البرتغالية، فقد افتعل ملك هرمز تفشي أعمال قرصنة في بعض مناطق الساحل العربي، وطلب من قائد أسطول البرتغال دوم جارسيا إرسال بعض قطعه إلى تلك المناطق. وقد وافق القائد على طلب الملك وأمر بتحريك نحو نصف الأسطول المرابط في المنطقة.

في يوم ٣٠نوفمبر ١٥٢١م نشبت الثورة وبدأت بهجوم قامت به شاهبندر على سفينتين برتغاليتين كانتا على الساحل، وتمكن المهاجمون من الاستيلاء عليهما والإيعاز إلى زملائهم على الساحل بذبح جميع البرتغاليين المقيمين في المدينة، وكانوا في تلك اللحظة نائمين. وقد قام الجنود والمواطنون الفُرس بقتل نحو ٦٠ برتغاليًّا، أما الباقون منهم فقد تمكنوا من الهرب واللجوء إلى الحاميات المحصنة انتظارًا لوصول نجدات إلى البرتغاليين من الهند.

وكان نائب ملك البرتغال في جوا في ذلك الوقت هو دوم دورثي دي منزيس وبمجرد أن علم بثورة الأقاليم العربية أوفد دوم كونسالوا إلى هرمز لحث رجال الحامية على المقاومة، ريثما تصل النجدات السريعة التي كان يتم إعدادها بقيادة دوم كونر. وأنَّه ليبدو أن وصول دوم كونسالوا إلى الخليج قد قلب الأمور لصالح البرتغاليين، فتمكنوا من استرداد نفوذهم عن طريق عمليات انتقام رهيبة مارسوها ضدَّ أهل البلاد.

وفي شهر فبراير ١٥٢٢م أقلع دوم لويز دي منزيس شقيق نائب الملك بأسطول من ثمان سفن لاتخاذ إجراء انتقامي ضدَّ الذين تسببوا في تلك المذابح من ناحية، ولدعم النفوذ البرتغالي في الخليج من ناحية أخرى.

وقد رسا الأسطول في البداية في قلهات، ووجه دوم لويز إنذارًا فوريًّا إلى الحاكم

لتسليم الأسرى البرتغاليين الذين لم يبق منهم على قيد الحياة حتى ذلك الوقت غير عشرين فردًا، غير أن الحاكم ردَّ على الإنذار بتحويل الخطاب إلى ملك هرمز مع سلسلة من الاتهامات ضدَّ القائد البرتغالي الحالي والسابق، غير أن الحاكم استدرك فذكر للقائد البرتغالي بأنَّه شخصيًّا لا يملك سلطة تسليم الأسرى، ولابد من الانتظار حتى يصل الرد.

وبما أن أسطول القائد كان في حاجة إلى التزود بالماء، فقد قرر القائد التوجه إلى طيوي، حيث وقع صدام بينه وبين السكان العرب في تلك البلدة؛ ولكن العرب هزموا في المعركة. وأثناء وجود الأميرال في طيوي تلقى رسالة من الشيخ راشد بأن ديلامير شاه في طريقه إلى مسقط على رأس قوة عسكرية كبيرة، وأنَّه يطلب المساعدة؛ ولهذا قرر الأميرال تكليف إحدى السفن الحربية بالتحرك لمساعدة الشيخ على أن تقتصر المساعدة من البحر دون إنزال أيّة قوات برية أو اشتباك على الأرض. كما استعان الشيخ ببعض المتطوعين البرتغاليين، وقام بهجومه على الفُرس في منطقة الوادي الكبير، وتمكن من هزيمتهم، وقد قتل خلال المعركة قائدهم ديلامير شاه.

وبعد يومين وصل دوم لويز مسقط فهنأ الوالي وكافأه بسخاء على الحماية التي وفرها للمواطنين البرتغاليين أثناء الاضطرابات. ويبدو أن دوم لويز قد أنشأ حامية للدفاع عن المدينة، بالإضافة إلى مرابطة سفينة حربية في الميناء بصفة دائمة وبعدها غادر مسقط.

ويبدو أن مدينة صحار قد خضعت له، وكان بها في ذلك الوقت حامية فارسية كبيرة، ومن ناحية أخرى كانت قبائل بني جابر لا تكف عن مقاتلة الفُرس؛ ولهذا حاول القائد دوم لويز أن يعقد حلفًا معهم فعرض عليهم الفكرة.

وكانت الخطة التي وضعها الأميرال البرتغالي تقضي بأن يقوم المواطنون العرب بمحاصرة صحار من البرِّ، ويشنُّ هو هجومًا عليها من البحر. وفي يوم ١١ مارس كان الشيخ حسين قد اتخذ مواقعه عند مشارف المدينة تمهيدًا لمهاجمتها، غير أن الوالي الفارسي شهاب الدين نجح في الإفلات من الكماشة والهرب إلى هرمز تاركًا وراءه رجال الحامية بغير قيادة. غير أن هؤلاء اقتنعوا بعدم جدوى الدفاع أو مقاومة الأسطول البرتغالي.

غير أن الشيخ حسين وأتباعه – الذين لم يعلموا شيئًا عن الخطة، ولا عن قرار الحاكم

إلى هرمز استاءوا من ذلك التصرف، فاحتجوا على عدم اشراكهم في عمليات السلب والنهب التي كانت هي غايتهم الوحيدة؛ ولهذا فقد منحهم الأميرال تعويضات من الأموال والغنائم التي استولى عليها.

بعد أن أعلن الأميرال البرتغالي استقلال صحار وفصلها عن هرمز عين الشيخ حسين حاكمًا بالنيابة، وذلك بموجب اتفاق يسمح بتعيين مستشار برتغالي مقيم للإشراف على تنظيم الدخل والمصاريف، وبعد أن تزود أسطول القائد بالماء عاد إلى هرمز.

وفي عام ١٥٢٦م نشبت ثورة أخرى على الساحل العُمَاني الذي كان يعتبر حتى ذلك الوقت خاضعًا لهرمز، فقد ضاق الأهالي ذرعًا بما كانوا يعانونه من ظلم وتسلط على يد ديجو دي ميلو قائد الحامية البرتغالية في هرمز، ومن الملك نفسه ورئيس وزرائه الرئيس شريف، فأعلنوا استقلالهم عن البرتغال، وناشدوا كلًّا من حاكمي مسقط وقلهات أن يشتركا معهم في رفع لواء الثورة.

في ٢١فبراير ١٥٢٦م وصلت أنباء ذلك التمرد إلى النائب العام الإقليمي للبرتغال ويدعى لويز هنريك دي منزيس.

وفي مايو ١٥٢٧م صدرت الأوامر إلى قائد سامباتو بالتحرك فورًا بخمس سفن لفرض الطاعة والنظام على المناطق المتمردة، وأثناء سير الأسطول اضطر إلى التوقف؛ بسبب سوء الأحوال الجوية، وخلال ذلك فقد عددًا من أتباعه، وأخيرًا وصل قلهات، وهناك انتهج سياسة مرنة ووعد السكان بالتحقيق في شكاواهم، وبتلك السياسة نجح في استعادة ثقة السكان دون اللجوء إلى الوسائل القهرية.

وانتهز القائد البرتغالي فرصة وجوده في عُمَان فقام بتعزيز الحامية البرتغالية، وإنشاء عدد من الثكنات تعرف باسم الجزيرة، وقد تحولت فيما بعد إلى مساكن يقيم فيها حكام عُمَان، وكلمة جزيرة مشتقة من اللفظة البرتغالية ومعناها الكنيسة.

وقبل مغادرة القائد بحر عُمَان انضمَّ إليه هكتور دي سيلنيرا الذي قام في شهر إبريل ١٥٢٦م بشنِّ هجوم على ظَفَار وتدميرها، وبعد رحلة عبر فيها البحر الأحمر مرَّ بمسقط وقلهات.

في شهر يناير ١٥٢٨م أقلع الأميرال دوم أنطونيو دي ميراندا أزيفيدو من جوا

على رأس عشرين سفينة إلى البحر الأحمر بهدف القيام بعمليات استعراض للقوة ضدَّ الأتراك الذين كانوا قد ركزوا أنفسهم بزعامة مصطفى باشا ابن أخ السلطان سليمان في جزيرة كامران في محاولة للسيطرة على البحر الأحمر.

ولقد حاول سليمان الأول الملقب بسليمان القانوني خلال فترة حكمه محاولات مضنية لتقويض النفوذ البرتغالي، ومن المعتقد أن الأتراك قد استولوا على كامران بعد احتلالهم مصر مباشرة عام ١٥١٧م، كما احتلوا اليمن أيضًا.

وقد مرَّ أسطول أنطونيو بكوشين وعدن، غير أنَّه لم يجرأ على مهاجمة السفن التي كان قد استولى عليها مصطفى باشا، كما أنَّه لم يدخل مضيق باب المندب، وبعد أن قام بجولة قصيرة في خليج عدن اتجه الأسطول إلى مسقط، وهناك عهد بالسفن الكبيرة إلى الماجور داسيلفا، وانتقل هو إلى هرمز، حيث أمضى الشتاء هناك، وفي شهر أغسطس عاد أنطونيو دي ميراند إلى مسقط بعد أن أجرى بعض أعمال الصيانة لسفنه، ثم عاد وأبحر مرةً أخرى للقايم بجولة في بحر العرب بحثًا عن سفن العُمَانيين.

وفي شهر إبريل ١٥٢٨م أقلع دوم نونو داكنها نجل ترستان داكونها المشهور من لشبونة بأسطول إلى الهند بعد أن عينه الملك جون نائبًا له هناك. وبعد أن أمضى فترة من الوقت في إحدى مناطق الساحل الشرقي لأفريقيا قام خلالها بمحاولة فاشلة كلفته ثمنًا باهظًا للاستيلاء على ممباسا، ثم أبحر إلى قلهات ووصلها يوم ١٠ مايو ١٥٢٩م.

وفي يوم ١٩ مايو وصل هذا القائد إلى مسقط، ولدى وصوله البلاد حضر لزيارته رئيس وزراء البلاد الشيخ راشد، وكان حليفًا للبرتغاليين أثناء الثورة الأخيرة. وقد ترك داكونها معظم سفنه ورجاله هناك للعلاج والنقاهة بعد الأمراض التي أصيبوا بها في ممباسا؛ بسبب رداءة مناخها.

وكان الشيخ راشد مكروهًا من الرئيس شريف الذي كان يسعى منذ اندلاع الاضطرابات الأخيرة للانتقام منه واخضاعه لسلطته. وقد استدعاه إلى هرمز أكثر من مرة بحجة مناقشته في بعض الشؤون المتعلقة بكشوف الحسابات وأدعى بأنَّه لا يزال في ذمته للملك نحو ٢٠,٠٠٠ أشرفي لم يسددها لخزينة الدولة، غير أن الشيخ راشد كان يدرك الهدف من تلك المناورة، فرفض التوجه إلى هرمز.

وقد شرح راشد ملابسات تلك القضية للقائد البرتغالي، وأبدى استعداده للسفر إلى هرمز؛ لكن في حماية السلطات البرتغالية إذا وافقت على ذلك، وتقريرًا لمواقف الشيخ راشد من حكومة البرتغال فقد وافق القائد على اقتراحه.

اتسمت إقامة داكونها في هرمز بأحداث خطيرة أخطرها الحملة البرتغالية الفاشلة على البحرين، والتي كان لها انعكاسات سيئة على هيبة البرتغاليين ونفوذهم في المنطقة، كما قتل خلالها سيمون أخ داكونها.

وأثناء عودة داكونها من هرمز توقف في مسقط؛ لتفقد مرضاه وسفنه التي تركها هناك، ثم أبحر عائدًا إلى الهند.

في شهر فبراير ١٥٣٢م غادر مانويل دافاسكو نسلير جوا على رأس أسطول من عشرة سفن مختلفة الأنواع، وذلك للبحث عن سفن للأتراك والعرب والوقوف على تحركاتهم ورصد نشاطاتهم في البحر العربي. وعند اقتراب الأسطول من جزيرة سقطرى، حيث كان هذا القائد يتوقع وجود الكثير من المراكب التجارية للعرب، وبالفعل فقد استولى الأسطول على سفينة محلية كانت تحمل شحنة كبيرة من البضائع.

وأعقب تلك الحملة حملة أخرى بقيادة القبطان الماجور أنطونيو داسلدانا، غير أن سفر الأسطول تأجل في جوا لبعض الوقت. وقد زار هذا الأسطول منطقة الشحر وحضر سلطان البلاد إلى سفينة القيادة؛ لكي يعرض شكوى ضدَّ فاسكو نسليو الذي استولى اغتصابًا على بعض السفن التي كانت في ميناء الشحر، ثم بعد ذلك أبحر سلدانا إلى عدن، غير أن سوء الأحوال الجوية أرغمه على تغيير خط سيره وتوجه بدلًا منها إلى مسقط التي وصلها يوم ٦ مايو. وفي ميناء مسقط التقى سلدانا بمانويل فاسكو نسليو ومعه السفن التي اغتصبها إلى جانب سفن أخرى كانت وصلت من جوا بقيادة بعض الربابنة البرتغاليين الذين كانوا جميعهم يفتشون عن السفن التجارية العربية؛ لكي يستولوا عليها بالقوة، وكان الأسطول ينتظر تحسن الأحوال الجوية؛ لكي يبدأ نشاطه في البحث عن ضحاياه.

في العام التالي أي سنة ١٥٣٣م غادر ديجو دا سلفيرا في رحلته الثانية إلى رأس الغطروف، حيث كان ينوي اقتناص السفن التجارية العاملة بين سُطقرى والبحر الأحمر. وبعد أن انتهى من تلك الجولة أبحر شرقًا؛ لتمضية الشتاء في الخيلج، وأثناء سيره استولى على إحدى سفن الأتراك بالإضافة إلى سفن أخرى.

وعند وصوله إلى مسقط التقى بجون فرنا نديس، وكان الأخير قد استولى على إحدى السفن التي كانت تحمل ترخيصًا مزورًا، وقد تم بيع السفينة في مسقط بمبلغ ٦٠٠٠ كروز أدوس.

وقد ترك سلفيرا سفنه في مسقط وأبحر إلى هرمز لقضاء بعض الوقت هناك، ثم غادر مرة أخرى إلى خليج عدن واستولى على عدد من السفن وقام بحرقها وأخذ بعضها معه إلى مسقط لبيعها هناك.

وعلى امتداد فترة تصل إلى ٤٠ عامًا ظلَّ الأتراك، بما كان لديهم من قوة يبذلون ما في وسعهم لتقويض النشاط التجاري المتصاعد من الشرق، وذلك بحكم احتلالهم لليمن وسيطرتهم على المراكز الهامة الواقعة على الساحل العربي، غير أنَّهم على ما يبدو لم يمدوا بنشاطهم إلى منطقة الخليج قبل عام ١٥٤٦م عندما توغلت بعض سفنهم إلى الساحل الجنوبي من شبه الجزيرة حتى مسقط، كما قاموا بقصف ظَفَار بمدافعهم بالإضافة إلى قصفهم لمدينة مسقط نفسها، غير أنَّهم لم يقوموا بأي عمليات إنزال.

وفي عام ١٥٥٢م أي بعد ستة أعوام عاد الأتراك إلى الظهور على المسرح عندما وصلوا المنطقة بأسطول أقوى بقيادة بيري باشا، أميرال البحر في مصر، الذي كلف بقيادة الحملة الثانية إلى البحر العربي بعد حملته الناجحة على عدن. وكان الدافع وراء تلك الحملة هو الانتقام من البرتغاليين على المساعدة التي قدموها للثوار العرب في البصرة ضدَّ الحكم التركي هناك. وقد وصل الأسطول التركي إلى مسقط.

وقد أدى تدخل البرتغال لدى الباب العالي إلى إصدار تعليمات إلى داود باشا والي مصر بتجهيز أسطول وإرساله إلى البصرة مباشرة وبالاشتراك مع القوة التي كانت ترابط هناك يقوم بالتحرك إلى هرمز والاستيلاء عليها. وقد أمضى الأميرال المكلف بتلك الحملة شهورًا في الاستعداد وجمع السفن والرجال والعتاد اللازم، وبعد أن فرغ من ذلك غادر السويس في شهر يوليو (٩٦٠هـ/ ١٥٥٢م) وكان الأسطول يتكون من ثلاثين سفينة وستة عشر ألف رجل.

وفي تلك الأثناء تسربت أخبار تلك الخطة إلى البرتغاليين، فعمد قائد الحامية البرتغالية في هرمز، وهو ألفارو دا نورونها، بإيفاد بعض رجاله لجمع معلومات عن الحملة التركية المزمعة. وعند عودة الرسل أكدوا له النبأ، فأمر بمرابطة بعض السفن

البرتغالية بالقرب من رأس الحدِّ للقيام بمراقبة المنطقة، غير أن الأسطول التركي واجه عاصفة هوجاء بالقرب من رأس الحدِّ، فقد فيها عددًا من سفنه واضطر إلى الالتفاف حول رأس الحد والدخول إلى خليج عدن.

كان قائد الحامية البرتغالية في مسقط في ذلك الوقت دوجوا والستوا، وكان قد كلفه الملك ببناء قلعة لحماية المدينة وميناءها، ولم يكن البناء قد اكتمل حتى ذلك الوقت، وبالتالي فقد شخص القائد وأتباعه في تلك القلعة استعدادًا لأي هجوم قد يقوم به الأتراك، وفي الوقت نفسه أرسل أفراد أسرته إلى هرمز.

كانت خطة الجنرال التركي تقوم على اجتياح المدينة أوّلًا فنفذها، ثم استدار على القلعة، ولما تعذر اقتحامها فرض عليها الحصار، كما تمكن من قصف وتدمير بعض أجزائها. وقد ظلَّ البرتغاليون يدافعون بشجاعة ويصدون هجمات الأتراك لفترة امتدت ثمانية عشر يومًا، غير أن نفاد المؤن والماء اضطرهم إلى فتح حوار مع القائد التركي؛ لتسليم المدينة. وقد لعب أحد عملاء الأتراك ويدعى جوان واباري دورًا في حمل البرتغاليين على التفاوض. وقد تم الاتفاق على ضمان حياة وحرية أفراد الحامية شرط استسلامها فورًا. غير أن القائد التركي سرعان ما نقض تعهده، فبدلًا من إطلاق سراح أفراد الحامية أعدم بعضهم، ووضع الأغلال في أيدي البعض الآخر، وفيهم القائد البرتغالي نفسه، كما أمر بتدمير القلعة، ونقل الغنائم والأسلاب إلى الأسطول الذي غادر بعد ذلك متجهًا إلى هرمز، حيث قام بإنزال جنوده هناك بهدف نهب المدينة.

لقد هيأت الفترة الطويلة التي استغرقتها العمليات التركية في مسقط الفرصة لتجار هرمز لنقل أسرهم وممتلكاتهم إلى جزيرة قشم، غير أن بيري باشا الذي علم بالموضوع تحرك بأسطوله إلى تلك الجزيرة واستولى على كل ما أمكنه من أموال سكان الجزيرة وممتلكاتهم، كما أخذ بعض الأسرى.

في تلك الأثناء كانت التعزيزات البحرية التي جهزها البرتغاليون قد وصلت إلى الخليج وبادرت في تعقب الأسطول التركي حتى ميناء البصرة، غير أن بيري باشا الذي خشي على ضياع الغنائم منه فرَّ إلى مصر.

ويعتبر التدمير الذي أصاب مسقط من جانب الأتراك النجاح الوحيد الذي حققه الأتراك منذ حملتهم في البحر العربي، وكان من الممكن أن تشكل الحملة

خطرًا أكبر على حصون البرتغاليين لولا أن هدف القائد التركي كان مجرد جمع الغنائم. أما النصر العسكري فقد كان بعيدًا عن هدفه. وعلى أيّة حال فإن نتائج الحملة قد شجعت السلطان التركي سليمان الذي كان سيّد عصره في ذلك الوقت على استئناف محاولاته لإقصاء البرتغاليين عن منطقة الخليج؛ ولهذا فقد أصدر أوامره إلى مراد باشا الذي كان والي المنطقة ليتسلم قيادة ما تبقى من أسطول بيري باشا والتحرك إلى البحر الأحمر للاشتباك مع الأسطول البرتغالي الذي كان يبحر في تلك الفترة في المناطق القريبة من جدة.

غادر مراد باشا البصرة في أغسطس ١٥٥٣م بأسطول مكون من ٦٠ سفينة غرقت إحداها، غير أن تحركات مراد باشا لم تخف على القبطان الماجور ديجو نورونها الذي تحرك لاعتراض الأسطول التركي في المنطقة الواقعة بين هنجام ورأس مسندم، وبعد معركة يائسة كاد القائد البرتغالي أن يقضي على الأسطول التركي. وقد قتل في العمليات القبطانان التركيان مع عدد من البحارة، غير أن البقية الباقية من الأسطول التركي تمكنت من الإفلات والعودة إلى البصرة.

برهنت تلك المعركة للأتراك على تفوق الأسطول البرتغالي وعلى عدم التقليل من قدرته. ولو استطاع الأتراك التنبؤ بالنتائج المدبرة لمستقبل أمبراطوريتهم من واقع التغييرات التي قد طرأت على خطوط التجارة؛ بسبب الوجود البرتغالي لتمكنوا من غير شك من تعبئة قواتهم في المشرق ولتعاونوا مع الآسيويين لطرد منافسيهم التجاريين من الهند. وربما أن الأتراك كانوا في ذلك الوقت في أوج قوتهم، وكانوا أقوياء أيضًا في أوروبا، فقد كان في إمكانهم أن يصلوا ويجولوا بأسطولهم في بحر العرب بشكل أقوى مما كان، ثم أنَّهم بما كان لهم من حماس ديني في العالم الإسلامي، كان يمكنهم كسب التأييد لقضيتهم والتحالف مع كل من حاكم فارس وأمبراطور المغول في الهند. وبحكم تلك الاعتبارات كان يمكن للأتراك إبعاد الأوروبيين عن المحيط الهندي لسنوات طويلة. وبرغم ما كان يتمتع به سليمان الكبير من مواهب، إلا أنَّه قد أخفق في استيعاب الأهمية الحيوية لتعبئة قواته لبلوغ ذلك الهدف. وبدلًا من تدعيم أواصر الصداقة مع فارس كان في ذلك الوقت مشغولًا بالإعداد لحملة عسكرية ضدَّ تلك الدولة، والأدهى من ذلك أنَّه أمر بقتل الشخصية الوحيدة التي كانت تؤازره، وكان يمكن أن تتعاون معه ضدَّ خصومه، ونعني بها نجله الموهوب الأمير مصطفى.

لقد كانت تلك الفترة من أدقِّ وأخطر الفترات في تاريخ العالم، فقد كان ميزان القوة قد أخذ يميل لصالح الدولة المسيحية، وبوفاة سليمان الكبير سنة ١٥٦٦م خلفه على الحكم شاب ضعيف، وبذلك ضاعت من الأتراك وإلى الأبد فرصة تقويض النفوذ البرتغالي من الشرق.

لقد شكلت البقية الباقية من أسطول مراد باشا المنكوب النواة للأسطول التركي الجديد الذي عهد السلطان سليمان بتنظيمه وقيادته إلى قائد اختاره بنفسه لتلك المهمة، وهو الملاح المشهور سيدي علي بن حسين الذي سبق أن عمل تحت إمرة القائد البحري الشهير بربروسا أو خير الدين، الروديسي الأصل، وكان يشغل منصب قائد أسطول منطقة أسطنبول. وتقديرًا من السلطان لخدماته فقد نقله وعينه أميرًا للأسطول التركي في مصر. وهو مؤلف لدراسة علمية بعنوان (التخلص)، وإن كان قد كتبها باسم مستعار هو الكاتبي. عند وصول هذا القائد البحري إلى البصرة بدأ عمله على الفور وأخذ في جمع المواد اللازمة لإصلاح سفن الأسطول وتجديدها. وقد بعث والي البصرة التركي شريف مصطفى الذي أوفده الباب العالي إلى الخليج لجمع المعلومات بتقرير إلى سيدي علي ذكر فيه بأنَّ للأوروبيين أربع سفن فقط. ثم توجه بعد ذلك للالتحاق بالأسطول التركي الذي أقلع من البصرة في يوليو ١٥٥٤م.

من ناحية أخرى تم إبلاغ قائد حامية هرمز البرتغالي الكابتن الماجور دوم فرنانديز دي مينزنيس عن الاستعدادات التركية التي تجري في البصرة، وبتحركات الأميرال التركي. وبالتالي فقد قام القائد البرتغالي بتجميع عدد كبير من السفن المختلفة الأنواع لصدِّ الهجوم التركي المتوقع؛ ولكنه إمعانًا في التكتم على حجم القوة، فقد وزع أهم السفن في خليج مسقط وبذلك ضلل الأتراك الذين لم يجرأوا على التحرك أبعد من مضيق هرمز. وفي شهر يوليو بعث بثلاث سفن للقيام بدوريات في مياه الخليج، وأثناء وجود تلك السفن علم من بعض بحارة المراكب المحلية بأنَّ الأتراك قد تحركوا بالفعل، وقد تم إرسال عدد من الصيادين إلى المكان الذي كان يرابط فيه الأتراك لافتعال بيع أسماك لهم. وعن طريق تلك الخدعة أمكن جمع معلومات دقيقة عن تحركات الأسطول التركي.

بعد ذلك أقلع القبطان فرنانديز في نفس اليوم مع القبطان نورونها متوجهين

إلى مسقط بالسفن الصغيرة للالتحاق بالأسطول البرتغالي المجتمع هناك. وأثناء سير الأسطول علم القائد بأنَّ الأتراك قد تحركوا فعلًا في طريقهم إلى رأس مسندم، وإنَّهم يبحرون في طابور واحد، فأصدر أوامره بالاستعداد للمعركة والبدء بالقصف لمجرد ظهور الأسطول التركي.

وبعد مناوشات محدودة النطاق تفرق الأسطول البرتغالي وعاد إلى مسقط، ومما لا شكَّ فيه أن انسحاب الأسطول البرتغالي إلى مسقط كان نتيجة لفاعلية نيران القصف التركي. وكان تقرير الأتراك عن تلك العملية هو كما يلي حسب ما أورده ميشيل.

"عندما شاهد الأتراك أسطول البرتغاليين تأهبوا فورًا للقتال، وبعد أن رفعوا الأعلام هتفوا. الله أكبر، وشنُّوا الهجوم على خصومهم بعنف لا مثيل له، وبمشيئة الله أصابت إحدى قواتهم سفنًا برتغالية فتحطمت على الفور، بالقرب من جزيرة فك الأسد، وهكذا أبلى الأتراك بلاءً حسنًا في القتال إلى أن جنَّ الليل، وأضاء القبطان المصابيح، وعلى أيّة حال فإن المشركين قد أطلقوا رمية واحدة دليلًا على نيتهم التقهقر إلى هرمز. وهكذا تم النصر بعون الله للمسلمين، ثم غادروا المكان في ثاني يوم مستفيدين من مسار الريح وتوجهوا إلى خور فكان، حيث تزود الأسطول بالماء ثم بعد ١٧ يومًا وصلوا إلى منطقة قريبة من عدن".

أما البرتغاليون فلم يجرأوا على مهاجمة الأتراك إلا بعد أن اقتربوا من مسقط وأصبح القتال أمرًا لا مفرَّ منه.

في ذلك اليوم وقع حدثان بارزان في مسقط اعتبرهما البرتغاليون نذير شؤم، فقد ظهر في البحر حيوان مرعب على شكل حوت كبير لم ير النّاس له نظيرًا من قبل، وأخذ الحيوان الهائل يحوم حول سفن القيادة البرتغالية ويرهب البحارة، أما العرب فلم يكترثوا لذلك، بل اعتبروا ظهور الحيوان نقمة ينزلها الله عليهم واقتادوه إلى البرِّ على ساحل المكلا.

أما الحادث الثاني فهو ظهور نجم كبير مذنب ومتسع صادف أن سقط في مكان المعركة التي دارت بين الأتراك والبرتغاليين. ولا نستطيع أن نجزم ما إذا كان البرتغاليون قد اعتبروا ذلك حدثًا لصالحهم أو لغير صالحهم. وقد بعث البرتغاليون بعض أفرادهم لاستطلاع الأمر فعادوا بخبر يقول: بأنَّ الأتراك قد وصلوا إلى مقربة من جزر الديمانيات على بعد ١٢ فرسخًا من مسقط، وعلى الفور أمر القائد برفع

الأعلام والمراسي والتحرك لمواجهة العدو.

وفي نحو الساعة التاسعة صباحًا يوم ١٥ أغسطس تقابل الأسطولان وكانت سفن الأسطول التركي تسير بمحاذاة ساحل الباطنة. وكانت الأحوال الجوية غير ملائمة في غبة خالد. بينما إلتزم الأسطول البرتغالي طريقه داخل البحر لمحاصرة الساحل ومنع السفن التركية من الأقتراب وقد نشب قتال بين الجانبين، وفقد الأتراك بعض سفنهم التي احترقت، كما فقدوا بعضها بعد قتال جرى بالأيدي. وبما أن بعض سفن سيدي علي لم تشترك حتى ذلك الوقت في القتال، وكانت تراقب سير المعركة من بعيد فقد صمم القائد على فشل انتصار البرتغاليين عليه، وحاول التحرك شمالاً نحو الشاطئ الآخر، ولم يجرؤ على العودة إلى القسطنطينية خوفًا من أن يبتر السلطان عنقه، وقد ظلَّ القائد البرتغالي يقصف الأتراك أثناء تقهقرهم نحو الساحل. وكانت غنائم البرتغاليين ستة وأربعين مدفعًا إلى جانب بعض المدافع الصغيرة.

لقد كانت هزيمة الأتراك وفقدانهم لعدد كبير من سفنهم أمرًا لا شكَّ فيه، فقد كانت الكارثة بالنسبة إليهم مزدوجة فهم لم يمنوا بهزيمة ساحقة فحسب، وإنما أيضًا لم يتمكنوا من العودة إلى السويس؛ بسبب سوء الأحوال الجوية، وبالتالي فقد أرغموا إلى الاتجاه نحو المحيط الهندي، حيث اضطروا إلى التنازل عن جميع ما تبقى عندهم من العتاد الحربي والذخيرة والعبيد.

وقد دارت تلك المعركة الفاصلة في منطقة تقع بين الحيل على الساحل العُمَاني والفحل وهي جزيرة صخرية تبعد ٦أميال من مسقط، وقد أطلق عليها البرتغاليون فيما بعد (جزيرة القصر).

منذ تلك المعركة أخذت الأمور على ما يبدو تسير في هدوء في منطقة الخليج، فقد ظلَّ البرتغاليون سادة المنطقة، ثم أن الإبادة الشاملة للأسطول التركي قد ساهمت إلى حدٍّ كبير في تعزيز هيبة البرتغاليين ونفوذهم، كما كان له وقع عميق بين الفُرس والعرب، إذ لم نعد نسمع بعد ذلك ولفترة طويلة تمتد ثلاثين عامًا عن الأتراك أو عن أيّة أحداث مثيرة في المنطقة.

وفي عام ١٥٨٠م أو ١٥٨١م وصلت إلى الحامية البرتغالية في مسقط معلومات عن حملة عسكرية يجري إعدادها في عدن لشنِّ هجوم على مسقط واحتلالها، غير أن قائد حامية هرمز لم يؤكد تلك المعلومات، وبالتالي فقد أهمل إرسال تعزيزات

واكتفى بتحذير رجال الحامية في مسقط بإلتزام اليقظة والاستعداد لصدِّ أي هجوم عسكري.

ولما كان الحاكم البرتغالي في مسقط أكثر النّاس معرفة بموقف القبائل العُمَانية من البرتغاليين، فقد كان لديه من الأسباب ما يجعله يتصور بأنَّ خطة الغزو قد تمت بوحي من القبائل التي تقيم بالقرب من مسقط.

فقد قام بعض زعماء القبائل بالاتصال بالحاكم اليمني مرآة الزمان وكان من أصل إيطالي، وحرضوه على غزو مسقط بعد أن أكدوا له أن الحامية هناك لن تصمد لأي هجوم وأن احتمال الحصول على غنائم احتمال قوي. وقد اقتنع الحاكم اليمني برأي أولئك الزعماء، وخلال ذلك كان ناصر وأتباعه قد عرفوا بالخطة فبعثوا بأحد رجالهم إلى رأس الحدِّ لاستطلاع الأمر والحصول على ما أمكن من معلومات عن تحركات اليمنيين.

وقد ساعدت الأحوال الجوية الملائمة على تدفق سيل من المعلومات من عدن غير أن المبعوث لم يعد بشيء أكيد، وبالتالي فقد اطمأن البرتغاليون ولم يقوموا بأيّة استعدادات لمواجهة أي طارئ.

أما مرآة الزمان فقد عهد بقيادة الحملة إلى مغامر تركي يدعى مير علي بك، وفي شهر أغسطس غادر هذا التركي ميناء عدن على رأس أربع سفن ارتطمت إحداها في مكان ما من الساحل الغربي وغرقت. أما السفن الباقية فقد نجحت في تضليل مبعوث القائد البرتغالي والوصول إلى مسقط يوم ٢٢سبتمبر؛ ولكن علي بك لم يدخل ميناء مسقط وإنما رسا بسفنه في خليج سداب، حيث نزل هو ومائة وخمسون من أتباعه، وأرسل السفن إلى ميناء مسقط، وطلب من بحارتها ألا تظهر قبل الفجر وبمجرد ظهورها تبدأ في القصف على الفور على أن تتظاهر في الوقت نفسه بإنزال جنود إلى البر، بحيث توجه اهتمام رجال الحامية البرتغالية إلى ذلك المكان. أما علي بك فقد انتظر حلول الظلام وعندئذ تسلل هو وجماعته وتوجهوا إلى مسقط وفي مسقط وزع علي بك رجاله في ثلاثً مجموعات رابطت كل واحدة منها على إحدى البوابات الثلاث.

كان عدد البرتغاليين في مسقط في ذلك الوقت عدا أفراد الحامية لا يتجاوز خمسمائة فرد، منهم سبعون فقط قادرون على حمل السلاح، كما أن هؤلاء لم يتلقوا

تحذيرًا من السلطات البرتغالية عن احتمال هجوم على المدينة مما جعلهم يطمئنون، بل ويصرفون النظر عن إرسال أفراد عائلاتهم إلى مناطق أخرى، وفي هذه الأثناء هاجم الأتراك أحد التجار البرتغاليين وكان يحاول الهرب من البوابة ومعه أمواله فهاجموه وقتلوه واستولوا على ما معه، ثم بدأت السفن التي كانت تنتظر في الميناء في إطلاق نيرانها.

ويبدو أن الهدف الحقيقي من غزوه علي بك لم يكن هو طرد البرتغاليين بل كان هدفه هو السلب والنهب، وبالتالي فإنه لم يبق هناك مفر خصوصًا وأنَّه كان يعلم بأنَّ السلطات البرتغالية لا بُدَّ وأن تطلب نجدات من الهند أو جوا، وبالنسبة إليه فقد كان يكفيه يوم واحد لجمع الغنائم وشحنها على السفن، وبذلك أقلعت السفن التركية عائدة إلى عدن.

وبمجرد أن علم دوم كونساليز دامنزيس بالحادث الذي وقع للبرتغاليين في مسقط أوفد القائد لويز دي ألميدا على رأس أسطول من السفن لاعتراض سفن علي بك وتدميرها، ولو أن هذا الأسطول كان موجودًا في مسقط عند وصول مير علي بك؛ لربما نجح في القضاء على العصابة وإنقاذ الحامية، غير أن الأمر كان على عكس ذلك؛ لأن ألميدا قد أهمل الموضوع، وبعد أن قطع مسافة طويلة من الطريق صرف النظر عن تعقب علي بك وتوجه بالأسطول إلى مكران على ساحل بلوشستان، وذلك أيضًا لكي يقوم بعمليات السلب والنهب. أما علي بك التركي فقد حفزه النجاح الذي حققه في مسقط على مواصلة أعمال القرصنة ضدَّ المستعمرات البرتغالية، وبالأخص على الساحل الشرقي لأفريقيا، وأخيرًا بعد تسع سنوات وقع في الأسر أثناء غارة كان يقوم بها ضدَّ ممباسا، وقد اعتقله دوم دي سوزا، وأرسله إلى لشبونة، وهناك تحت تأثير الترهيب والترغيب أعتنق الدين المسيحي وأخيرًا توفي ربما من تأثير التعذيب الذي تعرض له هناك.

وفي عام ١٥٨٠م تقريبًا وقعت البرتغال تحت سيطرة إسبانيا إبّان حكم فيليب الثاني الذي استولى عليها بغير إراقة دماء، وعلى أيّة حال فقد أحرز البرتغاليون امتيازات أكثر مما كانوا يتوقعون بفضل عدم مقاومتهم للإسبان؛ ولذلك سمح لهم بالاحتفاظ بمصالحهم الاحتكارية لتجارة الهند وفارس.

إن انهيار نفوذ اللوتوانيين يبدأ اعتبارًا من ذلك التاريخ على حدِّ رأي المؤرخين

البرتغال الذين يعزون السبب إلى عدم إكتراث البلاط الإسباني خلال الستين عامًا التي خضعت فيها البرتغال للسيطرة الإسبانية، ومن المحتمل أن يكون البرتغاليون قد فقدوا مستعمرة هرمز وغيرها من موانئ الخليج خلال تلك الفترة، وتقلص نفوذهم، غير أنَّه كانت هناك مظاهر لسيطرة جديدة تتمثل في الصراع الذي أندلع بين الهولنديين والإنجليز، كما تضافرت عوامل أخرى للوصول بالبرتغال إلى تلك النهاية.

لقد كشفت عملية علي بك عن ضعف وسائل الدفاع البرتغالي على مسقط من البحر وأدركوا أنَّهم لا بُدَّ وأن يتعرضوا إلى مزيد من التهديدات إذا لم تتوفر وسائل أكبر وأكثر فعالية للدفاع عن البلاد. كما كان البرتغاليون يعرفون بأنَّ للأتراك أطماعًا في مسقط، وأنَّه لم يكن من المستبعد أن يقوموا بمحاولات للاستيلاء عليها. وقد انقضى وقت طويل حتى وصلت موافقة حكومة لشبونة على إنشاء سلسلة من القلاع الدفاعية، غير أن تنفيذ المشروع لم يتم قبل سنة ١٥٨٦م. وقد عهد بإنشاء أول قلعة برتغالية إلى ملشبور كلاكا الذي كان يعمل قبطانًا على إحدى السفن البرتغالية في مسقط. وقد أقيمت القلعة على أحد المرتفعات، وتتكون من برجين وما تزال هذه القلعة قائمة في مكانها، وإن كانتَ قد تهدمت بعض أسوارها بفعل طلقات المدافع، وقد انتهى العمل من بنائها سنة ١٥٨٧م، وسميت بسانت جوا ويسميها أهل البلاد بقلعة الجلالي، غير أن مشروع القلاع البرتغالية لم يبدأ إلا عند وصول نائب الملك الجديد دوم كوتنهو الذي غادر لشبونة في سنة ١٥٨٧م. وقد انتهى العمل من القلعة الأخرى الواقعة على الجانب الغربي في سنة ١٥٨٨م، وكانت تحت إشراف خليفة القائد البرتغالي دوم مارتن أفونسو دي ميلو بومبيورد الذي برز في معركة إخراج الأتراك من أفريقيا الشرقية، وتضم هذه القلعة كنيسة وبعض الكتابات الحفرية لا تزال واضحة حتى الآن على مدخل الكنيسة، وعليها التاريخ وغيره من التفاصيل. وقد سميت في ذلك الوقت بقلعة القبطان؛ ولكن العرب يسمونها قلعة الميراني أو كوت الميراني.

وفي أواخر عام ١٦١٥م أو مستهل سنة ١٦١٦م، قام حاكم صحار محمد بن مهنا بتحريض من سلطان بن حمير بهجوم على صحار التي كانت خاضعة للأمير عمير بن حمير الذي كان في ذلك الوقت موجودًا في بهلاء، وكان الهجوم مباغتًا

لأهل صحار، وبالتالي فقد نجح ولقى شقيق الأمير علي بن حمير مصرعه أثناء المعركة.

وقد أثار ذلك غضب الأمير الذي أقسم بالانتقام من محمد بن مهنا إلى الحدِّ الذي جعله يطلب مساعدة البرتغاليين. وتعهد لهم بالعمل على إعادة نفوذهم إلى صحار. ولقد كان الوعد مغريًا جدًّا، وبالتالي فقد رحب حاكم هرمز بالعرض طمعًا في استعادة النفوذ البرتغالي على صحار والقضاء على منافسة صحار لمسقط؛ ولهذا طلب من نائب الملك في الهند الموافقة على الطلب وإرسال قوة لتنفيذه. كان القائد المسؤول عن الأسطول في هرمز في ذلك الوقت هو دوم فاسكو، وفي شهر فبراير سنة ١٦١٦م انضم إليه أسطول بقيادة دوام فرانسيسكو روليم الذي حضر من جوا مع ست سفن محملة بالأسلحة والمؤن.

وقد اتخذ الأميرال من مسقط قاعدة لعملياته واستأجر سفنًا من بعض العرب، وطلب منهم التعاون مع البرتغاليين، ثم تحرك إلى السيب على رأس قوة من ١٢٠٠ رجل ترافقه قوة برتغالية صغيرة.

ومن ناحية أخرى كان محمد بن مهنا هو الآخَر يبحث عن قوى وحلفاء، وقد انضم إليه محمد بن جيفر الذي اختلف مع حاكم صحار، ثم تخلى عنه. وقد عززت تلك الأخبار من معنوية الأميرال الذي تحرك من السيب بعد استراحة ٧ أيّام إلى صحار عبر ساحل الباطنة، ووصلها في ١٩ من شهر ربيع الثاني.

وقد نشبت مناوشات غير حاسمة بين الجانبين؛ ولكن الأميرال استطاع احتلال ضواحي المدينة. وفي نفس الوقت كان البرتغاليون قد أنزلوا معداتهم الحربية إلى الشاطئ وبدأوا في قصف الحصن. وقد انتهت المعركة التي نشبت بين البرتغاليين والحامية بمصرع محمد بن مهنا، وانتقل زمام القيادة إلى سلطان بن حمير الذي تراجع إلى القلعة إلا أنَّ المدينة استسلمت في النهاية للبرتغاليين، وقتل سلطان بن حمير، كما ارتكب البرتغاليون مجزرة رهيبة ضد أتباع سلطان واحرقوا المدينة التي تحولت إلى كومه من الرماد، فكان ذلك انتهاكًا صارخًا لشروط الاستسلام. كذلك استباح البرتغاليون المدينة بعد نهبها واغتصبوا نساءها وأخذوهن جواري ورهائن لديهم. وبمقتضى الاتفاقية المبرمة مع الأمير احتفظ البرتغاليون بالقلعة التي بدأوا على الفور في ترميمها وعادت القوة البرتغالية إلى مسقط.

ومهما يكن فقد أصبح البرتغاليون الآن يواجهون خصمًا من نوع آخر يختلف عن

الآسيويين الضعاف التسليح. فلقد ظهر الإنجليز والهولنديون على المسرح؛ لينازعوا البرتغال السيادة على البحار، ولينافسوهم تجاريًا، ثم في النهاية كما أثبتت الأيّام، يقوموا بتمزيق أوصال أمبراطوريتهم في الشرق. وقد وقعت اشتباكات كثيرة ودامية بين هذه القوى الثلاث، غير أن القوة البرتغالية كانت قد بدأت بالفعل تتقلص، ولم تعد قادرة على التصدي للتنافس غير المتكافئ. لقد بدأت عمليات الملاحة الإنجليزية في الشرق في نهاية القرن السادس عشر تقريبًا، ولم يمض وقت طويل حتى استطاع الإنجليز منافسة البرتغاليين في الخليج في مجال التجارة مع فارس. وفي عام ١٦١٣م وصلت إلى جواذر السفينة أكسبيديشن حمولة ٢٦٠ طنًا، وكانت تقل السفير السيّد توماس شيرلي الذي كان قد أبدى رغبته في التوجه إلى العاصمة الفارسية أصفهان.

وفي تلك الأثناء ولحسن الحظ اكتشفت مؤامرة دبرها البلوش لاغتيال السفير الإنجليزي وطاقم السفينة كله؛ ولهذا قرر السفير التوجه إلى الهند. وفي الطريق التقت السفينة الإنجليزية بمركب شراعي حمولة ١٥ طنًا، وكان يحمل تصريحًا من حاكم مسقط. وقد رأى السير شيرلي في ذلك التصريح دليلًا على التبعية المطلقة التي يمارسها البرتغاليون على الخطوط الملاحية في البحر العربي حتى أنَّهم لا يسمحون لأيّة سفينة أن تمارس الملاحة بغير إذنٍ منهم.

وقع أول صدام بين الإنجليز والبرتغاليين في بحر عُمَان في عام ١٦٢٠م، ففي ذلك العام كانت أربع سفن إنجليزية، لندن (٨٠٠ طن)، وهارت (٥٠٠ طن) وروبيك (٣٠٠ طن) وإيجل (٢٨٠ طن)، قد أبحرت من ميناء تليري هوب متجهة إلى سورات في الهند، ثم بعد ذلك اتجهت سفينتان من تلك السفن إلى ميناء جاسك الواقع على الطرف الجنوبي الغربي لفارس في بحر عُمَان ويبعد نحو ١٥٠ ميلًا عن مسقط. وكان أول بريطاني يتبنى فكرة التبادل التجاري مع فارس هو المستر سيشل، وقد رشح جاسك كميناء مناسب للأغراض التجارية، وحصل على تصريح بذلك من شاه فارس. غير أن البرتغاليين لم يكونوا غافلين عن تسلل البريطانيين إلى مراكز احتكاراتهم؛ ولهذا فقد حاولوا إحباط وخنق التجارة البريطانية الناشئة. وكانت السفينتان الإنجليزيتان هارت وإيجل قد إلتقيتا عند وصولهما إلى جاسك. وكان الأسطول البرتغالي في بحر عُمَان في انتظارهم لشنِّ هجوم على السفن البريطانية، ولما كان الإنجليز مقتنعين أنَّهم لا يستطيعون الوقوف في وجه القوة البرتغالية، فقد قرروا

العودة إلى سورات؛ لجلب التعزيزات، وفي طريقهم التقوا بالسفنتين الإنجليزيتين الأخريين لندن وروبيك، وكانتا قادمتين للانضمام إليهما، وهكذا تحركت السفن الأربع نحو جاسك التي وصلتها يوم ١٥ديسمبر ١٦٢٠م بعد أن استولت في طريقها على سفينة برتغالية حمولة ٢٠٠ طن، وكانت متجهة من مسقط إلى شول بشحنة من الخيول. وكان يشترك مع الأسطول البرتغالي سفينتان هولنديتان؛ لأن الهولنديين كانوا هم أيضًا حريصين على منع البريطانيين من إنشاء علاقات تجارية مع منطقة الخليج.

وقد نشبت المعركة بين الأسطولين في صباح اليوم التالي في الساعة التاسعة واستمرت تسع ساعات بدون توقف، غير أن الأسطولين البرتغالي والهولندي اضطرا إلى الإنسحاب تحت ستار الظلام، وهكذا انتصر الإنجليز في تلك المعركة. ونظرًا لما كان للبرتغال من قواعد عسكرية حصينة في مسقط وفي هرمز ويمكن أن يستخدموها كمرافئ تلجأ إليها سفنهم، فقد كان يحقق أهداف القائد دوم فريردا أندارادا في مقاومة التغلغل البريطاني في الخليج، بينما لم يكن للإنجليز أي مأوى يحتمون به أقرب من سوارت.

وفي شهر ديسمبر انتهى الإنجليز من تفريغ بضائعهم في جاسك، وبعد أن قاموا باصلاح الأضرار التي أصيب بها أسطولهم؛ بسبب المعركة التي اشتبكوا فيها أخيرًا واضعين في اعتبارهم قوة خصمهم قرروا استئناف القتال مع البرتغاليين، واتخذت سفنهم مواقع قريبة من الأسطول البرتغالي، وبدأوا في إطلاق النار على الأسطول، ودارت معركة عنيفة بين الطرفين استمرت حتى الثالثة بعد الظهر، وبعد أن أيقن القائد البرتغالي بأن وضعه أصبح يائسًا أمر رجاله بقطع المراسي والإنسحاب، ونتيجة لتلك المعركة أصبح الإنجليز هم السادة في جاسك، غير أنَّهم خسروا قائدهم شيلي الذي أصيب بقذيفة أودت بحياته.

وفي ١٤نوفمبر من نفس العام خرجت حملة بريطانية أخرى من خمس سفن وأربعة مراكب مساعدة إلى الخليج بقيادة القبطان بلايث الذي تلقى تعليمات بالتعاون مع الفُرس واحتلال هرمز وطرد البرتغاليين منها وتجريدهم بالتالي من قاعدتهم الأساسية في المنطقة. وفي يوم ٢٣ديسمبر وصل الأسطول إلى منطقة تقع على بعد النظر من هرمز، ولما كان الفُرس غير مستعدين حتى تلك اللحظة

فقد قام الأسطول البريطاني بعمليات تهدف إلى عرقلة النشاط التجاري للبرتغال، والقيام بمناوشات ضدّهم. وفي يوم ٨فبراير بدأ الإنجليز حصارهم لهرمز باشتراك قوات فارس البرية وبعد مقاومة مستميتة استسلمت قلعة هرمز وميناؤها للإنجليز في صبيحة يوم ٢٣مايو ١٦٢٢م، وكانت تلك المعركة ضربة ساحقة للبرتغاليين وأدت إلى انهيار أمبراطوريتهم في الشرق.

من الواضح أن العرب الذين كانوا يكافحون ضدَّ البرتغاليين وضدَّ الفُرس معًا قد ساهموا في إنجاح الخطة التي وضعت للهجوم على جلفار (التي تعرف الآن برأس الخيمة)، والتي كانت المصدر الوحيد للحامية البرتغالية في هرمز، وكان طبيعيًّا أن يحدث هذا ويقوم العرب بدورهم في طرد الاستعماريين من بلادهم لولا أنَّهم كانوا يدركون أيضًا بأنَّ استبدال الحكم البرتغالي بالفارسي هو عمل أشبه بمن يسقط من المحمصة إلى النار، إذ سرعان ما اتضح أن الفُرس الذين اغتروا بالانتصار الذي تحقق لهم في هرمز قد بدوا يرنون بأنظارهم إلى مسقط وصحار. وربما كان من السهل أن يستولى الفُرس على صحار، غير أن احتلال مسقط كان لا بُدَّ له من مساعدة تقدمها دولة بحرية، وعلى هذا الأساس بدأوا يفاوضون القائد البريطاني غير أن القائد البريطاني وضع شروطًا عسيرة هي: أولًا تسليم حامية هرمز للإنجليز ودفع نصف دخل جماركها لهم، وعلى أن يحتفظ الإنجليز بأربع سفن هناك لحماية تجارة الخليج، إلا أنَّ الفُرس لم يقبلوا تلك الشروط فقد كانوا يخشون الإنجليز كما كانوا يخشون البرتغاليون، وكانوا يفضلون أن تبقى هرمز في أيديهم كمنطقة للفرار بدلًا من تسليمها للإنجليز، ونتيجة لذلك فشلت المفاوضات بين الفُرس والإنجليز.

وفي الشهور الأخيرة من عام ١٦٣٣م تحركت الحملة الفارسية إلى مسقط غير أنَّه لم تتوافر لنا معلومات عن تلك الحملة؛ ولكن من المؤكد أنَّها فشلت، وربما يعود ذلك إلى تدخل القائد البرتغالي، وكان القائد البرتغالي قد وقع أسيرًا لدى البريطانيين ونقلوه إلى الهند، غير أنَّه تمكن من الفرار والوصول إلى جوا عن طريق مسقط، وعند وصوله هناك كلفه نائب الملك البرتغالي بالتحرك إلى مسقط تصحبه ست سفن لفكِّ الحصار عن مسقط. وبعد أن تلقى روي فرير بعض الإمدادات من السفن التي أرسلت إليه من نائب الملك في شول وديو؛ لمواصلة الحرب ضدَّ الفُرس بدأ يشعر بأنَّ في مقدوره تغيير وجه الصورة وشنِّ هجمات في الخليج ضدَّ الإنجليز.

في البداية قرر القائد البرتغالي أن يستولى على صحار، وأبحر إليها بست عشر سفينة، وكان الفُرس قد عززوا وسائل الدفاع عن صحار، وأصبح في إمكان الحامية أن تظهر مقاومة عنيدة، وفي الهجوم الأول خسر روي واحدًا وعشرين رجلًا وأربعة ضباط، غير أن الحصار استمر حتى اضطر الفُرس إلى أن يستسلموا للبرتغاليين في نهاية الأمر، وبعد أن قام القائد البرتغالي بتعيين رجال الحامية انتقل إلى خور فكان التي كانت هي الأخرى في قبضة الفُرس، فاجتاحها البرتغاليون، وأجبروها على الاستسلام.

وقد شجع الانتصار فرير ورجاله، كما رفع من هيبة الأسطول البرتغالي. وبما أن روي كان مطمئنًا إلى وضعه لوجود قاعدة له في مسقط فقد كان مصممًا على تنفيذ هدف الحملة بأسرع ما يمكن، وهو احتلال هرمز، وما أن وصل الأسطول بالقرب منها حتى بدأ يضع الخطة لاحتلالها، ولما كان القيام بهجوم مباشر على الحامية غير ممكن من خلال الإمكانيات المحدودة للبرتغاليين فقد قرر فرض حصار شامل على الجزيرة وقطع خطوط الإمدادات عنها، وقد دام الحصار ستة أشهر غير أن فرير اضطر في النهاية إلى فكِّ الحصار بعد نفاد المؤن.

في شهر إبريل ١٦٢٤م خرجت من جوا أول وحدة من الأسطول البرتغالي الكبير للقيام بالاستيلاء على هرمز، وكان يقود الوحدة، وعدد سفنها عشرة، سانشو دي ثور، ثم انضمّت إليها بعد ذلك خمس سفن أخرى ثم بعض السفن الصغيرة التي وصلت من موزمبيق. وقبل وصول القطع البحرية كان القائد البرتغالي قد نفد صبره من وصول إمدادات إليه، فأوفد مشيل فريرا في يوم ٢٤ إبريل على رأس اثنتى عشر سفينة؛ لتنفيذ الحصار، أما هو فلم يتمكن من الإشراف على العمليات إلا بعد أربعة أشهر عندما توفرت لديه الإمكانات الكفيلة بتحقيق النتيجة المطلوبة.

وفي الشهر التالي نشبت معركة أعنف بين الأسطولين، إلا أنَّ البرتغاليين لم يتمكنوا من تحقيق أي مكسب.

كانت السفن التي وصلت من جوا بقيادة دا ثور هي القطع الأولى من الأسطول البرتغالي، وعلى أي حال فلقد أصبحت أعداد البرتغال في الخليج أكثر قوة، وتمكنوا من الاحتفاظ بتفوقهم؛ ولكن فشلت كلُّ محاولاتهم لاستعادة هرمز، وعلى الرغم من ضياع هرمز من البرتغال إلا أنَّهم استطاعوا الاحتفاظ بمسقط، وحاولوا قدر

المستطاع أن يفرضوا مصالحهم التجارية على المنطقة، وأن يطوروها لدرجة الازدهار، كذلك فإن موقع مسقط الفريد وما حبتها به الطبيعة من إمكانات دفاعية قد تضافرت لتجعل منها مركزًا اقتصاديًّا وتجاريًّا يفوق هرمز.

أما البريطانيون الذين كان نجمهم قد أخذ في الصعود في الخليج، فقد كانوا يركزون على منطقتي البصرة وجبرون، وعلى أيّة حال فنظرًا لتدفق المصالح التجارية من هرمز إلى مسقط أخذ تعداد الأخيرة يتزايد بسرعة.

وهكذا فبسقوط هرمز انفصمت تلك العلاقة القائمة بين تلك الجزيرة وبحر عُمَان، هذا على الرغم من أن محمد شاهٍ ابن أخ ملك هرمز قد أتى به البرتغاليون إلى مسقط؛ ليقنع سكانها بالاعتراف به ملكا عليهم.

ومن بين التحسينات التي أدخلها البرتغاليين أثناء احتلالهم لمسقط هي ترميم السور الممتد من بومة صالح إلى باب المثاعيب، وحفر الخندق وراء السور، وإنشاء دار جديدة للجمارك التي لا تزال بوابتها تحمل تاريخ ١٦٢٥م، ومهبط ساحلي، ومرفأ صغير تحت القلعة الغربية، كما أنشأوا أبراجًا في كل من كلبوه، وريام، وسداب؛ لتعزيز وسائل الدفاع عن المدينة، وكان الحاكم البرتغالي في ذلك الوقت مارتنيا فونسو دي ميللو الذي يقضي أكثر أوقاته في قصر الجزيرة وفي الصيف ينتقل إلى قلعة الميراني.

وقد تزامن استرجاع الفُرس لهرمز أثناء حكم عباس العظيم مع قيام العُمَانيين بانتزاع استقلالهم من البرتغاليين بعد قيام حكم عربي جديد في عُمَان، ففي بداية القرن السابع عشر كان وضع النبهانيين الذين استمر حكمهم خمسة قرون متتالية دقيقًا ويائسًا أدى إلى ضياع الحكم من أيديهم ووقوع البلاد كلها في غمرة من الفوضى نتيجة للحروب الأهلية، واحتدم الصراع بعنف بين القوى المتنافسة، وانتهى في عام ١٦٢٤م بانتخاب الإمام ناصر بن مرشد اليعربي، وقد أثبت هذا الحاكم العُمَاني أنَّه من أقوى وأكفأ الحكام على الإطلاق، وتمكن خلال وقت قصير من السيطرة على الأمور وتحقيق الاستقرار، ثم حول اهتمامه وإمكاناته لطرد المستعمرين الذين كانوا يسطيرون على المناطق الساحلية وخاض معهم حربًا طويلةً أدت إلى دحرهم.

وبعد مرور سبعة أعوام على تولي الإمام ناصر للسلطة في عُمَان (أي في ١٦٣١م)

حاول البرتغاليون بعد أن أخذت تجارة الخليج تتقلص تدريجيًا منهم أن يحققوا بالوسائل السلمية ما فشلوا في تحقيقه بطريق القوة، ومن ذلك محاولة الملك البرتغالي (دوم ماجول دا نرنوها) شراء هرمز من الفُرس أو استئجارها، وأوفد لذلك مبعوثًا خاصًا يدعى دمونيك فاتليز إلى مسقط، وكلفه بالتنسيق مع الأميرال روي فرير الذي كان لا تزال تلك المنطقة تحت قيادته، وبعد اجتماعه بالقائد توجها معًا إلى فارس، غير أن المحاولة لم تنجح بالرغم من العرض السخي الذي قدمه البرتغاليون للفُرس. ولما كان فرير مصممًا على تحقيق نتيجة ما فقد مضى بعد ذلك إلى جلفار. وقام ببناء قلعة هناك تجاور قلعة الفُرس. غير أن تلك القلعة لم تبق في أيديهم، ففي شهر يوليو ١٦٣٣م تمكن الإمام ناصر من طرد الفُرس والبرتغاليين واحتلال القلعة. ثم أصدر أوامر إلى الشيخ حافظ بن سيف لبناء قلعة في صحار لمواجهة القلعة الأخرى التي يسيطر عليها البرتغاليون، وقام بفرض حصار قوي على الأخيرة يعاونه في ذلك بعض قبائل بني خالد والعمور، غير أن قلعة البرتغاليين واصلت مقاومتها بعنف شديد لقوات الإمام مما اضطره إلى إيفاد القاضي خميس بن سعيد إلى الحاكم البرتغالي في مسقط؛ ليفاوضه للوصول إلى حلٍّ سلميٍّ، ولقد وافق الحاكم البرتغالي على ذلك واشترط أن يرفع العُمَانيون الحصار عن قلعة صحار، وعلى الرغم من هذا الفشل إلا أنَّ الإمام قدر القيام بهجوم آخَر ضدَّ المراكز البرتغالية في صور وقريات، ونجح في انتزاعهما من البرتغاليين رغم أن البرتغاليين عادوا فاستردوا البلدين بعد ذلك.

في ١٦٤٠م استردت البرتغال استقلالها من إسبانيا، كما أن النجاح الذي حققه البرتغاليون على العُمَانيين في مسقط في نفس العام قد ضاعف من ابتهاجهم ورفع معنوياتهم.

قبيل هذا الوقت طعن الإمام ناصر في السنّ، ولم يعد قادرًا على القيام بمسؤولياته، حيث لم نعد نسمع شيئًا عن الصراع الذي كان محتدمًا بين الإمام والأجانب؛ ولكن في عام ١٦٤٨م وقعت أحداث جديدة فقد زحف الإمام بجيش عُمَاني بقيادة مسعود بن رمضان وسعيد بن خليفة؛ لفرض حصار على مسقط وتحريرها، وقد بدأ هذا الجيش حصاره لمدينة مسقط يوم ١٦ أغسطس، واستمر حتى ١١ سبتمبر وخلال هذا الحصار، كما يذكر روس، نجح العُمَانيون في تدمير معاقل البرتغاليين وإرغام الحامية على طلب التسليم بالشروط التي حددها الإمام، والتي كان من أهمها دفع

٢٠٠ ألف بارودة لحكومة الإمام، وهدم السور الذي يحيط بمسقط، وإعفاء سكان المناطق الداخلية من دفع الرسوم الجمركية على وارداتها. ولما كانت الشروط قاسية على البرتغاليين فقد ترددوا في قبولها، واضطر الإمام إلى تشديد الحصار واحتلال القلاع، وهكذا اضطر البرتغاليون إلى الاستسلام في نهاية الأمر بعد نفاد الذخيرة. وفي ٣١أكتوبر ١٦٤٨م تم توقيع معاهدة السلم بين الإمام والحاكم البرتغالي دوم جوليو نورنها، ثم بعد ذلك انسحبت قوات الإمام إلى قواعدها في الداخل.

كان من بين الشروط الأولية التي تضمنتها معاهدة السلم هي البنود التالية:

(١) أن يتم تدمير قلعة قريات وصور.

(٢) أن يتم هدم القلاع التابعة للعرب والبرتغاليين.

(٣) أن يتم إخلاء مطرح من القوات واعتبارها منطقة محايدة.

(٤) ألا يدفع العرب رُسُومًا أو ضرائب، وأن تكون التجارة حرة.

(٥) لا يجوز للبرتغاليين إقامة أي تحصينات خارج حدود مدينة مسقط.

ويبدو لنا أن الحاكم البرتغالي في مسقط كان قد بعث بطلب عاجل إلى حكومة لشبونة لإرسال مساعدات عسكرية، وبالفعل قد وصلت بعض قطع الأسطول البرتغالي إلى المياه العُمَانية في منتصف نوفمبر ١٦٤٨م، وقد تم اعتقال كل من دوم جوليو وفيدور (مسؤول الخزانة) وأودعا السجن عقابًا لهما على نتائج المعركة.

وإزاء ذلك قررت حكومة لشبونة في التعليمات التي بعثت بها في شهر يناير ١٦٤٩م عن التطورات الأخيرة في عُمَان، الاحتفاظ بحامية مسقط بأي ثمن ومرابطة عدد أكبر من السفن في سواحلها، وبعدم السماح لسكانها العُمَانيين بالبقاء في المدينة، ووجوب تعزيز وسائل الدفاع عن قلعة خصب، وحتى إذا تصورنا أن تلك القرارات كان في الإمكان تنفيذها فمع ذلك فإنَّها لم تكن إجراءات كافية لاحتفاظ البرتغاليين بحاميتهم في مسقط لفترة طويلة. ولو أن الإمام ناصر بن مرشد بقى في الحكم فترة أطول فربما إلتزم الطرفان بنصوص المعاهدة، ولبقى الهدوء يسود مسقط، غير أن وفاة ذلك الإمام في إبريل ١٦٤٩م، وانتقال السلطة إلى حاكم جديد قد أدى إلى استئناف الصراع ضدَّ المستعمرين، وبالتالي فقبل أن ينتهي العام عادت مسقط فتعرضت لتهديد وحصار جديدين من القوات العُمَانية.

ويرى المؤرخون العرب بأنَّ الإمام سلطان بن سيف الذي جاء بعد الإمام ناصر ابن مرشد أعلن حربًا شاملةً ضدَّ السيطرة الأجنبية في مسقط وأنَّه هو الذي أشرف بنفسه على العمليات العسكرية ضدَّهم إلى أن حقق الله له النصر في فترة لا تزيد عن ستة أشهر.

حدث هذا في مستهل ١٦٥٠م بعد أن نجح العُمَانيون في الدخول إلى مدينة مسقط خلال هجوم شنُّوه في الليل واكتسحوا التحصينات والأسواق، وقد لجأ عدد كبير من السكان إلى المراكب الراسية في الميناء، كما استطاع ٧٠٠ مواطن برتغالي من الهرب إلى جوا، وقد قامت قوات الإمام بضرب حصار على مستودعات السلاح والذخيرة في الجزيرة وأرغموا الحاكم العام إلى الانسحاب من الثكنات وتركها للحراس ليدافعوا عنها.

وبالرغم من أن خطوط الدفاع هذه قد استطاعت أن تصمد للهجوم ثلاثة أيّام إلا أنَّ الأسطول البرتغالي المرابط في الميناء لم يستطع أن يفعل شيئًا؛ وذلك رغم أن القوات المهاجمة كانت قليلة العدد، وهكذا أرغم الحاكم العام على تسليم القلاع يوم ٢٣ يناير للقوات العُمَانية، وعلى أثر ذلك بعث القائد البرتغالي بطلب عاجل إلى نائب الملك يطلب نجدة سريعة للدفاع عن الوجود البرتغالي، غير أن الأسطول وصل متأخرًا بعد أن استولى العرب على المدينة، ومن المحتمل أن العُمَانيين قد تمكنوا من إبادة رجال الحامية، وإن كان المؤرخون البرتغاليون لم يؤكدوا ذلك.

في كتاب مذكرات (وزير في صنعاء) وردت العبارة التالية وهي جديرة بأن نشير إليها:

"في عام ١٠٥٢م بعد الهجرة توجه بعض التجار إلى الإحساء والبحرين والبصرة، ثم منها سافروا إلى بندر مسقط، وكانت في ذلك الوقت في أيدي الأفرنج، وقد تعرضوا لعمليات سلب ونهب من جانب الأفرنج، بحيث بدأ النّاس يخشون من المرور في تلك المنطقة، وأقفل الخليج في وجه الملاحة إلى أن احتلَّ العُمَانيون مسقط، وطردوا البرتغاليين منها، وبعد أن استولى المسلحون على مسقط استؤنفت الحركة التجارية، وأعطيت ضمانات للتجار ضدَّ الاعتداءات، وفي عام (١٠٥٤هـ/ ١٦٤٤م) سيطر العُمَانيون على ساحل بلادهم الذي كان قد احتلّه الأفرنج، وهم لم يكونوا يتوقعون أن ينجحوا في ذلك".

لقد وضع احتلال العُمَانيين لمسقط النهاية الحاسمة لدور البكويرك في الخليج، ولم يقم البرتغاليون بمحاولات جديدة لاستعادة نفوذهم، غير أن دوم فيليب قد سعى إلى تعويض تلك الخسارة بطريقة وأخرى، فقد حاول أن يستأجر ميناء هرمز أو أن يشتريه من الفُرس، كما ذكرنا آنفًا كما حاول الحصول على مساعدات عسكرية من الفُرس ضدَّ عرب المنطقة.

في عام ١٧١٨م لاحت للبرتغاليين بارقة أمل جديد في استرجاع نفوذهم في الخليج، وذلك عندما طلب الفُرس مساعدة عسكرية من البرتغاليين لاسترداد هرمز من الأتراك والبحرين من العرب. وبناء على ذلك أرسل البرتغاليون أسطولًا في شهر فبراير إلى ميناء كونج، وعند وصوله التقى بأسطول للعرب هناك ونشبت معركة استمرت من الصباح حتى المساء، واستخدم البرتغاليون فيها المدافع غير أن العرب تمكنوا من الإنسحاب مؤقتًا، وفي اليوم التالي استؤنفت المعركة وقاوم العرب بعنف كما انسحبوا مرة أخرى، وفي اليوم الثالث استأنف البرتغاليون قصف السفن العربية؛ ولكن العرب هربوا ولجأوا إلى خليج مالكولم، كما انسحب البرتغاليون إلى كونج، ومن خليج مالكولم توجه أسطول العرب إلى جلفار للتزود بالمؤن.

ويقال أن العرب خسروا خمسمائة رجلٍ بين قتيل وجريح، بينما قتل من البرتغاليين عشرة وجرح خمس وعشرون رجلًا، وفي يوم ٢٧ أقلع القائد البرتغالي إلى جلفار، ونشبت معركة بينه وبين أسطول العرب انتهت بهزيمة العرب.

وأعقب تلك الأحداث نشوب أعمال شغب في مسقط، ومن ناحية أخرى فإن وفاة الإمام وتولي ابن أخيه للسلطة أدى إلى مساعٍ جديدة لإجراء مفاوضات سلمية مع البرتغاليين، غير أن البرتغاليين لم يوافقوا على شروط العرب. ومن ناحية أخرى رفض شاه فارس طلب البرتغاليين بفرض حصار على مسقط، مما أضطر البرتغاليون إلى الانسحاب والعودة إلى جوا في نهاية العام.

ومع كل ذلك فقد واصل البرتغاليون إرسال الأساطيل إلى الخليج للاشتباك مع السفن العربية والعمل على تدمير التجارة العربية.

وعلى أيّة حال فقد تعلم العرب من تلك التجارب دروسًا كثيرةً، فقد سعوا إلى مضاعفة حجم سفنهم مما مكنهم من القيام بحملات بحرية ناجحة على سواحل الهند وخنق التجارة البرتغالية.

إن تلك الحرب الطويلة غير المجدية بين العرب والبرتغاليين جاءت نهايتها في عام ١٧٣٩م تقريبًا عندما طرد البرتغاليون من المحيط الشمالي للهند من جانب المهراتية الذين انتزعوا منهم بيسين والمناطق المجاورة لها.

* * *

# الفصل الرابع

# أسرة اليعاربة

منذ بداية القرن السابع عشر تصبح موضوعاتنا إلى حدٍّ ما أكثر غزارة ودقة، فلدينا الآن أكثر من عمل عربي يشير إلى تلك الفترة، ففي ذلك الوقت سقطت أسرة النباهنة التي حكمت عُمَان لمدة أربعة قرون ونصف القرن، وتحولت إلى دولة ضعيفة تبسط سلطانها على نصف المملكة فقط، ويرجع ذلك أحيانًا إلى طمعها واضطهاد الملوك أو الحكام، وإن كان وبدرجة أكبر يرجع إلى أسباب سياسية، فقد كان الملك مخزوم ابن فلاح بن المحسن هو الذي يمثل الأسرة في ذلك الوقت، وقد كان يقيم في ينقل، وكان شديد المعارضة لأخيه نبهان بن فلاح.

وبوفاة الملك مخزوم حوالي عام ١٦١٥م انتشرت الفوضى في أسرة النبهانيين، واستطاع عمير ابن عم نبهان بن فلاح أن يهاجمه وينتصر عليه في ينقل ١٦١٧م بمساندة سيف بن محمد الهنائي.

وفي الفوضى الناتجة عن ذلك الصراع تحول اتجاه المنتصرين عمير وسيف بن محمد لمدة سبع سنوات حتى وفاة عمير بن حمير، فسقطت البلاد مرة أخرى في الفوضى وخمدت شعلة النبهانيين. واشتدت حدّة المنافسة على القيادة بين القبائل المختلفة وخاصّة بين اليعاربة (وهم إحدى أقدم العشائر وأكثرها تأثيرًا في عُمَان).

كان شيخ الرستاق عام ١٦٢٤م، وهو مالك بن أبي العرار اليعربي واحدًا من الذين كانوا يحاولون الاستيلاء على السلطة؛ ولكنه كان يعارض ويقاوم بواسطة القاضي خميس بن سعيد الذي كان تحت قيادته، ثم عن طريق الدعوة لاجتماع الأعضاء البارزين تم انتخاب الشيخ ناصر بن مرشد اليعربي إمامًا، ولم يقلد هذا الانتخاب مراسم الإمامة لأسرة جديدة فحسب؛ ولكنه فتح عهدًا جديدًا في تاريخ عُمَان الذي تقدمت فيه البلاد إلى درجة كبيرة من الرفاهية، حيث كان يقود البلاد ناصر بن مرشد، ذلك الرجل الذي اتسم بذكاء غير عادي وقوّة نادرة، لدرجة أنَّه يمكن أن يوضع كواحد من أشهر أمراء عُمَان؛ ولكن قرار اجتماع الرستاق كان قرارًا محليًّا، ولم يجد قبولًا عامًا لذلك، فعندما انتشرت الأنباء عبر المدن المعارضة والقبائل المعارضة وجدناها تقف متحفظة تنتظر الأحداث، وبمساعدة قبيلة اليحمد واجه الإمام ناصر بن مرشد صعوبة إلى حدٍّ ما في أخذ حصن الرستاق من أبناء عمومته، الذين عادّوه؛ بسبب وفاة جدهم مالك بن أبي العرار، والتي حدثت عام ١٦٢٠م، وبالنظر حوله رأى الإمام وبسرعة أن مركزه أصبح متقلقلًا وأن عليه توقع

عداء أكثر، ومعارضة أكثر في تأكيد موقفه، وحتى بطريقة جزئية أمام وجهة النظر الآتية من الاتجاه المعارض من قبائل نزار، ويجب أن نذكر هنا شيئًا جديرًا بالاعتبار، وهو أن قوة قبائل نزار ازدادت بصورة كبيرة في ذلك العهد، وأصبحت مساوية في القوة لليمنيين.

بينما كانت تلك القبائل في عهد الخلفاء أقلية؛ ولكنها ومنذ تلك الفترة وبسبب الهجرة وأسباب أخرى أزدادت تدريجيًّا، واستطاعت أن تسيطر على مناطقها.

وفي عام ١٦٢٥م جمع الإمام قوته وسار باتجاه قلعة نخل، وهي التي أنشأها عمه الأكبر سلطان بن أبي العرار؛ ولكنه لم يكد يسيطر على تلك القلعة حتى أحاطته وحاصرته مجموعة من المعارضين والمنشقين عنه؛ ولكنه لم يبت بعد أن تمت نجدته عن طريق الإمدادات العسكرية من العودة إلى الرستاق، وتمكن بعد فترة من أن يجمع جيشًا من اليحمديين وبني رواحة وبعض القبائل الأخرى، يسانده القاضي خميس ابن سعيد، وتم التحرك إلى إزكي التي استسلمت له، ثم نزوى التي دخلها واستقر فيها بضعة أشهر. ثم استولى الإمام على مدن سمد الشأن، وإبراء، ثم استسلمت له كلّ الشرقية، ثم انشغل الإمام لبعض الوقت في بعض العمليات الصغيرة في أماكن مختلفة، حيث وجد نفسه مضطرًا لأن يقود حملة ضد قبائل نزار المعارضة والتي أقامت حصونها في الظاهرة، وكان القائد الرئيسي لنزار هو ناصر بن قطن من بني هلال الذين امتلكوا حصون جابي وضنك. وهاجمت قوات الإمام جابي أولًا؛ ولكن بعد مقاومة عنيفة قتل شقيق الإمام.

أما في ضنك فقد تمت هزيمة بني هلال للمرة الثانية. وهزم ناصر بن قطن الذي استسلمت قلعته، ورغم ذلك فقد عمل مع أخيه واليًّا.

واستولى الإمام على عبري أيضًا؛ ولكن مقنيات قد صمدت، ووقفت القبائل اليمنية المتحالفة مع الإمام وقفة صلبة، وبدت الحملة وكأنَّها وقد تم تأجيلها لعدة سنوات؛ لفرصة مناسبة في الظاهرة. ورغم أن بهلاء ومقنيات وبعض الحصون الأخرى قد تم الاستيلاء عليها، فإن الاستياء في إقليم الظاهرة لم يتم إخماده بالكامل أبدًا؛ ذلك لأنَّ النزاريين استمروا في دفع اتجاه العداء والاستقلال في مواجهة الإمام ناصر خلال حياته. ثم اعتزال الإمام في الرستاق، وتم إرسال قوة للبريمي ولوى، وتم الاستيلاء عليهما رغم مساعدات البرتغاليين لحامية لوى.

ثم قام الإمام بإعداد جيش كبير العدد، ووضعه تحت قيادة مسعود بن رمضان، وأرسله لمهاجمة (مقنيات)؛ وذلك لأنه كان مفتخرًا بنجاحه مع القبائل وواثقًا في مهارته العسكرية؛ ولكن الجيش بقيادة مسعود بن رمضان وصل إلى ضواحي المدينة، حيث لقي هزيمته على يد البرتغاليين، وبسرعة لجأ الإمام إلى إعداد خطة لقتل مانع بن سنان، حيث دعاه إلى لوى مع وعد بالأمان، ثم نقض هذا الوعد بقتله له.

وكانت جلفار هي النقطة التالية التي حول إليها ناصر بن مرشد اهتمامه، حيث كانت توجد هناك حاميتان، واحدة أقامها البرتغاليون الذين كان لديهم سفينتان راسيتان هناك، بينما أقيمت الأخرى بواسطة الفُرس تحت حكم ناصر الدين، وكان جيش الإمام تحت قيادة علي بن أحمد الذي نجح في الاستيلاء على الحصنين وطرد الفُرس، ثم عاد الجيش بعد ذلك منتصرًا إلى نزوى.

وشجع هذا النجاح الإمام لمحاولة فرض سلطته على صحار، وأمر حافظ بن سيف والي لوى بجمع قوة لذلك الغرض، ووصل صحار في المحرم (١٠٤٣هـ/ ١٦٣٣م)، وهاجم المدينة؛ ولكن سرعان ما هزمه البرتغاليون وطردوه.

وأوقف البرتغاليون كل الاتصال بمسقط من الداخل، وأجبر الإمام على عقد اتفاق السلام، الذي تم التفاوض عليه بواسطة القاضي العجوز خميس بن سعيد، وبعد فترة قصيرة قام الإمام بعمليات ضدَّ صور وقريات التي نجت من البرتغاليين الذين كانوا في ظروف يائسة جدًّا في ذلك الوقت.

وفي ذلك الوقت غزا بنو هلال تحت قيادة الشيخ ناصر بن قطن بعد أن اتحدوا مع قبائل نزار الأخرى في الجو والباطنة. وأرسل الإمام قواته للوقوف ضدَّهم، وتمت المهمة بنجاح إلى حدٍّ ما، حيث أن الغارات استمرت ونقل بنو هلال الأرقاء بالقوة، وتقدم الشيخ ناصر إلى ليوا، حيث حدثت المعركة بينه وبين قوات الإمام يقودها علي ابن أحمد الذي انتصر، وهرب الشيخ ناصر إلى الشمال يلاحقه العُمَانيون وتحول فجأة عن أعدائه، وقتل متعقبيه.

واستمر الشيخ ناصر بن قطن الهلالي في غاراته على عُمَان، وأصبح يمثل رعبًا لكل البلاد التي كان ينهبها وقتما أراد، وكانت الهجمات المضادة للإمام فاشلة. وفي الجنوب كان جيش الإمام قد تجزأ إلى قطع واستمر الشيخ خاضعًا مقهورًا، وكان على أقصى تقدير يشبع رغبته برفع تلك المعونة الكبيرة بواسطة الإمام. وبعد كل هذا فكل ما نسمعه عنه قليل.

وفي عام ١٦٤٨م استؤنفت الحرب بين الإمام والبرتغاليين، وقد نتج عنها في أكتوبر من تلك السنة معاهدة السلام التي لم تكن ملائمة للبرتغاليين.

توفي الإمام ناصر بن مرشد في الحادي عشرة من ربيع الآخر ١٠٥٩هـ (١٤ إبريل ١٦٤٩م) بعد فترة حكم قاربت على ستة وعشرين عامًا، وتم دفنه في نزوى.

وفي وقت متأخر من القرن السادس عشر قبل أن يقوم الإنجليز بمحاولاتهم لمنافسة البرتغاليين واكتشاف إمكانيات التجارة الهندية، وكذلك البحث في إمكانيات تلك المشروعات، وكان الفضل الأول في ذلك يعود إلى اثنين من المديرين الأذكياء من الشركة التركية التي أقيمت عام ١٥٨١م. وكان الاثنان هما السادة سيمث وستابر اللذين اختارا أربعة أشخاص لتشكيل بعثة للذهاب للشرق لجمع المعلومات عن المشروع واحتمال الاشتراك في التجارة الفينيسية، وتكونت المجموعة سنة ١٥٨٣م من السادة نيومري وفتش (تجار)، والسيد ستوري (نقاش)، والسيد ليدز مجوهراتي، وفي عام ١٥٨٣م أبحروا إلى طرابلس في سوريا، ومن هناك سافروا إلى بغداد والبصرة، ثم أبحروا إلى هرمز وجاوا. وقد ظل نيوبري وليدز في الهند وتوفيا هناك؛ ولكن السيّد فتش عاد وقد جمع كمية كبيرة من المعلومات عن كل الأماكن والبلاد التي مرَّ بها، وعاد إلى إنجلترا من نفس الطريق عام ١٥٩٠م.

واندلعت الحرب بين إسبانيا وإنجلترا، وأصدر فيليب الثاني مرسومًا يحظر فيه على الإنجليز - وكما فعل قبلًا في حالة هولندا - من الحضور إلى لشبونة للتجارة، واعتقد فيليب بذلك أنَّه يضرب هولاندا وإنجلترا ضربة قوية؛ ولكنه كان مخطئًا، وكانت نتيجة هذه السياسة عكس ما توقع، فقد حولت تجارتهم إلى قناة أخرى، ودفعتهم إلى المغامرة عن طريق الهند، وحققوا نجاحًا هامًا في ذلك لدرجة أنَّه في سنوات قليلة حلوا محلَّ البرتغاليين في تجارتهم الشرقية.

وفي عام ١٦١٠م حققت شركة الهند الشرقية التي حصلت على امتيازها في ديسمبر عام ١٦٠٠م أهدافها في دعم تجارتها في الفلفل بتنظيم أشرف عليه السير هنري ميدلتون، وكانت زيادة التجارة ألف طن في حمولة السفينة - أكبر سفينة بنيت في إنجلترا حتى تلك الفترة.

وأبحر سير هنري أوّلًا إلى موشا، حيث عاملوه بقسوة؛ ولكنه انتقم بشنِّ حملات قرصنة على المراكب العربية، وفي العام التالي تم تدعيمه من جانب الكابتن ساريز بثلاثة سفن وقايضوا بضائعهم مع التجار العرب، ثم أبحرا إلى بانتام.

وفي عام ١٦١٣م اقترح مستر سشيل - الذي كان قد غادر إنجلترا بحثًا عن ديون السكك الحديدية، ووصل إلى الهند مستخدمًا كل الفرص؛ لكي يتحقق بالتجربة من ظروف التجارة، حيث اعتقد أن مثل هذه التجارة يمكنها أن تؤدي إلى عمل مربح، وأرسل بذلك تقريرًا عام ١٦١٤م مع السير كروثر من سورات Surat، وبعد فحصه لمسقط أرسل تقريرًا من بوشير مع السير كونج، ونجحت المحاولة أولًا؛ ولكن باستثناءات قليلة، وتم إرسال السير بركر والسير كورماك إلى بوغستان، حيث استقبلهم الحاكم بترحيب وأعطاهم فرمانًا للتجارة.

ولأسباب معينة عارض السير توماس رو بقوة التجارة مع فارس، وحذر الشركة لكي تتخلى عنها؛ ولكنه بعد ذلك قدم المساعدة للمشروع، وكان السير توماس شيرلي الذي كان المندوب السامي لمدة سنوات يعارض التوسع التجاري للإنجليز، ويساند المصالح الإسبانية البرتغالية؛ ولكن ومن جهة أخرى أشار مستر كورماك إلى الخطر الذي يمكن أن ينتج عن السماح لإسبانيا البرتغالية باحتكار التجارة الفارسية.

وفي يونيو عام ١٦١٧م وصل سفير إسبانيا البرتغالية إلى أصفهان، ووقتئذ طلب الممثل الإنجليزي في فارس إلى الممثل في سورات أن يرسل على عجل كلٍ بواخر الشركة إلى جاسك للدفاع عنها؛ لأن الأسطول البرتغالي كان قد تجمع في مسقط؛ لكي يعوق مرور الإنجليز في الخليج.

وكان لخطاب سير توماس رو تأثير طيب على الشاه، وكان من نتيجته صدور ثلاثة فرمانات، ثم أتبعها بمعاهدة هامة عام ١٦١٨م، ثم أرسل خطابًا آخَر للتصديق على المعاهدة. وفي مارس ١٦٢٠م أرسل الملك جيمس خطابًا إلى الشاه يشكره على حسن صنيعه واستمرار حمايته للإنجليز.

وعندما أخذ البرتغاليون تجارة الشرق من أيدي الفينيسيين، وجعلوا من لشبونة السوق التجاري الجديد لأوروبا بدأت خطوط التجارة القديمة في تلك القارة تتضاءل، وسقطت أماكن المستودعات القديمة، كما قام كل التجار في البلاد الأوروبية بعمل الترتيبات الجديدة لبيع بضائعهم بعد أن كانت بروج أو جسبرج هما أسواق فينسيا، وقد انتهى عهدها. وفي عام ١٥١٥م اختار الإنجليز أنتورب لمناسبتها للسوق الشمالية في مكان بروج، وحالما توسعت وأصبحت مدينة عظيمة، وفي عام ١٥٨٥م أصاب الخراب أنتورب؛ بسبب بارما وألفا وفقدت مكانتها التجارية التي كانت قد وصلت إلى مستوى عظيم.

في ذلك الوقت قرر الهولنديون الذهاب بالمنتجات الشرقية إلى الشرق ذاته، وقرروا في ذلك الوقت عدم الاستعانة بالوسطاء، وحصلوا بالتالي على أرباحهم التجارية بالكامل، وتنبهوا إلى تلك المشروعات والمغامرات الجديدة في سياسة فيليب غير المسؤولة. وكان فيليب قد حرمهم من الذهاب إلى لشبونة مشجعًا تلك الاقتراحات والاستعلامات التي انتقلت عن طريق أحد رجال الأرياف - لنشوتن - الذي عاد من الهند بعد خدمة طويلة مع البرتغاليين، ونشر ما خلاصته: أن البرلمان الهولندي أعطى الحق لإحدى الشركات التي كانت قد أعدت أسطولًا بقيادة مولسار، وكان ذلك الأسطول يتكون من أربعة بواخر أبحرت من أمستردام سنة ١٥٩٥م تحت رعاية (شركة البلاد النائية) وحققت تلك المجهودات لأول مرة نجاحًا سارًا. وبدأ التحريض على الحرب ضد البرتغال والعمل على زيادة ثراء بلادهم، كما ازدادت أهمية بحريتهم، وكذلك نجحوا في إضعاف قوة البرتغال والاستيلاء على بعض مصانعها وضمّها إليهم. وأصبح الهدف الرئيسي لتلك الدول هو الاحتكار الحقيقي لجزر الطيب، وفي سبيل تحقيق ما أرادوا لم يعبأوا بشيء على الإطلاق.

وهنا وجد الإنجليز أن الهولنديين في الشرق أصبحوا يعملون ضدَّهم كما كان البرتغال قبلًا. فقد أصبح للهولنديين بلدهم الخاص المستقل عن الإنجليز، كما أنَّهم لم يترددوا في التضحية من أجل ما اكتسبوا، وأن يغتبصوا تجارة الطيب حتى بأسوأ الوسائل دون أي اعتبار لمقاييس الخداع والاحتيال والهدم للتجارة الإنجليزية. وحيث أن البلاد كانت في حالة سلم فقد تمت مناقشة الخلافات والمنازعات داخليًا، وتم تعيين الوسطاء بسؤالهم بشأنها. وكان الهولنديون يعانون قلقًا شديدًا حول دمج الشركات الإنجليزية والهولندية، والتي عن طريقها سيحطمون سريعًا التجارة الإنجليزية ويأخذونها في أيديهم، وقد كان ذلك مفهومًا في إنجلترا؛ ولذلك فشلت الخطة، ولذلك أرسل الهولنديون إلى وكلائهم أوامر تقضي بمضايقة وإرهاق وإزعاج الإنجليز في الهند، وبخاصة فيما يتعلق باحتكار تجارة الطيب معًا.

وفي يوليو عام ١٦١٩م تم عقد معاهدة جوفاء بين الشركتين والتي وافقتا بمقتضاها أن تساعد كل منهما الأخرى، وأن تقوم كل منهما بتجهيز عشرة سفن حربية في الشرق لحماية التجارة.

وفي العام التالي أصبح سلوك الهولنديين غير محتمل حتى أن الشركة الإنجليزية

أعدت ست سفن حربية لحماية تجارتها ضدَّ الهولنديين، وكان هذا الأسطول الحربي تحت قيادة سير توماس ديل والكابتن باركر كمساعد للقائد. وسرعان ما حطم الهولنديون معاهدة ١٦١٩م التي لم يتوقف انتهاكهم لها يومًا واحدًا. وفي عام ١٦٢٠م طرد الإنجليز أيانتور، وفي عام ١٦٢٢م جهز الهولنديون المذبحة الشهيرة للإنجليز في أمبونيا.

كانت المواجهة الأولى بين الإنجليز والبرتغاليين عام ١٦٢٠م في الخليج وفي عام ١٦٢١م كانت مهمة الوكالات الإنجليزية بالهند تعزيز التجارة مع بلاد فارس التي كانت ذات أهمية كبرى، غير أنَّه في أعقاب تلك المعركة أبحر الإنجليز نحو ساحل عُمَان، وظلوا في صور، حيث انضمّت إليهم سفينتان، ثم بعد ذلك اتجهوا إلى سورات.

وفي ١٤نوفمبر ١٦٢١م أصبح الأسطول التجاري تحت إشراف السير توماس دال ومعه بعض السفن الحربية، ويتكون الأسطول من خمس بواخر وأربعة قوارب، كانوا قد تركوا سورات إلى الخليج العربي، ثم نقل الإنجليز مركزهم من جاسك إلى مدينة جمبرون أو بندر عباس، وهناك شيدوا مبنى قويًا، ثم حاول الإنجليز إقامة حصن في هرمز عام ١٦٢٦م؛ لكن الشاه منعهم بسبب غيرته، ولم يكف الفارسيون عن محاولة تواجدهم في مسقط. وبدأ الخان أو حاكم شيراز استعداده للاستيلاء على مسقط ١٦٣٢م، وهنا بدأ الإنجليز يحاولون إرضاء الخان، وحاولوا منع الهولنديين من فرصة مساعدة الخان.

وفي إنجلترا في ذلك الوقت أهتم أفراد الشركة التجارية بالرحلات الخاصّة إلى بلاد فارس، وفي عام ١٦٣٩م أرسلوا ثورستون وبيرسي في مهمة لإعادة فتح التجارة في الخليج في البصرة، وهي المدينة التي لم تكن خارج أراضي الشاه فحسب؛ ولكنها كانت من أكبر المدن، وكان تأثير الأوروبيين قويًا عليها، ووصلوا كونج في إبريل، والبصرة في ٣١مايو عام ١٦٤٠م، وحصلوا على فرمان من الباشا يعطيهم امتيازًا لم يقدم من قبلهم لأي دولة أخرى، وكانت عينات الحمولة التجارية التي أخذوها معهم قليلة، حيث كان الأسطول البرتغالي في مسقط قد أغرق الأسواق ببضائع مشابهة، واقترح مستر ثورستون إقامة مركز لهم في البصرة، ومن المحتمل أنَّه قد فعل هذا.

وباستيلاء الهولنديين على ملاكه (Malacca) من البرتغاليين أصبحت لهم السيادة على مجموعة الجزر الهندية، وبامتلاكهم ساحلًا تجاريًا في الشرق بالإضافة إلى تجارتهم الكبيرة مع أوروبا، ازدادت أرباحهم بصورة عظيمة من نقل البضائع، وخاصّة التوابل من ميناء إلى آخر، واحتكروا نقل التوابل من الجزيرة العربية إلى الصين، وكانت هذه التجارة الساحلية على نفس درجة ربحهم من تجارتهم مع أوروبا.

واعترفت معاهدة مونستر التي وقعها الإسبان عام ١٦٤٨م باستقلال هولندا ووافق الإسبان - للظروف المخزية - على أن يكفوا عن الدوران حول رأس الرجاء الصالح، وإنَّهم سيستخدمون كيب هورن في إبحارهم إلى الشرق.

ونعود إلى شؤون مسقط فنجد نشاط الإمام ناصر في الحكم ومحاولاته لإصلاح الأمور وزيادة قوة عُمان.

تلك هي أسرة اليعاربة التي قبلت ودون تردد أيّة مواجهة لدعم مركزها في البلاد. وبعد وفاة الإمام ناصر دون أن يترك أبناء اجتمع القضاة وأكابر البلاد ووجهاؤها في الرستاق، واختاروا ابن عمه سلطان بن سيف خليفة له وإمامًا، ولم يحدث أي عداء، وقبلت القبائل الكبرى والحكام القائد الجديد دون اعتراض.

وأظهرت معاهدة عام ١٦٤٨م بين الإمام ناصر والبرتغاليين أن السيطرة البرتغالية لمسقط قد أوشكت على النهاية، وأنَّه من الضروري بذل جهد موحد وقوي لتأكيد الانفجار النهائي، وأدرك الإمام سلطان بن سيف في الحال ضرورة وأهمية امتلاك قوة بحرية مساوية لقوة العدو قبل مهاجمة البرتغاليين، وهكذا ازداد عدد الجنود، وكذلك السفن الحربية للدفاع عن الشاطئ وحماية التجارة، وما أن أوشكت سنة ١٦٤٩م على الانتهاء حتى كان الإمام سلطان قد أخذ على عاتقه قيادة آخِر حملة تم تخطيطها ضدَّ المستبدين الذين استولوا على الميناء الرئيسي، وقلعة عُمَان في تحد للعرب لمدة مائة وأربعين عامًا.

وعندما دعا الإمام قومه للسلاح تجمعت القبائل خارج مطرح، وهي على أهبة الاستعداد والتجهيز، وتم الهجوم على مسقط والاستيلاء على إحدى الحاميات، وفي ٢٨ يناير استسلم القائد، وحينئذ كلف الإمام ابنه بلعرب حاكم مسقط بإعادة بناء الجزء المتهدم من سور المدينة، وشجَّع ذلك الانتصار الإمام على مهاجمة الأعداء

في بلادهم في نفس العام الذي سقطت فيه مسقط وتقدم الإمام سلطان بن سيف إلى جمبرون.

وعندما بدأت أحوال البلاد تسوء أرسل حملة بحرية ضدَّ البرتغال، وقد استمر نمو قوة الإمام سلطان بن سيف لفترة من الوقت إلا أنَّ البرتغال سرعان ما استردوا قوتهم بعد أن تحسن وضعهم إلى درجة كبيرة في سنة ١٦٥٠م، كان الصراع بين الدول صراعًا يدور بين ما هو مباشر وبين ما هو غير مباشر، ففي عهد الإمام سلطان ابن سيف كان هناك نوع خفيف من التعاون، وبعد وفاته - التي اختلف البعض في تاريخ حدوثها، ففي مذكرات السير إدوارد روس يقول أنه توفي في ١٦ ذي القعدة سنة ١٠٩٠هـ (٤أكتوبر سنة ١٦٧٩م) بينما يقول جو بلان أنَّه توفي سنة ١٦٦٨م أو ١٦٦٩م في حين يقول بادجر أنَّه توفي عام ١٦٦٨م.

وفي ١١ نوفمبر بالتحديد. وقد اختير بلعرب إمامًا دون معارضة بعد وفاة والده وبعد مرور عامين من توليه أرسل حملة ضدَّ البرتغال في ديو، حيث ذكر إلكسندر هاملتون في كتاباته: (حوالي عام ١٦٧٠م جاء عرب مسقط في أسطول تجاري، ونزلوا بالليل في غرب الجزيرة دون أن يكشفهم أحد. وعند طلوع النهار فتحت بوابات المدينة ودخلوا إليها دون مقاومة).

وعندما بدأ إنذار النّاس بما حدث لم ينج أحد في المدينة سوى من دخلوا بوابة القلعة، ومن المحتمل حدوث ذلك تحت قيادة شقيق الإمام سيف بن سلطان، وربما كان عرب مسقط في نفس الوقت يخوضون قتالًا آخَر ضدَّ الفُرس في هرمز لمدة ثلاثة شهور دون أن يتمكنوا من الاستيلاء عليها، وطبقًا للعادة السنوية أرسل نائب الملك في جوا أسطولًا قويًا كي يكتسح المحيط الهندي مؤكدًا سيطرته وتفوقه البحري، وزار هذا الأسطول مسقط عام ١٦٧٣م؛ ولكن قائده لم يعجبه منظر المدفعية القوية للحصون وخوفًا من أن يشترك في مبارزة معها ذهب عن طريق خليج سداب الصغير وضرب أسوار مسقط قبل أن ينسحب، وعند انسحابه أعدَّ الإمام عشرة مراكب تجارية بتجهيزات حربية، وفي ديسمبر التالي هاجم أسطول الجيش البرتغالي قرب ديو، وكان محملًا بالعديد من الأشياء المنهوبة والمختطفة التي أخذها العرب وحطموا الجزء الأكبر منها.

في ذلك الوقت كان يبدو أن هناك هدوءًا مؤقتًا في حملات الإمام، ومن المحتمل

أن سبب هذا الهدوء هو الاضطراب الذي سببته الحرب الأهلية التي قامت بين أشقاء بلعرب وسيف، الذي تميز بحدة طباعه، وكان السبب الرئيسي في الاختلاف هو الغيرة، وانقسمت الدولة إلى معسكرين، وبدأ كل من المعسكرين ينعت الآخَر بأحقر الألقاب؛ ولكن سيف كان أكثر إيجابية، وكان ينظر إليه على أنَّه الأفضل والأكفأ للحكم، وسرعان ما حصل على التأييد القبلي من القبائل. وأنهى الإمام بلعرب حياته بنفسه عام ١٦٧٩م وإن لم يكن هذا التاريخ مؤكدًا.

وفي فبراير ١٦٧٤م أبحر أسطول الإمام إلى بيسين في البرتغال، وأنزل إليها ستمائة رجل من الأقوياء؛ ولكنهم لم يستطيعوا القيام بهجوم ضدَّها.

وأعقب وفاة بلعرب انتخاب سيف بن سلطان للإمامة وقد ارتضته القبائل كلها بلا تردد. وكانت شعبية سيف في ذلك الوقت كبيرة، حيث اكتسب الاحترام، ونال إعجاب العرب لشخصيته القوية المغامرة وصفاته كقائد، وهي التي توافقت مع روح المغامرة المنتشرة بين العُمَانيين عن طريق الأمراء اليعاربة أنفسهم. وفي عهد الإمام الجديد تركز الاهتمام على بناء الأسطول وتطويره من حيث القوة والعدد حتى وصل إلى درجة من القوة لم يصل إليها العُمَانيون من قبل.

وهناك الكثير في أوراق هاملتون وأوفينجتون عن عرب مسقط في تلك الفترة.

وفي ذلك الوقت وقف التجار الإنجليز ضدَّ الإمام سيف، وحدثت بعض اعتداءات في بداية عام ١٦٨٣م على إحدى بواخر الشركة، مما اضطر الشركة إلى إرسالها إلى جوا لإصلاحها.

وقد عرفنا أن العرب بصفة عامة كانوا ممتازين، غير أنَّهم وضعوا في موقف لا يحسدون عليه عام ١٦٩٣م في سورات، حيث حدث اضطراب وتفرق لأسطولهم، وكان البرتغاليون يحاولون البحث عن وسيلة لتطوير تجارتهم والانتقام من العرب.

ولربما كان الإمام وقتها مشغولاً بالشؤون الداخلية للبلاد غير أنَّه كان مهتمًا أيضًا ببناء السفن وتقويتها، ففي عام ١٦٩٤م جدد الإمام أسطوله وأصبح قويًا وأرسله في عدة حملات ضدَّ البرتغال في الهند، وبلاد فارس وأفريقيا وإحدى حملات الأسطول على ذامون التي أتوا فيها على ما فيها وأخذوا معهم حوالي ١٤٠٠ من الأسرى كعبيد، ثم عادوا إلى مسقط. وحاول الفُرس إرسال حملة إلى مسقط بمعاونة الإنجليز؛ ولكن الإنجليز رفضوا، حيث أنَّهم كانوا يعلمون أنَّهم سوف يغضبون

الهولنديين لو فعلوا ذلك. فقد كانوا يريدون احتكار تجارة جمبرون؛ ولكن عمليات الإمام سيف البحرية كانت تعوق التجارة إذ أن السواحل كانت عرضة لهجمات العرب.

وقد حذر الإمام أي بلد أوروبي يساعد الفُرس ضدَّه، وفي عام ١٦٩٥م أرسلت مسقط حملة إلى بارسالور وبنجلور وأماكن أخرى، وعاد الأسطول بغنائم كثيرة متعددة.

وعلم الإمام فيما بعد من الكابتن دا سيلفا أن البرتغاليين سيقومون مع الفُرس بعملية حربية ضدَّ مسقط، وفي إبريل ١٦٩٧م استولوا على باخرة إنجليزية، تسمّى لندن، تابعة لمستر أفلك من بومباي، واحتجزوا أفرادها أثناء عملياتهم ضدَّ البرتغال. ولم يقم الإمام بإرسال الباخرة الإنجليزية إذ أخبرهم أنَّه أخذها مقابل إحدى بواخره التي سبق أن استولى عليها الإنجليز، وكان على استعداد لمحاربة الإنجليز.

وقد تلقى الإمام نداءات من بعض البلاد لإنقاذهم من الحكم البرتغالي مما جعل الكثيرين منهم يسرون بمساعدته وإخراجهم من تلك المعاناة التي سببها لهم البرتغاليون.

انكسر البرتغال، وبسط الإمام نفوذه على ساحل زنجبار وعند عودته إلى مسقط وجد الفوضى قد عمَّت البلاد التي استمرت نحو ثلاثين عامًا.

وفي بداية القرن الثامن عشر كانت القوة البحرية لعُمَان لا تقل إن لم تزد عن القوى الأخرى على امتداد شواطئ المحيط الهندي كما لم تكن تجارتهم في الشرق فقط بل مع تجار أوروبا أيضًا فيما عدا البواخر الإنجليزية والهولندية الضخمة التي تمتلكها شركة الهند الشرقية، وما زال الأسطول العربي يتحرك هنا وهناك مواجهًا كل شيء حتى دبَّ الخوف والرعب في نفوس البرتغال مما دفعهم إلى تقوية وزيادة معداتهم على طول الساحل الهندي. وكان أكثر ما لفت نظر الإمام هو جزيرة البحرين في الخليج، وبخاصة صيد اللؤلؤ الذي كان يقوم به الفُرس.

وفي عام ١٧٠٤م كتب القائم بالأعمال في جمبرون تقريرًا قال فيه إن العرب يعوقون التجارة الإنجليزية في الخليج، وبعد شهور قليلة كتب حاكم مدراس تقريرًا ذكر فيه أن البواخر العربية تطوقه في ساحل كوروماندل، ولقد ذهب عرب مسقط إلى أبعد من ذلك باستيلائهم على باخرة إنجليزية تخص الكابتن موريس الذي أسر هو وطاقمه.

ويخبرنا لوكاير الذي كان بمسقط عام ١٧٠٥م أن العرب قد حسنوا المدينة بصورة عظيمة، وكذلك الحصون بعد أن خلصوها من البرتغاليين وإنَّهم - أي العرب - كانوا يمثلون رعبًا لتجار الهند، وأن سفنهم كانت تتزايد يوميًا، وقد بنوا بعض قواربهم في سورات، وبعضها في نهر هندوس في أماكن بناء السفن التي كان الإنجليز يعلمون عنها القليل. ويضيف قائلًا: أنَّه شاهد بنفسه أربعة عشر سفينة حربية في الميناء، وأنَّه علم أن العديد منها كان يطوف البحر بحثًا عن سفن الأعداء، وقد كانت أكبرها تضمُّ سبعين مدفعًا، وأقلها لم يكن يحتوي على أقل من عشرين. وبعد وصول لوكاير بفترة وجيزة أخذ العرب سفينة كلكتا الكبيرة، والخاصّة بكابتن مورفيل. وفي فبراير عام ١٧٠٧م سقطت سفينة التجارة الإنجليزية ذي دياموند التي كانت تربط بومباي بجمبرون في أيدي العرب، وأن هذه العملية وغيرها من عمليات الاستيلاء على السفن الفارسية الصغيرة أقلقت الحكومة للغاية حتى أن الشاه قرر أن يلح في تعاون الإنجليز والهولنديين للوقوف ضدَّ الإمام سيف الذي كان وقتها مهيمنًا ومسيطرًا على الخليج، حيث كان يمتلك معظم الجزر، ولإتمام تلك الخطة أرسل الشاه ميرزا ناصر مبعوثًا إلى بومباي، وأرسل مبعوثًا آخَر إلى باتافيا؛ ولكن المبعوث الرئيسي كان إلى بومباي، ووصلت تعليمات إلى القائم بالأعمال في جمبرون بإرسال قوة بحرية للهجوم على عرب مسقط فور انتهاء الحرب في أوروبا.

وقد كان الإمام سيف بن سلطان اليعربي أعظم أمراء اليعاربة، فقد حافظ على استمرار قوة الدولة، كما جعلها من البلاد الغنية، وقد كان طموحًا محبًّا للمجد. وقد توفي في الرستاق بعد فترة حكم دامت اثنين وثلاثين عامًا في ١٤ أكتوبر عام ١٧١١م، حيث نصبت مقبرة لذكراه، ولكنها تحطمت في بداية القرن التاسع عشر، وكانت الاضطرابات الداخلية قليلة جدًّا في عهده، وقد نشرت آراء وكتابات متعددة عن تلك الفترة؛ ولكن معظمها يحتوي على معلومات ضئيلة غير موثوق بها.

وقد كان هناك قرصانًا مشهور باسم جون أو هنري أفورب، وكان هذا القرصان يحصل على ضريبة مرور من البواخر التي تعبر خارج أو داخل البحر الأحمر، وكان يملك ستة وأربعين مدفعًا ومعه مائة وثلاثون رجلًا، وكان قد اختار جزيرة بريم ناحية باب المندب قاعدة له؛ ولكنه رحل إلى جزيرة سانت ماري في الشمال الشرقي من مدغشقر، حيث عاش القراصنة هناك، ثم أحضروا الرجل الأسود لزراعة الأرض.

كان هذا القرصان يتحرك بين الهند وخليج عدن. واستولى على باخرةٍ ضخمة بها مائة وعشرة مدفعًا تحت قيادة القبطان إبراهيم خان، وقد كانت ملكا لتاجر من سورات، وكانت تحمل بعض الحجاج إلى جدة. ويقال أنَّه كان عليها حوالي ألف وخمسمائة مسافر، فاستولى على ما معهم من نقود وحُلي ثمينة، تبلغ قيمتها ربع مليون جنيه إسترليني كما كان بها مبلغ ٣٠,٠٠٠ جنيه إسترليني، وهي قيمة الضريبة التي كانت تدفع لشريف مكة، كما أخذ فتاة ذات مكانة عالية كرهينة ومعها وصيفاتها، وكذلك بعض الفتيات اللاتي تتراوح أعمارهن بين ١٢ و١٨ عامًا. ورحل.

ونجح الإمام سيف في الحكم بفضل ابنه الأكبر سلطان الذي اختير دون معارضة، وواصل سلطان سياسة والده بحزم مستعدًا ومواجهًا الحرب ضدَّ الفُرس والبرتغاليين، كما حكم بين القبائل بالعدل والأمانة، وإن الملاحظة التي تلفت النظر هي أنَّه حول مقر الحكم من الرستاق إلى الحزم، حيث شيَّد حصنًا يعتبر هو الحصن الثاني بعد حصن نزوى أقوى حصون عُمَان، وقد تكلف بناء هذا الحصن كثيرًا لدرجة الأقتراض من أموال الوقف، وتقع الحزم تحت سلسلة التلال التي تعرف بالحجر.

وكل ما نعرفه أن الإمام سلطان في عام ١٧١٤م نزل إلى الساحل الهندي، ونجح في الاستيلاء على باخرة برتغالية كانت قد وصلت من الصين، لكن الأسطول البرتغالي حاصره فيما بعد، وبدأت الحرب في ١٩فبراير عام ١٧١٤م، ويقال أنَّها استمرت فترة طويلة هزم فيها العرب؛ ولكن الإمام سلطان لم يضيع الوقت لإعداد وتجهيز أسطول آخر ليقوم بالعمليات ضدَّ الأعداء واسترداد مركزه.

ويحدثنا هاملتون أن قوة الإمام البحرية عام ١٧١٥م كانت تتكون من باخرة بها أربعة وسبعون مدفعًا، ومن باخرتين بكل منهما ٦٠ مدفعًا، وباخرة أخرى تحمل خمسين مدفعًا، وثماني عشر باخرة أخرى بكل منها من اثنى عشر إلى اثنين وثلاثين مدفعًا، وبعض الزوارق بها من أربعة إلى ثمانية مدافع، ويقال أن الإمام نشر الرعب على الساحل حتى البحر الأحمر، ويذكر روس في (تاريخ عُمَان) بأنَّ سلطان هاجم البحرين، وخاض حربًا مع الفُرس، وكان الإمام سيف قد أخذ هذه الجزيرة من الفُرس عام ١٧٠٠م، ويبدو أن الإمام سلطان قد احتلها وجعل منها حامية. وسقطت تدريجيًّا كل الجزر في أيدي عرب مسقط؛ بسبب تمزق الفُرس في تلك

الفترة تحت الحكم الضعيف للشاه حسين الذي سمح للعرب بمواصلة نشاطاتهم الحربية.

وفي أوائل عام ١٧١٩ أبحر أسطول من جوا إلى كونج بإيعاز من شاه فارس بمعاونة البحرية البرتغالية، وذلك للقيام بعملية حربية ضدَّ عرب مسقط، وعندما سمع الإمام سلطان بن سيف بذلك أعد العدة للمواجهة؛ ولكن القدر لم يمهله، حيث توفي في نفس العام ١٧١٩م، وإن كان روس في كتاب (تاريخ عُمَان) يقول إن وفاته كانت عام ١٧١٨م. وقد دفن بعد وفاته في الحصن الذي أتمه بنفسه في الحزم، وكان قد اختاره مقرًا لإقامته.

وبعد وفاة الإمام سلطان بن سيف، فقدت عُمَان الشعور بالأمان والسلام إذ بدأت الاضطرابات الأسرية تتوالى، فقد ترك الإمام سلطان العديد من الأبناء أكبرهم سيف الذي كان عمره اثنى عشر عامًا، وبذلك نجح في أخذ مكان أبيه؛ لكن صغر سنه لم يمكنه من ممارسة السياسة وشرعية الحكم لذلك اختاروا عمه مهنا بن سلطان أصغر أشقاء الإمام الميت وصيًا عليه. وحاول مهنا الاستيلاء على الإمامة؛ ولكنه لم يكن مقبولًا عند بعض النّاس وبعد الاستيلاء سمح بالتكامل التجاري والاستيراد الحر؛ ولكن كلّ ذلك كان بلا جدوى، وحتى النصر الذي حققه على البرتغاليين لم ينجح في تغيير المصير الذي انتظره.

ولم يمض كثير من الوقت حتى أتى يعرب بن بلعرب ابن شقيقة مهنا مع بعض من رجاله وفتحت البوابات دون مقاومة. وكان الحاكم وقتها هو سعود بن محمد الريامي، والذي سرعان ما حاول الرجوع إلى مسقط للدفاع عنها بعد أن سمع بما فعله يعرب الذي حاصر قلعة الرستاق بقواته، وكان مهنا يقيم في هذه القلعة مع بعض أصدقائه، وسرعان ما استسلم وأعلن يعرب بن بلعرب نفسه وصيًا على ابن عمه الشاب سيف بن سلطان، وعمل بحذر؛ ولكن بقوة لا تعرف الكلل للحصول على ولاء القبائل وللسيطرة على كل الحصون الرئيسية في المدينة.

وفي مايو ١٧٢٢م شعر يعرب بقوة كافية لكي يلقى جانبًا قناع الوصي، وأعلن نفسه إمامًا في الرستاق؛ ولكن تصرف يعرب هذا بإعلان نفسه إمامًا لم يقدم له ما يريده، بل على العكس عجل بنهايته، وجعل الأهالي يظلون على ولائهم وتمسكهم بالأمير الشاب سيف بن سلطان. وفي الرستاق وفي خلال أيّام قليلة اضطر يعرب

للتوجه إلى نزوى، حيث وصلها في يونيو.

وتآمرت مجموعة الرستاق مع بلعرب بن ناصر شقيق الإمام سلطان بن سيف لخلع الإمام يعرب؛ ولكن بلعرب الذي كان يقيم في نزوى لم يضيع وقتًا في الحصول على تأييد قبيلة بني هناءة القوية في المنطقة تاركا نزوى في أغسطس. وسار بلعرب إلى الرستاق تسانده قبيلة بني هناءة القوية في المنطقة الذين أشعلوا النيران في القلعة وطردوا نبهان الوالي أو حاكم المدينة الذي كان مواليًا للإمام يعرب.

وعندما علم يعرب ببدء بلعرب إعلان العداء تحرك من نزوى بقوة تبلغ أربعمائة رجل لاستعادة الرستاق؛ ولكن هذه القوة لم تستطع التقدم أبعد من العوابي في وادي بني خروص واضطروا إلى التقهقر.

وعندما وصل الأمر إلى حمير بن منير الريامي والي مسقط بالاستسلام أطاع الأمر، وكذلك فعل والي نخل، وبعد أسابيع قليلة تحركت قوة من الرستاق تحت قيادة مالك بن سيف اليعربي الذي استولى على سمائل ثم إزكي بالاتحاد مع بني رواحة؛ ولكن الإمام يعرب تحرك وحاصر مالك بن سيف؛ ولكنه فوجئ بقوة من بني هناءة الذين وصلوا من الرستاق تحت قيادة علي بن محمد ووسط رضاء عام من السكان انتخب الأمير الشاب سيف بن سلطان كثالث إمام في نزوى والرستاق، واختير بلعرب في الوقت نفسه وصيًّا عليه.

وبينما كانت الحوادث تجري في الرستاق توفي نائب الإمام يعرب بن بلعرب في نزوى في ١٦مارس ١٧٢٣م، وقد قام محمد بن ناصر بتدعيم جيشه عند وصول القبائل الذين اعتمد عليهم في مساعدته.

وبدأ ظهور حوالي أربعة آلاف من الرجال بواسطة قبائل الحزم والشعيين من جلفار تحت إمرة خميس بن منير الهولي بينما كان مائة وخمسون يتبعون بني كعب وبني كساب وقبائل أخرى.

ورأى محمد بن ناصر أن قوة مسقط وبركاء لم تكن على ما يرام، فأمر بلعرب بن ناصر؛ ليتأكد من ذلك، وكانت هاتان القوتان قد خفتا عن طريق بني هناءة، وكان والي مسقط يومئذ هو جاعد بن مرشد اليعربي الذي انتقل بعد ذلك إلى ينقل. وقد أخذ مكانه خلفٌ بن مبارك الهنائي، وترك خلف مسقط إلى بركاء في انتظار الوالي

علي بن محمد الخروصي الذي سرعان ما ثبت أقدامه في بركاء.

واستمر الصراع بين خلف الذي طلب مساعدة القبائل التابعة لبني هناءة بينما ظلَّ محمد يحاصر بركاء لمدة أربعة شهور؛ ولكنه كان في حاجة إلى طعام؛ لكي يستمر وعند عودته إلى الرستاق أصيب بالجدري مما سبب وفاته، وقبل ذلك بشهرين خرج من مقنيات في الظاهرة، ومعه الإمام الصغير محمد بن ناصر الغافري للمساعدة.

وتحرك محمد على رأس قوة ضخمة نحو الحزم، وهاجم خلف بشدة مما سبب تشتت المجموعات الخاصّة بخلف.

ثم انتقل محمد ورجاله لإحراز انتصارات على بعض البلاد بينما جمع خلف رجالًا من المعاول ومن قبائل أخرى؛ ليقوم بعمليات حربية ضدَّ خصومه في وادي سمائل ونخل دون إحراز نتيجة حاسمة، إلا أنَّه صار له وضع بين بني رواحة والدهمية - واستمر يناضل حتى هُزم، وهرب إلى إبراء، حيث اتصل بالحرث، إحدى القبائل الهامة في الشرقية؛ لكنها لم تكن قادرة على مقاومة جيش محمد بن ناصر الذي اتجه نحو الظاهرة، ومنها تابع سيره إلى وادي الجزي، ثم إلى الباطنة، حيث تغلب على القبائل اليمنية، وكان خلف بن مبارك في مسقط عندما سمع بتحركات محمد الجديدة فجمع قوة، واتجه نحو الشمال؛ لمواجهته إلى أن حدث تصادم عند فلج العرار، حيث تمت هزيمة خلف، وتبعثر جيشه. وقاد محمد جيشه إلى الرستاق التي استسلمت، ثم تركها إلى مقنيات، حيث وافق على أن يكون محمد بن سعيد بن بدر واليًا على المدينة.

وبعد عودته إلى إبراء كان يشغل ذهنه تنحية الإمام سيف بن سلطان والاستيلاء على الإمامة. واستمر لفترة يخطط لما يدور في ذهنه، فبعث برسل إلى جميع مناطق عُمَان وقبل اجتماع الشيوخ، اجتمع هو بالقاضي ابن ناصر والوالي عبدالله بن محمد ابن راشد وأبدى رغبته في أن يكون وليًا على سيف بن سلطان.

ونجحت الحبكة الرئيسية في الخطة بأن طلب القاضي ابن ناصر أن يكون محمد بن ناصر الغافري إمامًا. وذلك في ٢أكتوبر عام ١٧٢٤م.

وكانت الحرب الأهلية علامة من علامات التاريخ العُماني في تلك الفترة بعد تولي محمد بن ناصر الغافري الإمامة. وانقسمت عُمَان إلى قسمين: الهناوية في جنب، والغافرية في الجنب الآخَر. وقد بقيت القبيلتان الرئيسيتان في عُمَان حتى

أيامنا هذه، وعن الحرب الأهلية في عُمَان يقول الكولونيل السير إدوارد روس في مذكراته: "وكما هو مسجل في "تاريخ عُمَان" فقد كانت الحرب الأهلية صعبة للغاية بين الغافرية والهناوية، وهذا ما اهتم به الكتاب الأوروبيون بين القبيلتين في عُمَان، وما زال الاهتمام به حتى يومنا هذا إذ ما زالت القبيلتان في توازن، الغافرية في الغرب والهناوية في الشرق".

وأصبح محمد بن ناصر هو سيّد الموقف بعد انتخابه؛ لكن ما كان يزعجه أحيانًا هو عدوه خلف بن مبارك الذي كان على استعداد للمواجهة دائمًا، وفي بعض الأحيان كان محمد يضطر إلى وقف بعض الاضطرابات التي تحدث في بركة الموز أو تنوف أو إزكي أو سمائل وأماكن أخرى.

وفي الشمال كان هناك الظاهرة، وهناك ضنك وينقل. وفي الباطنة كان لا بُدَّ من تدعيم سلطته حتى يتمكن من وقف خلف بن مبارك الذي كان في طريقه من مسقط إلى الرستاق؛ ليجمع الفرق؛ ولكن الحقيقة هي أنَّه لم يكن باستطاعة خلف بن مبارك مواجهة محمد؛ ولكن ربما كان خلف بن مبارك سبب في الاضطرابات والمشاغبات التي كانت تسببها قبائل البدو من اليمنيين والتي كانت سببًا في كثير من الإزعاج وعدم الأمان.

وكان الشيخ سيف بن سلطان هو الشخص القريب والمرافق الدائم لمحمد بن ناصر، حتى أنَّه لم يتركه يسير بمفرده، وإن كان يسبب له بعض المشاكل؛ ولكن تنقله هذا أفاده كثيرًا، ففي نهاية عام ١٧٢٨م جمع الإمام قوة ضخمة من القبائل في الشمال - وقد كان اعتماده دائمًا على تلك القبائل - واتجه إلى صحار (وهي إحدى البلاد الثلاث - مسقط - بركاء) المستقلين عنه، وعندما سمع عدوه خلف بذلك تهيأ للدفاع عن صحار، وصار كل منهما يضع الخطط لمواجهة الآخَر، إلا أنَّ محمد ابن ناصر أصيب في صدره وتوفاه الله، ومن المعروف أنَّه قد أخفى ذلك عن رجاله لمدة ثلاثة أيّام، وفي مارس عام ١٧٢٨م وبعد شهر من وفاة الإمام الشجاع محمد بن ناصر، فقدت عُمَان أيضًا ممباسا وأسر أحد رجالها المفضلين فقد أخذه البرتغاليون ووضعوه في السجن لمدة ثلاث سنوات.

وفي عام ١٧٣١م تقريبًا بدأت البرتغال في استفزاز العُمَانيين، فأرسل الإمام سيف ابن سلطان حملة من ثلاث بواخر تحت قيادة محمد بن سعيد العميري الذي

انتصر بعد مواجهة صعبة للغاية، ويتحدث بعض النّاس عن هذه المعركة حتى الآن. وتم انتخاب سيف بن سلطان إمامًا للمرة الرابعة عام ١٧٢٨م بأغلبية كبيرة. وفي الوقت ذاته حاول ابن عمه بلعرب بن حمير اليعربي أن ينافسه في انتخابات الإمامة وسرعان ما ذهب إلى نزوى؛ لكي يجهز جيشًا لذلك الغرض. وذهب سيف إلى نزوى وطلب ممن يحتلون الحصن أن يخلوه؛ ولكن ياسر بن عمير بن راشد الحارثي رفض ترك الحصن فاتجه سيف إلى وادي المعاول، وطلب ولاء قبيلته، ثم أرسل عمر سيف بن ناصر؛ لمفاوضة بني هناءة. وبناء على رغبة الإمام في المحافظة على المنطقة قدموا له موقعًا عسكريًّا كان خلف بن مبارك قد تخلى عنه في مسقط، وذلك كي يكون مقرًا لإقامته. ثم أرسل الإمام سيف شقيقه بلعرب بن سلطان على رأس قوة لمساعدة القبيلة ضدَّ خصومها، وخسر بنو رواحة المعركة وتحولوا إلى بلعرب بن حمير.

هنا بدأ بلعرب بن سلطان عمليات حربية أخرى بعد عودته وانتصاره في نزوى، ثم تحول إلى أماكن أخرى. وقد كان لاستمرار الصراع نتيجة سيئة، بحيث أضعف السلطة ومزقها؛ لكن وضع بلعرب استمر موضع تقدير وإعجاب فأسطول عرب مسقط كان يحظى بالاحترام من الهنود ومن غيرهم وعلى طول الساحل الفارسي، وكذلك من الأوروبيين.

وقام الإمام سيف بإرسال أخيه بلعرب بن سلطان على رأس حملة؛ ولكنه عندما علم بهزيمة أخيه في معركة الجو التي كسبها بلعرب بن حمير بدأ يفكر في أشياء أخرى كانت تدور في ذهنه عن أهله ونسله، وما يتمنى عمله. ولم يبق بلعرب بن حمير كثيرًا في موقفه الدفاعي في نزوى، فسرعان ما جمع بعض الرجال من القبائل وتقدم لمواجهة عدوه، وذلك في فلج السمين؛ لكنه عاد إلى نزوى مهزومًا؛ ولكنه حاول أن يقوم بإعداد معسكره إعدادًا قويًّا كي يجعله مستعدًا لمواجهة الأحداث.

وبعد المعركة دفعت القوات من طواح إلى إبراء. وقاموا بنهب المواطنين في الظاهرة، فغضب الإمام من ذلك السلوك وتشاجر مع القائد وأبعد الفرقة، ثم توجه الإمام سيف أول الأمر إلى بهلاء وعسكر فيها، وأشار بأن يكون الشيخ سليم بن خميس الغافري واليًا، ثم انتقل إلى طيمسا ورفض نزوى، حيث كان بلعرب بن حمير في انتظاره لمواجهته، وجعل طريقه إزكي، ثم وادي سمائل ثم مسقط.

وفي عام ١٧٣٩م كان والي ممباسا هو صالح بن سعيد الحضرمي والذي أصبح واليًا بواسطة محمد بن عثمان المزروعي، والذي ينحدر أصله ممن حكموا ممباسا منذ حوالي قرن. وقد نصح بعض الأصدقاء بلعرب بن حمير بأن يحاول الحصول على الإمامة، وخاصّة بعد أن هزم الفُرس بني غافر عام ١٧٣٧م، وكذلك سيف بن سلطان الذي لم تكن لديه المقدرة على الاستمرار والكفاح، كذلك فقد استبعدت القبائل، وما زال هناك أربع قلاع هي مسقط - الرستاق - بركاء - صحار؛ لكن سرعان ما أفاق النّاس في أواخر عام ١٧٤١م، وفي عام ١٧٤٢م اجتمع الشيوخ والقضاة في نزوى وسمائل ونخل في فبراير ١٧٤٢م، وقاموا بانتخاب سلطان بن مرشد - حفيد سيف بن سلطان - إمامًا بدلًا من سيف.

وفور توليه اتجه الإمام الجديد إلى الرستاق، وبعد فترة من الصراع رأى سيف أنّه لا بُدَّ من مساعدة الفُرس، وأرسل بعثة استقبلها نادر شاه عام ١٧٤٢م، والذي كان قد عاد من الهند عام ١٧٤٠م بعد انتصار سهل، وكان يفكر في زيادة الثروة بتشجيع التجارة الخارجية، وبعد ذلك أعطى نادر شاه أوامره للحاكم العام في فارس ميرزا محمد تقي خان لإعداد حملة لغزو عُمَان، وذلك بالاستيلاء على مسقط، ثم البصرة، وهما المركزان التجاريان الهامان في الخليج، وكان هناك سيف بن سلطان وميرزا محمد تقي خان الذي استعد بسرعة لعلمية حربية، فأرسل بعض الفرق تحت قيادة ميرزا علي خان إلى صحار بعد أن زوده بتعليماته؛ لكنه عند بدء العملية وجد مقاومة شديدة، وعاد بعد خسارة ضخمة، وكذلك عندما توجه ميرزا علي خان ببواخره الضخمة إلى مسقط، حيث رسا فيها وحمل التجار العرب والهنود ممتلكاتهم ورحلوا. وعندما فتح الأسطول الفارسي النيران لم يتحملوا الشراسة وقوة الدفاع فعادوا إلى صحار.

ومرة ثانية فكر ميرزا محمد تقي خان في غزو مسقط التي فتحت أبوابها ودخلها الجنود الفُرس دون أيّة مقاومة؛ لكن قبائل مسقط قامت بالتقتيل فيهم والاستيلاء على بعض ما بقى معهم وذلك تحت قيادة الإمام؛ لكن ميرزا محمد تقي خان أعد أسطولًا ضخمًا، وأحكم خطط الهجوم والغزو على مسقط ونجح في الاستيلاء على مسقط والحصون الأخرى، ودارت معركة شرسة انسحب على أثرها الإمام سلطان إلى صحار وقتل هناك وهنا اعتبر سيف بن سلطان أن ما حدث خزي وعار، وحاول

الاتصال لطلب المساعدة ممن كان قد ساعدهم في الدفاع عنهم ضدَّ الفُرس، وفي نهاية العام ١٧٤٣م وبداية عام ١٧٤٤م بدأ يفقد الأمل في صحار إلى أن حصل على تصريح نادر شاه بالعودة، وبناء على المحادثات مع أحمد بن سعيد على أن يضع بركاء وصحار تحت إمرته؛ لكنه رأى أنَّها سلطة غير حقيقية مثل بلعرب في الرستاق، وعاد ميرزا محمد تقي خان إلى بندر عباس، ومعه بواخره إلى شيراز.

ثم دار الصرع بين المتنافسين لبضع سنوات، وأصبح بلعرب هو الحاكم الحقيقي، وهذا يتساوى مع تأثير اليعاربة وقدرتهم المكتسبة عام ١٧٤٧م، ومضت سنتان قبل أن يفكر الإمام في أيّة عمليات حربية جديدة، بينما جمع أحمد جيشًا تحرك به ضدَّ بلعرب بن حمير الذي عسكر في الجبل الأخضر، وفي تلك الحملة وقف بلعرب مدافعًا، وكان الصراع الأخير في نهاية عام ١٧٤٩م، حيث كان هجوم أحمد ناجحًا تمامًا، وتفرق الغافرية، وتتبع هلال بن أحمد بلعرب بن حمير، وطبقًا لما يذكره جويلان فقد كانت المعركة في وادي المعاول، ولم يبق من أسرة اليعاربة غير محمد بن سليمان الذي كان يعارض، ويحاول إضعاف سلطة أحمد بن سعيد؛ ولكنه في النهاية رضى بأن يعيش حياته بلا أيّة مسؤوليات؛ لكي يتمتع بها بعيدًا عن تلك الأجواء من المغامرات السياسية والحربية.

* * *

# الفصل الخامس

# أســــــــــرة آل بــوســعــيــد

كانت أسرة اليعاربة من أقوى الأسر التي شهدتها عُمَان، فقد كان حكام تلك الأسرة من أقوى الأمراء الذي استطاعوا أن يجعلوا البلاد تعيش في حالة من الرخاء والازدهار، لم تكن قد عاشتها من قبل؛ ولكن أسرة اليعاربة سقطت سريعًا؛ بسبب مغامرات هؤلاء الأمراء، الذين رغم أنَّهم قد جلبوا للبلاد الخير الكثير إلا أنَّهم سببوا لها الأضرار أيضًا، وكان ذلك عام ١٧٤٩م.

وبعد انتهاء الحرب الأهلية بآلامها استطاع السيّد أحمد بن سعيد أن يلتفت إلى إدارة شؤون البلاد ونصب نفسه سيّدًا للرستاق، التي كانت عاصمة لعُمَان على مدى قرن وربع القرن، وسيطر على جميع القلاع وبيت المال، ثم قام بنفسه بتعيين حكام للحصون الرئيسية في نزوى وبهلاء وإزكي وسمائل، وحكم بيد قوية؛ لكي يوقف ذلك الفساد الذي عمَّ البلاد، وغير بعضًا من أفراد أسرته بآخَرين من العبيد الأفريقيين الذين رأى فيهم الأمانة والإخلاص. وبعد أن تمكن السيّد أحمد بن سعيد من فرض سيطرته وقوته أراد أن يثبت مركزه فتزوج من ابنة الإمام السابق سيف بن سلطان.

وهكذا. وبعد سقوط أسرة اليعاربة، ظهرت أسرة آل بوسعيد، وأصبح شعب عُمَان تحت القيادة الحكيمة للسيّد أحمد بن سعيد، الذي كانت علاقاته التجارية قوية مع الكثير من الدول، وبذلك أفاقت عُمَان من الاكتئاب الشديد الذي سببه الاحتلال الفارسي.

وبدأ الإمام يفكر في تشجيع التجارة البحرية الخاصّة بالتجار العُمَانيين والذين دارت اتصالاتهم بالموانئ الأخرى غير موانئ الخليج مثل غرب الهند، وموريشيوس، والبحر الأحمر وغرب أفريقيا. والتفت الإمام إلى مستعمراته في أفريقيا. والاهتمام بها؛ وذلك لتعزيز مكانته، وكسب احترام الآخرين فأرسل في عام ١٧٥٠م بعض بواخره إلى موانئ ممباسا وكلوة وزنجبار.

ورغم ذلك لم تتطور التجارة؛ وذلك لاعتبارات هامة. إذ كانت التجارة الرئيسية هي تجارة العبيد. والعاج، والصمغ وأخشاب السفن، وقد كان رخاء عُمَان الاقتصادي مرتبطًا بالأمن الذي يشعر به الملاحون في المحيط الهندي، وذلك إثر تحطيم الأدميرال ويلسون لسفن القراصنة، والتي كانت تعوق طرق التجارة لفترة كبيرة.

ففي عام ١٦٤٣م كان الشاطئ الهندي بجوار راجبور خاضعًا لأحد القراصنة وهو ساهوجي راجا، وقد قتل معظم طاقمه وقائدهم وكان ضمن ما نجوا سامبو، وهو نصف عربي، يتميز بشجاعة نادرة مما ساعده على خوض المغامرات، فجعل من نفسه قرصانًا مستقلاً. وقد قتله المغول عام ١٦٧٥م؛ ولكنه ترك ابنه بورا الذي نجح في مواصلة أعمال والده، وتم قتلة عام ١٦٨٦م، وترك بورا ولدًا وقحًا وجريئًا هو ابنه كانوجا الذي بدأ يزعج الإنجليز عام ١٧١٦م، مما دعاهم إلى إرسال عدد من الحملات ضدَّه من بومباي، وقد كانت لكانوجا هذا شهرة ومكانة قوية حتى أنَّه قاوم شركة الهند الشرقية واستطاع أن يقف أمامها.

وقد توفي كانوجا عام ١٧٤٠م تاركًا ولدين هما سامبوب وبالوجى، وكان كلاهما يسبب الرعب لجميع التجار. وكانت نهايتهما عام ١٧٥٦م على أيدي الأدميرال داتسون والكولونيل كلايف، عندما استوليا على جوريه وحطما أسطول القراصنة، وقد فرح تجار مسقط كثيرًا حين علموا بالخبر.

وعندما تولى السيّد أحمد بن سعيد الإمامة أتبع سياسة سلالته اليعاربة بعدم السماح للإنجليز ببناء مراكز في مسقط، وجرت محادثات على فترات متقطعة بهذا الشأن، وقد كان تعامله مع الهولنديين والفرنسيين بنفس الطريقة.

وقد ظهر الفرنسيون على مسرح التعامل السياسي مع مسقط بعد أن أصبح لهم تعامل تجاري في الخليج قبل أوائل القرن الثامن عشر بعدما صارت لهم وكالة في البصرة.

وفي تلك الفترة كانت البواخر الفرنسية تزور مسقط، وبذلك نشأت علاقات صداقة مع عُمَان، وقد تم الاتصال السياسي لأول مرة عام ١٧٤٩م عندما كان السيّد أحمد بن سعيد يقيم في أفي.

وفي الفترة ما بين ١٧٥٨- ١٧٥٩م ازدادت قوته وسيطرته على القبائل العُمَانية، واستطاع القيام بعمليات في صور، حيث كان القواسم الذين كانوا يمثلون الساحل الفارسي من جمبرون إلى رأس بردستان، وكان الحاكم وقتها هو الشيخ راشد بن مطر الذي كان يقيم في جلفار أو رأس الخيمة، وقد سار الإمام إلى خصب، حيث استسلم الشيخ حسن بن عبدالله، وعندما علم الإمامِ بتمرد اليعاربة في الشرقية أمر خلفان بن محمد بالاتجاه إلى جلفار بكل بواخره بادئًا بجعلان، وتم قمع التمرد بيدٍ

قوية، وعند عودته أرسل إليه بعض الضباط الأذكياء، واتصل بعلي بن سيف، ثم أرسلَه ومعه أربع بواخر وعشرة مراكب إلى صور لمحاصرتها، وكان هذا هو السبب في وقف عمليات صيد اللؤلؤ.

وبعد ١٧٦٢م اتجه الشيخ صقر وعمّه عبدالله ومحمود بن علي إلى الرستاق؛ ليتفاوض مع الإمام لترتيب رحيل الأسطول على أن يكون ميناء القواسم مستقلاً عن سلطة الإمام. وفي عام ١٧٦١م وصلت حملة فرنسية من ميناء لويس إلى مسقط يقودها الكونت ديستان يصاحبه الكونت لاللي إلى الهند، وحاصرهم الإنجليز في نوفمبر ١٧٥٨م، وأُخِذَ الكونت ديستان سجينًا، وتم إرساله إلى إنجلترا، ثم أطلق سراحه بعد أن قطع علَى نفسه عهدًا؛ ولكن بعد عودته إلى فرنسا لم يحترم ذلك العهد واتجه إلى موريشيوس للانتقام من الإنجليز عن طريق حملة تفسد تجارتهم إلى الخليج. وفي مسقط تجاهل الكونت ديستان القوانين بمهاجمته باخرة إنجليزية؛ لكن الوالي خلفان بن محمد أطلق النار على الباخرة بولوني الخاصّة بالكونت ديستان وأبعدها بعد أن أنقذ الباخرة الإنجليزية.

وربما كانت تلك الفترة هي تاريخ أوّل تعامل تجاري بين مسقط وموريشيوس، حيث وصلت أول باخرة تجارية من الجزيرة إلى مسقط في فترة حكم الإمام أحمد، واستمرت التجارة إلى ما يقرب من خمسين عامًا. وكانت السلعة الرئيسية المصدرة إلى الجزيرة هي السكر، بينما كانت تستورد في المقابل السمك المملح والتمر والبن، وكان الحاكم م. مالرتيك قد اعتاد إرسال هدايا من المدافع والبارود إلى الإمام الذي أرسل إليه بعض الهدايا المناسبة ردًّا على هداياه.

وفي نهاية عام ١٧٦٩م طلب كريم خان من الإمام أحمد باخرة ضخمة كان قد اشتراها أخيرًا من حاكم هرمز باعتبار أن الباخرة تابعة للفُرس؛ ولكن الإمام رفض.

وفي حوالي ١٧٧٢م اندلعت نيران الحرب مع فارس، وكان يعاون الإمام الشيخ راشد، وخلفان بن محمد حاكم مسقط، وأثناء الحرب رفض الإمام شروط الفُرس وذهبت حملة أرسلها إلى البصرة.

وفي أواخر عام ١٧٧٤م شعر فارس كريم خان بالغيرة لازدياد أهمية البصرة، إذ تحولت التجارة من بندر عباس ومن موانئ فارسية أخرى؛ لذلك أعلن الشاه الحرب على تركيا كمحاولة للاستيلاء على البصرة، التي أرسل حاكمها سليمان أغا

تقريرًا عن ذلك إلى عمر أغا والي بغداد، الذي كان في موقف حرج بخصوص تلبية نداء المساعدة، فأرسل رسالة سريعة يناشد إمام عُمَان أن يبعث بأسطول قوي؛ لمواجهة الفُرس والدفاع عن البصرة، فوعد بإرسال أسطول لمساعدة الأتراك، وفي أثناء حصار البصرة أبدى الإمام استعداده لتنفيذ ما وعد به عمر باشا، فاستكمل معداته الحربية بمسقط، وفي منتصف أغسطس ١٧٧٥م أصبح كل شيء مُعدًّا تحت إشراف الإمام نفسه.

وفي ١١ سبتمبر مرَّ الأسطول في مياه بوشهر، ثم أرسى في شط العرب، وكانت تلك الحملة الباهظة التكاليف التي أمر بها الإمام؛ بسبب علاقته المتينة مع الأتراك، الذين ساعدوه أثناء محاولة تقي خان غزو بلاده، حيث أنَّه كان في حالة حرب مع الفُرس، غير أن هذا لم يمنع شعوره بعدم الارتياح؛ بسبب ضعف الأتراك وقوة الفُرس. وبعد أن تحرك الفُرس عبر البحر هوجم الأسطول تحت قيادة الشيخ ناصر حاكم بوشهر، وأغرقت المراكب الفارسية، وكانت أمنية سليمان أغا مع من اتحد معهم في مسقط أن يجبر صادق خان على رفع الحصار والابتعاد. ثم حاول الإمام أن يتوسط للصلح بين القوتين، بينما أرسل حيدر بك مبعوثًا إلى فارس.

وقد فكر الإمام بجدية في إرسال ابنه سعيد إلى كريم خان؛ ليضمن السلام للأتراك، وله أيضًا، ولم يتم تنفيذ ذلك، وعاد بأسطوله إلى مسقط عام ١٧٧٥م. وكان من المحتمل في ذلك الوقت أن يرسل الإمام البارجة الرحماني إلى منجلور؛ ليعرف سبب منع تصدير الأرز، وأرسل حيدر بك مبعوثه الخاص شارحًا سبب عدم شحن الأرز إلى الموانئ الأجنبية، وبعد فترة من الزمن أرسل حيدر بك مبعوثًا ببعض البيانات لتوقيع معاهدة مع الإمام على أن يبقى هو كممثل سياسي، وعلى ذلك بنى بيتًا للوكالة في مسقط، وهو موجود حتى اليوم تحت اسم بيت النواب، وفي حوالي عام ١٧٧٨م بدأت الحرب بين الإمام والقواسم؛ بسبب بعض البواخر الفارسية التي تم الاستيلاء عليها، وبسرعة تم الاتصال بالشيخ ناصر في بوشهر وعادت بواخرهم إلى نشاطها في الخليج.

ومضت السنون بين حالات حرب ودفاع وصراع ومصالحة حتى جاءت سنة ١٧٨٥م، وتحمل الإمام الأعباء والآلام؛ ولكن كان أكثر ما آلمه هي تلك المشاكل التي وقعت بين أبنائه.

وكان هناك عدد من القراصنة من جنسيات متعددة غير أن أحد هؤلاء ربما كان من الفرنسيين ذهب ببحارته إلى مسقط للاستجمام، فأمره الإمام في الحال بالابتعاد، وأخذ طاقم البحارة كسجناء. وكانت أعمال الفرنسيين قد سببت جرحًا عميقًا للإمام. إذ أنّه كان يعاملهم باحترام ويشعر نحوهم بالصداقة، وكم من المساعدات الطبّية قدمها لهم؛ ولكن تصرفاتهم وسلوكهم كان لها تأثير سيء على العلاقة بين الدولتين.

وأرسل الإمام في الحال رسالة احتجاج شديدة اللهجة إلى موريشيوس، وكذلك إلى الحكومة الفرنسية عن طريق صديقه مسيو. ج. ف. روسو، وأيضًا إلى القنصل الفرنسي العام في بغداد.

ونعود إلى شهر فبراير عام ١٧٨١م، حيث أقام السيّد سيف والسيّد سلطان في قلعة النعمان الصغيرة بالقرب من بركاء، ثم ذهبا إلى مسقط مع مجموعة صغيرة، وطلبوا الدخول إلى مسقط، فسمح لهما الحاكم الذي كان يدرك أنّهما من أبناء الإمام أحمد؛ ولكنهما سرعان ما سيطرا على قلعتي الميراني والجلالي، وعندما توجه الوالي إليهما وطلبًا منهما إخلاء الحصنين أطلقا النيران عليه، وعاد الإمام وطلب منهما العودة إلى الطاعة؛ لكنهما أرسلا خطابات إلى الشيخ صقر القاسمي يطلبان مساعدته، وبدلًا من أن يذهب إليهما في مسقط اتجه إلى العاصمة، وقابل بعض رجال القبائل في طريقه، وذلك في إبريل عام ١٧٨١م، وهنا وجه الإمام تحذيرًا للقواسم حول ذلك الإجراء، وعقد معاهدة سلام مع أبنائه، ووافق على أن يكون لكل منهما حصنه.

وعندما توفي الإمام اجتمع القضاه والشيوخ في الرستاق طبقًا لما هو معمول به للتعبير عن الشعور نحو الإمام المرشح، وتم انتخاب الابن الثاني له - السيّد سعيد - دون معارضة أو اعتراض من أعضاء العائلة، واتخذ من الرستاق عاصمة له لتولي شؤون الإدارة، وكذلك كل الحصون التي كانت تحت سيطرة الإمام أحمد، وأما حصون هرمز ونخل وصحار، فقد ظلت في أيدي محمد بن سليمان وقيس وهما من اليعاربة.

وهنا صارت البلاد في حالة ضعف، ولم تكن إدارتها قوية تحت حكم الإمام سعيد، وأدرك أخواه سيف وسلطان الخطورة التي تحيط بالبلاد، فاتصلا بالشيخ

صقر القاسمي؛ ليساعدهما في إقصاء الإمام سعيد عن الإمامة، وفي عام ١٧٨٤م التحم الشيخ صقر بقبائل الشمال وأحاط بالحمراء، والشارقة ورمس وخور فكان.

وحدثت بعض الصراعات والتغييرات في عهد الأخوين سيف وسلطان الذي أبحر إلى جواذر وساحل مكران، ومنها إلى كلات للاتصال بناصر خان، فاستقبله الحاكم البلوشي، ولا يزال هذا الميناء تابعًا لمسقط. ثم وصلت مسقط ثلاث بوارج فرنسية من موريشيوس وغادرتها في يونيو من نفس العام، وقابل الكونت دي روسلي - قائد أحد البوارج - الوالي محمد بن خلفان؛ ليحصل من الإمام على مرسوم لبناء مستودع في مسقط، بواسطة الشركة الفرنسية غرب الهند؛ ولكن الإمام رفض الطلب، فغادر الكونت مسقط بسفينته مبحرًا إلى الخليج وزار البصرة وبوشهر.

وفي نهاية عام ١٧٨٥م اجتمع عدد من القضاة والشيوخ في المصنعة على ساحل الباطنة وانتخبوا قيس بن أحمد شقيق الإمام خلفًا له، ثم حدثت بعض الصراعات بعد ذلك.

ويقول الكابتن فرانكلين إن العرب لم يسمحوا للأوروبيين ببناء أي مركز أو مستودع، ويضيف المؤرخ ابن رزيق من خلال كتاباته أن الابن الأكبر لسعيد الإمام السابق أصبحت له المدينة وحصن مسقط من محمد بن خفان، ثم صارت له حصون عُمَان تباعًا، وفي خلال ثلاث سنوات تمركزت القوة في أيدي ابن الإمام، فأدار شؤون البلاد بحزم، وفي تلك الفترة كان للقواسم نشاط كبير في الخليج، وكانوا في حرب مع الأطوبيين الذين أخذوا جزيرة البحرين من الفُرس ثم استرد الشيخ صقر الجزيرة بمعاونة الفُرس. وفي عام ١٧٨٧م اندلعت نيران الحرب بين القواسم والإمام برًّا وبحرًا. وكان محمد بن خلفان يقود الأسطول، بينما نجح حمد في استرداد خور فكان وجزيرة الحمراء، وضرب حصارًا حول رمس، ثم عاد تاركا الأسطول في عملياته ضدَّ جلفار.

ونعود إلى سلطان وقبيلته البوسعيد وهي أسرة يمنية أو هناوية، لقد كان اعتماده عليها، وها هو ذا وصل إلى عُمَان بترتيبات من بني جابر وبعض قبائل الغافرية في الخليج الشمالي، وهناك هجموا على الحصن، وسرعان ما جمع حمد قوة واتجه إلى سمائل، حيث كان عمّه في وضع طيب حسن، وأمر حمد فرقه بالانتشار، ثم ذهب إلى الرستاق ليرى والده.

وفي عام ١٧٩١م، ١٧٩٢م كان كل اهتمام حمد بالحملات الحربية وإعداد أسطول بواخر للنقل، وفي مسقط وافته المنية عام ١٧٩٢م؛ بسبب إصابته بالجدري، وبوفاته تحولت شؤون البلاد ليد الإمام سعيد، غير أن سلطان كان يراقب الأحداث كي ينتهز الفرصة؛ لتحقيق رغباته، فبعد وفاة حمد جمع إلى جانبه محمد بن ناصر الجبري، وبعض الحلفاء حتى أصبح سيّد مسقط دون مقاومة.

وقد ولد سلطان حوالي ١٧٥٥م، ربما في الرستاق، وفي طفولته أرسل إلى أدم، حيث قضى فترة البداوة. ويقال: إن له عظمة النبلاء. وأنَّ لديه القدرة على الحكم. ويقال أيضًا: أنَّه أثناء الاحتلال الفارسي كانت أهمية عُمَان وميناؤها كقلعة ضدَّ الخارج والداخل أكثر أهمية من الرستاق ونزوى وصحار؛ ولذلك عندما ازدادت قوة سلطان أراد أن يحتل ذلك المكان ويبني حصنًا، وقد ازدادت نشوة النجاح عند سلطان فأرسل حملة ضدَّ النعيم في قشم وهرمز، ونتيجة للحرب مع شيخ النعيم (النعايمة) حاكم بندر عباس كان تقدم السيّد سلطان، وظلَّ بندر عباس مستقل عن مسقط لمدة ٧٥ عامًا.

وفي عام ١٧٩٤م كانت فارس، وكذلك عُمَان كليهما في موقف سيء. وبعد عودة قيس بن أحمد من إحدى الحملات دبَّ صراع بينه وبين بعض قبائل الشمال. ولمَّا لم يكن هو مستعدًا لذلك فقد استنجد بسلطان الذي أعد العدة وتحالف معه واتجها لملاقاة العدو، حيث دارت حرب شرسة في دبا، وأصبحت الموقعة المعروفة التي انتصر فيها قيس وسلطان وتفرق العدو. وبعد الهدوء الذي ساد عُمَان والخليج. لم يتدخل العُمَانيون في الخليج؛ لكن بدأ التحرش عام ١٧٩٦م، حيث بدأت أسرة كاجار وأغا محمد خان في الاستعداد، وفي أواخر عام ١٧٩٧م حدث التداخل والصراع بين بعض الإنجليز والقواسم، ولم يتلق الشيخ صقر أي مساعدة من شيخ القواسم الشيخ صالح.

وخلال معظم عام ١٧٩٨م كان كل ما يشغل سلطان هو إدارة الشؤون الداخلية في عُمَان؛ ولكنه في ديسمبر أبحر بحملة ضدَّ البصرة؛ لكي يوقف ما يفعله باشا بغداد، الذي سمع بقدوم حملة من مسقط، فاتصل بمستر مانستي القائم بالأعمال لنجدته، إلا أنَّ تطورِ التعامل التجاري مع الإنجليز جعل مستر مانستي يحاول أن يجعل من نفسه وسيطا بين حاكم البصرة والقواد العرب لأسطول مسقط الذي كان

يرابط في بوشهر، وفي وقتها فكر سلطان في الاختيار بين القوتين العظميين إنجلترا وفرنسا وربما الهند.

كانت فرنسا ذات تأثير واضح أثناء الثورة الفرنسية حتى منتصف عام ١٧٩٨م عندما ظهر الجيش الفرنسي فجأة في مصر تحت قيادة ذلك الشاب الذي لفت أنظار الأمم، حيث فكر متطلعًا للتخطيط للسير عبر الصحراء السورية والعراق وفارس ثم إلى الهند، وأن يهزم كل هؤلاء من أجل فرنسا أو من أجل نفسه، وتتبع بونابرت ذلك بإرسال خطابات ورسل إلى كثيرين من بينهم تيبو، وسلطان إمام مسقط الذي كان يبحث عن مَنْ يتحد معهم أو مَنْ يساعدونه، وأرسل بونابرت خطابًا إلى مسقط هذا نصه:

**القاهرة في ٢٥ يناير عام ١٧٩٩م.**

**إلى إمام مسقط:**

أكتب إليك هـذا الخطاب لكي أعرفك بوصول الجيش الفرنسي إلى مصر، وبما أنـك صديـق لفرنسا فأنت مقتنع بـأنَّ رغبتنا هي حماية كل البواخـر التجارية التي نرسلها إلى السويس، وأرجوا أن تخبر تيبو صاحب.

**إمضاء**

**نابليون بونابرت**

هذا وقد أرسل بونابرت خطابًا إلى تيبو صاحب.

وفي ذلك الوقت شعرت حكومة الهند بتأثيرات فرنسا في عُمَان، والتي قد تمتد إلى الخليج وبعض الأماكن الأخرى؛ بسبب نشاط بونابرت الحربي، وبعث الحاكم العام في الهند ماركيز ويلسلي إلى المقيم البريطاني في الخليج ميرزا مهدي علي خان كي يزور مسقط، ويدخل في مباحثات سياسية مع سلطان.

وصل ميرزا مهدي إلى مسقط في سبتمبر عام ١٧٩٨م ودارت مباحثات الحدود في ١٢أكتوبر، وكان قد تعاقد على أن يكون تحرك الفرنسيين من حدود الإمام، والبواخر الفرنسية من مينائه في حالة نشوب حرب مع الإنجليز.

وفي عام ١٧٩٩م حاول سلطان تقوية عُمَان بالتعامل مع بعض القبائل من بينهم قبيلة الدروع في الشرقية، والنعيم في الظاهرة ونجح مع كليهما منبهًا إلى العدو الأجنبي، كما ركز قوته ضدَّ هؤلاء في البحرين الذين رفضوا دفع الضرائب على البواخر المارة من الهند إلى الخليج، وهي الضرائب البحرية التي كانت تدفع لمسقط لمدة قرن ونصف القرن.

ولم يقبل سلطان ذلك الرفض فأعد بعض بواخره، وبدأت حرب قصيرة تم فيها أسر ثلاث من البواخر التي لم يكن لها القدرة على مقاومة عُمَان، فأسرعت إلى طلب حماية الفُرس، وقد سمع سلطان بذلك فطلب الدخول في محادثات مع الفُرس أنفسهم. واهتم سلطان بحديث الكابتن جون مالكولم الإنجليزي بعد أن وقع تجديدًا للاتحاد بينهما، ثم حدثت صراعات ضخمة وقعا على أثرها معاهدة ذات شقين، أحدهما خاص بالاتحاد عام ١٧٩٨م، والأخر بإقامة ممثل دبلوماسي.

وفي عام ١٨٠٠م نشب قتال بين الإنجليز والفرنسيين في المياه العُمَانية توفي خلاله الكابتن هول وخمسة من رجاله. وفي عام ١٨٠١م كانت البحرين هي محط اهتمام النّاس حول شواطئ الخليج. وكذلك أثارت انتباه السيّد سلطان الذي غزاها بنجاح بحملة عسكرية بحرية من مسقط، واستطاع طرد العتوب، واحتلت الفرق العُمَانية الجزيرة وأصبح سيف بن علي حاكمًا وقائدًا عليها، وذلك لما قدمه من خدمات طيبة.

واستطاع السيّد سلطان احتلال البحرين؛ ولكن تم استردادها ثانية بعد شهر واحد؛ لذلك تم إرسال سيف بن علي على رأس حملة قوية إلى الجزيرة واحتلها

مرة أخرى؛ ولكن من الصعب عليه أن يرد الأعداء، وشعر السيّد سلطان بأنَّ قوته غير كافية؛ لذلك استنجد بإمدادات من فارس. وكتب السيّد سلطان إلى الشيخ ناصر والي بوشهر، وطلب منه الوساطة مع الأمير لمساعدته، ولم ينتظر السيّد سلطان، فأعد أسطولًا هائلًا، وأبحر إلى البحرين، وهاجمه العتوب بشجاعة، وحدثت بعض الانتصارات، وبعد شهرين وصلت إليه نجدة قوامها مائتا رجل بخيولهم، وكذلك ألفان من المشاة من شيراز إلى بوشهر، واتحدوا مع سلطان، وتمكن من إبعاد العتوب. وفي يناير عام ١٨٠٣م، أراد السيّد سلطان أن يحج إلى مكة على ظهر بارجة مع الشيخ مهنا اليعربي وآخَرين. وأبحر إلى جدة ومعه بعض الهدايا من نقود وأشياء أخرى إلى شريف مكة. وأثناء غياب السيّد سلطان حاول ابن أخية بدر بن سيف الاستيلاء على الحكم؛ لكنه لم ينجح.

وفي الحرب البحرية التي اندلعت، تابع السيّد سلطان نشاطه ليحمي سواحله، ولم يكن انتصاره عظيمًا، وتركه الجميع بعد أن قدموا له بعض المساعدة؛ ولكنه كان مهددًا بالغزو من البحر، وحدث تصادم؛ لكن السيّد سلطان بدأ في تجهيز قوة دفاعية تتكون من اثنى عشر ألف رجل وبعد تعدد الاتصالات انتهت المحادثات الناجحة بين سلطان والحارق.

لقد كانت هناك صراعات متعددة متفاوتة الدرجة بين الإنجليز والفرنسيين، كان كلٌّ منهم يحاول أن يستقطب المنطقة لصالح بلاده، ومن بين المنطقة من يحاول الاتجاه إلى كل منهما إلى أن حدث احتكاك بين كل من فرنسا وإنجلترا عن طريق ممثليهما، والسيّد سلطان بعد عودته إلى مسقط عام ١٨٠٣م، وعندما سمع قائد الباخرة (إتلانتا) الفرنسي بوصول السيّد سلطان أرسل إليه ضابطين؛ ليقدما له واجبات التقدير، وطلب منه المقابلة، ثم أرسل السيّد سلطان باثنين من المسؤولين العرب إلى مسيو. م. دي. كافناك يرحب بمرور بواخر فرنسا وتحسين العلاقات التجارية بينهما.

غير أن المعاهدة مع مالكولم الإنجليزي، وتحرك الإنجليز في الهند والفرنسيين في مصر جعل السلطان يفكر بحذر في علاقة الإنجليز مع العرب، وكذلك الفرنسيين؛ ولهذا خامر الشك نفس م. دي. كافينياك بعد أن تسلم رسالة الأمير، وانتظر على باخرته ليوم آخَر. وعندما أسدل الليل ستائره تحركت باخرته إتلانتا بعيدًا، وفي

الفجر اختفت الباخرة، وأغلقت البعثة السياسية مع مسقط حتى أرسل سعيد بعثة بعد وفاة بدر عام ١٨٠٧م.

وفي عهد السيّد سلطان ١٧٩٣- ١٨٠٤م خسر الإنجليز في المحيط ما يعادل ثلاثة ملايين جنيه إسترليني، ورفض باشا بغداد أيّة معونات، وعندما تحرك الوهابيون يشقون الطريق فَضَّلَ باشا بغداد أن ينتظر الحاكم العُمَاني حتى يستهلك قوته عندما يواجههم، ثم حاول السيّد سلطان أن يجذب الهند إلى جانبه؛ لكنه لم ينجح، وقد ترك ليتحمل بمفرده أهوال الحرب.

وترك السيّد سلطان عُمَان عام ١٨٠٤م، لآخِرِ مرة في حملة بحرية في الخليج، وأبحر إلى البصرة مرة أخرى رغبة في تأكيد التجهيزات الحربية لدى الباشا التركي على شريطة أن يقوم بعملية ضدَّ الوهابيين؛ ولكنه لم يستمر، وعند عودته حدثت خلافات وصراعات، ثم وافته المنية.

وقد عرضت وفاة السيّد سلطان المدينة لخطر التهديد من الأعداء، ولم تؤثر وفاة السيّد سلطان على بلاده فحسب؛ ولكنها خلقت حالة من الاهتزاز السياسي في الخليج كله، فقد اختفى المحارب الذي كان مثالًا للشجاعة والنشاط في مواجهة الأعداء، وارتبك الأمن الاجتماعي الذي جعل كل رئيس يفكر في الدفاع عن نفسه دون أن يعرف أعداءه من أصدقائه.

وكان السيّد سلطان قد أشار قبل وفاته على محمد بن ناصر بن محمد الجبري على أن يكون وصيًّا على ولديه، وأن يدير شؤونهما وكان أول ما فعله محمد بن ناصر أن أرسل ابن سلطان الأصغر سعيد ومعه أربع بواخر وبعض القوارب إلى جزيرة قشم؛ ليهاجم القواسم انتقامًا لموت أبيه.

وقد قام محمد بن ناصر باستدعاء بعض قبائل الغافرية؛ لكي يقفوا إلى جانبه في حالة دفاع؛ لكنه وجد نفسه غير قادر على مواجهة قيس الذي كانت قوته في ازدياد.

وجرت محادثات واتصالات بين محمد بن ناصر وأخت سلطان السيدة موزة وبعض أفراد العائلة، وتقرر في تلك المحادثات دعوة بدر بن سيف لمعاونة محمد بن ناصر، ووقتها كان بدر يفكر فيما أراده أثناء سفر عمِّه سلطان للحج - كما ذكرنا سابقًا - وبينما هو في التفكير وصلته دعوة محمد بن ناصر؛ لكي يذهب إليه في مسقط، وكانت هذه الدعوة، وكأنها متوافقة مع خطط بدر التي طالما تمنى تحقيقها،

وشعر بدر في تلك اللحظة أنَّه سوف يحصل بالتأكيد على ما يريده، وسوف تكون له السيطرة على أبناء عمه، وبالفعل بدأ الرحلة إلى جلفار، ومنها إلى مسقط، وقد وصل في الوقت الحرج، فقد كان محمد بن ناصر وأبناء السيّد سلطان على استعداد للتنازل إذا وقف بدر بجانبهم في هذا الموقف.

عرف بدر كل الشؤون والظروف المحيطة بهم كما عرف كيف يطلب مساعدة أصدقائه الذين أرسلوا له قوة لتهديد عاصمة قيس - صحار - وقد نجحت الخطة، فقد وافق قيس على رفع الحصار عن مسقط بشريطة أن يتسلم الخابورة وجزءًا من الباطنة، ثم أسرع حينئذ إلى بلده، وبعد مضي شهر وجد قيس الذريعة، فجدد الاعتداء وزحف على مطّرح واستولى عليها مرة أخرى.

وصلت الإمدادات الكبيرة إلى بدر بطريق البحر. ويقال: أنَّها كانت حوالي خمس عشر مركبًا وأربعة آلاف رجل، وبهذا وضعت نهاية العداء وأجبر قيس على الرحيل.

وأخيرًا توصل قيس وبدر إلى اتفاق سلام على أساس أن يحصل قيس على مطرح.

في ذلك الوقت اتسم القواسم بالنشاط في البحر، وكان القائم بالأعمال البريطاني في مسقط يحاول الارتباط بالحكومة في مسقط ضدَّ القراصنة القواسم، وعلى ذلك أبحر إلى جزيرة قشم، وحاصر أسطول القواسم الذين طلبوا السلام، ومن قشم أبحر في أوائل يونيو إلى بندر عباس، حيث اتصل ببدر بن سيف، وعند عودة الكابتن (سيتون) حصل من بدر بن سيف على تصريح ببناء مستودع، وكذلك حصل على بعض التنازلات الأخرى.

وعندما عاد بدر بن سيف إلى مسقط وجد بعض الصراعات التي تنذر بنشوب حرب بين قيس والقواسم ومولى حسين في قشم، فترك صحار للهجوم على العاصمة، وجدد بدر نداءه إلى أعوانه؛ ليهددوا صحار، بينما كان سعيد بن سلطان يهاجم بدر، ولقد كان أهل عُمَان غير راضين عمَّا يحدث في حين كانت مآذن المساجد تتحطم، وبينما كان بدر مهتمًا بشؤون الرئاسة، وصل كابتن سكنر في ١١ يوليو إلى مسقط؛ كي يشرف على قيادة السفن في الخليج ضدَّ القواسم. وفي نهاية أغسطس عام ١٨٠٥م استولت الباخرة الفرنسية بيل بول على السفينة الإنجليزية (أنديدفور)، وكانت تحت قيادة كابتن روبسون، ثم جاءت بها إلى مسقط،

حيث اتجهت بعد ذلك إلى البصرة، وفي أكتوبر عام ١٨٠٥م حدثت مناقشات بين مولى حسين والإنجليز بخصوص القواسم لتكملة المحادثات مع الإنجليز - من أجل السلام - الذين لاحظوا ازدياد أعمال القرصنة التي يقوم بها القواسم ضدَّ السفن الإنجليزية، ثم إبرام معاهدة بين الأطراف عام ١٨٠٦م، وقد اشترك سلطان بن صقر في هذه المعاهدة التي تضمنت التعامل التجاري بين القواسم والموانئ الواقعة تحت سيطرة الإنجليز من سورات إلى البنغال.

وفي نفس العام تعاون القواسم مع بدر بن سيف على عمِّه قيس في صحار دون نتيجة تذكر. وبعد بعض الاحتكاكات أرسل أعوان بدر حملة من أسطول القواسم قوامها اثنان وعشرون مركبًا وبعض البواخر إلى صور للاستيلاء على الحصن؛ لكنهم قوبلوا بمقاومة شديدة وروح قتالية عالية، وفشل الهجوم، وتم طرد القواسم بعد أن وقعت لهم خسائر جسيمة.

ونعود إلى عام ١٨٠٦م، حيث نجد أن بدر بنٍ سيف بدأ يفكر في ابني عمِّه سالم وسعيد لإبعادهم عن الحكم في مسقط، فعين سالمًا واليًا على المصنعة، وسعيدًا على بركاء؛ لكي يبعدهم عن طريقه. وتظاهر سالم بالقبول؛ ولكن كان عليه أن ينتظر وهو يفكر في كيفية استرداد مسقط من ابن عمه، وطلب سعيد هو الآخَر المساعدة من محمد بن ناصر الجبري؛ لكنه كان يخشى البوسعيد. ولكنه لم يرفض، وتم إعداد الترتيبات التي انتهت بمأساة موت بدر؛ ولكن القوات المعاونة له في بركاء لم يسرها مقتل بدر؛ ولذلك فقد طالبت بمعاقبة الجناة؛ ولكن القوات كانوا وقتئذ في موقف حرج، وأبحر سعيد مُسرعًا إلى مسقط، وأرسل إلى أخيه سالم في المصَنعة، وتغير موقف سعيد في تلك الصراعات، وأصبح على رأس المناصرين، واتحد الأخوان حتى وفاة سعيد. وحدثت تغييرات في تلك الأسرة مما ترك تأثيرًا على العلاقات في المنطقة، كذلك على العلاقات مع الإنجليز والفرنسيين، كما أدى ذلك إلى صراعات. أخذت تتكرر على مدى سنوات، إلى أن أرسل سعيد حملة ضدَّ القواسم عام ١٨٠٩م إلى رأس الخيمة بمعاونة من قوات بوشهر؛ ولكنه فشل في الخليج، وتفرق الأسطول، وأصبح سعيد في موقف حرج، وعند ذلك سادت على الإنجليز حالة من القلق الشديد؛ بسبب اتحاد القواسم مع العُمَانيين إذ كان اهتمامهم بمسقط كميناء تجاري يجب تأمينه ضدَّ الأعداء، فَقَدْ فَقَدَ الإنجليز في فترة لا تتجاوز الاثنى عشر شهرًا ما لا

يقل عن ثمان بواخر حربية، هذا غير العديد من الضحايا؛ لهذا فقد كانوا يرون أنَّه يجب ألا يتأخروا في مهاجمة أعمال القرصنة حتى لا يتأثر موقفهم وتضعف ثقتهم بأنفسهم خاصّةً أن ذلك يعتبر ساحلًا هامًا يساعدهم على القيام بعملياتهم، كما أن هناك الكثير من العوائق كالممرات المائية التي تتميز بعدم وصول نيران المدافع إليها، ومن السهل عليهم الاحتماء بها.

كان وضع الإنجليز ملائمًا بالنسبة لحكومة مسقط، وكذلك التجارة في الخليج العربي، وقد وصلت العلاقات السياسية إلى مدى بعيد، ولا بُدَّ من مساعدة حكومة مسقط للتصدي لأعمال القرصنة.

وفي ٧سبتمبر عام ١٨٠٩م تحرك الأسطول تحت قيادة الكولونيل سميث بناء على تعليمات أصدرتها حكومة بومباي، فتحرك إلى مسقط، حيث تناقش مع حكام عُمَان السيّد سالم والسيّد سعيد، ثم تحرك إلى رأس الخيمة، حيث وصل في ١١ نوفمبر، وتم الاستيلاء عليها، وتم كذلك تحطيم كل الأسطول الحربي الموجود هناك، وعند عودته إلى مسقط طلب السيّد سالم والسيّد سعيد المساعدة من الكولونيل سميث ضدَّ شناص وخور فكان. بالمعاونة مع الفرق الخاصّة بهما، وتحركت القوتان مجتمعتين، وفي ٤ يناير عام ١٨١٠م تم الاستيلاء على شناص بعد عدة مقاومات متفرقة.

ولكن حكومة بومباي لم ترسل شيئًا إذ أنَّها رأت أن ذلك بعيد كل البُعد عن الاعتبارات السياسية، فتوجه السيّد سعيد إلى فارس ورتب لأخيه سالم لكي يتجه إلى شيراز، حيث كان الوعد بإرسال ألف وخمسمائة رجل، وعاد السيّد سالم إلى مسقط، وبدأت الحرب وفي نفس الوقت كان نجاح محمد علي ضدَّ الوهابيين.

وقد نجحت الحملة إلى حدٍّ ما دون نتائج متقدمة، وبدأت عملية أخرى عند وصول الفُرس تحت قيادة السيّد سالم الذي كان على اتصال مع عزان بن قيس وسعيد، وقد توجهوا إلى نخل ودفعوهم إلى إزكي، وسقطت سمائل أيضًا وأغراهم النجاح فتقدموا عند إزكي، وانسحب سالم ومعه الفُرس إلى بركاء، وواصل انتقامه ووصل إلى الشرقية حتى رأس الحدِّ، وأرسلت بومباي فرقة مكونة من ألفين من الرجال؛ لطردهم واحتلال المدينة والميناء، ولكنهم عادوا إلى بومباي على باخرة عُمَانية في يونيو عام ١٨١٢م.

وقد كانت هناك بعض الاتصالات مع القائم بالأعمال الإنجليزي في بوشهر،

حيث وصلت إليه الأوامر بأن يتصل بمسقط وهو في طريقه إلى الخليج. واستمرت العمليات الحربية.

واصل السيّد سعيد نجاحه دون أيّة عوائق، وفي أوائل عام ١٨١٤م توفي عزان ابن قيس في مكة في البحر الأحمر عند عودته من الحج، وأعطي السيّد سعيد تبعية صحار، وبعد مرور ثلاثة أشهر توفي الأمير سعود، ولا زالت عجلة الحظ تدور. وقام السيّد سعيد بحملة إلى رأس الخيمة ولم ينجح فيها تمامًا؛ لكنه نجح في إعطاء الشيخ سلطان تبعية الشارقة.

اتجه القواسم إلى البحر الأحمر عام ١٨١٥م، وبدأت التجارة بين الهند ومكة. وبعد فترة قصيرة أخذ القراصنة باخرة تجارة إنجليزية خارج مسقط، وذبحوا طاقمها، وكذلك باخرتين أمريكيتين وارتفعت أسهم القواسم.

وفي بداية عام ١٨١٦م قام السيّد سعيد بحملة ضدَّ رأس الخيمة، واحتل ذلك الميناء لمدة أربعة أشهر دون تأثير يذكر، ونجح الأمير عبدالله في أن يأخذ مكان أبيه سعود في الدرعية، وأشار إلى أهمية وجود وكالة في مسقط، وإلى إقامة سلام دائم، وكانت هناك محادثات؛ لكن التساؤل عن وضع رأس الخيمة كان هو العائق، وعلم فيما بعد أن هناك عصيانًا في نخل، حيث كان حمير بن سليمان اليعربي وهو آخِر القياديين في تلك الأسرة، وكذلك محمد بن ناصر الجبري، وقد تمرد هؤلاء ضدَّ حكم السيّد سعيد الذي واجه حمير؛ ولكنه لم ينجح، ثم حاول اجتذابه إلى جانبه وتسبب في قتله.

وعاد السيّد سعيد من حملته ضدَّ رأس الخيمة في إبريل عام ١٨١٦م ثم اتجهت حملة من مسقط نحو الخليج في يونيو، وبمساعدة الفُرس اتجهت الحملة إلى جزيرة أوال؛ لكن العتوب هاجموها، ثم أبحر إلى كايتون، حيث وعدوه هناك بأن يعملوا معه ضدَّ الوهابيين، ومن حسن حظّه أنَّه اكتشف في الوقت المناسب أن الفُرس يحاولون وضعه في المصيدة كي يفشل مشروعه ضدَّ البحرين فعاد إلى عُمان. في ذلك الوقت كان محمد علي والي مصر قد حَطم نهائيًّا أسطورة الأمبراطورية الوهابية.

وبدأت الاتصالات مع الفرنسيين عام ١٨١٧م، وبدأ تنظيم التجارة بعد أن وضع السيّد سعيد معهم في ٣٠مارس ١٨١٧م اتفاقية تجارية استمرت سارية المفعول حتى بدأت محادثات القاهرة التجارية الفرنسية عام ١٨٤٤م، وفي عام ١٨١٧م

احتل القواسم مناطق السيّد سعيد، وكان محمد علي باشا قد أرسل ابنه إبراهيم باشا؛ ليتتبعهم ويقمع شراستهم، كما أرسل بعض ضباطه لمقابلة السيّد سعيد، وقد قدمت حكومة الأتراك له كل الاحترام عند وصوله جدة في طريقه إلى مكة والمدينة، واستقبله الشريف بحفاوة بالغة، وعند رحيله سلمت إليه الهدايا النفيسة التي أرسلها له محمد علي باشا، وعاد السيّد سعيد إلى مسقط.

وفي عام ١٨٢٦م لم تكن حرب السيّد سعيد ضدَّ البحرين ناجحة رغم التكاليف الباهظة في إعدادها.

وفي عام ١٨٢٩م قتل محمد عقيل حاكم ظَفَار في مرباط، فأرسل السيّد سعيد قوة للاستيلاء على المنطقة.

### الصراعات تتوالى في المنطقة بتتابع مرور السنين وتتكرر حوادث العصيان:-

كان السيّد سعيد قد توجه إلى زنجبار، وكان ينوي أن يستقر بها، وبالفعل بدأ في بناء قصر في متوني؛ ولكنه لم يحتمل الهدوء. وعند عودة السيّد سعيد في ١٠ سبتمبر عام ١٨٣٢م أمر حمد بن أحمد والي زنجبار بالتوجه إلى مقديشيو بأسطول ممباسا، ودخل حمد إلى مقديشيو وقتل عبدالله بن سالم. واتجه الوهابيون أعداء السيّد سعيد القدامى إلى عُمَان، ولم يكن لدى السيّد سعيد أي استعداد للمقاومة، ونصحه الإنجليز بأنَّه من الأفضل إقامة علاقات صداقة معهم، ووافق على أن يدفع خمسة آلاف دولار سنويًّا، وأن يحترم كل طرف بلاد الآخر ويساعده، وقد اعتبر الإنجليز هذا التعاقد تعاقدًا غير سياسي، وبالتالي فلم يكن مقبولاً.

في ذلك الوقت وصلت بعثة على الباخرة بيكون الحربية من الولايات المتحدة الأمريكية لإجراء بعض المحادثات بما فيها المحادثات التجارية مع سلطنة عُمَان، وكان ذلك واحدًا من الأحداث الهامة في حياة السيّد سعيد.

وبدأت أهمية كل من مسقط وزنجبار كمراكز تجارية تزداد، وجذبت أنظار التجار الأجانب وأصبحت بعض التجارة في أيدي الهنود مما دفع الإنجليز للتدخل، أما موقف الأمريكيين فقد كان مختلفًا، فقد بدأوا التجارة مع زنجبار ما يقرب من اثنى عشر عامًا، وعانوا كثيرًا من العوائق التي كانت تظهر أمامهم، فاتصلوا بحكومتهم،

ودخلوا في معاهدة مع عُمَان للتجارة معها في أمان، ولتحقيق رغباتهم الأساسية، وشعر السيّد سعيد أن السماح للأمريكيين ببناء المراكز أينما يريدون في زنجبار أو ساحل أفريقيا الشرقي لن يضره على أن يقدموا له المساعدات الحربية لتحقيق خططه.

وصل كابتن هارت إلى زنجبار عام ١٨٣٤م، وتمكن من إيقاف ذلك، وبعد محادثاته مع السيّد سعيد توصل لعقد معاهدة بين عُمَان وإنجلترا. وفي نوفمبر عام ١٨٣٣م اتفق السيّد سعيد مع مطلق المطيري الحاكم الوهابي لكي يعاونه الأخير في إعادة إخضاع ممباسا لسيطرته. ترك السيّد سعيد مسقط بين يدي أحد أبنائه وأبحر في طريقه إلى ممباسا، ورسا خارج أحد حصونها، وقام بهجوم؛ ولكن ذلك الهجوم فشل، وبعد ثمانية أيّام دارت المحادثات، حيث عاد السيّد سعيد إلى زنجبار منتصرًا.

وأرسل السيّد سعيد حملة إلى سيوى؛ لكن السيّد سالم ساعد السيويين، وفي باتا وسيوى كان التحرك غير ناجح، واستقر السيّد سعيد في زنجبار؛ ولكن وجود بعض المتاعب في بلاده جعلته يعود إليها، إذ أن حمود بن عزان أثار بعض المتاعب؛ بسبب حادثة قديمة، كما أثار بعض القلاقل الحربية لكن السيّد سعيد وضع نهاية لذلك.

وفي عام ١٨٣٥م وصل اللفتنانت ولستد من البحرية الهندية، وهو من أفضل مستكشفي عُمَان، وبقلمه كتب أحسن وصف للجزيرة العربية. وتنقل ولستد في مقاطعات عديدة تحت حماية السيّد سعيد، وأشهر تجربة له في تلك الرحلة الملاحية كانت في نهر الفرات، وبدأت بعثة من نهر الفرات في مارس عام ١٨٣٦م، ثم وصل إلى الخليج في يونيو، وواصل الكولونيل كشنزي رحلته إلى بومباي حتى نوفمبر على الباخرة (هوف لنداي).

وأخذت شؤون عُمَان كثيرًا من وقت السيّد سعيد، وقد كان يخاف من ترك مسقط والتوجه إلى زنجبار خوفًا من أن ينتهز السيّد حمود فرصة غيابه ويتمرد. وفي عام ١٨٣٦م عقد السيّد سعيد اتفاقًا مع ابن مطلق لمحاربة صحار والرستاق، وحاصر ابن مطلق صحار من البرّ بينما حاصرها أسطول مسقط في البحر، ثم عاد الأسطول إلى مسقط. وبعد وفاة والي ممباسا سالم بن أحمد دارت مباحثات بين أخويه خميس وناصر، وبعد مرور عام نجح راشد بن سالم في الحصول على الولاية في ممباسا.

وأعد السيّد سعيد حملة للمرة الثالثة إلى ممباسا، ولم يستطع راشد بن سالم مواجهة

قوّة السيّد سعيد، وبدأت محادثات في فبراير عام ١٨٣٧م نصت على أن يكون الحصن لرجال السيّد سعيد، وأن يقيم الوالي في المدينة، وعلى ذلك ترك علي بن منصور في الحصن ومعه خمسمائة رجل وأبحر السيّد سعيد إلى زنجبار.

كانت حروب السيّد سعيد في ممباسا مستمرة، حتى أنَّه قتل كل من راشد بن سالم وشركاه، وبذلك انتهت أسرة المزروعي بعد قرن كامل.

وأرسلت ملكة إنجلترا إلى السيّد سعيد دعوة، فبعث علي بن ناصر ليقدم التحيات للملكة، ولتقديم بعض الهدايا القيمة وجرت بعض المحادثات انتهت بتوقيع معاهدة تجارية بين البلدين عام ١٨٣٩م.

وعاد السيّد سعيد من شرق أفريقيا في سبتمبر عام ١٨٣٩م، وقد لفت نظره تقدم القوات المصرية، وبعد بعض التحركات، وبتدخل من الإنجليز تم إبعاد الخطر عن عُمَان، وفي عام ١٨٤٠م عين الكابتن هامرتون كممثل سياسي في مسقط، ثم صدرت إليه الأوامر أن يزور البريمي من الشارقة وليسجل ملاحظاته. وفي عام ١٨٤١م أبحر الكابتن هامرتون إلى زنجبار ووصلته تعليمات أن يصاحب السيّد سعيد إلى عُمَان.

وفي عام ١٨٤٣م، وبعد انتهاء الحرب الأهلية فكر السيّد سعيد أن تكون جزيرة البحرين تابعة له، وبدأ في تجهيز حملة لهذا الغرض، وفي ذلك الوقت كان يتهدد عُمَان أعداؤها القدامى.

وبعد حروب طاحنة تم توقيع المعاهدة الثالثة في نوفمبر ١٨٤٤م مع فرنسا، وبعدها أرسلت حملة إلى مدغشقر ومياه شرق أفريقيا تحت قيادة الكابتن جوبان بين عام (١٨٤٦- ١٨٤٧م)، وقد أعرب الكابتن عن تقديره لشعب زنجبار بالنظر إلى الموقع الأستراتيجي الذي يحتله الساحل الأفريقي بوباتا. مقابل الوجود البريطاني في عدن، وفي عام ١٨٤٧م حاول الكابتن جوبان حمل رؤساء المنطقة على الموافقة على بيع مينائي لامو وبراوه إلى الحكومة الفرنسية وكان كلا المينائين تابعين للسيد سعيد الذي كان باستطاعته أن يوقف مثل تلك الصفقة. وعند مرض السيّد سعيد في سبتمبر عام ١٨٥١م أحاطت به الأسرة. وبعد العديد من الصراعات والقلاقل ظهرت قوة وهابية كبيرة تحت قيادة الأمير عبدالله بن فيصل الذي أعاد احتلال البريمي، وقام بمحاولة ضمّ عُمَان إلى أمبراطورية النجديين وكنتيجة لذلك تحرك

السيّد ثويني إلى صحار للدفاع ضدَّ تلك الحملة، وفي هذه الأثناء تدخل الإنجليز وتمكنوا من عقد معاهدة تدفع حكومة مسقط بموجبها الزكاة سنويًّا ومقدارها اثنى عشر ألفًا من الريالات إلى عبدالله بن فيصل الذي عاد إلى نجد في نهاية عام ١٨٥٣م تاركًا أحمد السديري على رأس قوة في منطقة الحدود.

وقد أرسل الفرنسيون الكابتن فريستال للحصول على موافقة السيّد سعيد لشراء جزر كوريا موريا؛ ولكن السلطان السيّد سعيد رفض طلبهم، وتم الاتفاق على تقديمها كهدية بتاريخ ١٤يوليو ١٨٥٤م. واستمرت الحملات الحربية من الفُرس إلى بندر عباس خوفًا من تحركات العرب نحو الساحل.

وبعد إبعاد الحاكم القديم سيف بن نبهان تم إرسال حملة إلى بندر عباس تحت قيادة السيّد ثويني، حيث احتلها مرة ثانية. وفي هذه الأثناء أعد الفُرس حملة جديدة تحت قيادة قائد فارس، واتجهت إلى شيراز، وتم إجبار العرب على الرحيل.

وبدأت المحادثات بين السيّد سعيد والشاه في إبريل عام ١٨٥٦م حول بندر عباس، وكان أهم ما دار فيها هو وضع بندر عباس تحت مسؤولية السيّد سعيد، وتعيين من يقومون بشؤون الأمن. وبعد رحيل السيّد سعيد أوقفت الحرب بين إنجلترا وفارس (إيران). ثم أرسل اللورد ألوزي حملة كبيرة من بومباي تحت قيادة القائد البحري الأدميرال سيرليك، ووصلت مراكب الشركة إلى مسقط، وفي نفس الشهر توجهت الحملة إلى الخليج وسرعان ما تم احتلال كل من بوشهر والمحمرة من جانب الإنجليز.

وفي ١٩ أكتوبر توفي السيّد سعيد الذي كان بعظمة أخلاقه رمزًا لشجاعة العربي، بل ورمزًا لحاكم عظيم أحبَّه أهل بلاده، وفي ظلِّه تقدمت التجارة في ساحل أفريقيا الشرقي؛ نتيجة لنشاطه، وحمايته للساحل، وبعدَ نظره.

* * *

# الفصل السادس

# قبائل الخليج

تم إلحاق البيانات التالية عن قبائل الخليج بشيءٍ من التردد، والمؤلف وحده هو أدرى النّاس بالطريقة التي تمت بها معالجة تلك البيانات، ومع ذلك يمكن الاستعانة بها كأساس في عمل تقرير أو دراسة وافية وموثوق بها عن تاريخ المنطقة وظروفها... الخ.

**(المؤلف)**

## أصل القبائل:

يبدو أن الكوشيين هم أوّل من عَمر شبه الجزيرة العربية، وفي الشمال نجح الإسماعيليون والعدنانيون، وفي الجنوب القحطانيون. واستطاعت تلك الأجناس تقسيم الجزيرة العربية إلى مجتمعين سياسيين، عرفا تحت أسماء مختلفة: الجنس الشمالي الذي أطلق عليه العدنانيون، معديون، أو نزار، والجنس الجنوبي أو القحطانيون الجنوبيون واليمنيون.

ورغم ذلك فقد اختفى الإسماعيليون كجنس منفصل من شمال الجزيرة العربية قبل الإسلام، بحوالي مائتي عام، وقد كانوا أقل اتصالاً بالعرب منهم بالعبرانيين؛ ولكن كيف اختفوا؟ لا أحد يعرف فربما بسبب الحروب، وربما بوباء الطاعون، وربما امتزجوا بقبائل أخرى، على أيّة حال فهناك إسماعيليون في الجزيرة العربية الآن.

ولكن النظام الذي وضعه علماء الأنساب العرب يمكن النظر إليه كنظام موثوق به ككل، وإن كان يرتبط بتناقض وتضارب مع بعض العلماء الأوروبيين، وتوافق مع آخَرين. ويجب أن نذكر أن العرب بذاكرتهم التاريخية وتفوقهم القديم لديهم إيمان عميق وتبجيل لأصول النسب، وقد انتقل هذا الإحساس - ربما من آلاف السنين - من الآباء للأبناء. وقد حدث بعد عصر سيّدنا محمد (ﷺ) أن العرب كانوا مجتهدين وناجحين في تطوير وتفضيل معظم الأفكار في عمل صور لأصول النسب العربية في بحوث النسب الخاصّة بهم، ولم يكن النجاح مقصورًا على دراسات علم الأنساب، فهم كذلك ناجحون في دراساتهم الجغرافية التي تعد فخرًا للثقافة العربية.

وبينما كانت الهجرة الأولى إلى عُمَان من أفريقيا، سواء بطريقة مباشرة أو من اليمن بعد أن جاءت من الجنس القحطاني أو العدناني، ثم الهجرة الثانية من اليمن عن طريق الأزديين بعد تدمير وانهيار سد مأرب. لذلك فيمكن أن تكون القبائل العُمَانية تابعة للأصل الرئيسي وهم القحطانيون والعدنانيون - أصحاب السيطرة القديمة - وللحق فقد كانت هاتان المجموعتان في عداء غير معلن سبب للبلاد تمزقًا واضطرابًا أبديًّا؛ بسبب الضغائن والأحقاد والكراهية، إلا أنَّ هذا العداء هو مفتاح التاريخ الحقيقي لتلك المنطقة.

ولا شكَّ أنَّه - بدون شيء من المعلومات عن علم الأعراق والأنساب العربية -

فإنه من المستحيل أن نفهم التغير المستمر في التحالفات والاندماجات السياسية التي تشكل حدثًا هامًا في تاريخ شعب منقسم إلى حزبين كبيرين، لكل جنسه وسياساته، وإن كان كلاهما يحكمه قانون اجتماعي واحد.

وقد تجمعت قبائل عُمَان معًا في تحالف غير رسمي طبقًا للسياسات القائمة، وبغرض تأييد كل قبيلة للأخرى عند أي هجوم تتعرض له، بينما تضطر القبائل الضعيفة إلى إخلاء أماكنها للقبائل الأقوى منها، وقد اعتادت القبائل الضعيفة أن تضع لنفسها من ناحية الأنساب حدودًا متميزة، وفي الوقت نفسه فهي على استعداد لأن تتبع قبيلة أخرى؛ ولكنها لا تندمج معها.

وقد دخلت هذه المجموعات من القبائل في تحالف غير رسمي لفترة من الوقت وفي اتحاد مع مجموعة متشابهة من نفس الاتجاه في مقاطعات أخرى، إما الهناوية أو الغافرية، وذلك لحمايتها عن طريق روابط النسب، وهي الأقوى من كل الروابط.

وفي عُمَان يتم التوزيع الجغرافي للقبائل أولًا وقبل كل شيء بناء على نتائج النزاع والحروب المميتة، ويتم تشكيل تحالفات جديدة بين القبائل من الأنساب المختلفة ضدّ التحالفات في المقاطعات الأخرى؛ ولكن المجموعات الجديدة تصبح أكثر تعقيدًا.

## تقسيم القبائل:

تبعًا لدراسات الأنساب العربية فإن التقسيم الطبقي للقبائل معقد للغاية، ويمتد إلى أكثر من اثنى عشر أو أكثر من الصفوف والأفرع، وإن كانت قيمة التقسيمات غير مؤكدة كما أن السلطات تختلف حول هذا الموضوع، وفي عُمَان تبدو هذه التقسيمات قليلة للغاية، ويبدو أن دراسات الأنساب تضع تمييزًا واضحًا، وإن كان من الواضح أنَّه لا اختلاف بين الأنواع المختلفة من القبائل إلا من ناحية الأسماء التي تبدو أنَّها نطاق عددي تأتي فيه القبائل ذات العدد الكبير، ثم الأقل، وهكذا.

والقائمة الآتية لبعض الأفرع الهامة وهي:

الجدثام، الجمهور، الشعب، قبيلة، العمارة، البطن، العشيرة، الفصيلة، الرهط، الفخذ... الخ.

والأسماء السالفة رغم ذلك نادرة الاستخدام في عُمَان، حيث تسمّى القبيلة طائفة، وتقسم ببساطة إلى فخوذ، ثم تقسم مرة أخرى إلى بيوت وبطون، وفي

الرموز القبلية تشمل هذه الأسماء. أسماء الحيوانات والنباتات والآلهة، وكذلك الأجرام السماوية، وما زال عدد منها موجودًا، وإن كان استخدامها محتملًا في العصور القديمة البعيدة أكثر بكثير من أسماء الإنسان، وفي دراسات الأنساب كان عدد الأسماء الأنثوية التي تسمّى القبيلة باسمها كثيرة. وفي عُمَان كانت الأسماء الأنثوية تطلق على القبائل النبيلة، والأقل نبلًا، وعلى كثير من الرجال.

## الشيوخ:

ينظر للشيخ كوالد لقبيلته، ولكل فخذ أو تقسيم شيخه الخاص، الذي يعتبر نفسه مسؤولًا عن الآخَرين، وإن كان منصبه أكبر، وقوته أكبر من الآخَرين، وبخاصّة في أوقات الحرب. ويجب أن نذكر أن هناك عددًا قليلًا من الشيوخ في عُمَان يعرفون بالتمائم الذين يمتلكون القوة الحقيقية على شعوبهم ومن هذه القبائل بني ريام، والجنبة، وبني علي، وبني حسن، وبني غافر... الخ.

والمشيخة عادةً بالوراثة، وتعطى للابن الأكبر، والابن يخلف والده حتى إذا كان شابًا صغيرًا، وقد رأيت بنفسي صبيًا في سن الثانية عشرة أو الرابعة عشرة يعطي الأوامر لأتباعه الذين يطيعونه بلا تردد؛ ولكن في وقت الحرب بلا شك تكون المسؤولية في أيدي آخَرين، ومن ناحية إرساء العدالة فإن العادة والقرآن تحكمان قرارات الشيخ، وكلما وضع الشيخ هذه القوانين نصب عينيه كلما أطاعه أتباعه بولاء، وفي وقت السلم يساعده مجلس استشاري من الشيوخ الذين يساعدونه لإقامة معظم الشؤون العامّة للقبيلة. ومعظم المشاجرات والمشاحنات بين أفراد القبائل المختلفة التي يكون معظمها بسبب المال عادةً يتم تحويلها إلى أقرب القضاة، ويتم تعيين القاضي من قبل الحكومة المركزية التي تدفع له راتبه.

أما في وقت الحرب فالشيخ قائد لا يقبل النقاش، ويعتمد كل شيء على شخصيته ورجاحة عقله وشجاعته، ولا يحصل الشيخ على مساهمات من شعبه فحسب، بل إن له ممتلكاته الخاصّة وجماله وسفنه، بالإضافة إلى ما يرسله السلطان، ومن وظائف الشيخ التوسط بين القبائل؛ ولكن هذا التوسط غالبًا ما يفشل، فتكون النتيجة هي الحرب، فمعظم الأحزاب لا تستريح ولا تقتنع دون إراقة الدماء، وبعد الحرب يتم ترتيب هدنة لعدة شهور أو لمدة عام، وإذا لم يتم إرساء دعائم السلام خلال تلك الفترة فإن العداء يتجدد.

## قبائل عمان:

١. قبيلة بني علي:

سنيَّة المذهب تسكن الرستاق، وعددها ألف نسمة.

٢. قبيلة بني علي:

إباضية المذهب، وهي في اتحاد مع بني ياس، ويسكنون وادي عاهن تحت جبل وقبة، بالقرب من ينقل، وكذلك وادي فداء وعددها سبعة آلاف نسمة.

٣. العمور:

ويسكنون الباطنة وهي قبيلة صغيرة لا تتجاوز الخمسين فردًا.

٤. قبيلة بني عرابة:

إباضية المذهب: وهي بطن من قبيلة الأوس، وهم من أبناء مسعود بن راشد بن عرابه الأوسي وهم على اتحاد مع الندابيين والرحبيين. وعددها خمسة آلاف نسمة مقسمة إلى خمسة وعشرين فخذا.

٥. قبيلة العوامر:

بدو إباضيو المذهب، وهم من المعديين. وتعود بالنسب إلى عَمْرو بن صعصعة وهم الآن هناويين سياسيًّا، والبدو من هذه القبيلة يتجولون في الصحراء حتى ظَفَار. ويشغل الجزء المستوطن من القبيلة اثنتى عشر قرية بالقرب من نزوى، وهي قرى: قريتين، الحاميدية الأكيل، الصليبية الحديد، الحماديين، شاقعة، السيا والهبل، القلاع، سوق القديم الحزمة، عددها حوالي ١٢٠٠ أو ١٤٠٠ نسمة، يقيم الشيوخ في القريتين ويقال: أنَّهم يتكلمون لهجة خاصّة بهم، ولها ثلاثون فخذا.

٦. - قبيلة العزيز:

قبيلة صغيرة عددها مائتا نسمة، وتسكن ضنك في الظاهرة.

٧. - قبيلة بني عزان:

قبيلة غافرية صغيرة تسكن نخل.

٨. - قبيلة بني بطاش:

قبيلة هناوية كبيرة. إباضية المذهب تشغل مقاطعة قريات، وقراهم الرئيسية

المزارع، الحيل، وقريات، وهم فرع من يال، عددهم عشرة آلاف، وهي قبيلة مسالمة يتميز أهلها بالشجاعة، واعتادوا في العصور القديمة رعي الخيل للسوق الهندية، وينقسمون إلى تسعة فخوذ، ويقول البعض: إن قبيلة بني بطاش حميرية.

٩. - قبيلة البوارح:

سنيو المذهب - هناويون - عددهم ألف وخمسمائة نسمة، يسكنون عتيبة في الباطنة.

١٠. قبيلة البدية:

سنيو المذهب - عددهم ألف نسمة - يسكنون وادي حانه في الباطنة.

١١. قبيلة آل بريك:

جزء منهم سنيون، وجزء آخَر ينتمون إلى الإباضية - هناويون -عددهم ألف ومئتا نسمة، يسكنون الباطنة وشيرز وقصيبات آل بريك.

١٢. قبيلة بني بو علي:

غافريون، فرع من القبيلة العدنانية الكبرى بني تميم، هاجروا من البحرين، حيث كان بنو تميم الأقوياء عددهم تسعة آلاف نسمة يشغلون صور، الأشخرة، ووادي بني خالد في الشرقية، وهم بدو وحضر، كانوا أصحاب جمال وغنم وماعز بينما كان ساكنوا الأشخرة وصور معظمهم تجار.

١٣. قبيلة بني بو حسن:

قبيلة هناوية - تسكن جعلان - إباضية المذهب أصلها شمس، عددهم عشرة آلاف، مدينتهم الرئيسية هي بلاد بني بو حسن، حيث يزرعون التمر والذرة، والقبيلة مقسمة إلى اثنى عشر فخذًا وأربعة قبائل صغيرة هي قانعة، بني علي الفتا، واثنتان أخريتان، وقيادة القبيلة ليست لشيخ واحد؛ ولكنها مقسمة بين ثلاثة شيوخ.

١٤. البداة:

غافريون - تشغل دوت في الظاهرة - عددها خمسمائة.

١٥. قبيلة الأهمانية:

سنيَّة المذهب - هناوية - تشغل وادي القور في الحجر عددها ثمانمائة نسمة.

١٦. قبيلة الدهمية:

عددهم ستون فردًا – يسكنون يكرا في ساحل الباطنة – غافريون.

١٧. قبيلة الدرامكة:

هناويون سياسيًّا – يسكنون إزكي وعددهم مائة نسمة.

١٨. الدروع:

جزء منهم إباضيون – وجزء آخَر سنيّون – متفرقون. والجزء الأكبر منهم في ثنيان بالظاهرة – وهو منقسم إلى أربعة وعشرين فخذًا – عددهم ستة عشر ألف وجزء صغير منهم مستوطنون والأكثر بدو – وهم أكبر رعاة للجمال في عُمَان – وليس للدروع قانون – وهم غافريون.

١٩. قبيلة الذهول:

قبيلة غافرية صغيرة تسكن العوابي – عددها خمسمائة.

٢٠. قبيلة الظواهر:

ينتمون إلى الجناح الهناوي، وهم يسكنون الظاهرة كما يسكنون عين البريمي – وعددهم أربعة آلاف. أو خمسة آلاف.

٢١. قبيلة بني عيسى:

إباضيو المذهب – عددها ثلاثة آلاف – غافريون ويسكنون أهين في مقاطعات الحجر والباطنة.

٢٢. قبيلة الفزار:

قبيلة صغيرة – عددها خمسمائة وهم سنيّو المذهب – هناويون ويسكنون مكاى في الباطنة.

٢٣. قبيلة الغافي:

قبيلة الغافي قبيلة صغيرة عددها مائتان وخمسون – تسكن قرية أبو عبالي – إباضيو المذهب، وهم هناويون.

٢٤. قبيلة بني غافر:

أصلهم عدنانيون – هاجروا إلى عُمَان من نجد – عددهم خمسة آلاف يسكنون

الوادي العظيم الذي أخذوا منه اسمهم - ويسكنون بهلاء - والظويهر - وخفدي - العينان وجزء منهم سنيّون والآخَر إباضيون.

وعُمَان تنقسم إلى حزبين رئيسيين هما اليمن ونزار، وقد أصبحت الأخيرة معروفة في القرنين الأخيرين باسم هذه القبيلة الغافرية، وقد حدث هذ التغير بناء على سلالة قائدها محمد بن ناصر الذي أصبح إمامًا، وقد كان محمد بن ناصر اطوابى، وهي قبيلة أصبحت تابعة لبني غافر، والقبيلة الآن ليس لها تأثير في القبيلة الأصلية يزيد على القبائل الأخرى التي تكونت وشيخ بني غافر هو تميمة كل القبائل الغافرية، ويقيم الشيخ الحالي في بهلاء.

### ٢٥. قبيلة الفوارد:

قبيلة صغيرة عددها مائتان وخمسون نسمة، يسكنون أبو عبالي بالباطنة، وهم إباضيوا المذهب، وينتمون إلى الفرع الهناوي، وهم من سلالة أو أصل يمني.

### ٢٦. قبيلة بني هلال:

تميزوا بصفة عامّة كقبيلة أو طبقة منفصلة أو منعزلة أو مستقلة؛ ولكنها ضعيفة للغاية وذات نفوذ قليل وهم غافريون، وتعدادهم ألف ويقيمون في بهلاء ونزوى.

### ٢٧. قبيلة الهنادس:

إباضيو المذهب، عددهم ألف ومائتان يسكنون الباطنة، وينتمون إلى الهناويين.

### ٢٨. قبيلة بني هناءة:

أصلهم أزديون وهم من سلالة مالك بن فهم، وهي قبيلة كبيرة تعدادها عشرون ألفًا، ولها العديد من الأحلاف ولها نفوذ كبير، وموزعة بانتشار، تسكن نزوى، الغافات، بلاد سيت وفي سمائل، ومدن: فنجا، وبدبد، وكلوه... الخ، ولمدة المائتي عام الأخيرة أعطت هذه القبيلة اسمها لليمنيين، وهم إباضيو المذهب.

### ٢٩. قبيلة الهشم:

تسكن وادي بني خالد في جعلان، لها هناك ٦ قرى وهي: الكامل - سيق - حميه - طيوي - وغيرها وكلهم حضر يزرعون الفواكه والذرة وعددهم أربعة آلاف، غافريون من الناحية السياسية، منقسمون بين الإباضية والسنيّة، ومنقسمون إلى اثنى عشر فخذا.

### ٣٠. قبيلة الحبوس:

ربما كانت أكبر قبيلة في الشرقية بعد الوهابية - تسكن المضيبي في وادي عندام، تنحدر من سلالة عبس - عددها خمسة وعشرون ألفًا - منقسمة إلى أحد عشر فخذًا، معظمهم بدو؛ ولكنهم استوطنوا، ويزرعون الأرض ويقومون برعي الجمال - وهم عادة ينضمون إلى الأحلاف؛ ولكنهم لا يأخذون دورًا قياديًا، إباضيو المذهب.

### ٣١. قبيلة آل حمد:

إباضيو المذهب - هناويون وعددهم ألف نسمة.

### ٣٢. قبيلة بني حماد:

سنيّو المذهب وهناويون وعددهم ألفًا نسمة، يسكنون سور حسين في الباطنة.

### ٣٣. قبيلة الهاديين:

إباضيو المذهب. وهناويون - عددهم ألفان ويسكنون وادي عندام في الشرقية.

### ٣٤. قبيلة بني حراص:

إباضيو المذهب، وغافريون، عددهم خمسة عشر ألفًا يسكنون نخل.

### ٣٥. قبيلة الحرث:

إباضيو المذهب، يسكنون إبراء، الدريز، القابل وعزوتهم أولاد يحمد، وهم فرع من بني تميم، هناويون، قبيلتهم واحدة من أغنى وأكثر القبائل نفوذًا في الجزء الشرقي من عُمَان، وهم يشتغلون بالزراعة والتجارة، هاجر الكثير منهم إلى زنجبار، حيث وصلوا إلى مراكز كبيرة، وهناك خمس عشائر تباعة لقبيلة الحرث، والقبيلة مقسمة إلى سبعة عشر فخذًا، يقيم التميمة في قابل، عددهم نحو عشرة آلاف نسمة.

### ٣٦. قبيلة الحراسيس:

قبيلة عُمَانية - امتدت في عُمَان من حضرموت، وهي فرع من أسرة المهرة الكبيرة، سنيّون ويتبعون الغافرية.

### ٣٧. قبيلة بني حسن:

إباضيو المذهب - عددهم سبعة آلاف، هناويون.

### ٣٨. قبيلة الهدادبة:

قبيلة هناوية - وعددها خمسة آلاف تسكن فنجا، وبدبد في وادي سمائل، ويسكن بعضها في شيرز في الباطنة، وهم إباضيو المذهب.

### ٣٩. قبيلة الحجريين:

هم أولاد عيسى، إباضيون، عددهم خمسة عشر ألفًا وفي الشرقية يعدون من القبائل الرئيسية، ورغم أنَّهم في الأساس حضر إلا أنَّ عددًا كبيرًا منهم بدو، يرعون الجمال ويتاجرون مع بومباي وزنجبار وفي الماضي كانت القبلية أكثر أهمية، وهم هناويون.

### ٤٠. قبيلة الحكمان:

سنيّو المذهب - هناويون، عددهم خمسة آلاف يسكنون محوت وساحل البحر الحدري.

### ٤١. قبيلة الهواجر:

قبيلة صغيرة، تسكن صور وجفا في الشرقية عددها ثلاثة آلاف نسمة إباضيون، وهناويون.

### ٤٢. قبيلة الحواسنة:

هنايون سياسيًّا، وإباضيو المذهب، يسكنون وادي الحواسنة، الخابورة عددهم من عشرة آلاف إلى اثنى عشر ألفًا.

### ٤٣. قبيلة الهيود:

يسكنون ريام في الباطنة عددهم ألف وخمسمائة إباضيون وهناويون.

### ٤٤. قبيلة العبريين:

قبيلة حضرية كبيرة ذات تأثير، وتسكن بهلاء والعوابي والحمراء والعراقي وأرهل، وهي قبيلة مسالمة تعدادها ثمانية آلاف، إباضيو المذهب وغافريون، يزرعون القمح والتمر.

### ٤٥. قبيلة بني جابر:

وهم أولاد ظبيان، من كتلة غطفان، وينتمون إلى ظبيان واحد من أصل داحس، وربما هاجروا إلى عُمَان قبل الإسلام وهم قبيلة كبيرة جدًّا ومتفرقة، تسكن جبل ياسر

ووديانه المسمّاة باسمهم، والتي تشمل مدن التاو، سبها، قلهات، ضباب، عددهم ثلاثون ألفًا كلهم حضر، إباضيو المذهب، غافريون.

### ٤٦. قبيلة بني كعب:

في العراقي عددهم ثمانية آلاف من كتلة حمدان، وفي عُمَان قطاع منهم يبلغ ألفًا، وهم يسكنون محضة في الجو، ووادي القور، سنيّون وغافريون.

### ٤٧. قبلة القشابرة:

قبيلة صغيرة من أصل قحطاني، عددهم مائتان يسكنون خور الملح في الباطنة سنيّو المذهب، وهناويون.

### ٤٨. قبيلة البو كريم:

إباضيو المذهب، يسكنون الحجيرة وظبيان في الباطنة، عددهم أربعة الآف، وهناويون.

### ٤٩. قبيلة بني قتب:

يسكنون ضنك وأفلاج في الظاهرة - عددهم ألفان - وهم سنيّو العقيدة، وغافريون، وهم قبيلة بدوية مقسمة الآن إلى قسمين: شمالي وجنوبي، يطلق على القسم الجنوبي اسم العشواني، والباطنة هي أرض الصيد المحببة لهم.

### ٥٠. قبيلة بني كلبان:

جزء سنيّون وجزء إباضيون، وعددهم خمسة آلاف يسكنون مقنيات بالظاهرة، غافريون.

### ٥١. قبيلة الجهاضم:

أولاد جهضم، هناويون أو يمنيون، عددهم ألف وخمسمائة ويسكنون سمد الشان في الشرقية، وهم إباضيون.

### ٥٢. قبيلة الجنبة:

من أصل قحطاني؛ ولكنهم غافريون، تمتد أراضيهم من ميناء صور عبر الساحل إلى كوريا وموريا (الحلانيات)، وعددهم ثلاثون ألفًا، وهم ينقسمون إلى أربعة أقسام مقسمة إلى العديد من البيوت، وتمتلك القبيلة العديد من القوارب، وتتاجر مع كل

الموانئ في المحيط الهندي، وقد كان ميناء صور هو المحطة الرئيسية للعبيد في شرق الجزيرة العربية، والصوريون هو الاسم المعروفة به قبيلة الجنبة، وكان هذا الاسم يمثل رعبًا في المحيط الهندي في العصور الماضية، وسنيّو المذهب.

٥٣. قبيلة الجراد:

هناويون، إباضيو المذهب، عددهم ثلاثة آلاف، يسكنون أبو مارجيكا والجراد في الباطنة.

٥٤. قبيلة الجبور:

عددهم خمسون ويسكنون سمائل - غافريون.

٥٥. قبيلة بني خالد:

قبيلة سنيّة تسكن أم الطايفة في الباطنة، عددهم ألفان، وهم هناويون.

٥٦. قبيلة الخميس:

هناويون يسكنون الخبا وشيبا في الباطنة، إباضيو المذهب، عددهم أربعة آلاف.

٥٧. قبيلة بني خروص:

عددهم ١٥٠٠ يسكنون وادي بني خروص وكذلك نخل والرستاق، غافريون، إباضيون.

٥٨. قبيلة الحضارم:

قبيلة صغيرة عددها ألف نسمة، وتسكن نخل، وهم إباضيو المذهب، غافريون.

٥٩. قبيلة كندة:

قبيلة غافرية، تسكن سمد الكنود في نزوى وعددها خمسمائة، إباضيو المذهب.

٦٠. قبيلة بني قتب:

وهم غافريون يسكنون وادي الجزي، عددهم خمسة آلاف، سنيّو المذهب.

٦١. قبيلة الكنود:

غافريون، عددهم ستة آلاف، يسكنون نزوى، وربما كانوا جزءًا من قبيلة أخرى.

٦٢. قبيلة القواسم:

قبيلة قوية تسكن موانئ البحر على الساحل، وفي رأس الخيمة وخور فكان،

وعملهم الأصلي هو الصيد، وهم من فرع قبيلة المعاول التي تقطن الساحل الفارسي من برودستان إلى بندر عباس - وشهرتهم الجواسم عددهم عشرون ألفًا، سنيّو المذهب، وغافريون، أول شيوخهم هو الشيخ راشد بن مطر.

٦٣. قبيلة المعاول:

هناويون يسكنون وادي المعاول وأفي، عددهم خمسة عشر ألفًا، إباضيو المذهب، ومنذ القرن الخامس إلى العصر الإسلامي كانوا واحدة من القبائل التي تنتمي إليها الأسرة الحاكمة، وعندما حدث الغزو الأزدي لعُمَان في القرن الثاني نجد مالك بن فهم قائدًا لها وغير محدد الأصل.

٦٤. قبيلة بني محارب:

عددها خمسمائة وتسكن وادي سمائل، إباضيون وغافريون.

٦٥. - قبيلة المجانبة:

سنيّو المذهب، وهناويون، عددهم ألف ويسكنون ودام في الباطنة.

٦٦. قبيلة المبايحة:

جزء من بني غافر انفصلوا عنهم، وانضموا للهناويين، ينحدر أصلهم عن هاشم عمِّ النبي (ﷺ)، يسكنون وادي الرستاق.

٦٧. قبيلة المقابيل:

سنيّو المذهب، عددهم خمسة آلاف، يسكنون وادي المقابيل بالقرب من صحار بالباطنة، غافريون.

٦٨. قبيلة المحاريق:

إباضيو المذهب وغافريون، عددهم ثلاثة آلاف يسكنون مدينة أدم في عُمَان الحديثة.

٦٩. قبيلة المشارفة:

هناويون، عددهم ألف وخمسمائة، يسكنون الرقصة بالقرب من صور بالشرقية، إباضيو المذهب.

٧٠. قبيلة بني مجلب:

قبيلة غافرية صغيرة، تسكن سمائل، عددها ثلاثمائة، إباضيون.

٧١. قبيلة المناذرة:

إباضيو المذهب، ورغم ذلك فهم مرتبطون بالهناويين من أصل عدناني، عددهم ثلاثمائة، يسكنون السليف في الظاهرة.

٧٢. قبيلة المنازرة:

هناويون، عددهم ألف وخمسمائة يسكنون مدينة الحديد في الباطنة، إباضيو المذهب.

٧٣. قبيلة المرازيق:

أصلهم عدناني، رغم أنَّهم ينتمون الآن إلى الهناوية، هاجروا من نجد إلى عُمَان، يسكنون وادي حمام وصور عددهم ثلاثة آلاف، سنيّو المذهب.

٧٤. قبيلة المساكرة:

غافريون، يسكنون إبراء اليحمدي في الشرقية، عددهم ثمانية آلاف منقسمون إلى تسعة عشر فخذًا، إباضيو المذهب.

٧٥. قبيلة بني مرزون:

غافريون، يسكنون الرستاق وسمائل، عددهم خمسمائة إباضيون.

٧٦. قبيلة الموالك:

عددهم ستمائة، هناويون.

٧٧. قبيلة المبايحة:

ليست قبيلة محددة، ولكنها قسم من بني غافر، انفصلوا عنهم، وهم الآن هناويون، يسكنون الدريز والرستاق، عددهم خمسة آلاف إباضيون ينحدرون عن هاشم عمَّ الرسول (ﷺ).

٧٨. قبيلة النعيم:

غافريون يسكنون الظاهرة عددهم عشرون ألفًا، ولديهم الكثير من القبائل التابعة، ورغم أنَّهم من أصل قحطاني، فهم ينتمون إلى الغافريين وهم، سنيّو المذهب يسكنون البريمي، ضنك، القابل، السنينة، حفيت.

٧٩. قبيلة بني نبهان:

من أصل قحطاني ينتمون إلى الغافريين، عددهم أربعمائة يسكنون سمائل وبوشر وهم إباضيو المذهب.

٨٠. قبيلة الندابيين:

اسمهم مشتق من نداب بن شمس، ويعود أصلهم إلى سيف بن سليمان بن سعيد الندابي، عددهم ألف، وهم منقسمون إلى ثلاثة فخوذ، يقطنون وادي العق، ورغم أنَّهم من أصل أزدي فمنهم غافريون وإباضيون.

٨١. قبيلة نزار:

قبيلة عدنانية، عددهم ستة آلاف، إباضيو المذهب.

٨٢. قبيلة النوافل:

هناويون وإباضيون عددهم ألفان وخمسمائة يسكنون قرى شعيبة، وودام في الباطنة.

٨٣. قبيلة بني عمر:

قبيلة غافرية عددها ثلاثة عشر ألفًا تسكن وادي الحواسنة في الباطنة، إباضيو المذهب.

٨٤. قبيلة آل عمير:

قبيلة غافرية تسكن في الظاهرة، سنيّو المذهب.

٨٥. قبيلة البوراشد:

عددهم خمسة آلاف تسكن الخورزا في الباطنة، إباضيو المذهب، وهناويون.

٨٦. قبيلة بني راسب:

يقال أنَّهم يتبعون عبدالله بن وهب الراسبي وهم أول قبيلة قبلت تعاليم الإباضية، عددهم ألف ومائتا نسمة يسكنون الوافي من جعلان، وهم حضر يزرعون الفواكه والعنب والمانجو، وهناك ثمانون جملًا فقط في القبيلة.

٨٧. قبيلة الرحبيين:

عددهم ثمانية آلاف، إباضيو المذهب، وغافريون ينقسمون إلى واحد وعشرين

فخذًا، ويعود أصلهم إلى أرحاب بن دوم بن مالك بن معاوية بن كعب بن دومان بن بكيل بن جوشم بن خيمان بن نوف بن حمدان.

### ٨٨. قبيلة بني رياسه:

غافريون يسكنون الباطنة عددهم ستة آلاف سنيّو المذهب.

### ٨٩. قبيلة بني ريام:

عشيرة هناوية قوّية تسكن الجبل الأخضر، مدنها نزوى وإزكي... الخ، ورغم أنَّها من أصل يمني، إلا أنَّها متصلة بالغافريين الآن، وهي فرع من قمر الذي ترك اليمن من فترة بعيدة من أبناء عمومته المهريين واتجهوا شطر الشرق وواصلوا سيرهم إلى عُمَان، حيث استولوا على سلسلة الجبل العظيم الذي أسموه على اسم بلادهم رضوى، ويقول الهمداني أن الريام كان منزل حمدان للحج وأن بعضًا منه موجود حتى الآن، وقد كان على قمة تل عطوه وأتى من بلاد حمدان فكان الذي أوجده هو ريام بن نحنان بن توبا بن زيد بن عَمْرو بن حمدان، ولقد كان مقرًا للحكم، وقبل بوابته كانت الحديقة التي كان فيها تماثيل للشمس والقمر، وعندما خرج الملك من منزله وقع نظره أولًا على هذه التماثيل، وعددها أربعة عشر ألفًا، إباضيو المذهب منقسمون إلى قسمين.

### ٩٠. قبيلة بني رواحة:

هذه القبيلة من كتلة غطفان، وعلى ذلك فهي ترتبط برباط الدم مع الظبيان الذين يمثلهم في عُمَان اليوم بنو جابر، وهم هناويون، اسمهم الحديث بنو عبس، وهم واحدة من أول القبائل المهاجرة إلى عُمَان، ودخلوها منذ ألف وأربعمائة عام، وحرب الداحس واحدة من أكثر الحروب شهرة في التاريخ العربي، واعتزل قيس بن زهير شيخ عبس عُمَان عام (٦٠٠ ق.م) كراهب مسيحي وتوفي في صحار. ويقطن بني رويحة واديًا خصبًا سُمِّي باسمهم يمتد من إزكي إلى سمائل، ويشمل ثلاثين قرية معظمها بها أبراج وقلاع، وعددهم من ثمانية عشر ألفًا إلى عشرين ألفًا مقسمين إلى ثلاثين فخذًا، ولكل منهم شيخه الخاص، حيث ليس هناك تميم، وهم إباضيون.

### ٩١. قبيلة آل سعد:

عددهم ستة آلاف مقسمون إلى ثمانية فخوذ تسكن ساحل الباطنة حوالي ٢٥ ميلًا طولًا، حيث قرى مولودا وترمود والخضراء، والطريف وصور وجيرات، وودام وسور الهايظ وسور المقنيات وأبو عبالي والقرط، وهناك عدد من القبائل الصغيرة تتبع آل سعد، وكانوا يزرعون التمر والقمح إباضيو المذهب وهناويون.

٩٢. قبيلة بني سعده:

وعددهم خمسمائة يسكنون دوت في الظاهرة، سنيّو المذهب غافريون.

٩٣. قبيلة البوسعيد:

قبيلة أزدية تسكن عُمَان الحديثة في مدن أدم، نزوى، عز، ماجور... الخ، وهناك قسم منهم في الباطنة إباضيو المذهب وهناويون وتنتمي الأسرة الحاكمة الحالية إلى هذه القبيلة، ومؤسسها هو السيّد أحمد بن سعيد الذي أصبح إمامًا بعد وفاة بلعرب اليعربي في عام ١٧٤٩م.

٩٤. قبيلة عبدالسلام:

قبيلة هناوية صغيرة في الباطنة، عددها ثلاثمائة نسمة، سنيّو المذهب.

٩٥. قبيلة السريريون:

قبيلة هناوية عددها أربعمائة تسكن نخل، إباضيون.

٩٦. قبيلة بني شكيل:

تنتمي إلى عَمْرو بن صعصعه، وهم أبناء عمومة للعوامر، رغم أنَّهم في حزب مختلف منهم غافريون عددهم خمسة آلاف، يسكنون سيفم، جابي، بهلاء، بسياء، إباضيو المذهب.

٩٧. قبيلة الشرقيين:

قبيلة غافرية عددها ألفان تسكن وادي صم الفجير، وهم سنيّو المذهب.

٩٨. قبيلة الشموش:

عددها خمسمائة تسكن خور صمان في الباطنة، سنيّو المذهب وهناويون.

٩٩. قبيلة الشحوح أو الشيحيين:

قبيلة كبيرة يقال: أنَّها من أصل حميري، وعددها ألف وخمسمائة تسكن رأس مسندم، ولها عادات وتقاليد مختلفة، تعيش على السمك ولبن الماعز، سنيّو المذهب، وهناويون.

١٠٠. قبيلة الشياديين:

قبيلة صغيرة في الباطنة تسكن سور الشياديين، سنيّو المذهب وهناويون.

١٠١. قبيلة السبعين:

هم أولاد موجاب عددهم ثمانية آلاف، إباضيو المذهب، وغافريون.

١٠٢. قبيلة الصوالح:

عددها ألفان وخمسمائة تسكن السويق في الباطنة، إباضيو المذهب، وهناويون.

١٠٣. قبيلة الصواوفة:

عددهم ثلاثمائة نسمة يقطنون السليف في الظاهرة، هناويون.

١٠٤. قبيلة بني صبح:

قبيلة صغيرة غافرية، عددها ألف وخمسمائة، سنيّو المذهب.

١٠٥. قبيلة بني وهيب:

هناويون، إباضيو المذهب، عددهم ستة آلاف نسمة.

١٠٦. قبيلة آل وهيبة:

قبيلة رعوية كبيرة في الشرقية، عددها ثلاثون ألفًا، تملك أجمل الجمال في العالم، منقسمة إلى ستة فخوذ، تسكن السديرة، ويقال: إن بعضًا من بني صليب تحت حمايتها، وليست عائلة الشيخ من القبيلة وهي قبيلة هناوية.

١٠٧. قبيلة الوشاحات:

قبيلة هناوية تسكن وادي حتا، وهم سنيّون عددهم ألف ومائتان.

١٠٨. قبيلة الورود:

هناويون، إباضيو المذهب، عددهم ألف وخمسمائة يسكنون وادي عزان في الشرقية.

١٠٩. قبيلة اليعاقيب:

قحطانيون، يشملهم الآن الهناويون عددها ٤ آلاف تسكن عبري في الظاهرة، إباضيو المذهب.

١١٠. قبيلة اليعاربة:

ينتسبون إلى يعرب بن قحطان الذي أرخ له البعض في عام (٨٠٠ق.م)، والأصل يمني يشملهم الغافريون، وانتهت أسرة نبهان عام ٩٦٨م، وبعد ٦٦ عامًا أنشأ ناصر ابن مرشد أسرة اليعاربة وعددهم خمسمائة وتقطن نخل والرستاق وسيجا.

١١١. قبيلة اليمن:

قبيلة أزدية تسكن الحجر من إزكي في عُمَان عددها خمسة آلاف هناويون إباضيو المذهب.

١١٢. قبيلة اليحمد:

قبيلة صغيرة عددها ثلاثمائة تسكن بركاء ونخل في الباطنة، إباضيو المذهب وهناويون.

١١٣. قبيلة بني ياس:

قبيلة كبيرة، نشأت حديثًا في عُمَان عددها خمسة آلاف من البدو والحضر، ومعظمهم من صيادي اللؤلؤ، وتكمن قوة القبيلة في اثنى عشر قبيلة أخرى تتبعها، لها مدينتان أساسيتان هما أبوظبي ودبي على الساحل وتمتد حتى البريمي.

١١٤. قبيلة بني زيد:

تسكن فدافي الظاهرة وعددها خمسمائة، إباضيو المذهب وجزء منهم سنيّون، غافريون.

١١٥. قبيلة الزكاونة:

قبيلة هناوية، عددها ألف وستمائة، يقيمون في سمد الشأن بالشرقية - إباضيو المذهب.

١١٦. قبيلة الزعاب:

قبيلة هناوية عددها مائتان تسكن ثلاث قرى في الباطنة رشاد الزعاب، الروضة، القشدة، وهم سنيّو المذهب.

ملاحظات حول قائمة القبائل في عُمَان:

أولا: عدد السكان بناء على هذه القائمة يصل إلى ٦٢٢٠٦٠ نسمة أو ما يزيد.

ثانيا: أن عدد القبائل يصل إلى مائة وستة عشر قبيلة ينقسمون من ناحية المذهب بين إباضيين وسنيّين، وهم ما بين غافريين وهناويين.

ثالثا: هناك ٦٨ قبيلة مذهبها الإباضية بنسبة مئوية تبلغ حوالي ٦٣٪ تقريبًا، بينما هناك ٤٤ قبيلة عقيدتها السنيّة بنسبة مئوية تبلغ حوالي ٤٠٪ تقريبًا.

رابعا: هناك ٦٤ قبيلة تحت لواء الهناويين بنسبة مئوية تبلغ حوالي ٦٠٪ تقريبًا، و٤٤ قبيلة تحت لواء الغافريين بنسبة تبلغ ٤٠٪ تقريبًا من عدد القبائل.

* * *

# الفصل السابع

# تاريخ تجارة الخليج

ما زال تاريخ الاستيطان الأول للمنطقة الشرقية لشبه الجزيرة العربية ومسار التداول التجاري بين سكانها وبين الأقطار الأخرى يحوطه الغموض، وأقصى ما يمكن أن نكونه من آراء عن هذا الموضوع لا بُدَّ وأن يعتمد على الاستنتاج والافتراض، ومنذ عصور بعيدة كانت محاصيل ومنتجات هذه المنطقة تصدر إلى مناطق بعيدة في العالم، كما أن انتقال تلك المنتجات لم يقتصر على حدود معينة، فلقد كانت الحركة التجارية في أوج قوتها عندما بدأ النّاس يكتبون التاريخ.

ونظرًا لقرب عُمَان من الهند والوضع التجاري في الخليج الذي قامت على شواطئه أولى الحضارات المعروفة، ونظرًا لموقع الخليج الفريد وموانئه المناسبة وخلجانه التي يمكن للسفن أن تلجأ إليها، بالإضافة إلى وفرة مناطق الصيد فيه، كل هذه العوامل قد اجتمعت لتجعل من الخليج مهد الملاحة، وقد هيأ ذلك للعُمَانيين بأن يصبحوا رواد الملاحة في التجارة البحرية للشرق، ولعل أعظم إنجاز تم في هذا المضمار لإنشاء أول صلات تجارية بين الشرق والغرب، هو ذلك الإنجاز الذي قام به عرب عُمَان في تلك الفترة.

من هنا القول بأنَّ الملاحة التجارية في البحر العربي قد تزامنت على الأرجح مع فجر الحضارة، وأنَّ السكان الأوائل لجنوب الجزيرة العربية وشرقها كانوا على الأرجح أول الأمم التي مارست الملاحة في المحيط الهندي، وأول من استورد المنتجات الشرقية لحساب الأقطار الأخرى، وفي الأيّام الأولى من نشاط هؤلاء الملاحين ومغامراتهم كانوا ينتقلون من منطقة إلى أخرى باذلين جهودًا نشطة بمراكبهم الصغيرة التي كانوا يبحرون بها عبر الشواطئ الآمنة إذا داهمتهم العواصف أو اضطربت الأحوال الجوية في طريقهم. وبفضل مراقبة العرب للكواكب والنجوم وتتبعهم لمسارها أقلعوا عن الأساليب الملاحية القديمة، وبدأوا يقومون برحلات بحرية طويلة المدى، وتمكنوا بفضل الرياح الموسمية من الوصول إلى مناطق بعيدة من العالم.

ولم تنل عُمَان من الشهرة ما نالته اليمن، ويعود السبب في ذلك إلى أنه لم تكن هناك اتصالات برية بين عُمَان والغرب، ولو أنَّ عُمَان كانت في موقع أفضل يتيح لها تسيير القوافل عبر الجزيرة العربية نفسها، أو باختصار لو أن موقعها على الأرض كان موقعًا فريدًا كما كان ذلك في البحر فلا شك أنَّها كانت ستستطيع في تلك العصور أن تسيطر على تجارة الشرق كلها، ولأصبحت دولة غنية وقوية. غير أن الصحراء الكبرى التي تفصلها ظلَّت عائقًا منيعًا ضدَّ تدفق الاتصالات البرية منها وإليها، وبحكم تلك العزلة فقد اضطرت إلى القايم بدور الدولة التجارية البحرية وبإقامة علاقات تجارية مع الدول الأخرى. وعلى أيّة حال فإن الدور الذي قام به العُمَانيون في مجال الملاحة التجارية القديمة لم يحظ بالتقييم وقد طواه النسيان، على الرغم مما حققه العُمَانيون في ذلك المضمار، بل وأكثر مما حققه الهنود والمصريون

والعراقيون في إطار التجارة العالمية بين الشرق والغرب. ولعل أهم الأدلة التي في حوزتنا عن هذا التبادل التجاري هي المعلومات التي وردت في اللوحات المصرية والبابلية والنينوية، وهي فترة تعود بنا إلى الوراء، إلى خمسة آلاف عام قبل الميلاد.

ومنذ أن أخذت أقدم حضارتين، وهما مصر والعراق، يستقبلان منتجات الهند وبلاد الشرق الأقصى قبل ٥٠٠٠ عام تقريبًا عمل العرب كوسطاء لتلك التجارة البحرية، فكان يتم نقل السلع الهندية عبر الخليج إلى العراق وبابل، وإلى غزة أو الكويت، ثم منها عبر الصحراء إلى فلسطين ومصر.

وكانت كبرى المدن الواقعة على نهري دجلة والفرات من ناحية وفي مصر من ناحية أخرى هي المناطق التي كانت تستورد تلك السلع، كما كانت تشجع تلك الخطوط التجارية التي كانت تغذي سكانها المتحضرين والمترفين بأنواع من التوابل والبخور وغيرها من المنتجات، وفي نفس الوقت كانت تحقق الثروة والرخاء للعرب.

وكان اللبان من أقدم السلع التي كان العرب يقومون بنقلها على سفنهم، وكان اللبان يحرق داخل الكنائس، والتوابل والمر يستخدم في تحنيط الموتى في مصر، وبالإضافة إلى ذلك كانت هذه المدن تستورد الأحجار الكريمة والعطور وغيرها من السلع ويحدثنا هيروديتس بأنَّ خبراء التحنيط في مصر كانوا يستعملون أنقى أنواع الأكسيا والمر وكل أنواع التوابل في عمليات التحنيط، ولما كانت الجثث قد بدأ تحنيطها منذ عصور تاريخية بعيدة فإنه يمكن القول بأنَّ التجارة بين الهند وشبه الجزيرة العربية يعود تاريخها إلى نفس تلك الفترة.

ويعتبر سيّدنا يعقوب من الملمين بتاريخ اليمن، وقد أشار في مؤلفاته إلى السلع التي كانت تتعامل فيها المنطقة. وكانت تجارة الهند عبر التاريخ مع مصر في ذروتها خلال رحلات سيّدنا إبراهيم، وانتقال سيّدنا يوسف إلى مصر، والقصة الأخيرة تؤيد وجود تجارة بين مصر وبين الهند؛ لأنَّ الجزيرة العربية لا تنتج التوابل والمؤرخون القدماء ليست لديهم فكرة واضحة عن البلاد التي كانت تأتي منها تلك السلع، وكانوا يعرفون أن الجزيرة العربية لم تكن ترسل إليهم اللبان والمر والبلسم فحسب، وإنما القرفة والأكاسيا أيضًا.

إن أوّل قافلة تجارية عرفها التاريخ هي تلك التي خرجت أثناء انتقال سيّدنا يوسف إلى مصر، وكانت تلك القافلة قد خرجت من مصر في طريقها إلى جيليد، فلقد كانت

غزة منذ أقدم عصور التاريخ تقيم روابط تجارية واسعة مع الفينقيين، ومع مملكة تبرا، وكذلك مع بابل، وتشمل التوابل والأقطان، ومع البحرين التي كان يتم استيراد القطن إليها من الهند. أما غزة فقد كانت مركزًا نشطًا وسوقًا قديمةً من الأسواق التاريخية على الرغم من أنَّه لا توجد بقايا أثرية لتلك المملكة التي لم يكتف تجارها بجمع سلع الشرق النفيسة فحسب، وإنما كانوا ينقلونها إلى الهند أيضًا. ويستطيع العُمَانيون أن يقولوا بأنَّهم أوّل من مارس الملاحة في تاريخ المنطقة، وإن كان لا بُدَّ من الإشارة إلى دور الفينيقيين. وهم جنس كوشي نزح من أفريقيا إلى الخليج عبر الجزيرة العربية، وأقام فترة في عُمَان، حيث أنشأوا مدينة صور أو طيرة، وكانت تلك أول مدينة ينونها، كما أنشأوا مدينة شبيهة لها في البحر الأبيض المتوسط، والاسمان متشابهان في اللغة العربية، وفي تركيب حروفهما، وموقع كل منهما على أحد الصخور البارزة، ومن الخليج انتقل الفينيقيون غربًا إلى البحر الأبيض المتوسط، وهي المنطقة التي كانوا موجودين فيها منذ فجر التاريخ المعروف، وبما أن شبه الجزيرة العربية لم تكن المعبر الوحيد إلى الهند، ولا الطريق الوحيد الذي تأتي من خلاله التوابل والأحجار الكريمة والمنسوجات القيمة فحسب، وإنما كانت هي أيضًا مصدرًا لكثير من المنتجات الهامّة، فقد وجد الفينيقيون فيها حقلًا تجاريًّا ومصدرًا هامًا للثروة. أما السلع التي كان العرب يقومون بتصريفها بين التقايض بها، فهذه غير معروفة، وتعتمد على التخمين والافتراض، وربما تكون من نوع السلع المصنعة والأقطان ومنسوجات اللينو والخزف والأدوات المعدنية والأواني والحرير والمجوهرات واللعب والحلي.

وبما أن عُمَان قد غدت بحكم ذلك النشاط بلدًا غنيًّا بتجارتها، فلقد كان منطقيًّا أن يقتني أهلها كل صنوف المنتجات الكمالية كالمجوهرات والملابس والأدوات المعدنية وغيرها من المنتجات الفاخرة التي كانت تنتجها طيرة.

ويحدثنا المؤرخ بليني أنَّ الفينيقيين في الخليج كانوا يتنقلون من جزيرة إلى أخرى بالعوامات، ويذكر هيرودوتيس بأنَّ الفينيقيين كانوا يشحنون سفنهم بمنتجات مصر وآشور، مما يعني بأنَّ المنتجات الهندية كانت تنتقل إلى مصر وآشور من جانب العرب. وعلى أيّة حال فلم تكن للفينيقيين سفن أو مستوطنات في الخليج أو البحر العربي، ولابد أنَّهم كانوا يحصلون على حاجاتهم من السلع من عرب عُمَان، وكان

يتم تسليمها في غزة أو تريدون.

وعلى عهد النبي موسى كانت التجارة مع الهند نشطة، وكان الفينيقيون يبيعون شحنات التوابل التي يشترونها من عرب مسقط إلى مصر.

وكانت مدينة أور الكلادانية، والتي تسمّى الآن مغير على الضفة اليمنى أو الغربية للفرات مدينة كبرى ومتماسكة، وكانت مركزًا لتجميع البضائع والسلع الأجنبية في أسواقها، وكانت تربطها علاقة تجارية واسعة بأسواق الخليج، ولابد أن تكون تجارتها في مستوى تجارة بابل من حيث الأهمية والوفرة.

أما أريدو بسبب وجودها في الأسفل فقد كانت في موقع أفضل، وكانت تستهلك أكبر كمية من اللبان الذي كان يأتي به العُمَانيون في الوقت الذي كان تجار أور يتلقون رسائل اللؤلؤ من البحرين، والديورايت من مسقط (أي من عُمَان) والبخور من ظَفَار.

ولابد أن يكون عرب مسقط قد استهلوا نشاطهم التجاري البحري في فترة مبكرة جدًا من التاريخ، وقد ازدهرت أريدو بفضل نشاطها التجاري وهيمنت على أسواق كلوة، وكان أول ملك تولى الحكم فيها ويدعى أربو في سنة (٢٩٠٠ق.م). ففي تلك الفترة كانت البلاد في رقيٍّ حضاريٍّ، ولابد أن يكون عرب عُمَان وعرب البحرين هم الذين يزودونها بحاجاتها من السلع الهندية، وكان ميناء غرة أشهر ميناء في الخليج، غير أن مسقط وقيس وصحار كانت أسواقًا ذائعة الصيت. وفي عهد الملك بختنصر كان الفينيقيون يحصلون على الجزء الأكبر من تجارتهم الشرقية من اليمن عن طريق البحر الأحمر، وبالتالي فقد قرر ذلك الملك القيام بإجراء مضاد لوقف ذلك النشاط، ولتنمية الثروة القومية في ممتلكاته عن طريق المشروعات العامّة والحملات العسكرية، كما بنى مدينة تريدون وجعلها مستودعًا للسلع، وبعد أن نجح في تمهيد طريق الخليج المؤدي إلى بابل شنَّ هجومًا على طيرة عام (٥٨٥ ق.م) وتمكن من تدميرها، وبذلك سدَّ الطريق التجاري الذي يمر من غربي شبه الجزيرة، فقد كانت غره وجاراتها كمحطات تجارية أفضل من حيث الموقع من الموانئ العُمَانية رغم أن هذه الأخيرة كانت أفضل الموانئ كلها، وذلك نظرًا لقرب تلك المحطات من العواصم والأسواق الكبرى لسوريا والعراق؛ ولكن وبسبب وعورة الطرق العُمَانية وخطورتها، وبالتالي فقد كانت أنسب المواقع الصالحة للتجارة على

الساحل العربي، ومن هنا يمكن أن نضع أيدينا على الأسباب التي أدت إلى اختيارها، كما أنَّه من الممكن بالمثل أن نحدد الأسباب التي أدت إلى شهرة مدينة غرة في الغرب على حساب مسقط أو صحار، حيث كان يتم تفريغ البضائع المستوردة وشحنها في أغلب الأحوال. ولم تكن غرة قريبة من أرض الشام فحسب، بل كانت سوقًا للتجار الفينيقيين والإغريق الذي ساهموا بالطبع في تعميم شهرتها، وفي الوقت الذي بقيت الموانئ العربية الأخرى التي كانت تماثلها في النشاط والثروة مجهولة.

وقد استمد كل من يعقوب واليسع وحزقيل وغيرهم من الأنبياء رموزهم وتشبيهاتهم واستعاراتهم، وأبلغ مقولاتهم من حيوانات ونباتات شبه الجزيرة العربية، ثم من عادات وأخلاقيات العرب. وتعتبر نظرية حزقيل عن جغرافيا العرب قائمة إلى حدٍّ كبير، ولعل أغرب ما فيها هو الخلط بين أسماء الأشياء والمناطق، فهو لم يذكر شيئًا عن ذلك البلد الذي يقع بين ريدان وكينى فيما عدا إشارته إلى رامه، وهي مكان معروف، كما أنَّه أشار إلى الذهب كأحد السلع التجارية التي كانت تستورد من جنوب شبه الجزيرة العربية، وإن كان من المقطوع به أن الذهب المشار إليه كان مصدره الأصلي أفريقيا والهند، رغم أن الهمداني في كتابه (الإكليل) يسرد عددًا من أسماء مناجم الذهب في اليمن. وكان اللبان مادة التصدير الرئيسية، حيث كان الجانب الأكبر منه يأتي من الصومال؛ لأن الكمية التي ترد من ظَفَار كانت محدودة. ونقرأ في (سفر التكوين) روايات وقصصًا عن سيّدنا إبراهيم وسيّدنا يوسف، يقول بعضها أنَّه في نحو العام الألفين قبل الميلاد اعتادت القوافل التجارية أن تخرج إلى سوريا ومصر؛ لتزويدها بالسلع والتوابل، وأن هذا النظام كما يستنتج من ذلك كان معمولًا به منذ آلاف السنين، فالبلاد العربية كما هو معروف لا تنتج التوابل، وأن المادة المحلية الوحيدة التي تصدرها والتي كان يتم نقلها على قوافلها التجارية هي البلح واللبان واللآلئ.

ولا شكَّ إن أول طرق القوافل العربية هو طريق حضرموت. وكان يتم شحن القوافل باللبان والمر في العاصمة التي يحتمل أن تكون سبأ، ومنها تتحرك في اتجاهين، الأول: عن طريق مأرب ومكة إلى أروم ومصر، والثاني: عبر طريق اليمامة إلى غرة أو القطيف، حيث يتم إضافة سلع أخرى، ثم تغادر القوافل إلى بابل. وكانت شبه الجزيرة تنتج الذهب، والأبنوس، والأحجار النفيسة، والعاج، والحديد المطروق،

أما الأبنوس فليسا من المنتجات المحلية، بل كان يستورد من الهند وأفريقيا. أما الذهب والفضة والحديد والجواهر فمن المحتمل أنَّها كانت ترد من اليوم، أما الفولاذ فقد كان يأتي من الهند؛ لأنَّ كلًّا من عُمَان واليمن كانتا مشهورتين بصناعة نصال السيوف والرماح وغيرها من الأسلحة الحديدية. أما مكيتا فقد كان سوقًا للقرفة وما شابهها من المواد، وربما كان مركز بيع وشراء التوابل كما يقول هيرين: هو صور، ويضيف بأنَّ وجود سوق تجارية كهذه في مدخل الخليج يؤيد ما ذهبنا إليه من وجود تجارة وعلاقات تجارية قديمة للهند مع مناطق الساحل العُمَاني، وهو يعتقد أن القرفة هنا تعني أعواد القصب، وأنَّ الاسم مشتق من مدينة كين، وهو اللفظ الذي يطلق على قصب السكر في اللغة الإنجليزية، وذلك على غرار أحد التوابل الأخرى الذين اشتق اسمه من مدينة مكيتا.

أما الصادرات من بروش إلى فارس فقد كان يتم نقلها على سفن كبيرة وكانت تشمل النحاس، والأخشاب الثمينة كخشب الصندل، والتيك (الساج)، والخشب الأسود، والأبنوس، والأثواب والصبر، ثم يعود العرب العُمَانيون من تلك الرحلات محملين باللآلئ، والأثواب الأرجوانية، والبلح، وهم يستعملون في نقل تلك البضائع سفنًا صغيرة. وعلى الرغم من أنَّ طريق الخليج التجاري أقدم بآلاف السنين عن طريق البحر الأحمر، إلا أنَّ الطريقين قد أخذا فيما بعد يتنافسان فيما بينهما، وعلى كل فإن موقع العرب الجغرافي الفريد في منتصف الطريق بين مصر والهند أتاح لهم أن يحتكروا التجارة، ويصبحوا أول أمة تقوم بنشر الحضارة في العالم باعتبارهم رواد مهنة الملاحة، وهذا الاحتكار للتجارة مكنهم من إملاء شروطهم وتحقيق قفزات كبيرة في مجال التطور والازدهار، وكان طريق الخليج قد أثبت فعاليته قبل أن يمتد نشاطه التجاري على الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية وصولًا إلى حضرموت وعدن، ثم إلى الساحل العربي منها، أي إلى مصر وسوريا.

وإن إنشاء مدينة تدمر وغيرها من المدن التجارية من جانب الملك سليمان قد أعقبه تطور هائل في حركة المواصلات المتجهة إلى بابل والخليج. وقد بذل الملك سليمان جهودًا جبارة لتشجيع استخدام هذا الطريق في الوقت الذي كان يقوم بعمليات استكشاف على ساحل البحر الأحمر. وقد ازدهرت تلك التجارة محققة الرخاء لعرب عُمَان باعتبارهم أكبر الوسطاء التجاريين وناقلي المنتجات والسلع الشرقية

حتى سقوط مدينة نينوى أمام جحافل سيكاريس سنة (٦٢٥ ق.م)، وسقوط بابل أمام زحف سيروس في سنة (٥٥٩ ق.م)، وخلال السبعة قرون التي ازدهرت فيها ميدنة تدمر مرت في سوريا شبكة واسعة من الطرق والفنادق التي أنشئت لصالح رجال القوافل العرب، ومنذ أن اكتشف سكان المدن التجارية على ضفاف دجلة والفرات طبيعة وأهمية المنتجات الهندية والأفريقية واصل عرب جنوب وشرقي الجزيرة تزويدهم بمنتجات تلك الأقطار، وبذلك تم وضع وتطوير حركة تجارية منتظمة بقيت احتكارًا في أيدي العرب، ربما لآلاف السنين إلى أن اكتشف المصريون طريق البحر الأحمر الذي ظهر كمنافس لطريق الهند، وعلى الرغم من أن جزءًا صغيرًا من تجارة الهند كان بالطبع يمر عن طريق البحر الأحمر لعدة سنوات سابقة، إلا أنَّ طريق البحر الأحمر لم يتحول إلى منافس خطير لطريق الخليج إلا بعد سنة (٥٠٠ ق.م)؛ نظرًا لأنَّ الطريق الذي يستخدمه المصريون والهنود والفينيقيون كان النشاط فيه متقطعًا وعابرًا؛ بسبب الأخطار التي تحفُّ به.

وفي تناولنا للحركة التجارية العظيمة بين الشرق والغرب في العصور القديمة يجب أن نولي أهمية بالغة لدور طرق القوافل التي كانت تغطي شبه الجزيرة العربية في كل الاتجاهات، وتقدم خدمة لا غنى عنها لتجارة المنطقة، لقد كانت شبه الجزيرة العربية بالتأكيد بلد القوافل، وسواء كان التبادل التجاري يتم عن طريق الخليج أو طريق عدن وكين، فقد كان الجمل، سفينة الصحراء، وسيلة النقل الوحيدة للبضائع. ويمكننا أن نسرد طرق القوافل العاملة في تلك الفترة بشيءٍ من التفصيل: تدمر، وبطرا، وعدن، وموشا، وكين، وظَفَار، ومأرب، وسبأ، وصُور، ومسقط، وصحار، وغرة، والكويت، وبابل، وكانت كل هذه المدن هي مناطق الترانزيت والتوزيع للتجارة الهندية، وحيث كان يلتقي عدد غفير من التجار والمتعاملين في الرقيق والوكلاء والرحالة وغيرهم للحصول والاتجار في كماليات وتحف الهند. وكانت هذه القوافل تسير تحت قيادة أمير أو قبطان يتولى مع معاونيه توجيه القافلة ونصب الخيام، وتنظيم تحركات المسافرين، وتعتبر كلمته بمثابة القانون، وكان هذا النظام متكاملًا بمعنى أنَّ القافلة تصطحب كل متطلبات الرحلة معها، وباستثناء الطرق التي يتوفر فيها الماء بكثرة، فقد كان يتم تنظيم القوافل في مجموعات صغيرة، وإذا كانت حمولة البضائع كبيرة فقد كانت القوافل تسير بسرعة؛ نظرًا لخطورة

إرسال قوافل في مجموعات كبيرة في مناطق يتعذر وجود الماء فيها، غير أن بعض الخطوط كانت تتألف من آلاف المسافرين والجمال. ولم تكن الحاجة تدعو إلى خفراء للقافلة، ولمعالجة موضوع حماية القافلة ضدَّ الغارات كانت تستخدم طريقتان كما هي الحال الآن. إحداهما عن طريق تقديم الدعم المالي للقبائل المعاونة والأخرى بوضع القافلة تحت سلطة وحماية إحدى القبائل أو مجموعة من القبائل ذات الحول والطول، وفي وسع هذه القبيلة عادةً أن توفر الحماية اللازمة للقافلة نظير استئجار مجموعة جمال القافلة منها. وعلى أيّة حال فقد كانت وظيفة حامي القافلة خطيرة وشاقة، ولمثل تلك المسؤولية الحساسة كان يتعين اختيار الشخص القادر على أن يتولى المسؤولية الكاملة لحماية أرواح وممتلكات العديد من الأفراد. وكان للقوافل استراحات ومراكز ترفيهية عبر الوديان، وعلى المساعدين للقائد تقع مسؤولية اختيار الأماكن أو المحطات التي تعسكر فيها مع ضمان وجود موارد للماء والغذاء والوقود والرعي... الخ.

## لمحة عن التجارة العربية

لقد هاجر سيّدنا محمد (ﷺ) من مكة إلى المدينة في عهد الأمبراطور هرقل، وسرعان ما أدرك العالم بأنَّ العرب قد انتفضوا كشعب فاتح يقوم بنشر العقيدة الجديدة في البلدان المجاورة، ويسعى إلى وضع أسس أمبراطورية وحضارة جديدتين، ولقد كان من أولى نتائج تلك الحركة الجديدة هو تغيير مسار التجارة بين الشرق والغرب؛ ليعود إلى أقدم قنواته وأكثرها شرعية، ونعني بها طريق الخليج، ولابد أن نضفي على سيّدنا محمد هالة الحكمة والحصافة في تشجيعه للتجارة والتبشير بها كواجب ديني في محكم الكتاب، وأصبحت دمشق المركز التجاري في سوريا، بينما اتخذت في العراق والكوفة والواسط والبصرة والموصل، كما أن همذان وأصفهان وشيراز أصبحت مراكز وأسواقًا تجاريةً هامّةً. وعلى كل فإنَّ التجارة لم تتطور إلى ذروتها دفعة واحدة، فلقد كان العرب مشغولين بالفتوحات، وكانت قعقعة السلاح لا تسمح لهم بالألتفات إلى هذه المسألة، غير أنَّه بعد أن أخذت مراكز الحكم تنتقل من منطقة إلى أخرى فمن المدينة إلى دمشق، ومن دمشق إلى الكوفة، ومن الكوفة إلى بغداد انبعثت مدن كثيرة في كل مكان مما جعل أسواقها الزاهرة تساهم في تشجيع وتوسيع التجارة التي ازدهرت وتعاظمت بصورة مذهلة.

لقد أسست مدينة بغداد سنة (١٤٤هـ/ ٧٦١م) على الضفة الغربية أيّام الخليفة المنصور، وهو نفس الموقع الذي سبق أن اختاره الملك بختنصر لعاصمته، غير أن الخليفة المهدي نجل المنصور عاد فأنشأ العاصمة على الضفة الشرقية، بحيث تفوقت بمرور الوقت على العاصمة الأولى، وقد سميت بمدينة السلام، فقد كانت هناك نبوءة بأنَّه لن يموت أي خليفة داخل أسوارها، ومن الغريب أن ثلاثة عشر خليفة كلهم توفوا خارجها. ومنذ عهد المنصور أخذت العلوم والآداب حظَّها من التطور والازدهار، فقد وجه العرب اهتمامهم إلى كلِّ ناحية، وإن عمليات الترجمة من الإغريقية التي حققها المأمون قد غرست دمًا جديدًا في عملية البحوث والدراسات الأكاديمية، بحيث أن تلك المرحلة المجيدة في التاريخ العربي قد ضاهت بل وتفوقت على العصور الذهبية للحضارة الإغريقية والرومانية، وكما يقول هامبلوت (Hum Boolt)[(١)]: أن نشاط العرب الأدبي الذي لم

(١) - كاتب وعالم ألماني.

يسبق له نظير قد فتح مرحلة متميزة في تاريخ العالم، وهكذا أخذ التجار والوكلاء العرب يبحثون بحرص عن التحف والطرائف والكتب وغيرها؛ لتقديمها هدايا للخلفاء، كما أنَّ فئة أخرى منهم تجار ورحالة أخذوا يطبقون وصية الرسول (ﷺ) متنقلين من قُطْر إلى آخر طلبًا للعلم، وعندما كانت أوروبا لا تزال تعتقد بأنَّ الأرض مسطحة، وكان أهلها يحرقون أصحاب الأفكار الحرة، كان العرب يدرسون الجغرافيا باستخدام مجسم الكرة الأرضية. كما أن التقدم الذي حققه العرب في الفنون الحضارية والانكباب الرائع على العلوم كان سريعًا ومذهلاً، بل لا يقل سرعة واذهالاً عن فتوحاتهم العسكرية واكتشافاتهم البحرية والتجارية.

ويعود الفضل إلى العرب فيما أظهروه من شجاعة وأصالة في اكتشاف كثير من المناطق المجهولة في العالم، ودفع عجلة الاكتشافات البحرية والملاحية حتى آخِر حدود الدنيا معرضين أنفسهم لأخطارها، وبذلك وسعوا من آفاق التجارة على امتداد القارات الثلاث أوروبا وآسيا وأفريقيا.

وإن أقدم إشارة في الفكر العربي عن تفوق عرب عُمَان هو ما ورد في سورة الكهف في القرآن الكريم[(١)]، ويرى بعض الكُتَّاب أن الملك الذي جاء ذكره في القرآن هو الجلندى بن كركر، أو منمار بن الجلندى أحد أفراد أسرة الجلندانيين الأزدية الذي كان يحكم عُمَان، ولعل ديوي وغيره من الكُتَّاب الُملمين بالقصة الواردة في القرآن يعلمون أنَّها وقعت في عُمَان، وبالتالي فليس هناك ما يدعو إلى الشك في أن نسبة القصة إلى عُمَان تقوم على أساس سليم، وهي تدل على أن عرب عُمَان كانوا سادة البحار قبل ظهور الإسلام، ولم يكن لهم منافس في هذا المضمار على الإطلاق.

إن اجتياح مصر عام (٦٣٠م) عرض الإسكندرية للنهب والتدمير، وبذلك جرد الإغريق والبيزنطيين للخسارة ورغبة من الخليفة عمر بن الخطاب في الاحتفاظ بطريق الخليج البحري مفتوحًا أمر بإنشاء مدينة البصرة في شطِّ العرب عام (١٥هـ/ ٦٩٦م)، وقد اجتذبت البصرة كثيرًا من العرب، كما أنشئت مدينة الكوفة في نفس الفترة أيضًا، وبنفس الطريقة، ثم تبع ذلك إرسال الحملات العسكرية إلى عُمَان وصحار وسواحل بومباي والمدن الواقعة على نهر الأندس، على الرغم من أنَّ كل تلك المحاولات لم تكن أعمال مرتزقة بقدر ما كانت خطوات دينية وسياسية.

---

(١) - هذا الرأي هو رأي المؤلف. الآية ٧٩.

وبعد أربع سنوات من إنشاء البصرة أرسل الخليفة عمر بن الخطاب القائد العربي سعد بن وقاص إلى فارس، وفي معركة القادسية التي أبيد فيها الساسانيون وملوكهم، بعد فرض الحصار على المدائن واكتساحها، وقد أسفرت تلك الحملات عن منافع مادية كبيرة فتحت عيون العرب على حجم وتنوع وقيمة تجارة الخليج مع الهند.

وفي عهد الخليفة الوليد بن عبدالملك أرسل الحجاج حملة للاستيلاء على السند عام ٧١٢م انتقامًا لبعض الحجاج المسلمين، وقد شجع ذلك النجاح العرب على المزيد من المحاولات في مضمار الفتح والتجارة. ومنذ ذلك الوقت قطع عرب عُمَان والبصرة أشواطا سريعة خاصّةً وأنَّ عرب عُمَان لم يتوقفوا عن عملياتهم التجارية مع الهند، وفي توسيع نطاق نشاطاتهم التجارية، الأمر الذي تمخض عن قيام المدن التجارية كمليبار وسيلان والجزر الشرقية والصين. ويمكن الوقوف على تفاصيل تلك النشاطات التجارية في المؤلفات العربية.

وسرعان ما أدرك الحكام العرب أهمية الهند التجارية فحذوا حذو الحكام الساسانيين، وإنما بروح أعلى وطاقات أكبر، فأخذوا يشجعون تجارهم وملاحيهم على الإبحار إلى ما وراء الحدود القديمة، وجلب منتجات الصين إلى أسواق الخليج مباشرة، وهكذا تم تفريغ السلع النادرة والثمينة من السفن العربية والصينية في موانئ صحار والبصرة بتكاليف أقل من كل ما عرف في السابق. وهكذا أصبح الخليج مركزًا هامًا للتجارة البحرية، ولما كان الخليفة يومئذ يهيمن على كل طرق المواصلات الدولية إلى سوريا والعراق وفارس وغيرها، فإن التِّجارة العربية قد بذت ما وصلت إليه تجارة الإسكندرية أو طيرة حتى في قمة مجدها.

وقبل القرن التاسع عاد عرب عُمَان إلى التجارة مع كانتون في الصين، ولم يكن قليلًا عدد الوكلاء التجاريين وملاك السفن الذين استقروا في سيام وفي جاوى وسومطرة وغيرها من جزر جنوب شرقي آسيا، وبما أن العرب الذين توجهوا إلى تلك الأنحاء قد تزوجوا من تلك البلاد وأسسوا بيوتًا أسرية فإن لغتهم سرعان ما دخلت إلى صلب تلك البلدان، بل وأصبحت لغة التخاطب أو لغة المشتركة من المناطق الواقعة فيما بين عُمَان والصين، وكانت زعانف السمك أهم مادة سلعية يرسلها العرب إلى الصين في تلك الأيّام، كما هي الآن، كما كانوا يصدرون لها اللآلئ والسجاجيد والجواهر والأقمشة الصوفية ويستوردون في مقابلها الخزف والحرير.

وكان لمغامرات العرب وشجاعتهم تأثير فعال على الصينيين الذين كانوا معزولين عن العالم؛ ولكنهم أفاقوا وأخذوا يبنون السفن العابرة للمحيطات ويشحنون منتجاتهم فيها، ويلاحقون العرب في عقر دارهم، وكان يتم تفريغ البضائع الصينية في موانئ مسقط وسيراف التي أنشأ الصينيون فيها مرسى أو مرفأ خاصًّا بهم يسمى مكلا شيني (أي الميناء الصيني)، أما قبل ذلك فإنهم لم يغامروا بالوصول غربًا إلى أبعد من سيلان (سيرالانكا الآن)؛ لكنهم بحكم ذلك أخذوا يبحرون إلى كيب كمبرون بل وإلى ميناء البصرة. وعلى أيّة حال فإن ثورة (٢٦٤هـ/ ٨٧٧م)، وضعت نهاية لرحلات السفن الصينية إلى مسقط، كما حالت بين عرب عُمَان والسفر إلى كانتون؛ ولكن العرب والصينيين قد أخذوا فيما بعد ولبعض الوقت يلتقون في سيلان (سيرالانكا).

وفي عهد الخليفة المعتز (٢٥٢- ٢٥٦هـ/ ٨٦٩- ٨٦٦م) عكف العرب على دراسة مشاكلهم التجارية على ضوء العلم، وألفوا عددًا كبيرًا من الكتب حول هذا الموضوع، فقد ألف الجاحظ المتوفى (٢٥٥هـ/ ٨٦٨م) كتابه (النادر في التجارة) الذي ضاع، والمدائني ألف كتابًا آخَر. وقد سارت الرغبة في الأسفار والرحلات جنبًا إلى جنب مع التقدم الحضاري وتطور خلالهما كل من علوم التجارة والجغرافيا، وبينما كان علماء الدين والأدباء والمؤرخون العرب كالمسعودي يجوبون الآفاق ويجمعون بين التجارة والعلم، وبينما كانوا يبادلون منتجات المناخات المتنوعة لأمبراطوريتهم الواسعة كانوا أيضًا يبادلون عندهم الأفكار والنظريات في شتى المسائل والموضوعات. وقد أظهر العرب في رحلاتهم الملاحية قدرًا كبيرًا من الجرأة والبراعة، ومن المحتمل أنَّهم أول من استخدم الأسطرلاب وهو جهاز تحديد خطوط الطول والعرض، وكانت خبرتهم بجغرافية الشرق أكثر مما نتصور، غير أن أعظم بحث علمي أنجزه العرب هو كتابهم (رسم الأرض) الذي يعتقد أنَّه ضاع.

كذلك قام العرب بتبسيط علوم الكون عن طريق تقسيم المحيط الهندي إلى سبعة بحار، وأطلقوا على الأول (بحرهم الخاص، الخليج) الذي تضمُّ شواطؤه خمسة موانئ اشتهرت عالميًّا: البصرة، والبحرين، وسيراف، وصحار، ومسقط.

أن أول رحلة بحرية بالسفن من البصرة أو من ميناء سيراف قد اتجهت إلى مسقط في عُمَان، ومن هناك أبحرت في رحلتها التالية في البحر الثاني (لاريوي) أو البحر

الغربي أو الطرف الشمالي للمحيط الهندي، والمرحلة التالية هي كشم مالي، ومن هذا الميناء كانت الرحلة تستغرق شهرًا واحدًا يصلون بعدها إلى جزر نوكابر، ومن سيلان إلى نوكابر وجزر أندمان يسمى البحر خورقند، ومن أندمان كانوا يبحرون إلى كلامبار، وهو ميناء ملقا وسوقها التجاري الهام الذي تحدث عنه أبو الفداء في سنة (٧٣٢هـ/ ١٣٣١م) ووصفه: بأنَّه المركز التجاري الرئيسي فيما بين عُمَان والصين، حيث كان يضمُّ كثيرًا من التجار ورجال الأعمال الأجانب من العرب والصينيين والفُرس والهنود، وكانت هذه السوق التجارية تابعة لجاوى التي كانت على جانب كبير من الثراء وكثافة السكان، أما موقع البحر الرابع (شلاحات) فهو غامض ولا يمكن تحديده وبالمثل البحر الخامس كدرون، أما البحر السادس (صنيف) وكان موقعه وراء كوشين في الصين وهو يضمُّ خليج تونكن، وقد تفرع هذا من البحر السابع (سيجين)، ويفصله عنه خليج هينان مدخل الصين، ويقع بحر سيجى على الساحل الشرقي للصين، ويضمُّ موانئ كثيرة وبخاصّة الميناء الغربي الصيني، ويسمَّى جاميو أو خنجى، وقد أشاد به المؤلفون العرب، وكان يعرف في العصور الوسطى ببحر خنسا أو كيونسي ويسمَّى الآن هانشن فو. أما من حيث أن العرب قد توسعوا في الاتجار في السلع الهندية والصينية وتفوقوا على كل من عداهم في هذه التجارة فمسألة لا تحتمل النقاش، وكانت تلك السلع الشرقية كلها تتدفق على العراق وسوريا وفارس؛ نظرًا لأنَّ الأقطار العربية كانت معزولة عن الاشتراك في تلك التجارة من جانب العرب الذين كانوا يستحوذون على كل تلك المنتجات ولا يسمحون للغربيين بالاتجار فيها.

وقد قام الخلفاء العباسيون الأوائل بإنشاء مدينة بغداد التي سرعان ما غدت من أغنى وأعظم المدن في العالم، وفي هذه العاصمة الإسلامية المزدهرة كان المنصور يرعى الفكر والأدب، واستطاع أن يرقى بالحضارة العربية إلى أعلى الذرى بشكل يفوق أي عاصمة أو قُطْر آخر.

والواقع أن البذخ والترف والأبهة التي كان يعيش فيها بعض الخلفاء المسلمين العرب في بغداد تكشف عن الازدهار والنشاط التجاري الذي كانت تحفل به المدن العربية، وعن حجم البضائع الأجنبية التي كانت تتدفق في سيل لا ينقطع على العاصمة الإسلامية، وإن روعة بغداد وثراءها كان يتمثل تلك الأزياء والمجوهرات

والحلي الثمينة الفاخرة التي كانت ترتديها النساء العربيات، وفي ملابسهن الزاهية وشالاتهن المزركشة وأرديتهن المطرزة بالذهب والفضة وفساتينهن الحريرية، وغيرها من أدوات الأناقة وفي الحلي والجواهر وأواني الذهب والفضة والخزف الصيني، وأشياء كثيرة من أجمل وأرقى أدوات الزينة والتحف التي كانت نساء الطبقات الراقية تقتنيها. ويحدثنا وارسي بأنَّ الكميات الهائلة من العملات والحلي الفضة العربية القديمة التي تم الكشف عنها مؤخرًا على ساحل البلطيق وإنجلترا وغيرها من المناطق تكشف عن تجارة واسعة بين تلك البلدان وشبه الجزيرة خلال القرنين الثامن والتاسع من عصرنا. وفي متحف ستوكهلم ما يزيد على ٢٠٠٠٠ عملة سُكت في نحو سبعين منطقة في شمال وشرق الأمبراطورية العربية، وأكثر من ثلاثة أرباعها صكت في القرنين التاسع والعاشر. ويبدو أن مدينة جوتلاند، بصورة خاصّة كانت أكبر أسواق العبيد، ومركز تجارة نشطة. وكان الطريق الذي يسلكه التجار العرب بحمولاتهم من السلع والعبيد تمر عبر أنهار زوبيا بعد خروجهم من نيبسى ومنها إلى بحر قزوين فبغداد، وقد أشادت الملاحم وكتب الأدب العربية بذلك النشاط التجاري غير العادي، كما أن قراصنة بحر الشمال لم يكونوا محاربين فحسب بل وتجارًا ماهرين، فكانوا يحملون تجارتهم وتجارة العرب في سفنهم إلى إنجلترا.

ولما كان العرب يحتكرون اقتناء الكماليات والسلع الثمينة من صنع الهند لأنفسهم فإن التجار الإغريق والرومان كانوا يلاقون كثيرًا من الصعوبة للحصول على ما يريدون من تلك السلع، لإرضاء ذوق الأوروبيين وتلهفهم على السلع والمرفهات الشرقية، كما أدى إلى ارتفاع أسعار الحرير واللآلئ وغيرها من المنتجات ارتفاعًا خياليًا في كل من روما والقسطنطينية. وعلى أيّة حال فإن ارتفاع الأسعار كان في الوقت نفسه حافزًا للتجار الذين ظلُّوا يبحثون عن طرق جديدة لتجارة الهند.

في ذلك الوقت كانت الإسكندرية تحت الحكم الإسلامي الذي كان يفرض رسومًا جمركيةً باهظةً على التجار الأوروبيين؛ ولهذا فقد تمكن الأوروبيون من إيجاد طرق جديدة عبر القسطنطينية إلى بحر قزوين، ومنه إلى الأوكسس؛ ثم إلى نهر الأندس في الهند والعودة من نفس الطريق، وحتى هذا الطريق كان لا بُدَّ أن يمر من الأراض الإسلامية التي كانت تفرض تعريفة جمركية عالية، فضلًا عمَّا كان

يكمن فيه من أخطار الحروب والصراعات الأسرية، شأنه شأن غيره من الطرق التي كان يستخدمها التجار.

وقد غدت مدينة القسطنطينية بفضل تلك التجارة منافسًا خطيرًا للإسكندرية الإسلامية وسوقًا حرةً للتجار الأوروبيين الذين يعملون في المنتجات الهندية، وأخذت تدريجيًّا تمتص الجانب الأكبر من التجارة التي تمر عبر البحر الأحمر والخليج وعبر الطرق البرية. كما كانت حياة الثراء والترف العربية حافزًا كبيرًا لتجارة الشعوب الواقعة على الشاطئ الشمالي للبحر الأبيض المتوسط وتطور ذوقها من ناحية أخرى. وبفضل النشاط التجاري ازدهرت مدن عديدة كبلخ، ونيسابور، ومرو، وحيرات، وسمرقند، تحت حماية الحكم العربي بشكل لم يسبق له مثيل، وصاحب ذلك ازدهار الصناعة، وأخذ التجار يقومون بجمع ما تنتجه المدن الصغيرة لبيعه في المدن والعواصم الكبرى، وهكذا تطورت التجارة، كما أن طريق قوافل الحج إلى مكة قد ساهمت في تطور التجارة، وغدت مكة مدينة كبرى وغنية، كما كانت ملتقى لمسلمي شرق آسيا وأفريقيا، وفضلًا عن ذلك فقد كان للصليبين دور كبير في تنمية الحضارة الأوروبية وتطورها عن طريق توثيق الروابط بين الشعوب الشرقية والغربية، وفي تطوير ونشر الثقافة وفي إزالة العصبيات، وفي حثِّ كل طرف على احترام الطرف الآخر وفي خلق تعارف وصداقات متبادلة.

وكان يتم تدريب الطفل العربي منذ الصغر على مراقبة النجوم، ثم سرعان ما يستخدم هذا في الاستعانة بها في سيره والاسترشاد بها سواء في الصحاري أو في البحار. وبفضل معرفة العربي بالأفلاك والنجوم يستطيع أن يشقَّ طريقه وسط الظلام. كما أنَّه تعرف كيف يسترشد بالنجوم في رحلاته البرية والبحرية. وهو يظلُّ يتذكر الاتجاه الذي كان يسير فيه بالليل؛ ليستعين بها في رحلاته في النهار.

ويكاد يكون من الأمور المُسلّم بها أن الفضل في اختراع البوصلة الملاحية (الإبرة المغناطيسية) إنما يعود إلى العرب الذين كانوا في الوقت نفسه سادة أوروبا في العلوم والفنون. وثمة مؤلفان هامان يشهدان للعرب بذلك الفضل، وقد ظهر هذان الكتابان في القرن الثاني عشر، وقد جاء في أحدهما أن الملاحين العرب كانوا يستخدمون الإبرة التي كانت تحدد لهما وجهة السير. ولو كان الأوروبيون هم الذين اخترعوا البوصلة لكنا بالطبع قد سمعنا بذلك الإختراع؛ ولكن الأوروبيين قد

استعاروها من العرب خلال اللقاءات والاحتكاكات التجارية والملاحية بهم، وقد بقي أصلها عندنا مجهولًا، ولم تكن البوصلة سابقًا تستخدم في الملاحة، وإنما فيما هو أهم بالنسبة للمسلمين أي للتعريف بالقبلة التي يتجه إليها المسلمون وقت الصلاة، ولعل أحد أسمائها في الفارسية وهو (قبلة نامه) لا علاقة له بالملاحة إطلاقًا. وهكذا فإننا إذ ذكرنا التقدم العلمي المذهل الذي حققه العرب باختراعهم لعلوم الجبر والمثلثات الكروية والمعادلات الرباعية والجغرافيا الرياضية فلا ينبغي أن نستغرب إذا عرفنا أنَّهم هم الذين اخترعوا الإبرة المغناطيسية.

أما هامبيليوت فإنه يعزو اكتشاف علوم الفيزياء الرياضية إلى العرب وحدهم، كما يعود الفضل إليهم في اختراع الورق والبارود، وبما أنَّ العرب هم الذين أدخلوا استعمال العملة إلى الصين، فإنَّهم هم الذين علموا الشعوب الغربية ثلاثة أو أربعة اختراعات ساهمت إلى حدٍّ بعيد في نشر الأدب، وأدخلت ثورة في فنون الحرب، كما مكنوا الغربيين من اكتشاف العالم ورسم خرائط له، كذلك من المحتمل جدًّا أن يكون العرب هم الذين اخترعوا الساعة، وكان الورق الحريري يصنع سابقًا في مدينة سمرقند ومدينة بخارى في العام الثلاثين من الهجرة (٦٥٠م)، أما في إسبانيا فقد كان يصنع الورق من قماشي اللبير والقنب. ويذكر الإدريسي أن الورق كان يصنع في شتيفا. وفي القرن الثالث عشر من عصرنا وصل الورق العربي إلى فرنسا وإنجلترا وألمانيا وإيطاليا، وكانت المخطوطات العربية تحظى بالإعجاب في أوروبا لجمالها الفني وطريقة كتابتها. ففي تلك الأيّام كان العرب يسبقوننا، وكانوا أساتذة في الكثير من العلوم. أما فيما يختص بعلم الميكانيكا فقد نال العرب شهرة عالمية في النحت وصناعة السكاكين والأدوات القاطعة والدباغة والنسيج والسباكة وكانت الدروع والنصال والسجاد والمصنوعات الصوفية التي يعتبر الشال الكشميري الصنع مجرد تقليد ونقل لها، ولم يكن تضارعها صناعة أخرى في أوروبا.

أما الفُرس فقد اشتهروا بالصناعات اليدوية وبمنتجاتهم التي تعتبر في غاية الدقة الفنية، وأن دقة وذوق وجمال بعض تلك المصنوعات لا يضارعها فيه أمَّة، قديمة أو حديثة كالمنسوجات القطنية والأدوات الفضية والذهبية المطلية ومنتجات الخزف والأقمشة المطرزة بالذهب، والفضة والأسلحة والشالات الصوفية والسجاد والحلي الذهبية والفضية.

وكانت المقايضة هي الطريقة التي يتعامل فيها العرب مع أفريقيا، وليس بالعملات، كما كان الحال مع الأقطار الأخرى، وكانوا يصدرون إليها الأقمشة القطنية والزنانير والملح والفضة والنحاس مقابل العاج وغيره من السلع. وكانت بغداد تدفع بالنقد أثمان السلع التي تستوردها من الخارج (وكان النقد وفيرًا)، كما كان لديها كثير من المنتجات التي كانت تقوم بتصريفها كالأقمشة القطنية والصوفية مع جميع الأصناف من السجاد البغدادي والزجاج الذي كان يصنع في القادسية في العراق... الخ، والأقمشة المخططة من اليمن واللبان من حضرموت والمطرزات من عُمَان. وكانت هذه السلع تلقى طلبًا كبيرًا لها في أفريقيا. كما كانت تشتهر البحرين بصناعة الأشرعة والخيام، كما كان إقليم فارس يصدر الأقمشة الصوفية، بينما كانت مصر تصدر أوراق البردي، والجدير بالذكر أن قماش الموسلين قد استمد اسمه من الموصل والدمشقي من دمشق والكاليكو (الشيت الخام) من كاليكوت في الهند.

وقد تم إنشاء الكثير من الفبارك والمصنوعات لإشباع رغبة الطبقات الغنية والمترفة، وهذا ما دعم الصناعة العربية، غير أن تصدير السيوف العربية الأصيلة كان مَحظورًا على التجار، كما كانت المطرزات وحدها تشكل تجارة خاصة، وكان معظمها في يد الفُرس، وكانت دائمًا تحمل صورًا ونقوشًا كالسجاد، وقد قام الأتراك ببيع محتويات قصر المنتصر في سنة (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)، فكان أكبر مزاد عرفه العالم، حيث بيع فيه ألف سجادة حريرية تمثل مختلف صور ملوك الأرض. وقد رسمت على إحدى القطع الحريرية الهائلة خرائط جميع أقطار العالم بمجسماتها وأسماء المدن بالذهب والفضة.

لقد كانت بغداد عاصمة الأمبراطورية العربية في القرن التاسع للمركز التجاري والسوق التجارية الدولية للعالم قاطبة. وكان رجال الأعمال والتجار فيها يقيمون صلات تجارية مع كافة أقطار العالم، وكانت أسواقها الواسعة المكتظة ملتقى لكلِّ الأقوام، ومجمعًا لكل أنواع السلع القادمة من آسيا. وعلى أي حال فلا داعي إلى الاسترسال في وصف الأسواق الشرقية القديمة، فتلك حقيقة معروفة، ولعل صفحات ألف ليلة وليلة ترسم لنا أصدق صورة لمجتمع بغداد في ذلك الوقت، وتتعمق بنا في طبيعة الحركة التجارية الهائلة في عاصمة الخلفاء، كما كانت حوانيت العطارة وباعة الروائح تزخر بأصناف العقاقير الطبية والعطور التي كانت تملأ

الأجواء بشذا العنبر واللبان والعود والصبر والمر وماء الورد والمسك وجميع أصناف توابل الأرخبيل، كما كان التجار يعرضون في محلاتهم الأنواع المختلفة من حرير الهند والصين وفارس، ومن موسلين الهند ومنسوجات القطن العُمَانية والمطرزات وغيرها من أنواع المنسوجات المصنوعة في فارس، وأمَّا الصياغ فقد كانت محلاتهم زاخرة بالمعروضات المتنوعة من لآلئ البحرين وأحجار سرنديب (سيرالانكا) والماس جولكوندا، وخزف الصين وشالات كشمير وغيره من المنتجات الهندية وسجاد فارس وعاج أفريقيا وأصماغ أويل.

ويمكننا أن نتصور بحق أسواق المدن الشرقية في العهود الأولى للإسلام التي كانت تشبه في طبيعتها وفي منظرها أسواقها اليوم، وهي تعج بجموع النّاس والمتجولين من أصحاب الحرف على اختلاف أجناسهم وألوانهم، السائقون والباعة المتجولون والجمالون وكذلك الحمير المحملة بقرب الماء والبغال والجنود والعسس والشيوخ مزيج غريب من المخلوقات، وهم يتدافعون بالمناكب، ويسرعون في حركتهم، فرادى وجماعات وسط الأزقة الضيقة والأسواق المسقوفة أو المسردبة في بغداد والبصرة وسيراف وصحار والموصل ودمشق، وكل جنس أو قوم أو مذهب له زِيُّه ومظهره المميز الخاص، ولعل الغريب في تلك الأسواق قد يندهش من أنواع الروائح المختلفة الغريبة التي تملأ الأجواء بروائحها العطرة.

ولا مجال للشك في أن البائع أو صاحب البضاعة كان يجلس على الأرض ساكنًا في كبرياء مزهوًّا بعرض بضاعته في صمت، ويطلب من المشتري كما يفعل اليوم أعلى سعر يمكن أن يحصل عليه، وكان يقدم سلعته للمشتري بدون تعليق، ولا يزعجه بالحديث عن غيرها من السلع التي كان يعرضها.

وكان هناك اعتقاد يسود الأوساط العربية في ذلك الوقت، وهو أنَّه توجد في مكان ما من المحيط الهندي صخرة ضخمة ممغنطة لها جاذبية هائلة لسحب الأجسام الحديدية التي تطفو على سطح الماء إلى قاع البحر وأن أيّة سفينة تدخل المسامير في بنائها تغرق فورًا بفضل تلك الجاذبية أو أنَّ المسامير تنخلع من ألواح السفينة التي تتفتت إلى قطع.

ويقال أن قصة الصخرة الممغنطة تعتبر السبب في استعمال الخيوط بدلًا من المسامير في بناء السفن الشرقية، وهي قصة انتقلت إلى العرب من الصين. إلا أنَّني

أعتقد أن ذلك ليس هو السبب، ولعل السفن العربية والهندية كانت تصنع بتلك الطريقة من آلاف السنين؛ وذلك قبل بدء الحركة الملاحية مع الصين. ولا بد أن السبب في استعمال الطريقة يرجع إلى الرغبة في إعطاء السفينة فرصة أكبر في الحركة والمناورة نظرًا للحمولات الكثيرة التي كانت تحملها واعتمادها على شراع ضخم واحد على عكس المراكب الأوروبية.

لقد انتقلت أخبار تلك القصة إلى أوروبا على لسان الصليبيين، وكما يقول يول (Yule): فإنَّ هذه القصة قد وردت في إحدى الكتب اللاتينية. وإذا تصورنا أن أصل القصة من الصين فمن المحتمل أن يكون موقع تلك الصخرة هو نفس المنطقة البحرية، ولربما لم يقم العرب ببناء سفن للملاحة في البحر العربي، والخليج، والمحيط الهندي بتلك الطريقة، وهي مناطق تبعد آلاف الأميال عن الصين، وبالتالي فإن القصة مجرد أسطورة.

* * *

# الفصل الثامن

# وصـــف بـلـــدان الخـلـيـج وصـنـاعـة الأسـمـاك فيـهـا

كتب المؤرخون الإغريق القدماء مؤلفين جغرافيين عن شبه الجزيرة العربية، وقد قسموها إلى منطقتين: منطقة الصحراء والمنطقة الخضراء أو الخصبة، ثم جاء بطليموس كلوديوس الإسكندراني وهو آخِر وأعظم المؤرخين والفلكيين الإغريق، فأضاف منطقة ثالثة سماها المنطقة الصخرية أو الجبلية، وهذه المنطقة تشمل في نظر الإغريق كما يبدو، كل الجزء من شبه الجزيرة الواقع إلى جنوب الخط الممتد من خليج العقبة إلى خليج شبه الجزيرة. وعلى أيّة حال فإنه من الواضح أن معلومات الجغرافيين الإغريق عن تكوينات الخط الساحلي والمعالم الطبيعية للمنطقة الداخلية من شبه الجزيرة معقدة وغامضة، بحيث يصعب القول ما إذا كان الإغريق يعرفون شيئًا عن وجود الصحراء الكبرى، التي يطلق عليها الربع الخالي، والتي تغطى نصف مساحة شبه الجزيرة العربية تقريبًا، ومن هنا فإنَّ علينا أن نفترض أنَّهم في كتاباتهم كانوا يشيرون إلى المناطق الملمين بها وهي الحجاز، وحضرموت، واليمن، وعُمَان، وبطبيعة الحال فقد كان الإغريق أكثر احتكاكًا ومعرفة باليمن، ولعله المنطقة التي ينطبق عليها اسم العربية الخضراء، أو السعيدة أكثر، وفي إطار هذا المعنى المحدود تعتبر التسمية صحيحة، بل وبقيت سارية حتى يومنا هذا. ومن الجدير بالملاحظة في نفس الوقت أن التسمية ليست ترجمة لكلمة اليمني، وإنما هي تعني الإخضرار أو الخصب (وقد تكون مشتقة من لفظة يُمْن: وهو الخير) وهو الاسم الذي يطلقه العرب أحيانًا على هذه المنطقة.

ومما لا شكَّ فيه أن التقسيمات الأربع لشبه الجزيرة كانت في الأصل مستقلة عن بعضها لسببين جغرافي وسياسي، فحدود التقسيمات الثلاثة، ونعني بها الحجاز واليمن وحضرموت لا تزال غير مرسومة حتى الآن.

غير أنَّ الذي يعنينا في هذا الفصل هو الإقليم الأخير من تلك التقسيمات ونعني به عُمَان، غير أن هناك حدودًا مشتركةً وملاصقةً لأطراف هذا الإقليم الساحلية، حيث يبدأ ذلك الاتصال وقد تعرضت هذه الحدود لتغييرات كثيرة عبر العصور.

وتجمع أغلبية المؤرخين الكلاسيكيين على تحديد نهاية حدود حضرموت عند رأس سكروس أو رأس فرتك، ويرون أن منطقة اللبان داخلة في حدود عُمَان، غير أن بطليموس يحدد حدود حضرموت عند جزيرة شيراتيس (نطقًا باليونانية) أي جزيرة مصيرة، وربما يعنون بذلك منطقة وادي حلفين، الذي يصب بالقرب من

محوت، وإن كنا نلاحظ أن بطليموس يضع تلك الحدود، وإن لم يكن بشكل ثابت، عند خور القمر أو غبة القمر.

ومنذ عهد بطليموس تظلُّ معرفتنا بهذا الجزء من شبه الجزيرة محاطة بغلالة سميكة لا تنكشف عنه إلا في القرون الأولى للإسلام، عندما بدأ الجغرافيون العرب يسلطون الأضواء على هذا الموضوع، غير أن معلوماتهم لسوء الحظ متضاربة وغير دقيقة، بحيث يتعذر استنباط أيَّة معلومات صحيحة تساعد على التأكد من حدود حضرموت الحقيقية مع عُمَان.

وترى أكثرية علماء الجغرافيا العرب أن هذه الحدود تمتد مع امتداد وانتشار هذه القبائل، ومع ذلك فإنَّ هذا الموضوع يبقى بغير حسم. فلعدة قرون ظلَّت قبائل المهرة تجوب آفاق الصحراء شرق وغرب سلسلة جبال سمحان (أو القمر)، وربما وصل بعضها في طوافه إلى عُمَان، بل وإلى الشرق حتى رأس الجزينية أو الشويمية، إلا أنَّهم على ما يبدو لم يتجاوزوا منطقة أحمر في انتشارهم نحو الشرق.

ولقد كتب الهمداني المتوفى سنة (٣٤٨هـ/ ٩٥٩م) وصفًا قيمًا لشبه الجزيرة، إلا أنَّه لم يتطرق بإسهاب إلى هذه النقطة، غير أن المقدسي مؤلف أحسن الكتب الجغرافية عن شبه الجزيرة، والذي صدر كتابه بعد ذلك بنصف قرن، يحدد هذه الحدود عند ظَفَار شأنه شأن أبو الفداء. وهناك البكري الإسباني المولد المتوفى عام ١٠٩٤م الذي يعتبر حاسك (أي وادي ريكوت) هي حدود عُمَان، ولعل البكري يحذو حذو المقدسي في اعتبار مواطن المهرة منفصلة عن عُمَان، بينما يذكر ابن مجاور الذي تنقل كثيرًا في جنوب شبه الجزيرة صراحة أن ظَفَار جزء من عُمَان، ثم يأتي المؤرخ ياقوت فيقول: بأن ظَفَار خاضعة للبحرين. وبالتالي يجوز لنا القول بأنَّ إقليم ظَفَار الصغير الخصب، والذي سوف نتحدث عنه بإسهاب كان دائمًا خاضعًا لعُمَان، إذا استثنينا بعض فترات قصيرة من الاستقلال، أو خلال خضوعه لدول أخرى كاليمن وفارس والبحرين. أما الحدود الساحلية لعُمَان فهي على أيَّة حال محدودة وأكيدة وتمتد إلى رأس شجر، وربما تشمل جغرافيًّا، إن لم يكن سياسيًّا، ذلك الجزء من شبه الجزيرة الواقع شرقي أحد الخطوط الوهمية التي تمتد من رأس شجر عبر الصحراء حتى سبخة مطي، ويحده البحر من كافة الجهات الأخرى.

وعلى ضوء هذا التحديد يتضح لنا أن عُمَان تشغل ذلك الجزء البارز في اتجاه الشرق

من منطقة شبه الجزيرة الذي يمتد تشكله الرباعي في تناسق على مساحة من الأرض تقدر بنحو مائة وخمسين ألف ميل مربع، ويرى البعض بأنَّ عُمَان إنما تنحصر داخل منطقتها الجبلية فحسب، غير أنَّه من أصحِّ القول أن التحديد يشمل الساحل الرملي الهائل الذي يشكل حاجزًا طبيعيًّا في وجه التبادل السياسي والتجاري، ويفصل عُمَان عن العالم، كما لو كانت جزيرة، وإن كان في الوقت نفسه يضفي عليها موقعًا فريدًا.

وإن أهم سمات عُمَان الطبيعية التي توجب علينا أن نوليها اهتمامًا خاصًّا هي سلسلة الجبال التي تخترقها من أولها إلى آخِرها التي تشكل عمودها الفقري، وذلك بعكس الصحراء التي تقع في مؤخرتها، وأن دراسة هذه السلسلة وتكوين فكرة دقيقة عنها مسألة ضرورية؛ لكي نفهم توزيعات الأقاليم العُمَانية ومعالمها الطبيعية والطرق العامّة التي يستخدمها سكانها في التبادل مع غيرهم. أن السلسلة تبدأ من رأس مسندم، حيث يصل ارتفاع القمة إلى ما يزيد عن ٦٠٠٠ قدم، ثم تنحرف في الجنوب الشرقي ارتفاعات منخفضة حتى الجبل الأخضر، الذي هو نهاية السلسلة. وعن هذا المرتفع تتعقد السلسلة إلى حدٍّ ما، فالمجموعة الأكبر منها تنتشر على شكل عدد من البروزات في الوقت الذي تستمر السلسلة في امتدادها نحو الجنوب الشرقي حتى قريات لتقترب من البحر، ثم منه إلى رأس الحد. وإن هذه السلسلة كلها؛ ونظرًا لطبيعة تشكيلاتها الجيولوجية تتسم بالجفاف والقحولة، بينما يغطي الأجزاء المرتفعة منها بعض النباتات كما تشقها وديان وشعب خصبة ومروية ومأهولة، وتضم ينابيع الماء والجداول التي تروي السهول الساحلية.

ومن مخازن المياه في هذه السلسلة تصب المياه في ثلاثة أحواض: هي: الخليج، وبحر عُمَان، والبحر الحدري أو البحر العربي، غير أن موارد المياه هذه جافة في أكثر أوقات العام، ولا تسمح إلا بتجمعات متقطعة للمياه، وقد لا تصل إلى البحر إلا في حالة هطول الأمطار الغزيرة. إن بعض هذه الخزانات دائمة، وسواء كانت أنهارًا أو سيولًا فهي تسمّى وديان، وهي في خصائصها لا تختلف عن مثيلاتها في شبه الجزيرة باعتبارها الوسيلة الوحيدة للاتصالات في كل أرجاء البلاد. وبما أن القرى والمدن والحصون والحاميات كلها تقع على ضفاف هذه الأودية، فإنَّها تضم القسم الأكبر من السكان، كما أن كل وادٍ من هذه الأودية يُسمَّى باسم القبيلة التي تستوطنه.

ولقد قسم العُمَانيون بلادهم إلى ثمانية مناطق أو أقاليم، وقد تم هذا التقسيم منذ زمن بعيد، وعلى ضوء الاعتبارات الجغرافية وفقًا لخطوط جريان الوديان. ومع ذلك فإنَّه من الصعوبة بمكان تحديد هذا التقسيم بشكل دقيق.

إن حدود هذا التقسيم كانت ولا تزال موضع خلاف، وحتى أكثر شيوخ البلاد خبرة ومعرفة لا يتفقون حول هذه النقطة؛ لأن العقل العربي لم يألف طريقة تحديد الأشياء تحديدًا صحيحًا ودقيق التفاصيل، غير أن الخطوط العريضة لهذه التقسيمات معروفةً تمامًا، وإن النظام البدائي المشيخي المعمول به في شبه الجزيرة الذي بموجبه تتولى كل قبيلة حماية أمنها ومصالحها بنفسها هو نظام يعاني من التمزق والضعف السياسي، ولا يقوم على أساس تقسيم البلاد إلى دوائر؛ لأنَّ نظام الإدارة غير موجود فيها، وكانت الغاية الوحيدة من تقسيم البلاد إلى مناطق ومشيخات هو مساعدة القبائل على اختلاف مناطقها على التجمع والاتحاد لمقاومة أي تهديد خارجي قد تتعرض له. وأهم التقسيمات الثمانية لعُمَان هي التقسيمات الخمس للمناطق الواقعة على المرتفعات الجبلية، وهي كما يلي:

١. الشميلية.

٢. الباطنة.

٣. الظاهرة.

٤. المنطقة الداخلية (عُمَان الأم).

٥. الشرقية، ويمكن إضافة منطقة سادسة، وهي الجبلية أو منطقة المرتفعات.

غير أن هذا التقسيم على ما يبدو غير صحيح ومشوش ولا داعي له، أما التقسيمات الثلاث الأخرى فهي الغربية، الجفور (أو المنطقة الصحراوية) وظَفَار؛ ونظرًا لعدم وجود عمليات مسح علمية فقد يتعذر رسم حدود هذه الأقاليم العُمَانية على الإطلاق، غير أنَّه من الجدير بنا أن نلخص هنا كل تقسيم في هذه التقسيمات استنادًا إلى الملاحظات الشخصية.

### الشميلِّيَّة

الشمال (أو الشميلِّيَّة)، وهي كما يدل اسمها، الإقليم أو المنطقة الشمالية،

وتشمل كل تلك المنطقة الممتدة إلى شمال غرب الخط الممتد من خطمة ملاحة على امتداد سفوح الجبال إلى وادي الجزي والبريمي، ومنه إلى أبوظبي، وعلى الجانب الآخَر تقع حدوده على البحر. وعلى الرغم من أن الشميليَّة تضم مساحة كبيرة من الأرض إلا أنَّها كثيفة الجبال وقاحلة، لا تنبض بأي نبات أو زرع، غير أنَّها بحكم موقعها الممتاز بالنسبة لمصايد الأسماك واللؤلؤ فهي منطقة مزدهرة وكثيفة السكان، أما رأس مسندم والمعروف عند العرب برؤوس الجبال، فهو يضمُّ سلسلة من الصخور والامتدادات الجبلية نحو البحر. وهذه المنطقة مطعمة عمومًا بكثرة بالمداخل والجاويف، اثنان منها يشكلان ميناءين واسعين، يسمَّيان خليج ألفنستون وخليج مالكولم.

وأعلى قمتين هما جبل حريم وجبل كيوى اللذين يرتفعان إلى علو ٦,٧٠٠ قدم و٥,٨٠٠ قدم لكل منها. وعلى الناحية الغربية للبروز تبدأ السلسلة في الانحدار من جهة الساحل قريبًا من خصب، وتشكل السهل الساحلي الذي يطلق عليه الأوروبيون (ساحل القرصنة) ويسمِّيه العرب السر أو الشميليَّة. وتسطير على هذه المنطقة الشمالية سلطات ثلاث، حكومة عُمَان، وشيخ القواسم، وشيخ بني ياس، غير أن الأخيرين منذ أن انحسر الوجود الوهابي عن المنطقة لا يدينان بأي ولاء لعُمَان. وتسيطر عُمَان على البروز ابتداء من دبا إلى شعم بما في ذلك خصب، ويسيطر شيخ القواسم على الساحل بدءًا من رأس الخيمة إلى الشارقة، كما تتبعه خور فكان، بينما يسيطر شيخ بني ياس على المنطقة الممتدة من دبي حتى أبوظبي، ويحتل البروز ابتداء من غرب شناص قبيلة واحدة، وهي قبيلة الشحوح التي يدور جدل كثير حول أصولها التاريخية، ويقال بأنَّ لها لهجة لغوية خاصّة، كما أنَّها تختلف من حيث التقاطيع عن العرب بل أن بعض الكتَّاب قد إرتأى بأنَّهم من أصل أوروبي، غير أن سكان منطقة كمزار هم من أصل فارسي، ويتحدثون بلهجة فارسية ركيكة.

### منطقة الباطنة:

المنطقة أو الإقليم الثاني هو الباطنة، وهي سهل ساحلي ملتو يقع بين الجبل الأخضر وسلسلة الحجر من الجهة الغربية والبحر من الشرق، وهذا السهل في امتداده من خطمة ملاحة فوق المرير من الشمال بقليل، حيث يلاصق البحر يبدأ في الاتساع حتى السيب، حيث يصل العرض في هذه النقطة إلى ٤٠ ميلًا تقريبًا والامتداد ١٨٠

ميلًا، وأخصب جزء في هذه المنطقة يقع ضمن حزام، يصل عرضه من ميلين إلى ثلاثة، وعلى طول الساحل تمتد عليه سلسلة من الحصون والمنازل والأكواخ وأشجار الفاكهة وأنواع أخرى من النباتات من بدايته حتى نهايته، ووراء الحزام تأخذ الأرض في الارتفاع تدريجيًا حتى قاعدة السلسلة الجبلية، وعلى الرغم من توفر مياه الري من خلال المنحدرات ومصادر المياه الأخرى التي تشق السهل شقًا، وهي تتدفق من مصارفها في السلسلة، فإنه بوجه عام مغطى بالخضرة، وإن كانت في شكل متقطع إذا استثنينا بعض الواحات القليلة الخصبة، وبعض الرقع الصحراوية. وتغطي هذا السهل أشجار الأكاسيا والفربيون والصبر والعشب البري، الذي يشاهد هذا السهل من البحر فإنه يرى شاطئًا يمتد برماله الناعمة البيضاء والواحات الخضراء المكسوة بالأشجار وغابات الأكاسيا السمراء، وخلفها كتل السلاسل الجبلية بشكلها غير المنسق، وذلك كله يضفي على السهل مشهدًا جميلًا مثيرًا.

وأهم وديان المنطقة ثمانية تقريبًا وهي: (١) وادي حتا (٢) وادي الجزي (٣) وادي عاهن (٤) وادي البطحاء، صحم (٥) وادي الحواسنة (٦) وادي بني غافر، ووادي الرستاق (٧) وادي بني خروص (٨) وادي حمام، وكل هذه الأودية مأهولة بكثافة مع وفرة المياه فيها، وعلى الرغم من أن بعضها قد يصل إلى البحر بعد نزول أمطار غزيرة إلا أنَّها ليست دائمة.

إن الزراعة المحلية في الباطنة قليلة، غير أن المناطق الخصبة أو المزروعة غنية بأشجار الفاكهة كالبلح، والمانجو، والفراولة، والرمان، والموز، والجوافة، والبرتقال، والليمون، والنارنج، والخوخ، والمشمش، والتين، والتمر الهندي، واللوز، والبطيخ، والشمام، بالإضافة إلى أنواع أخرى كالخس، والذرة، وقصب السكر، والشعير، والحنطة، والقطن، والبقول.

أما عن الصناعات فتعتبر الباطنة متقدمة كثيرًا على المناطق الأخرى، وأبرزها صناعة الأسماك وهي تستوعب العدد الأكبر من العاملين، وأحيانًا يشترك القرويون في صناعة شباك الصيد؛ لأن البحر زاخر ومليء بالأسماك، والكميات الخرافية التي يصطادها الصيادون يكاد لا يصدقها عقل، وهناك صناعات أخرى كالخزف والأقمشة الشعبية التي تسمّى الخضرنج، ويستعملونها للدشاديش (الجلاليب)، كما أن هناك صناعة الأشرعة والنسيج وصناعة النيلة وبناء السفن.

ويوجد في الباطنة كثير من الحصون المنيعة، كما أنَّها تضمُّ اثنتان من العواصم القديمة، وهي صحار والرستاق، أما الرستاق ونخل وينقل فتعتبر من عواصم المنطقة الداخلية، بينما توجد مدن أخرى على الساحل ويبلغ عدد المدن والقرى الكبيرة والصغيرة نحو ٣٠٠. وتوجد مجموعتان من الجزر المطلة على ساحل الباطنة وهي صخرة السوادي، وجزر الديمانيات إلا أنَّها غير مأهولة إطلاقًا، ولا توجد ملاجئ أو مرافئ آمنة تحتمي بها السفن على ساحل الباطنة، وعلى المراكب أن تنتظر في مسقط أو غيرها من المناطق خلال المونسون (الرياح الشمالية الشرقية)، بينما تعتبر المراكب من طراز البَدَنْ سفنًا ساحلية صغيرة تسحب إلى الشاطئ أو تنتظر في أحد الخلجان، وهي كثيرة على الساحل، ونظرًا لاضطرابات البحر والموج يستخدم نوع خاص من المراكب يسمى الشاشة مصنوع من سعف النخيل، ويبلغ عدد سكان الباطنة نحو ٧٠٠,٠٠٠ نسمة. وأمَّا من الناحية الجيولوجية فيعتبر السهل الساحلي في تكوينه من نوع السلسلة الجبلية، أي قشرة أفقية من الأحجار الكلسية المنتمية إلى العصر اليوسيني أي (العصر الفجري)[١].

**الظاهرة:**

وتقع خلف منطقة الباطنة، ويفصلها عنها سلسلة الحجر التي تشكل قمتها الحدود الشرقية، كما يفصلها عن عُمَان الداخلية أو الأم، قمة جبل الكور أو نجد المخاريم، وعن الشميليَّة وادي البريمي، وهذا الإقليم سهل ضيق مجرد من الخضرة والنبات، فيما عدا منطقة بها بعض الواحات وتشطرها مجاري مياه ضحلة، تتلاشى عن طريق جريانها إلى وادي العين أو تجف من خلال تسللها إلى الصحراء الكبرى من الجهة الغربية والتي لا يوجد فاصل مميز لها.

ومن ناحية أخرى فإنَّ سطح المنطقة تتناثر عليه بعض السلاسل الجبلية الصغيرة كجبل حفيت، وجبل مشط، كما يضمُّ إقليم الظاهرة منطقة الجو التي تقع فيها البريمي، وأهم مدنها عبري وضنك والعينين ودوت المازم ومقنيات وجابي، وأكبر أوديتها وادي العين الذي ينبع من جبل الكور، ويقال: أنَّه يصل في جريانه إلى البحر في أبوظبي.

وثمة مفارقة مميزة وبارزة بين الشكل الانحداري الشديد للمنطقة الشرقية من

(١) المترجم

سلسلة الحجر وبين الانحدار التدريجي النسبي لها في اتجاه الشرق. وأهم المحاصيل الزراعية لهذه المنطقة الفواكه، كما توجد فيها بعض الصناعات كالخزف والنسيج والصباغة، وسكانها قليلون، وربما لا يتجاوز عددهم ٢٠٠,٠٠٠ نسمة، غير أن القبائل على أيّة حال نشطة وأكثر ميلاً إلى إثارة الاضطرابات من غيرها من سكان البلاد.

### عمان الأم:

أهم الأقاليم العُمَانية من الوجهة السياسية، ومركز الثقل فيها، ومنه تستمد البلاد كلها اسمها، وتمتد عبر البلاد وسلاسل الجبال من قرية أدم إلى البحر ويحدها من الشمال والغرب الباطنة والظاهرة، كما ذكرنا من قبل ومن الجنوب والشرق الشرقية. وعلى أيّة حال فإن الحدود بين إقليم الشرقية وبقية عُمَان يصعب تحديدها، وذلك لجهلنا بالتكوينات الطبيعية، بل ويختلف العرب أنفسهم عليها (ويعتقد البعض أن خط الحدود لهذا الإقليم يمتد من قمة جبل الطائيين إلى وادي الطائيين حتى دغمر)، وعلى الجانب الغربي من السلسلة تبدأ الحدود عمومًا من سمد الشأن، ومنها إلى الصحراء. وبالتالي فإن عُمَان الأم تضمُّ الكتلة الرئيسية الضخمة للسلسلة التي تسمّى بالجبل الأخضر، والوادي الكبير الذي يُسمَّى وادي سمائل، وفي هذا الإقليم تقع العاصمة مسقط، والعاصمة القديمة لعُمَان نزوى، و١٤ مدينة أخرى هي سمائل وإزكي وبهلاء وأدم وبركة الموز ومنح وفرق وسلّوت وجبرين وسرور وبدبد وقيقا وبلاد سيت، وأهم هذه المدن سمائل وهي الشريان الرئيسي للتجارة بين مسقط والمنطقة الداخلية، وتتدفق هذه الحركة التجارية على امتداد الوادي، وطوله أكثر من مائة ميل وتقوم على ضفافه أكثر من مائة قرية. والطريق لهذا الممر الرئيسي من الشرقية هو وادي العق، وهو شعب ضيق منحدر يمكن لعدد قليل من النّاس الدفاع عنه، ويعد ذا قيمة سياسية وإستراتيجية فائقة في حالة الطوارئ، والقبائل التي تعيش في هذا الإقليم تنتمي إلى كلتا المجموعتين السياسيتين الهناوية والغافرية، وهما من حيث القوة تكاد أن تكونا متساويتين، أما عدد سكانها فهو نحو ٤٠٠,٠٠٠ نسمة.

### الشرقية:

كما يفصح عنها اسمها تشكل أقصى الأقاليم الشرقية لعُمَان، وهي محاطة من

جانبين بالبحر، ومن الجنوب الغربي بالصحراء، ويفصلها عن عُمَان الأم سلسلة الجبال كما سبق أن ذكرنا، وهي منطقة جبلية من الجهة الشمالية الساحلية وأعلى قمتها جبل السعتري الذي يرتفع ٦٠٠٠ قدم؛ ولكنه على الناحية الغربية الجنوبية أكبر تسطحًا وخصبًا وأكثر سكانًا. والجانب الشمالي من الشرقية يجري فيه وادي الطائيين الذي يصب في بحر عُمَان، بينما في الجنوب يلقط التجمع المائي أربعة جداول: الأثلي، وعندام، وحلفين، كلبوه، وكلها تتجمع في مجرى واحد، ثم تصب منه في بحيرة واحدة إلى الشرق قليلاً من محوت في البحر الحدري. وهذا الإقليم يضم ثلاث أو أربع مقاطعات متطورة وغنية بالمياه وهي: وادي الطائيين، وجعلان، وبدية والبعض يضيف إليها سمد الشأن. والأوّل من هذه الأودية هام ودائم يضمُّ أكثر من ثلاثين قرية، وبعد أن يقطع الوادي فجوة عميقة في التلال، وتعرف بين الملاحين بهوة الشيطان يصل إلى البحر في دغمر شرقي قريات. أما جعلان فهي المنطقة الساحلية للشرقية وواحدة من أغنى أجزائها، ويحدها غربًا بدية، والبحر من الشرق الذي لا يبعد عنها بأكثر من خمسة عشر ميلاً، ويقولون إن اسمها مشتق من اسم إحدى القبائل القديمة التي كانت تحتلها واسمها بني جعلان، ولعلها فرع من قدعة ولها قمتان شاهقتان هما جبل جعلان وجبل قارون، والأول يرتفع ٣,٩٠٠ قدم وهذه السلسلة قصيرة، وشكلها كاللسان، ويقع على ناحيتها الغربية واد خصب كثير المياه والسكان، تسكنه قبائل عديدة، أهمها قبيلة بني بو علي، وبني بو حسن، والهشم، وبني راسب، أما القرى التي يقيم فيه القبائل في جعلان، فهي وادي تليفة، ووادي ساحة، وجبل منوف، والكامل، وجبل ينقل، ووادي بني خالد، ووادي الشمه، سكيكره. ويقيم بنو بو علي في وادي بني بو علي وجندين وقرى الهشم هي البراري والحماية وسيف وشعب والكمد وثمة قرى أخرى غير التي أوردناها، ونحو ست أو سبع منها فيها حصون واستحكامات، أما الإنتاج الزراعي فوفير ومتنوع، وأبرزه الحنطة والشعير والشوفان والخس إلى جانب البلح وأنواع الفواكه.

وبجانب البحيرتين المغلقتين بريًا، وهما خور جراما وخور الحجيرة يملك إقليم الشرقية في صور أحسن ميناء في عُمَان كلها، وهذا الفردوس بمجراه الافعواني يعتبر مكانًا آمنًا للمراكب المحلية التي يتم فيها بناء الكثير منها ومن جميع الأحجام. والقبائل التي تقيم في هذه المنطقة هي الجنبة وبنو بو علي وتعتبر الأولى من أبرز

الملاحين وجوابي البحار في عُمَان، وكانوا في الأيّام الخوالي يعرفون بالصبوريين بما اكتسبوه من شهرة في البحر والملاحة. وبالإضافة إلى قرى إقليم الشرقية التي ذكرناها بالفعل هناك قريات، والهنيدة، وقلهات، والأشخرة، ومحوت، والوافي، والقابل وسمد وجابي وغبرة الطو، والمضيبي، والكامل، وبلاد بني بو علي.

أما السكان فيصل عددهم إلى ٣٠٠,٠٠٠، وينتمى أغلبهم إلى قبيلة الأزد اليمنية، غير أنَّه لا يوجد مستوطنون بلوش أو فُرس في هذا الإقليم، وأبرز قبائله هم الحرث والدروع والحبوس والمساكرة والحجريين، وبني بو علي وبني بو حسن والهشم وآل وهيبة والديل، وأكثرهم قد تورط في النزاعات الأسرية والثورات في السنوات الأخيرة في عُمَان.

## بدية:

تقع مقاطعة بدية على الناحية الغربية من جعلان، وتستمد مياه الري من نحو سبعة مجمعات تجري في شكل فروع جدولية إلى الوادي[١]، وفي كل منها قرية أو قريتان. أما سمد الشأن فبلدة قديمة في وادي الأثلي تشق طريقها وسط سهل خصيب وفير المياه وتحيط به صفوف من الخمائل والمزارع وفيه حصن ويقيم فيه الوالي المسؤول.

إن التقسيم البياني لإقليم الغربية يتلخص في أنَّه يشكل ذلك الجزء من عُمَان الممتد من أبوظبي إلى سبخة مطى، على مساحة طولها مائتا ميل وبالتالي فهو لا يستحق منا الاهتمام. وهو منطقة قفراء ليس فيها قرى أو نبات؛ ولكنها مأوى للقبائل الرحل من بني مرة وبني ياس والمناصير والحجريين وغيرها. وفي بعض المناطق توجد جبال؛ لكنها غير عالية ورملية أو صخرية، ويندر أن يوجد فيها الماء. وهناك الكثير من الجزر الصخرية أو الرملية بالقرب من الساحل، كما أنَّ مصايد اللؤلؤ الكبرى غير بعيدة عنها، وعلى الرغم من جفاف المنطقة فإن الجزء الغربي منها موضع نزاع، إذ على الرغم من أن ذلك الجزء يتبع بني ياس إلا أنَّ شيخي البدع وقطر يطالبان به.

ولقد تناقشت مع صاحب الجلالة السلطان السيّد تركي حول حدود عُمَان نظرًا لتنوع خبرته وكثرة أسفاره وأطلاعه العميق ببلاده وكان لآرائه قيمة كبرى، ويعود الفضل إليه في تحديد صلاحيات المقيم في الجنوبية، وقد ذكر لي بأن الحدود الجغرافية من الغرب هي السبخة، وإن كان جزء من قَطَر حتى منطقة العديد داخل من الناحية السياسية في حدود شيخ أبوظبي.

(١) – لقد حذف المؤلف اسم هذا الوادي من النص، ولعله يعنى بذلك وادي الطائيين.

## صحراء العرب:

لعل الصحراء العربية الكبرى تشكل أكبر رقعة رملية قفراء غير مأهولة في القارة الآسيوية، وبلغ طولها ٧٠٠ ميل، وتقع بين عُمَان شرقًا؛ حيث يوجد أعرض جزء منها، واليمن على الغرب، حيث توجد أضيق مناطقها، ومن الشمال تحدها نجد واليمامة والإحساء، ومن الجنوب حضرموت، وظَفَار، والبحر الحدري بمتوسط عرض ٣٠٠ ميل، أما عن المعالم الطبيعية لهذه الصحراء فنحن نكاد نجهل عنها كلَّ شيء، إذ لم يقم أي من الأوروبيين حتى الآن باكتشاف أعماقها ومعلوماتنا عن سكانها البدو باهتة وغير أكيدة، بحيث لا يمكن أن نعول عليها. وعلى أيّة حال فالمعلوم أن هناك منطقة الدهناء الواقعة على الشمال الشرقي وهي منطقة منعزلة ترصعها سلسلة من كثبان الرمال الحمراء التي تشبه أمواج المحيط، حيث لا وجود لأي نبات، وحيث لا يستطيع حتى البدو الرحل التجول فيها. وهناك جزء من هذه الصحراء يسمّى الأحقاف التي يقال أنَّها تحوي أكوامًا من الرمال تغطي أجزاءها الصخرية السوداء.

وأن العرب يصفون جزءًا كبيرًا من الصحراء بأنَّه سهل مموج تشقه سلسلة من التلال المنخفضة ومجاري المياه الضحلة الجافة، بالإضافة إلى تلال الرمال ويبدو أنَّه لا يوجد شيء بارز فيه أو ملفت للنظر، وتتشكل البرك من خلال سقوط الأمطار، وبعد أن تتبخر المياه تبرز طبقات الملح التي تغطي تلك البرك مما يضفي عليها منظرًا أبيض اللون.

وتلال الرمل الواقعة على الجزء الشرقي من الصحراء التي هي الآن محور موضوعنا تعرف بأسماء متعددة منها كواد، والأحقاف، والكثيب. وإذا تناولنا الصحراء عمومًا فإن البدو يطلقون عليها (اسم الجنور أو المنطقة غير المطروقة) كما يسميها البعض بالصحراء. أما في مؤلفات الجغرافيين العرب فإن الاسم الذي يطلق على هذه الصحراء هو (الربع الخالي) غير أن البدو لهم أسماؤهم الخاصّة لمختلف المناطق، والواحات التي لها سماتها ومعالمها الخاصّة. ولعله لا توجد منطقة في العالم كله تضارع الربع الخالي في جدبه وجفافه، وحيث إذا استثنينا بعض البدو الرحل والجمال والماعز والحيوانات المتوحشة فلا يوجد أي أثر للحياة فيها، ويخيم عليها السكون والوحشة.

ومناخ الربع الخالي يتأثر بفصل المونسون(الرياح الشمالية الشرقية)، ورغم أن المطر قليل فيه نسبيًا، إلا أنَّ الديم كثيرًا ما تهطل عليه. ونظرًا لفقر التربة وجفافها وقلة هطول الأمطار عليها وشدّة الحرارة فلا يوجد فيها إلا نباتات هزيلة أو ضعيفة النمو تتكون من أشجار ناقصة النمو كالحنظل والطرفاء والدفلى والورد والنباتات اللبنية والحرمل، وغيرها من النباتات العشبية التي تعيش عليها الجمال. والمعتقد أن الصحراء تخصُّ القبائل العديدة التي تحيط بها وتحتل أجزاءها، ويتجول البدو في مجموعات في هذه الصحراء في كل الاتجاهات، وتربى أعدادًا كبيرةً من الجمال من أجود السلالات. أما من الناحية الشمالية فإن عرب المناصير وأبو واس ومرة وغيرها من قبائل نجد والإحساء هي التي تجوب آفاق الصحراء، وفي الشرق توجد القبائل العُمَانية مثل العوامر وآل وهيبة والدروع والحبوس والوايل، بينما المنطقة الجنوبية من اختصاص فروع قبائل المهرة والمناهيل والحراسيس والبومالي وغيرهم. والمعروف أن الجمال التي تقوم قبائل عُمَان والمهرة بتربيتها مشهورة بسرعة الجري وجمال الشكل وقوة التحمل، وكان شريف مكة يتلقى هدية سنوية من هذه الجمال من سلطان عُمَان لاستعماله الخاص.

ويقال بأنَّ بدو العوامر والدواسر ومرة تجوب الصحراء، ولا يوجد ثمة مكان فيها لا يصلون إليه باستثناء الدهناء، غير أنَّه في الوقت نفسه فمن المشكوك فيه ما إذا كان بدو الدواسر سكان الشمال يحتكون بالمهرة سكان الجنوب؛ ولكني على الأقل لم أستطع أن أعرف شيئًا عن ذلك منهم. وقسم من قبيلة العوامر تستقر في المنطقة الداخلية من عُمَان، ويزاولون الزراعة، ولعل العناصر البدوية من العوامر هم أكثر قبائل عُمَان توزعًا وتنقلاً، وقد يصل أفرادها إلى حضرموت، حيث يعيشون في حالة شبه بدائية أو متوحشة، ولعله لا يوجد عنصر في شبه الجزيرة أكثر همجية وحبًا للسلب منهم.

وفي عام ١٨٧٤م وبناء على أمر السلطان عبرت مجموعة من العوامر الصحراء من وادي ريكوت ووصلت إلى مسقط بعد أن قطعت مسافة ٤٠٠ ميل، ثم عادت من نفس الطريق، وقد أكدوا لي أنَّهم لا يعانون من أيّة متاعب في قطع الصحراء في أي اتجاه. ولقد قام الدكتور سبرنجر بالبحث في الطرق التي كانت تسلكها القوافل في الأزمان القديمة، وتحدث عنها في كتابين، أما الآن فلا يبدو أن هذه القبائل مستمرة

في تنقلاتها واصطحاب أفراد عائلاتها وقطعانها من الإبل والماشية بحثًا عن المرعى، وهي تنتقل في مجموعات صغيرة وتظل تراقب جمالها وهي ترعى الكلأ.

ولا يحصل البدو على الخبز من أي نوع إلا عندما يأتون إلى المدن لمقايضة جمالهم بالضروريات وغذاؤها الوحيد على مدى الشهور هو لبن الإبل والماعز. إن التربة جافة وحارة وقاحلة، والمطر نادر فيها مما يجعل حياة النبات مستحيلة، لولا سقوط الندى بوفرة الذي ينعش النبات كما أن هناك بعض الآبار المالحة، والبدو يعرفون بعض الجذور والفواكهة القابلة للأكل غير أن هذه نادرة جدًّا. أما الحيوانات المتوحشة التي تعيش في هذه الصحراء فقليلة، وهي صغيرة أيضًا في نوعها ونشأتها، فمنها الغزلان والحمير الوحشية والذئاب والضباع والقنفذ والأرانب وفئران الحقل، أما الطيور فهناك الأوز البري والنسور والصقور والقطا الذي كثيرًا ما تغنى به الشعراء العرب. أما النعامة فهي توجد في المناطق الشمالية والغربية، غير أنَّها قد انقرضت في المناطق الشرقية، وعلى حدِّ قول بارسنس فإنه رأى ريش النعام يباع في أسواق مسقط.

يسمّى العرب العُمَانيون الحمار الوحشي حمارًا، واللفظة مشتقة من الأحمرار، وهو رمادي اللون أو أحمر - بني غامق- وحمير عُمَان لها شهرة كبيرة في الشرق لسلالتها ونشأتها، ويصدر منها الكثير إلى الخارج. وتعود أصالة الحمير العُمَانية إلى مزاج دمها الصحراوي مما يزيد في قوتها وتحملها للمشاق؛ ولهذا فالحمير الهجين عنيدة ومراوغة ومتوحشة، وقد رأيت بعضها يجري مغلول القدمين، ولها حركة مشي سريعة، ويمكنها أن تواصل تلك السرعة لساعات طويلة، وهي تصلح لتسلق الجبال وعبور ممراتها الانحدارية؛ نظرًا لحافرها المقعر، مما يسمح لها بالصعود للطرق المنحدرة بسهولة. وعلى الرغم من أن هذه الحمير قد ألفت وتكيفت مع المناطق الجبلية إلا أنَّها لا توجد إلا في السهول وثمن الواحد منها يصل إلى ٣٠ أو ٤٠ ريالًا، غير أن الحمير الأليفة تكلف أكثر من هذا الثمن؛ ولذلك فيصدر منها الكثير. وعلى الرغم من قصر أرجلها أو قلة سرعتها فإن الحمير المتوحشة نادرًا ما يستطيع خيال أن يلحق بها أو يسبقها في الجري؛ ولذلك فإنَّ العرب يهتمون بالأنواع الجيّدة منها ويقدرون مزاياها.

**القرد:**

يذكر أوتر أن عُمَان قد اجتاحتها القردة في الأزمنة القديمة، ويسمى القرد في عُمَان سبال، وهو أيضًا اسم أحد الأصنام الآلهة التي كان يعبدها عرب الجاهلية قبل الإسلام. وكانت القردة تشكل تهديدًا مدمرًا مما اضطر العُمَانيون إلى إبادتها، وقد تمت هذه العملية بطريقة فعالة حتى لم يعد للقردة وجود في عُمَان.

**الجمل:**

يلاحظ أن هناك تشابهًا غريبًا في الصفات بين العربي والجمل، ولعل أبرز سمات تلك التشابه هي مقاومة كل منهما للظلم، ونزعته إلى الانتقام، والسهولة التي يتم فيها تهدئتهما، وقليلًا ما يصادف الإنسان عربيًا له تجربة أو قصة عن مثل هذه الحوادث. وفي شبه الجزيرة العربية كما هو الحال في الهند أو أفريقيا يوجد نوعان من الجمال، جمال الركوب، وجمال النقل أو الحمل، (والجمل ذو السنامين غير موجود في هذه البلدان)، أما الناقة فهي المخصصة للركوب نظرًا لدقة ولين

مشيتها، وهذه الجمال سريعة وخفيفة الحركة، وهي أفضل من الخيل لقطع المسافات الطويلة. وجمال الحمل سميكة الأرجل وفاترة وغير رشيقة، كما أنَّها أكبر وأقوى وأكثر فائدة، وخطواتها ثقيلة وبطيئة وموزونة، وتتحرك فجائيًّا كما أنَّ صفاتها تتلائم مع خصائصها الجسمانية. وفيما عدا الأرض الطينية أو الزلقة التي تغطيها المياه كالمستنقعات، فإنه لا توجد تربة أيًّا كانت رملية أو حصبائية لا يمكن للجمل أن يسير عليها في سهولة وخفة وسرعة وأمان، بالرغم من أنَّه يسير أفضل على الأراضي الرملية. والجمل بما يتمتع به من صلابة وقوة وفطنة يتفوق على الخيل، وهو يتساوى مع الحمار في الخفة والصبر، ومن ثم فإنَّه أعظم الحيوانات الأليفة قاطعة في العالم كله، وإذا كان الهندوس يعبدون البقرة؛ لأسباب اقتصادية فإن هناك مبررات أقوى للعرب بأن يُرّفع الجمل إلى مصاف الآلهة، وأن يعتبر حيوانًا مقدسًا. وتختلف سروج الجمل من بلد عربي إلى آخَر. ففي عُمَان على سبيل المثال يصنع السرج والجواد من نفس الشكل ويتكونان من خشبتين مربوطتين في طرفيهما وتوضعان فوق السنام، ثم تغطيان بمفرش أو سجادة أو قطعة من قماش الصوف، والجزء المقوس من السرج عبارة عن قطعة من الخشب مستديرة الرأس، وعليها نقوش محفورة، وتُسمّى هذه الشداد، ويتم صنعها في نزوى وغيرها من المدن العُمَانية، وفي عُمَان يجلس راكب الجمل وراء السنام بينما في اليمن يجلس أمام السنام ومن جانبي السرج يتدلى جراب كبير من قماش الصوف؛ وذلك لحفظ الملابس والطعام فيه، وبالإضافة إلى استعمال الجمال في شؤون النقل، فإنها تزود أهلها بالألبان، وخيوط الشعر للحياكة والجلود واللحوم.

إن السرعة وغيرها من الصفات التي يتمتع بها الجمل العُمَاني يجعله في مستوى جمل المهرة المشهور الذي يكاد يشبهه ولا يفوقه أي جمل آخَر في عرف العرب. والدروع، وآل وهيبة، والعوامر هم القبائل العُمَانية المتخصصة في تربية الجمال، ولكل منها قطعان كبيرة منها.

## الصقور والنسور

إن أقصى ما توصلت إلى معرفته من خلال مقارنة أقوال عدد من مربي الصقور أن هناك نحو ثلاث عشر فصيلة. وإحدى هذه الفصائل هي المعروفة لدى العرب بلفيف، ونوع آخَر يُسمَّى حجازي، وهو كما يدل اسمه ينتمي إلى أرض الحجاز، ويتم صيده في المناطق القريبة من المدينة، وهذا النوع هو من أفضل الأنواع، وله نفس الأهمية التي للباز الجوال، إلا أنَّه لا يحلق في أسراب، بينما يقبض على فريسته من الطيور بضربة واحدة. ونوع آخَر هو أثرناجل ويقول البعض: أنَّ له عينين صفراوين، بينما يقول آخَرون: بأنَّ عينيه سوداوان؛ لكن من الصعب أن نؤكد ما إذا كان هذا النوع هو من الصقور أو النسور. وأكثر أنواع الصقور استخدامًا هو ما يسمى شرخ أو لفيف، كما يطلق عليه العرب، أو وشري عندما يكون صغيرًا، كما يُسمّى بالصقر، وهو يشبه الشروج الهندي، بينما الفريسة التي ينقض عليها بعد إطلاقه هي من نفس النوع من الغزلان، وأوكار هذه النسور توجد عمومًا في جبل ثحل بالقرب من تكريت. ويأتي هذا النوع من العراق عن طريق قبائل عزة. أما الكستريل فلا يستخدم في القنص، ويُسمّى في شبه الجزيرة بشاج، ويُسمِّيه أهل العراق عجير الفار، وصغاره تسمّى فروكه. أما ذو العيون الصفر فيسمّى باز. ومن جبال كردستان ولارستان وبختيارى يأتي نوع آخَر من الصقور يُسمّى جوشهوك، ويأتي به الأكراد، ويجري تدريبه على البط والقط والأرانب. وهناك نوع آخَر يُسمّى ترلان أصفر العينين. والعرب ليسوا قناصين متحمسين، كما لا يبدو أنَّهم يستخدمون الصقور كهواية رياضية وهي من الهوايات الصعبة.

## الحشرات:

يبدو أن شبه الجزيرة العربية تزخر بأنواع مختلفة من الحشرات، وبالأخص الحشرات البيضاء المؤذية جدًّا، والناموس والذباب والعنكبوت؛ ولكن ربما كان الجراد هو أكثرها شرًّا وتدميرًا، وتعتبر الجرادة الخضراء اللون هي أكبر أنواع الجراد على الإطلاق في عُمَان ويسمونها الكفان، وعلى الرغم من أن الجراد يسبب الكوارث المهلكة

بالنسبة لسكان الحضر في شبه الجزيرة العربية، إلا أنَّها ليست كذلك بالنسبة للبدوي الذي يعتبرها غذاء قيّمًا. وهذه الحشرات تطير في أسراب لا تعد ولا تحصى، بحيث تقضي على الأخضر واليابس، وللجراد فك واسع وأسنان فتاكة كالمنشار، وهي مركبة بطريقة تسمح لها بقضم وفرم أي شيء وبطريقةٍ فعالة جدًّا.

إن أهم عاملين يؤثران على النبات في أي بلد هما المناخ والتركيب الجغرافي، وبالتالي فتبعًا للظروف السائدة فيه من هذه الناحية يظهر لنا أن عُمَان تعد فقيرة نسبيًّا فيما يختص بالنباتات والخضار؛ ولكن رغم أنَّها ليست غنية في نباتاتها، إلا أنَّ التناقضات الهائلة في ارتفاعاتها بالإضافة إلى تنوع مناخها من قمم الجبل الأخضر الشامخة، حيث يقال إن الثلوج تتساقط عليها، بالإضافة إلى الحرارة الشديدة للصحراء، والوديان السفلى قد أدت إلى تنوع الثمار والنباتات فيها، وهكذا نجد أن هناك أنواعًا من نباتات المناطق المعتدلة تختلط بنباتات المناطق الحارة. إن النبتات المحلية التي تكسو الجبال والبطاح قد طعمت بإدخال العديد من النباتات والأشجار الهامة من خارج عُمَان كالجوز، والمانجو، وغيرها، وهذه حقيقة ينبغي أن توضع موضع الاعتبار عندما نحاول تكوين انطباعاتنا عن عُمَان التي أهم أصنافها أشجار الأكاسيا والصبار. والواقع أنَّ النباتات المحلية تأخذ طابع الهند وأفريقيا وتشاركان فيهما، غير أن عُمَان تمتاز بالعديد من الأشجار والنباتات الخاصّة بها وحدها. ففي أعلى مرتفعات سلاسل الجبال يوجد البلوط وشجر الجميز والعرعر والسرو وغيرها، غير أنَّه لا توجد فيها كثافة للأشجار؛ نظرًا لأنَّ التربة رقيقة؛ بحيث لا تسمح بنمو الأشجار العالية. ففي المناطق الدافئة من عُمَان توجد الأشجار الشوكية والخفيضة بكثرة، وهي ذات أهمية بالنسبة للوقود ولعلف المواشي.

ولقد تم إجراء مسح زراعي جزئي لعُمَان سنة ١٨٣٦م عندما جاء أم. أوشر. ألوي إلى عُمَان وزار الجبل الأخضر. وقد ذكر في كتابه أنَّه شاهد أنواعًا جديدةً من النباتات تصلح جدًّا لتصديرها إلى أوروبا. وفي نخل شاهد أنواعًا جديدةً من النباتات لم ير لها مثيلًا من قبل، وقد أرسل بذورًا منها إلى باريس وسماها (فوجيليا ليروسا)، كما وجد أنواعًا أخرى. وفي الحاجر وجد نوعًا جديدًا من البور هافيا ومن البنفسج، كما اكتشف في تنوف أصنافًا جديدةً من اليسوس، وقد جمع ألوي نحو ٢٥٠ عينة من الأزهار والنباتات، وقدر وجود نحو خمسمُائة صنف في عُمَان.

وإذا أردنا أن نقوم بسرد أنواع النباتات والأشجار الأكثر أهمية، والتي يحقُّ لعُمَان أن تفخر بها، فإننا نلاحظ أن معظمها من أصل غير عُمَاني. وهناك أنواع من

أشجار الأكاسيا تزدهر في المناطق الصخرية، ويمكن أن نذكر ثلاثة منها:

١. اكاسيا فيرا، السمر وهي شجر الصمغ العربية الحقيقية.

٢. أكاسيا ارابيكا الغاف والبابول الهندي.

٣. والأكاسيا ينلوتيكا واسمها العربي سايل.

**اللوز**: ويزرع في عدد من مناطق عُمَان.

**الصبر**: ينمو بكميات قليلة في عُمَان، وهو يستعمل بصورة أخص في صناعة الأدوية، ولأهل عُمَان معتقدات كثيرة عن هذا النبات تعتبر خرافية.

**المشمش**: ينمو بكميات قليلة في عُمَان، وهو يستعمل بصورة أخصّ أنَّه ينمو في الباطنة.

**الموز**: وينمو بكثرة.

**المقل**: هذا النبات ذو الرائحة اكتشف في ظَفَار من جانب الدكتور كاري.

**التنبول**: ينمو في المناطق القريبة من مسقط والباطنة.

**اللبان**: وكلمة لبان هي من أصل الكلمة الأوروبية، أو ليبانم ويصف بردوود ثلاثة أنواع من هذا النبات (بوسوليا كارتيري) و(بوسويليا فريرينا) و(لوسويليا بوداجيانا)، ويوجد في مرتفعات ظَفَار، ومنه يصدر إلى بومباي وفي الأزمنة القديمة كان اللبان يشكل سلعة هامة، في التجارة الدولية، ولا يزال يستعمل على نطاق واسع.

**عشور**: أو شجرة الحرير ينمو في كل منطقة من عُمَان في الأجزاء الصحراوية، وله استعمالات كثيرة كدواء وله سائل حليبي.

**الغظف**: نبات صحراوي، ويقال: بأنَّ له فوائد طبية.

**الفراولة**: قال عنها أوشر ألوي أنَّها تزرع في الجبل الأخضر.

**زروع**: لقد اكتشفها أوشر ألوي أيضًا، ويقال: أنَّه علاج للروماتيزم.

**الموالح**: يقال أنَّها تزرع على نطاق محدود.

**الحنظل**: ينموُ كنبات قصير، وهو يوجد بكثرة في الأماكن الرملية الجافة.

**جوز الهند أو النارجيل**: أدخلت زراعته إلى الباطنة؛ ولكنه لا يزدهر هناك، ولا يخرج ثمره.

**القطن**: نوعان أبيض، وبُنّي. والبُنّي يُسمّى خضرنج، ويفضله أهل البلاد، ويستعمل في النسيج بكثرة.

**الاستعفل**: أو فاكهة القشطة.

**شجرة النخل**: أهم أشجار عُمَان، وأكثرها شهرة وزراعة، ويعتبر من المواد الأساسية لمعيشة السكان.

**دم الاخوان**: يقال أنَّه ينمو في ظَفَار.

**الشرقة**: من عدة أصناف، وله عصير يستعمل كعلاج عند أهل عُمَان.

**التين**: الحناء يستعمل كصبغة للشعر والأظافر.

**النيل**: ينمو بكثرة ويستخدم لصبغ الأقمشة.

**الحسن**: تنتشر زراعته بكثرة في عُمَان، ويستخدم كعلف للمواشي والحيوانات.

الليمون والليمون الحلو: كان يصدر سابقًا إلى كلكتا بكميات كبيرة.

**الورس**: يستعمل أحيانًا كمادة للصبغ والتلوين.

**المانجو**: من الفواكه التي توجد بكثرة في عُمَان، وعلى الأخص في منطقة السهول الساحلية.

**المنجروف**: ينمو في كثير من مناطق عُمَان على الشواطئ إلا أنَّه يستعمل كخشب للوقــود، وقد سبق لثيوفراستوس أن تحـدث عنه منذ ٣٠٠ عام قبل الميلاد، وكان قد رآه في الخليج.

**البطيخ والشمام**: يوجد الاثنان بكثرة في عُمَان.

**الفجل**: ويوجد بكثرة.

بالاضافة إلى الفراولة والبرتقال والخوخ والبابايا والرمان والسفرجل من الفواكه التي تزرعها عُمَان.

**زهرة الإكليل**: وله رائحة عطرة جميلة، وتنمو في كل مناطق الوديان تقريبًا.

**نيبوريــا**: أطلق هذا الاسم على نوع من الزهــر تيمنًا باسم الرحالة نيبور، وقد عثر ألوي على أصناف أخرى منه.

**السدر**: شجر صحراوي ينمو بكثرة في كل مكان من عُمَان.

**الخروع:** وهو منتشر في عدة أماكن.

**الياس:** تستعمله النساء كأداة من أدوات الزينة.

**سنامكي:** نبات طبي هام ينمو في المناطق الرملية الجافة.

**ستروس ديكومانا:** ينمو في منطقة الباطنة.

**السمسم:** يستخرج منه الزيت التجاري المعروف، ويزرع في نواحي الباطنة.

**قصب السكر:** يزرع في كثير من مناطق عُمَان، وأما في بركة الموز فإنه ينمو على ارتفاعات تصل إلى ٢٠٠٠ قدم.

**الطرفاء:** يزرع بكثرة في عُمَان، ويندر أن تخلو الوديان من هذا النبات.

**التبغ:** ينمو في الباطنة والظاهرة إلى حدٍّ ما، ويستعمله البلوش والفُرس، وعرب عُمَان عمومًا لا يدخنون.

**العنب:** يزرع في الباطنة وفي كثير من الأودية.

**الجوز:** ينمو بصورة خاصّة في الجبل الأخضر.

وإلى جانب تلك النباتات والأشجار التي أوردناها توجد نباتات أخرى لها أسماؤها العربية؛ ولكن لم يتم التعرف عليها. ولقد كان تطور الزراعة في عُمَان تطورًا محدودًا؛ لأن أهل عُمَان لا يولونها كثيرًا من الاهتمام والجهد.

ويعتمد المحصول إلى حدٍّ ما على مياه الأمطار على الرغم من أن الري يعتمد في أغلبه على مياه الأفلاج والآبار. أما الحبوب فهي الذرة والشعير والحنطة، وهي طعام الطبقات المعسرة، غير أن الموسرين يؤثرون عليها الأرز الذي لا بُدَّ من استيراده من الهند؛ لعدم وجود أراضي منخفضة في عُمَان تصلح لانتاج الأرز.

ويستهلك البلح بصورة رئيسية، ويمكن أن نعتبره غذاء الشعب بالإضافة إلى الأرز والسمك. وجميع أصناف الخضراوات الهندية تنمو في عُمَان؛ ولكن بكميات قليلة إذا استثنينا المدن الكبرى؛ لأن العرب لا يميلون إلى الأعشاب غير أن زراعة الحبوب بجميع أنواعها موجودة بكثرة. أما الأثرياء العُمَانيون فإنَّهم فخورون بحدائقهم التي يزرعون فيها الورد والخضراوات والأشجار.

## جيولوجية عمان

تشكل جيولوجية عُمَان حقلًا مثيرًا للمختصين الجيولوجيين، وأن الأمر ينتظر ظهور أستاذ خبير في هذا الحقل للقيام باكتشافات شاملة للبلاد وتقديم نتائج أبحاثه، وقد حصلنا على فكرة عامّة مفيدة عن التكوينات الصخرية لعُمَان من تقرير وملاحظات الدكتور أ ج. ص. كارتر الذي كان ملحقًا بسفينة المسح البحرية التابعة لشركة الهند الشرقية، والذي زار الساحل العربي في سنة ١٨٣٦م وسنة ١٨٤٤م ابتداء من مسقط حتى ظَفَار، وقد نشر معلومات قيّمة عن تلك العمليات.

إن سلسلة الجبال الضخمة تمتد كما عرفنا عبر البلاد من أحد طرفيها إلى طرفها الثاني، وهي مكونة من رواسب صخرية مع بروزات صخرية نشأت عن الضغط والحرارة في مسقط، وحيس ومدركة والفيزانية في مسندم إلى الجبل الأخضر، فإن طبيعة هذه التشكيلات الجبلية كلسية بيضاء في معظمها مع حجر رملي يغطي الكتل، والطبقة الأرضية في منطقة مسندم أفقية، غير أنَّها في المناطق الداخلية أكثر تعقيدًا وتتخذ في أغلب الأحوال وضعًا يشبه الزاوية. ويتغير لون الكلس من منطقة وأخرى؛ ولكنه يظل أبيض وأصفر في معظم الأحوال. وفي مسندم وقريات لونها رمادي غامق أو أسود، وبالقرب من مسقط تظهر الصخور البركانية بشكل أوضح؛ لأنَّها تتكون من الديورايت على امتداد الساحل لمسافة عشرة أو اثنى عشر ميلًا من دارسيت إلى يَتِّي.

ويلاحظ كارتر أن الطبقة الأرضية من الناحية الجنوبية لمسقط مشوهة وترتفع طبقة بعد أخرى لمسافة ثلاثين ميلًا حتى تصل إلى أقصى علوها على ارتفاع ٦٠٠٠ قدم على امتداد ٤٠ ميلًا إلى الداخل. ثم تأخذ السلسلة في الاقتراب من الساحل حتى رأس الشيطان؛ حيث يطلق على السلسلة في هذه البقعة جبل السعتري، أو جبل قريات، الذي يرتفع ٦٢٢٨ قدمًا وتعرف السلسلة وراء الهوة بجبل جابر، وبعدها بجبل قلهات عند وصولها إلى صور، مع احتفاظ الثلاثة جبال بتشكيلها الكلسي، ثم تعود التشكيلة فتظهر جنوب رأس الحد في مناطق عديدة عبر الساحل، وفي ظَفَار حيث توجد صخور الجرانيت وغيرها، غير أن التشكيلة في عمومها على الساحل الجنوبي حتى ظَفَار هي كلسية، وكذلك على الجبهتين الشرقية والشمالية.

وإذا نظرنا إلى رأس مسندم من البحر، فإن الاستنتاج الذي يخرج به المشاهد عن هذا الرأس هو احتمال أن يكون متصلًا في سابق الأزمان بالسلسلة الواقعة على الخليج، ثم كنتيجة لترسب الأرض في فترة جيولوجية بعيدة، اندفع البحر لكي يشكل الخليج مكونًا بذلك الوديان والنهيرات والخلجان كما هي الآن.

ومن بين المعادن التي وجدها الدكتور كارتر من واقع دراساته للصخور هي الهوربلند والعشب الأخضر، الصخر الكلوارتري الحبيبي وسليكات الألومنيوم والديالاح والبازلت وغيرها، غير أن طبيعة الجبال ليست صالحة للزراعة والنبات. وأن الخضرة باستثناء الوديان قليلة جدًّا.

أما من حيث المعادن فيحتمل وجود أربعة منها في عُمَان، فمنجم النحاس في الخضراء قريبًا من سمد الشأن كان له نشاط كبير سابق، أما الآن فقد قلَّ ذلك، كما يوجد هذا المعدن بالقرب من قريات وفي جزيرة مصيرة، حيث يقال بأنَّ معدن الرصاص موجود أيضًا. أما الفضة فكانت تستخرج سابقًا في الجبل الأخضر، غير أن المنجم قد توقف عن العمل منذ وقت طويل. أما الجبال القريبة من مسقط فيحتمل وجود الحديد فيها، غير أن خام هذا المعدن لم يكن صالحًا للاستخراج. إنَّ الكابتن نيوبولد هو أحد المساهمين العظام في التعرف على جيولوجية مسقط، وقد زارها في عام ١٨٤٩م.

## صيد الأسماك

إن العرب وهم أوائل الملاحين في العالم كان لهم ولع دائم بالبحر، وقد برهنوا في هذا المضمار عن صلابة وشجاعة وروح مغامرة فائقة وسكان الجزء الشرقي من شبه الجزيرة على الأخص كانوا منذ عصور تاريخية غابرة من المشاهير البارزين في هذا الميدان.

وبالنظر إلى روح الاستقلال والمثابرة التي عرفوا بها فإن بلادهم لم تحظ بوجود ثروة زراعية كبيرة، غير أنَّها تملك شواطئ طويلة ومتنوعة زاخرة بالحيوانات البحرية، وبالتالي فقد اعتادوا أن يعتمدوا على البحر كمصدر لغذائهم؛ ولهذه الاعتبارات فقد أصبح صيد الأسماك من أهم الصناعات التي تشتهر بها عُمَان، وهي تمس قطاعًا كبيرًا من سكانها.

إن الأسماك في عُمَان من الوفرة، بحيث أن السواحل العُمَانية كلها بمثابة أحواض زاخرة بالأسماك، وحيث أسواق البلاد تغمرها الأسماك الطازجة والمملحة على مدار العام، والصيادون يمارسون الصيد بمنتهى الحذق والخبرة، وهم يصطادون كل أنواعه حتى سمك القرش، وهم أقوياء وأشداء في ممارستهم لهذه المهنة، أما فقراء الصيادين الذين لا يملكون قوارب صيد خاصّة بهم فإنهم يستخدمون الشباك.

إن العرب وحدهم هم الذين يقومون بأعمال الصيد، إذ على الرغم من وجود أعداد قليلة من الزنوج في قوارب الصيد إلا أنَّ عملهم يقتصر على المساعدة في جرِّ المجاديف. ولا يمكن الاعتماد عليهم في إدارة الشباك التي هي من الأعمال المضنية الشاقة. وعلى الرغم من أن الزنوج أقوى عضليًا من العرب إلا أنَّ الشجاعة والذكاء والمهارة تنقصهم، بحيث يعدون لا قيمة لهم على الإطلاق. وخلال موسم الحصاد في شهري أغسطس وسبتمبر يغادر عدد كبير من الصيادين للعمل في داخلية عُمَان، وبذلك يتركون أعمال البحر في ذروة المونسون، وبالتالي يطرأ نقص في الأسماك المعروضة فلا يخرج إلى الصيد إلا المراكب الكبيرة فقط. أما في غير تلك الأوقات فإن الصيادين جميعهم يتواجدون في البحر ويقومون بممارسة أعمالهم، وأن أفضل مواسم الصيد هي فصلا الربيع والخريف.

## أساليب وطرق الصيد:

يمكن تقسيم أساليب الصيد في عُمَان إلى أربعة أشكال: الأول مناطق البحر المفتوحة، والثاني المناطق القريبة من السواحل، والثالث المناطق السطحية، والرابع أسماك العمق، كما أن جميع هذه الأشكال تختلف عن بعضها باختلاف الفصول وتحركات الأسماك. وبعض قوارب الصيد تخرج في الصباح الباكر وتعود في المساء بصيدها، وفي أحيان أخرى تخرج القوارب في المساء وتبقى في عمليات الصيد طوال الليل، ثم تعود في الصباح. وفي كل الحالات تعرض الأسماك للبيع في الأسواق العامّة، أو تباع للزبائن المنتظمين بعد أن يحتفظ الصيادون بحصتهم من الصيد لاستهلاكهم الخاص، وعلى كل حال فأساليب الصيد تختلف قليلًا من منطقة إلى أخرى تبعًا لنوعيات الأسماك التي يطلبها الصيادون، أي على أساس هذا الاعتبار، وعلى طبيعة المنطقة الساحلية، وعمق المياه تتحدد أساليب الصيد. وثمة أنواع عديدة من شباك الصيد يستعملها الصيادون على السواحل العُمَانية. وتسمى الشبكة (ليخ) غير أن لكل صنف اسمه الخاص به، وفي بعض شباك الصيد وعلى الأخص الشباك التي يلقى بها في الليل تشتبك فيها الأسماك من لغدها، وفي حالة أخرى تلتف حبال الشبك عليه ويتم سحبه إلى داخل القوارب أو إلى الشواطئ.

وإن أنواع الشباك التي تستخدم على ساحل الباطنة وغيرها من الشواطئ الرملية طويلة وضيقة الفتحات، ويقوم القرويون بدمج وتشبيك الشباك للقيام بعملية صيد واسعة، ثم يقوم شيخ البلدة بتوزيع الأسماك التي يتم صيدها أمام الجمهور. ويتم الصيد بطريقة نصف دائرية، حيث يقوم الصيادون بشد الشبكة من طرف جناحيها. وثمة أنواع من الشباك في الخليج يعتمد على تيار الماء وتُسمّى قارون. وهو مؤلف من عدة قطع، ويقوم أصحابه بتجميعها ووصلها وبعد الصيد مباشرة يتم توزيع المحصول بالتساوي. أما النوع الآخر الذي يُسمّى الأشعرى أو الغبوط وهو من نفس النوع؛ ولكنه أطول ويتم إغراقها في أعماق البحر، وتستعمل لصيد الأسماك الكبيرة ويتحرك الشباك في البحر طوال الليل، ونوع ثالث يُسمّى فرد ميلز، وله فتحات كبيرة، والعوامات أو العلامات الفارقة لهذه الشباك هي جذوع النخل أو قطع الخشب الخفيف الوزن، بينما تتألف الغطاسات من كتل الرصاص أو الأحجار ولعل أكثر الشباك فائدة لعرب عُمَان هي الشبكة المخروطية (الترول)، ولها فتحات

صغيرة وجيوب كبيرة، ويستعمل هذا النوع لصيد أسماك السردين (القاشع) وغيرها من صغار الأسماك ونوع آخر يُسمّى المنصب. أما الشبكة التراميل فغير معروفة في الخليج، ويستعمل الطعم الحي في صيد الأسماك، أما بإلقاء نوع من الشباك يُسمّى ريليا أو الدقيق على سرب من الأسماك، أو تستعمل الطريقة الخاصّة بأهل مسقط.

وتحتفظ قوارب الصيد بسلال معلقة على أحد جانبي القارب للاحتفاظ فيها بالطُعم حيًّا، غير أن العُمَانيين بارعون في استخدام الطعم الميت فهم يربطون رأس السمكة بالطُعم بحيث يستمر في الالتفاف تحت الماء لجذب الأسماك إليه. كذلك فإن السنارة التي يستعملونها هي من نوع خاص، فهي مدورة وبدون أشواك ومصنوعة من الحديد، وتُسمّى المجدار.

ونهاية السنارة المواجهة لطرفها مثنية إلى الداخل لتشكل حلقة صغيرة يربط بها الخيط. وعلى أيّة حال فإنَّ الخطاف الأوروبي بدأ استعماله تدريجيًّا ليحلّ محل الصناعات العربية البدائية، وإذا أخذنا في اعتبارنا قوارب الصيد وأجهزته البدائية لدى العُمَانيين فإنَّهم يعتبرون مهرة بصورة مذهلة في صيد كميات كبيرة من الأسماك وفي استعمال تلك الشباك.

والمناطق التي يتم فيها الصيد قد لا يزيد عمق الماء فيها عن ٣٠ إلى ٤٠ ذراعًا، والعرب لا يستعملون للصيد سلكا طويلًا خوفًا من سمك القرش الذي يكثر في هذه المناطق، وقد يقضي على جميع الأسماك التي اصطادوها. والسمكة التي يربطها الصيادون في خلف القارب تكفي لاستدراج سمك القرش وسحبه إلى الشاطئ.

أما الطرق الأخرى المستعملة في صيد الأسماك فهي الجرجور وهي شبكة كبيرة مستديرة كالسلة يبلغ قطرها من عشرة إلى عشرين قدمًا، ويتم إغراق هذا النوع من السلال في قاع البحر لمدة يوم أو يومين ثم يتم جذبها. أما الشبكة الأخرى فهي الحدرة مصنوعة من سعف النخيل الذي يتم ربطه في بعضه البعض ويسحب إلى الرمل، بحيث يشكل سياجًا على شكل هيئة حافر الخيل، كما تستعمل أحيانًا الحربة، وهي بطول نحو ٩ أقدام وشوكة في أطرافها وتسمى القوار.

## منتجات الأسماك:

إن محصول البحر في شرق شبه الجزيرة هام جدًّا، وهو لا يزود أغلبية السكان بالغذاء فحسب؛ ولكنه مصدر عمل لعدد كبير من النّاس يشمل عمليات الصيد وصناعة الشباك وبناء القوارب وصناعة التمليح.

إن وفرة الأسماك في البحر العربي مذهلة جدًّا، ولما كان الملح رخيصًا في ساحل عُمَان فإن كميات وفيرة من الأسماك يتم صيدها وتمليحها للتصدير والاستهلاك المحلي. ويتم استيراد الملح من جزيرتي قشم وهرمز في إيران لوجود جبال الملح فيها، وبما أنَّه يتم الحصول على الملح بسهولة فان التمليح أصبح صناعة قائمة بذاتها في عُمَان، غير أنَّه نظرًا للأساليب البدائية المتبعة في هذه الصناعة فإن كمية الأسماك المملحة ونوعيتها ليستا في مستوى الطلب، والنوع الذي تصنع منه الأسماك المالحة هو السهوه أو السمك الأحمر. وطول هذه السمكة نحو ثلاثة أقدام، ولها سلسلة مقعرة بالقرب من الذيل ويتم تصدير هذا السمك إلى جزر موريشيوس، وناتال وباربون، ونوع آخَر من السمك اسمه السدر يتم استهلاكه محليًّا، كما يصدر أيضًا إلى الخارج. أما سمك البوري - أبو ذقن - ويسميه العُمَانيون بياح فيتم تمليح كميات كبيرة منه ويصدر إلى الهند، وأما سمك سياف البحر أو أبو سيف ويسمّيه العُمَانيون سنسول، فيتم صيده بكميات هائلة، وهو طعام الطبقة الفقيرة في عُمَان ويتم تمليحه قليلاً أو يرسل طازجًا إلى مناطق عُمَان الداخلية. ويتم إرسال حمولات هذا النوع من السمك بعد عودة القوارب مباشرة إلى الشاطئ، ويتم شحنه على ظهور الحمير. ومما لا شكَّ فيه أنَّ حرارة الشمس تؤدي إلى تجميد السمك، ويمكن أن يشمَّ الإنسان رائحة هذا السمك من بعيد، وهو على ظهور الحمير التي تتوجه به في قوافل. ويُسمّى سمك السردين الذي هو النوع الوحيد من عائلة الرنكة في مياه هذا البحر بالصيحة، ويتم صيده بكميات هائلة على الشاطئ كما يستعمل طُعمًا وسمادًا أيضًا، كذلك يستخرج منه الزيت، ومن أجل ذلك يتم تعريض السمك لحرارة الشمس مما يؤدي إلى إنضاح الزيت منه، ثم يجمع في جرار - غير أنَّه يعتبر من حيث النوعية أقل من زيت كبد القرش. كما يوجد نوع آخَر من سمك السردين المُسمَّى القاشع، ويتم صيده بالقرب من منطقة رأس مسندم، ثم يتم تجميعه في الشمس، ثم يعبأ في أكياس.

ومن بين الأسماك يعتبر سمك القرش أكثرها قيمة وأهمية من الناحية الاقتصادية ويتم مطاردة هذا النوع من السمك ليس في البحر العربي، وإنما من جانب سكان جنوب وشرق آسيا أيضًا الذين يعتزون بها كغذاء يعتقدون أن لحمه يحوي مواد مغذية ومنشطة، حتى إن كل قطعة من جسم هذا الحيوان البحري يستفيد منها العرب بشكلٍ وآخَر. ويعرض لحم هذا السمك في أسواق المدن الساحلية طازجًا ومملحًا ومجففًا، كما يتم تقطيعه إلى شرائح ويرسل إلى داخلية عُمَان، وهو يشكل العنصر الغذائي الرئيسي للسكان الآن والموسرون من النّاس لا يتناولونه إطلاقًا، ويتم تصدير زعانف هذا السمك إلى بومباي، حيث يرسل إلى الصين في سيل لا ينقطع. وهذا السمك نوعان أسود وأبيض، وبعد أن يتم فرك الجذور بالليمون تعبأ الزعانف في جوالات. ويعطي سمك القرش زيوتًا بكميات هائلة.

وفي فصل الشتاء يزداد الإنتاج وفرة وغزارة، ونظرًا لندرة زيت النبات في شبه الجزيرة فإن زيت الأسماك يستعمل في أغراض عديدة، فهو يستعمل لدهن قيعان المراكب وغيرها من السفن الشراعية، ويخلط مع الكلس، ثم تدهن به ألواح السفينة لحمايتها من العتة والحيوانات القشرية البحرية. ويتم استخراج الزيت بوضع كبد السمك في حوض، ثم سحقه بالأقدام أن كبد سمك القرش ضخم وينتج برميلين من الزيت، وبينما تنتج أكباد الأسماك الأخرى كميات أقل. ويستخدم جلد هذا السمك لتلميع العاج وفي أمور أخرى، غير أن الجلود المحببة التي توجد في الأسواق يقال أنَّها جلود البعير والحمير والجمال.

وهناك أيضًا قشر السمك والذي يعرف في الاصطلاح التجاري بالحوصلة وهي للأسماك التي تتحرك على مستوى سطح الماء، ولا تمت بصلة إلى الأسماك التي تعيش في القعر. وهذا النوع له غشاء دقيق شفاف ولون فاتح كلون العنبر. وكان هذا النوع سابقًا يرسل إلى أسواق الصين حيث يباع بأسعار رخيصة، ثم تبين في سنة ١٨٣٩م أن هذا النوع يصلح لصنع الغراء؛ ولذلك بدأ إرساله إلى أوروبا رأسًا.

كما توجد في البحر العربي وبكثرة السلاحف ويستخرج منها العظام والحراشف للتصدير التجاري.

والعرب في عُمَان يصيدون السلاحف بالشباك أو بقلب السلحفاة على ظهرها عند خروجها إلى الشواطئ في الليل لوضع البيض، ويتم جمع الحراشف من كل

المناطق ليؤتى بها إلى مسقط، حيث يتم تصديره إلى بومباي. وهناك نوع ليس له هذه الحراشف. والعرب عادة يقتلون السلحفاة قبل استخراج الحراشف، غير أن سكان الأرخبيل الهندي كما يقال: يستخدمون طريقة قاسية وذلك بنزع الحراشف بالنار بينما لا تزال السلحفاة حيّة. وهناك أربعة حراشف للسلحفاة على كل من جانبها وخمسة في الوسط ومجموعها ثلاث عشر حرشفة. ولعل الشيء الغريب في السلحفاة أن هيكلها خارج اللحم ومشدود إلى الدرع، ويستخرج قدر كبير من الزيت من السلاحف ومن لحمها، وهذا الزيت يتناوله الصيادون، غير أن أهل الشحر لا يأكلون سمك القرش ولا يلمسونه إطلاقًا.

ونأتي إلى العنبر وهو أشبه بكتلة صلبة، وكثيرًا ما يلفظ بها البحر في عُمَان إلى الشواطئ، وفي البداية يخرج العنبر رائحة كريهة، ثم بعد ذلك تتحسن الرائحة ويستعمله العرب كعطر، ويعتقد بأنَّه ناتج عن علة أو مرض يصاب به الحوت فيلفظه.

المحار: يستعمل للزينة ويوجد في عدد من مناطق الساحل العربي بين البحر الأحمر وبحر الخليج. ويغوص العرب لاستخراج المحار من قاع البحر إلى أعماق تمتد إلى عدد من الأقدام، ويجلبون شحناته من السفن إلى مسقط لإعادة تصديره.

## الحيوانات الثديية البحرية:

إن هذه الحيوانات أو حيوانات العائلة الحوتية تتواجد في بحر الخليج وبحر عُمَان، وكذلك حوت العنبر، وعدد من أسماك الدلفين بما في ذلك خنزير البحر. وحوت العنبر اجتماعي، ويتغذى على لسان البحر، ويمكن أن يشاهد في بعض الأحيان، وهو يخرج رأسه من البحر؛ لينضح الماء بعد وجبة يأخذها. ولعل هذا المشهد هو الذي أفزع القائد ثيارشوس وبحارته قبل ٢٢٠٠ عام، وسكان المنطقة يسمونه نحم[1]؛ ولكنهم لا يصطادونه الآن بهدف تجاري، وإن كان يقال أنَّه منذ سنوات عديدة كانت توجد قرية في جزيرة مصيرة متخصصة في صيد الحيتان، وأما العُمَانيين فيستخرجون المادة العنبرية منه، كما يستفيدون من أسنانه لصنع مقابض النصال العُمَانية. وفي عام ١٨٨٥م، تم احضار هيكل أحد الحيتان الذي جرفه البحر على ساحل الباطنة إلا أنَّ الأهالي نزعوا أسنانه قبل إحضاره.

أما الهركول وهو الحوت الهائل الجسم اذ يبلغ طوله مائة قدم، ويوجد في مياه

(١) الاسم البلدي هو جرام وليس نحم أو نهم كما كتبه المؤلف. (المترجم)

المحيط الهندي؛ ولكنه يبدو من المستحيل أن هذا الحيوان يصل في طوافه حتى مرابع الخليج. وعائلة الدلفين أو الثدييات البحرية تشمل الجرامبوس أو الحوت الذي رأسه يشبه عنق الزجاجة، فيوجد منه ثلاثة أنواع، ولعل لفظه جرامبوس هي تحريف لكلمة جرام العُمَانية، ومنذ سنوات عديدة كان يرتاد سواحل مدينة مسقط حوت من هذا النوع، وكان يعرف في أوساط البحرية الهندية (تبوم الكبير) غير أن ذلك الحوت لم يعد يشاهد في السنوات الأخيرة.

**الأسماك:**

إن الساحل العُمَاني يتميز بوجود أنواع فريدة من الأسماك والثروة البحرية، فخلجانه المرجانية وشواطئه الرملية، وسواحله الصخرية كلها تمثل أشكالًا فريدة من الحياة على امتداد الشاطئ فخلال شهور الصيف فإن سطح البحر لمسافة أميال عديدة يغطى بالأسماك العائمة في أسراب ضخمة بألوان متعددة، وتطلق رائحة كريهة؛ ولكنها في نهاية الأمر تتبخر بمفعول حرارة الشمس. وتتوالد هذه الأسماك في ثنايا الكهوف والخلجان والمداخل وداخل تعرجات الساحل، حيث يمكن رؤية صغار تلك الأسماك تتحرك في أعداد وبكميات لا يصدقها عقلٌ. وعند بلوغ الأسماك سنَّ الرشد فإنَّها تستمر في الهجرة من بيئة إلى أخرى تاركةً مكانها لمجموعة جديدة من الأجيال، ولا ريب في أن الدافع الرئيسي لتلك الهجرات هو البحث عن الطعام.وبدلًا من أنواع الأسماك المألوفة التي نجدها في المياه المحيطة بإنجلترا، فإن هناك ثلاث عائلات سمكية كبرى نعتبرها هامةً جدًّا بالنسبة للإنسان، ونعني بها الأسماك الزيتية وسمك السالمون، وإن كان هذان النوعان لا يعيشان إطلاقًا في المحيط الهندي، أما عائلة أسماك الهرنجز فيمثلها في عُمَان السردين، أما سمك الماكريل فهو يوجد بوفرة كبيرة ومن أصناف متنوعة، ويتم تمليحه للاستهلاك على أوسع نطاق.

ومن بين جميع أنواع الأسماك التي تعيش في البحر العربي، ربما كان أهمها لا بالنسبة كغذاء وإنما للعديد من الأغراض، هو القرش، الذي يطارده العُمَانيون بإصرار وبلا خوف لصيده. ويبلغ المحصول السنوي من هذا السمك نحو ١٠٠,٠٠٠ سمكة، إن هذه السمكة الغضروفية تشبه الثعبان في حركاتها الملتوية، ويتكون جسمها المستطيل من ثنيتين في وقت واحد وهي تسير في البحر بسرعة

فائقة، بحيث تفوق كل حيوان من سكان الأعماق. وخرطومها الحاد يساعدها على زيادة سرعتها غير أن فمَّها يقع إلى الخلف كثيرًا، بحيث يضطرها إلى أن تدير وجهها للقبض على فريستها.

ويقسم علماء الطبيعة سمك القرش إلى عشر عائلات، تنقسم هي الأخرى إلى ١٤٠ فصيلة بعضها بيوضية وبعضها ولودية، ولعل أكبر أسر هذا السمك هو القرش الحقيقي. أما الكبير من سمك القرش فهو أوقيانوس، ولا يقرب من الشواطئ، وإنما يبقى بعيدًا في أعالي البحر ويعيش على أسراب الأسماك التي تنزح من منطقة إلى أخرى بحثًا عن الغذاء في أوقات معينة. أما سمك القرش الأصغر فإنه يعيش في القاع، ويُسمِّي العُمَانيون هذا النوع وغيره من أنواع سلطان البحر أو ملك البحر، غير أن له أسماء عديدة في أجزاء عديدة من الساحل، أما الاسم العام فهو الجرجور أو كلب البحر، أما القرش المرقط فيُسمّى النمراني، ونوع آخَر يُسمّى الشطيفي. أما القرش الشيطاني المراوغ الذي له رأس يشبه المطرقة، وتوجد منه خمسة أجناس، فإنه بالرغم من أن طوله لا يزيد على ١٢ قدمًا إلا أنَّه مخيف جدًّا، ويسمونه في مسقط أبو قارون وفي عدن بخيت. ويقوم العرب بمطاردة أسماك القرش التي تعيش في أعماق المحيط بسفنهم، والكميات التي يصطادها الجنبة وبنو بو علي من أسماك القرش الأصغر كميات خرافية. وفي صور وحدها يصل عدد كل صيدة إلى ٦٠ طول كل منها من ٦ إلى ١٢ قدم، غير أن الطريقة القديمة لاصطياد سمك القرش قد تم التخلي عنها نظرًا لكثرة الحوادث التي نتجت عنها.

أما سمك الشعنين الذي يوجد منه أنواع كثيرة بعضها كبير جدًّا، فكثير في البحر العربي، ويتم صيده؛ لأجل زعانفه التي يتم إرسالها إلى الصين، كما هو الحال بالنسبة لسمك القرش، ويستعمل هذا السمك أيضًا في الطعام، كما يستخرج منه الزيت أيضًا. وأقوى أنواعه هو سمك السيف التي تحمل فوقها سلاحها الثقيل وهو عبارة عن خرطوم حاد مخيف طوله نحو ٥ أو ٦ أقدام وبهذا السلاح تهاجم الحيتان والأسماك الكبيرة، بحيث تقطع أوساطها وكروشها وتأكل من أمعائها التي تبرز بعد تلك الطعنة النجلاء.

أما غواصو الخليج الذين لا شأن لهم بالقرش، فإنَّهم يخافون هذا الوحش؛ لأنَّ هجمته تعني الموت المحقق. ويقال: إن سمك السيف أو السمكة المنشارية لها عينان

غريبتان لا مثيل لها بين الأسماك الأخرى. والعرب لا يستفيدون من خرطوم هذه السمكة إلا في عمل الطلاسم لإبعاد العين الشريرة وجلب الحظ. أما سمكة الشفنين اللاسعة فهي غير منتشرة في المنطقة ولا بُدَّ من استعمال الحذر في الإمساك بها؛ لأنَّ ذيلها كالمنشار، كما يوجد أيضًا السمكة الطولية الذيل من عائلة الشفنين، ولها جلد خشن ويستخدم في صنع مقابض الأسياف والدروع.

ومن بين الأسماك المأكولة بالإضافة إلى التي سردناها يوجد الدلفين، وهو مشهور بجمال ألوانه التي تتلاشى بعد موته. وهذا النوع من الأسماك كثير في البحر العربي، وهو لذيذ الطعم، كذلك يطلق الدلفين على سمكة القرش مما أدخل تشويشًا على الاسم، أما السمكة الطائرة التي يُسمِّيها العرب جرادة البحر، فيتم صيدها وأكلها أيضًا، وهذا النوع لا يحر إلى السواحل وإنما يبقى بعيدًا عنها. أما السمك الشريطي فجسمه الرقيق الضيق ولونه الفضي الفاتح يفخر به أهل الخليج كطعام، غير أنَّه مكروه نظرًا لما يشكله من خطر مدمر على الأسماك الصغيرة، وهو سمك هش يتفتت بمجرد إخراجه، وهناك السمك ذو المنقار الذي يسمّيه العرب أنفلوس، وله شكل واحد، وهو سمك مألوف ويؤكل، ثم هناك السمك الصخري الذي له ألوان كثيرة. أما السمكة الببغاوية أو المنقارية فهي من إحدى تلك العائلات، وقد استمد هذا الاسم من فمِّها الذي يشبه منقار الببغاء، وهو طعام لذيذ ويعيش على الأعشاب المرجانية. أما سمك الزامور فهو مخطط وصغير الحجم، والمعروف عن هذه السمكة أنَّها تُسابق السفن لترشد أسماك القرش إلى فريستها. والعرب يأكلونه ولهم عنه نظريات كثيرة. وفي ميناء مسقط تكثر الأسماك الصغيرة التي تعربد أمام الشاطئ، وتقفز وتعكر الماء، بحيث تجعل يبدو وكأنه فائر. وسبب هذا المشهد هو أسراب السردين التي تحتمي بالشواطئ هربًا من مطاردة الأسماك الكبيرة لها كالبينيت - الاسقمري. أما الأسماك المفرطحة فلا تعيش بكثرة في هذه المنطقة كالأسماك الأخرى، والعرب لا يهتمون بها، وقد شاهد الدكتور داي ستة أنواع من سمك موسى في سواحل جواذر ومكران، ومن غرائب الأسماك التي تعيش على هذه الشواطئ هي سمك القنفذ، ويقال أنَّه يقلص جسمه أو ينفخه، بحيث يصبح ضعف حجمه، وأنَّه ينق كالدجاجة. والسكان يتشاءمون منه؛ ولكنهم لا يقتلونه ويسمّونه أبو شوك، وهناك السمكة الراضعة أو المصاصة ويُسمُّونها روميرا، ويقولون أن فوق رأسها مصاصات

على شكل ٢٣ صفيحة أو طبق وأنَّها تمتص غذائها من جسم سمك القرش عندما تلتصق بجسم تلك السمكة. وهنا حكايات خرافية عن هذه السمكة، وكيف أنَّها تستخدم لصيد السلاحف عن طريق سلك مربوط في ذيلها وقد أشار إليها المؤرخ المسعودي، والصيادون لا يزالون يطلقون عليها نفس الاسم أى السمكة اللزاقة أو اللازقة. وإلى جانب ذلك توجد سمكة غريبة الشكل في مياه هذه المنطقة، وتُسمَّى الصندوق، أو السمكة السلحفاة، ولها حراشف وجلد ليفي، وهذا الجسم ينفرطح حتى يتشكل على شكل رباعي أو مثلث. وبعض أنواع هذه السمكة لها قرون بارزة أمامها، وذلك لمزيد من الحماية ويُسمِّيها صيادو المنطقة السمكة البقرة، وهي صغيرة الحجم وتتحرك في بطء شديد في الماء، وصبيان السواحل يستطيعون الإمساك بها بأيديهم في سهولة، ولهاً ألوانً براقة جميلة.

وهناك سمكة غريبة أخرى هي سمكة القادوح المفلطحة، وهي تعيش في الموانئ وتتغذى على الأعشاب المرجانية والمحار، ولها شوكة خشنة حادة على ظهرها، وتحتها شوكة أخرى تبرز بعد سقوط الأولى، وهناك سمك الموربنا الذي يعيش داخلِ شقوق الصخور، ويصل طوله إلى خمس أو ست أقدام، وله فكٌّ قويٌّ وأسنانٌ قاطعةٌ، ويمكنه أن يجرح من يصيبه. أما سمك الطوربيد أو الشعنين الكهربائي، فهو يشبه سمك الورنك -الطباق- وطوله ثلاث أقدام وهو يحدث صدمة عنيفة عند مهاجمته لفريسته، ويتم صيد أعداد كبيرة منه بالشباك؛ ولكن يلقى بها إلى الشاطئ. وهناك بعض أسماء غريبة يطلقها العرب على الأسماك كبنت النوخذا أي بنت الربان وابن عمارة وأبو الريش.

وربما أضفت إلى ذلك ملاحظة لي عن الحيوانات البحرية لمنطقة شرق الجزيرة العربية، فهناك سبعة فصائل من أسماك الماء الحلو في وديان عُمَان وأنهارها، وتُسمَّى هذه الأسماك عمومًا الصدْ غير أنَّه لكل نوع اسم خاص به. وتوجد هذه الأسماك بوفرة حتى في الينابيع والنهيرات الحارة التي يوجد منها الكثير في البلاد العُمَانية، وتتراوح درجة حرارة المياه فيها من ١١٢ درجة فهرنهايت.

ومن بين الفصائل الأدنى للحيوانات البحرية يعتبر الجعار أو اللسان هو أكثرها، وهو يمثل الغذاء الرئيسي لأسماك القرش من فصيلة حوت العنبر. ويؤكد العرب أن هذه الفصيلة من العنبر تبلغ رقمًا قياسيًّا وهو من الأسماك المأكولة ويعتبر من ألذها.

أما السرطان أو السلطعون فيوجد في المناطق القريبة من مسقط غير أن العرب لا يميلون كثيرًا إلى أكله.

ولا يوجد منظر أجمل وأبهى للذين يستكشفون أعماق البحر في هذه المنطقة من الكميات الهائلة من المواد الشبيهة بالأزهار ذات الجمال الأخاذ، وهي تستلقي داخل مخابئها، كشقائق النُعمَان والمرجان والزئبق، وذلك على عكس النباتات التي توجد على التربة فوق سطح الأرض. إن السواحل العربية في هذه المنطقة زاخرة بهذه الأحياء الجميلة بألوانها وأشكالها الساحرة، ويمكن مشاهدتها بوضوح في مياهها الشفافة. كذلك فإن الأسماك الملونة كثيرة في مياه المنطقة، وهذه في وسعها أن تحدث ألمًا حادًا إذا لم يحذرها الإنسان، وهي تعيش على الأسماك وتقتلها بمجاسها أو خراطيمها. وفي إحدى المرات تعرض وكيل إحدى السفن التجارية في مرفأ مسقط لحادثة أفقدته الوعي لعدة ساعات حين احتك جسمه بإحدى هذه الحيوانات أثناء سباحته في المرفأ.

وفي سنة ١٨٨٦م استخدمت سفينة صيد صغيرة لمسح قعر مياه البحر في مسقط، واستطاعت أن تستخرج منها كميات من سمك نجم البحر وحلوى البحر وغيرها من الأسماك.

## صفاء مياه الخليج

إن صفاء أو تفسفر مياه البحر في هذه المناطق يعتبر منظرًا مبهرًا ويمكن أن يتمعن الإنسان فيه بشكل أفضل خلال هبوب عاصفة. ويحدث ذلك؛ بسبب بعض أنواع حيوانات البروتوزا (الحيوانات ذات الخلية الواحدة) وهو يضفي مشهدًا في غاية الروعة والبهاء، فكل موجة عند تكسرها على الصخور تسطع وتبدو كأنها صفحة من الفضة المتوهجة؛ بحيث تشكل منظرًا في غاية السحر والروعة، وإذا مرَّ الإنسان بالقرب من صخور البحر في الليل في أحد القوارب فإن هذه الظاهرة يمكن مشاهدتها في أروع مناظرها. فالألوان الفوسفورية التي تنتج عن تكسر المياه على الصخور ونغماتها بينما تطلق مجاديف القارب موجات من الأشعة، وأحيانًا تبدو الصخور وكأنها شعلة من قوس قزح عند هبوب أي عاصفة. أنَّه لمنظر رائع يأخذ بالألباب.

## بناء المراكب والسفن

يتم بناء السفن والمراكب في العديد من الموانئ العُمَانية، وإنما يكون بصورة رئيسية في مينائي مطرح وصور، وأغلب النجارين الذين يعملون في بناء السفن من الهنود الذين يحترفون هذه الصناعة، أما الأخشاب على اختلاف أنواعها فتستورد من مليبار، ويتكلف بناء مركب من طراز (البَدنْ) أربعة ريالات للمتر المكعب. وفي إمكان ثلاثة نجارين بناء سفينة كبيرة خلال ثلاثة أشهر. أما الأسلاك المستعملة فهي المصنوعة من الحبال، ويتم صنعها محليًّا في مطرح وفي غيرها من موانئ عُمَان. وأحسن قماش للأشرعة يجلب من البحرين، غير أن صحار ومجيس ومدنًا أخرى في عُمَان تنتج منه كميات كبيرة.

وإن السفن على ساحل عُمَان يمكن بوجه عام تقسيمها إلى طبقتين كل طبقة تختلف عن الأخرى. فطراز البَدنْ وغيره مخصصة للتجارة مع الموانئ الأجنبية، بينما تستخدم الأنواع الصغيرة في التجارة الداخلية.

أما طراز البغلة الذي هو أكبر المراكب العُمَانية وأهمها فيستخدم في التجارة مع بومباي وخليج البنغال وأفريقيا الشرقية والبحر الأحمر. ومن بين المراكب الساحلية الأصغر يعتبر أكبرها (البتيل) (والزيما) وتتراوح حمولة الأول بين مائة وبين مائتي طن، غير أن البَدنْ هو أهم المراكب الساحلية وأكثرها عددًا واستعمالًا؛ لأنَّها بحكم تصميمها البديع تحقق المطالب المحلية، وبالتالي فهي الجديرة باهتمامنا. ويبلغ طول البدن من ٢٠ إلى ٢٥ قدمًا، وحمولتها من عشرة إلى عشرين طنًا وهي مصنوعة من ألواح خشب التيك، ولها عارضة مزدوجة تجعل لها قعرًا ضيقًا مسطحًا مما يساعد على إيقافه في وضع انتصابي عند شدِّه إلى الشاطئ. والعارضة مثنية من كل من طرفيها، بحيث أنَّه عندما يطفو المركب لا تكاد المقدمة والمؤخرة تلمسان الماء. أما سطح البَدنْ فخفيف متحرك من خشب البامبو أو سعف النخيل، وهذا النوع من المراكب يسير بالشراع، وله سارية واحدة عالية تحمل طيَّةً كبيرةً من الشراع مما يساعده على الاندفاع في الماء بسرعة مذهلة. وعلى أيّة حال فبما أنَّ البَدنْ لا عمق لها ودقيقة في وسطها فإنَّها لا تستقر تمامًا على سطح الماء، ويمكن أن تدفع بها هبة ريح أو عاصفة فجائية. وبما أن البَدنْ مزودة بالمجاديف فإن البحارة يقومون بتجديفها في الأحوال الجوية السيئة، ومع ذلك فإنَّ البَدنْ كثيرًا ما تتعرض للحوادث. ويُغطي

هيكل البَدنْ طبقة من دهان زيت السمك حتى يبدو وكأنه قد اجريت له عملية دهان بالورنيش اللماع، أما الآن فقد بدأ في استعمال المسامير في صناعة المراكب بدلًا من الخيوط التي كانت تستعمل في السابق، ويوجد قارب من الطراز الأوروبي يسمى شوعي وهي لفظة هندية محرفة لاسم أحد قوارب الصيد الهندية، ويوجد في كل سفينة من طراز (البغلة) قارب من هذا النوع مرفوع فوق سطحها. أما في مسقط فإن الأهالي يستخدمون القارب المسمَّى (الهوري) وهو قارب منحوت من جذوع الاشجار، ويستورد من ساحل مليبار في الهند.

وفي ساحل الباطنة حيث يتعذر وجود مأوى أو ملجأ للمراكب الصغيرة، وحيث لا يخلو البحر من الموج، فيوجد نوع آخَر من القوارب ضدَّ الأمواج، واسمه الشاشة، والشاشة دليل على قدرة الإنسان العربي على تطويع المواد لمطالبه واحتياجاته. وهو مصنوع من سعف النخيل بشكل كامل، وذلك بتجميعها كلها وتركيب القارب عن طريق الصانع الخبير. وهذا النوع يصل طوله اثنى عشر قدمًا، ولا يتسع لأكثر من شخص أو اثنين على الأكثر يجلسان داخل ونصفه داخل الماء، وعلى الرغم من أن هذا النوع من القوارب هشٌّ إلا أنَّه مطاط، وفي وسعه أن يتحمل أشدَّ الأمواج عنفًا ويستعمل في الصيد وفي الاتصال بالسفن الراسية بعيدًا عن الشاطئ.

أما سكان جزيرة سُقطرى فيستعملون نوعًا آخَر من الزوارق أثناء موسم الصيد في مسقط، وهذا النوع يسمى (الرمس) وهو مصنوع من ثلاثة سيقان وطوله ست أقدام تقريبًا.

وفي الأزمان السابقة كان يستخدم أكبر السفن الشراعية الذي يشبه (الداو) (وكلبا) غير أن هذين الطرازين قد انقرضا الآن، وطراز كلبا كان طرازًا قديمًا وله تصميم غريب، ثم حلَّ محلّه الداو. وللداو مؤخرة عالية وسطحها مرتفع وبارز جدًّا فوق الدفة وهو نوع كبير بوجه عام. أمَّا السفينة الحربية أو سفينة القرصنة للقرن التاسع عشر، فقد كانت تحمل كما يقال من ٤٠٠ رجل ومن ٤٠ إلى ٥٠ مدفعًا وآخَر سفينة شاهدتها كانت تابعة للبحرين.

إن حوض اللؤلؤ الشهير الذي يمتد في حدوده من الكويت حتى الشارقة وهي مسافة تقدر بثلاثمائة وثلاثين ميلًا، كان مجالًا لنشاط صيد اللؤلؤ منذ فجر التاريخ. وهو على ما يبدو حوض واسع وهام ووفير الإنتاج كما كان دائمًا، كما أنَّ حقَّ

الغوص حقٌّ يتمتع به كل سكان ساحل الخليج، غير أن الجمارك في هذه البلدان قد فرضت بعض القيود على هذه العمليات، وبالتالي فإن عرب المنطقة الذين يتمتعون بحقوق أكثر في هذا المجال هم سكان البحرين وسكان الساحل، ويمتد مجال سكان البحرين حتى القطيف وسكان الشارقة من الشارقة حتى حلول. ويصح القول أن صناعة اللؤلؤ هذه تشكل المورد الأساسي لسكان الساحل الغربي للخليج، أما عدد المراكب التي تشترك في عمليات اللؤلؤ فتقدر من ٣٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ وعدد أفرادها من ٢٧,٠٠٠ إلى ٤٠,٠٠٠ ألفًا. وإن جفاف المنطقة المجاورة لساحل اللؤلؤ، باستثناء المناطق التي تتوفر فيها سبل الزراعة كوسيلة للإعاشة، قد وجد سكانها العمل في البحر. وبالتالي فإن صيد اللؤلؤ والأسماك والتجارة مع الموانئ الأخرى هي وسائل الحياة لهم. والبيانات التالية عن صناعة اللؤلؤ تم جمعها شخصيًّا ومن وثائق ويلسون وولستد وأنيكوك ويلي وديوارتد:

إن أغنى أحواض صيد اللؤلؤ هي التي تقع بالقرب من جزر البحرين التي تعبئ سنويًا ٢٥٠٠ مركبًا لهذه العمليات. ويأتي ساحل عُمَان في المرتبة الثانية ويجمع أصحابها ١٥٠٠ مركبًا. وسكان الساحل من القطيف إلى الكويت وموانئ الخليج يحتلون الأحواض الأخرى. ويرجع الفضل في وقف الحروب المستمرة بين سكان سواحل الخليج إلى معاهدات عام ١٨٢٠م و١٨٥٣م، وقد تم التقيد بنصوص تلك المعاهدات مما أدى إلى استتباب السلم والأمن في المنطقة.

وفي الربيع والخريف تتم عمليات صيد محدودة، غير أن الموسم الرئيسي للصيد هو الفترة الواقعة بين شهري يونيو وسبتمبر من كل عام، وخلال الأشهر الثلاثة هذه تمتلئ مناطق الصيد بآلاف المراكب، وتمثل مشهدًا حيًّا مثيرًا. أما في شهور الشتاء فإن البحر بارد جدًّا والجو عاصف وغير ملائم سواء بالنسبة لصيد اللؤلؤ أو للصيد العادي، إلا أنَّ البحر في الصيف يتحول إلى الدفء والهدوء والغواصون لا يواجهون فيه أيّة متاعب، على أن إدارة وأرباح تجارة اللؤلؤ يحتكرها التجار الهندوس والخوجا الذين يقيمون في البحرين وساحل عُمَان ولنجه ومسقط. وهؤلاء التجار الأذكياء لا يملكون معظم قوارب الصيد فحسب، وإنما يقدمون سُلفًا للبحارة والعمال على هيئة مواد غذائية وأقمشة وغيرها من ضروريات المعيشة؛ ولكن بفوائد فاحشة ومقابل ذلك يحصلون على كل إنتاج هذه الصناعة ويحركونها كلها لمصلحتهم.

إن الطريقة التي يتبعها عرب الخليج في استخراج اللؤلؤ بسيطة جدًّا وبدائية في نفس الوقت. يتم اقتلاع المحار من أرضية البحر باليد، ثم يجلب إلى السواحل في القوارب واستخدام الشباك غير معروف إطلاقًا.

أما عمق المياه التي يمارس فيها الغواصون الصيد فيتراوح بين ٢٥ إلى ٥٠ قدمًا؛ غير أنَّه نظرًا لأن بعض أحواض اللؤلؤ الغنية أعمق من ذلك بكثير فإن الغواصين يضطرون إلى النزول إلى عمق مائة قدم.

أما طبيعة الأرض التي يستلقى فيها المحار فتختلف من مكان إلى آخَر اختلافًا كبيرًا، فهي إما أن تكون مناطق صخرية أو مرجانية. والمركب الواحد يعمل فيه من ٥ إلى ١٥ غواصًا بمعدل تسعة يتألفون من الربان وأربعة غواصين وأربعة شدادين للحبل. وعند الوصول إلى منطقة الغوص ينزل الغواصون بربط الحبل في أحد الصخور، وبمجرد وصول الغواص إلى القاع يبادر إلى جمع المحار في كيس معلق في عنقه أو وسطه. وفي استطاعة الغواص الواحد أن يجمع ما بين ٨ إلى ١٥ محارة. وعند هزِّ الغواص للحبل يقوم الشدادون برفعه فورًا. إن مدة بقاء الغواص تحت الماء تتراوح بين نصف دقيقية ودقيقتين، ثم يأخذ فترة راحة قبل أن يعيد الكرة ويلبس الغواص في إصبعه وقاءا من الجلد لحمايته، كما تكون أنفه مسدودة أيضًا بملقط من العظام أو الخشب.

وبعد أن يمتلئ المركب بالمحار يقلع الربان به إلى جزيرة رملية، حيث يتم نشر المحار في الشمس حتى يصدأ، ثم يتم استخراج اللالئ منه. واللؤلؤ ثلاثة أصناف يعرفها العرب، وأجود أصنافه يسمَّى المها، والغواصون لا يخشون أسماك القرش ولا يشكل أي خطر عليهم؛ لأنه لا يتعرض لهم وكذلك سمك السيف غير أنَّهم يهربون السمكة المنشارية؛ لأن ضربة واحدة من هذه السمكة كفيلة بقطع جسم الغواص إلى نصفين.

بعد جمع المحار يتوجه بها ربان المركب إلى التاجر الهندي الذي يشتريه منهم بالسعر الذي يحدده هو، والذي يكون دائمًا أقل بكثير من سعر السوق، وبعد خصم قيمة المواد التي استهلكها الغواصون يتم دفع الباقي إلى الربان والبحارة. وبما أنَّ هؤلاء لا يستطيعون تقدير أسعار اللؤلؤ ونظرًا لمديونيتهم له فإنهم يعجزون عن عمل أي شيء، وبالتالي فإنهم يقبلون التعويض الزهيد الذي يدفعه لهم نظير جهدهم

وشقائهم. أما صيادو الأسماك فإنَّهم لا يستفيدون بشيء في هذا الموسم نظرًا لبرودة الطقس والبحر. ولا تدفع أجور للبحارة، غير أن العادة قد جرت على تقسيم الأرباح على النحو التالي: بتقاضي ربان المركب خمس الأرباح والغواصون ثلاثة أعشارها والشدادون عشرها والباقي عشران يخصصان لتموين المركب خلال الموسم، وأن الدخل الذي يحصل عليه زعماء المنطقة من صيد اللؤلؤ كبير، فهم يفرضون ضرائب على الأشخاص العاملين في الغوص وعلى المراكب نفسها وإحدى هذه الضرائب يسمَّى النوب، والثاني يسمَّى تراس. وبعد أن يتسلم تاجر اللؤلؤ حصته من اللؤلؤ من زبائنه في نهاية الموسم ينبري لفرز اللالئ عن طريق مناخل نحاسية، وبذلك يتم تقسيمها إلى ستة أحجام، ثم يعاد تقسيمها وفقًا للون والوزن... الخ. وأن كرات اللولؤ تتكون عن طريق طبقات من الصدف واحدة فوق الأخرى وبعضها يتكون من خمس أو ست لفات بينما البعض الآخر يتكون من ثمان لفات.

وأن حصيلة اللؤلؤ تخضع لتقلبات واسعة في الأسعار من سنة إلى أخرى، وبالتالي فمن الصعب تحديد قيمة تقريبية دقيقة لمعدلات أسعاره، غير أنَّه بالرجوع إلى كشوفات جمارك المنطقة يمكننا أن نستنتج مجمل مبيعات اللؤلؤ التي قد تتراوح من ٥٠٠,٠٠٠ إسترليني إلى ٧٥٠,٠٠٠ كل عام. وإذا عدنا إلى مذكرات بارسونز سنة ١٧٧٥م فإننا نلاحظ أن عمليات صيد اللؤلؤ في الماضي كانت تتم بطرق أقل نظامًا وبرمجة منها الآن، كما أن العاملين فيها كانوا يعملون بالأجر ولم يكونوا مستقلين.

* * *

# الفصل التاسع

# جزر كوريا موريا (الحلانيات) والمناطق الشرقية والجنوبية الشرقية لشبه الجزيرة العربية

إن سبخة مطي، وهي ذلك الحزام أو المستنقع العريض الواقع على عرض ٢٤ درجة شمالًا، وأقصى جزء جنوبي في الخليج، تشكل حسب المراجع العربية الحدود الجغرافية بين عُمَان والإحساء وهذه المنطقة السبخية كما يدل عليها اسمها يزيد عرضها على ثلاثين ميلًا، وكما يقال فإنها متصلة في جزئها الأعلى بوادي يبرين الذي ينبع من اليمامة.

أما المنطقة الممتدة من رأس بركة، ورأس حاسك على الضفة الجنوبية للسبخة إلى أبوظبي، وهي مسافة مائة وخمسين ميلًا، فإنَّها تشكل إقليم الغربية، وهي تقريبًا صحراء مقفرة جرداء باستثناء بعض التلال المنخفضة وليس فيها أيّة قرى، ويرتادها بعض البدو الرحل من عشيرة المناصير، وبني ياس، ومرة، وبني حجر، والدواسر. والتربة في هذه المنطقة صخرية أو رملية، ويتناثر فوقها العشب البري، والحيوانات الوحيدة التي تسكنها هي الأرانب والظباء وبقر الوحش، وبغضِّ الطرف عن طبيعة هذه المنطقة القاحلة الجافة فإن حاكم أبوظبي يطالب بالجزء الواقع على الشمال من السبخة امتداد إلى خور العديد، حيث توجد مستوطنات لبني ياس. وعلى أيّة حال فكما يذكر شيزني فإن حدود سلطنة عُمَان حاليًا تنتهي عند ساحل القرصنة بدلًا من الإحساء التي كانت حدود عُمَان القديمة.

ويمر أحد المناطق أو بالأحرى الطريق من البريمي إلى الإحساء عبر منطقة السبخة قريبًا من البحر، ثم يتجه شمالًا. والرحلة من البريمي إلى الإحساء كما يذكرون تستغرق من عشرين إلى خمسة وعشرين يومًا؛ ولكن بما أنه لم يقم أي مكتشف أوروبي حتى الآن بعبور أي جزء من هذا الإقليم فإنه لا بُدَّ لنا أن نعتمد على ما يذكره العرب في هذا الموضوع.

ومن بركة إلى أبوظبي فإن الشريط الساحلي مجهول؛ نظرًا لأنه لم يجر مسح له حتى الآن، وتمتد عليه سلسلة من الخيران والخلجان والشعب.

وتقع شمالي رأس بركة جزيرة دلما، وطولها ثلاثة أميال وقد عثر فيها على عروق الحديد والكرستال، ولقد أصبحت هذه الجزيرة ملتقى لصيادي اللؤلؤ وتجاره خلال موسم الصيد، كما أن هذه الجزيرة يوجد بها سوق، وإلى الشرق تقع قرية سر بني ياس وطولها ستة أميال. وابتداء من رأس بركة يتجه الساحل شرقًا شمالًا، وعلى بعد خمسة وأربعين ميلًا من هذا المكان نأتي إلى خور البزيم، وهو قناة ممتازة عرضها

خمسة أميال، ويمتد على شاطئ البحر إلى مسافة خمسين ميلًا، وهذه القناة كانت تلجأ إليها مراكب قبيلة القواسم للاحتماء والاختفاء فيها خلال حملة سنة ١٨١٩م.

وبعد خور البزيم ينحني الساحل على مدار رأس قنطور، حيث تقع قناة أخرى، والساحل هنا مليء بالخلجان. ومن قنطور إلى أبوظبي يتجه الساحل نحو الشمال الشرقي لمسافة تقدر بخمسة وعشرين ميلًا. وقد تم مسح هذا الساحل عام ١٨٢٤م تحت إشراف القبطان بروكس على متن السفينة سيش، وقد تمت عملية المسح بواسطة القوارب، واستمر العمل ستة أسابيع. وقد أرسل حاكم أبوظبي حرسًا تحت إشراف ابن أخيه لمساعدة رجال السفينة لتقوم بمهمتها.

ونأتي الآن إلى أبوظبي البلدة الأولى على الساحل التابع لبني ياس وعلى الرغم من اقتران اسم هذا الساحل بأعمال القرصنة عمومًا إلا أنّه لم يعد كذلك الآن بل تقطنه مجموعات من التجار والصيادين المسالمين، ولم تعد له تلك الشهرة السيئة، ولا زال هذا الساحل يحتفظ باستقلاله، كما أن المنطقة مقسمة إلى ست مشيخات، غير أن السلطة في مجملها تتركز في أقوى قبيلتين هما بني ياس والقواسم. أما السكان فيطلقون على الساحل اسم سر عُمَان. أما الفُرس فيسمونه جلفار، وهذه التسمية كثيرًا ما وردت في مؤلفات الرحالة القدماء، وهي تطلق على منطقة رأس الخيمة التي يسمّيها العرب السر.

ويبلغ تعداد سكان أبوظبي نحو عشرة آلاف، وهي محمية ومؤمنة ضدَّ هجمات القبائل، إذ أنَّها مبنية على جزيرة مكونة من خورين، هما جزر أبوظبي وخور لفان، ويفصلها منطقة طولها ثلاثة أميال وهي متصلة من الخلف ببحيرة مستطيلة.

وعند زيارة الرحالة رويمر لأبوظبي عبر هذه البحيرة بعبارة من المقطع، وهو مكان يبعد عشرة أميال من أبوظبي وتمتد البلدة على الساحل إلى مسافة ميلين تقريبًا، وتضمُّ حامية حصينة غير أن المساكن المبنية بالحجر قليلة، والأرض صخرية ورملية. والنخيل هنا صغير جدًّا، ولا توجد فيها زراعات نظرًا لندرة الماء، والكمية التي تستخرج من الآبار محدودة وماؤها مالح، والسكان يعتمدون في ذلك على دبي التي تقوم بشحن سفن بكاملها بالماء لبيعه في أبوظبي. وتملك أبوظبي ثلاث سفن من طراز البغلة الكبير وطراز الباثيل، ونحو أربعمائة قارب صيد منها ٢٥٠ مخصصة لصيد اللؤلؤ. ويعيش في أبوظبي عدد من التجار الهنود ويقبضون على معظم تجارة الميناء.

ويدعى حاكم أبوظبي بالسيادة على منطقة واسعة تصل إلى نقطة قريبة من دبي، بل وإلى خور العديد، حيث توجد مستوطنة لبني ياس. وضمن تلك المنطقة تقطن قبائل أخرى كالمناصير الذين يبلغ عددهم نحو خمسة آلاف نفس، وبني قتب وبني هاجر، ومرة والدواسر، وغيرها من القبائل.

ومن أبوظبي يمتد الساحل في خط مستقيم حتى دبي، وإلى نحو ثمانين ميلًا فإن المنطقة جرداء ومسطحة تمتلئ بالخيران والمستنقعات، وخالية من النبات فيما عدا الأعشاب البرية، وليس لهذه المنطقة سكان دائمون بل يزورها بعض البدو من حين إلى آخر. وعلى بعد اثنى عشر ميلًا من أبوظبي يوجد كما يقال أحسن خور على هذا الساحل يسمى خور حراب، غير أنَّه ضحل عند مدخله. وعلى بعد من هذا الساحل يوجد شعب مستطيل بمحاذاة الشاطئ الذي ارتطم فيه مركب الشركة (ألفنستون) في سنة ١٨٣٧م. ثم بعد عشرين ميلًا أخرى يوجد خلجان، أكبرها خور غرابي وخور غفاته واللذين يمتدان إلى الشاطئ ويتصلان بغيرهما من خلجان المنطقة. وعلى بعد ٦٠ ميلًا من أبوظبي يقع أحد التلال وارتفاعه ٢٢٠ قدمًا، وقد سُمّي بجبل علي نظرًا لموقعه العالي البارز في المنطقة. وبعد مسيرة ٢٥٠ ميلًا من أبوظبي نصل دبي، ولعلها أهم بلدة على هذا الساحل، وعلى الرغم من أن دبي تابعة لقبيلة بني ياس إلا أنَّها مستقلة عنها، وفيها الكثير من البيوت المبنية بالحجر، كما أن تجارتها مع لنجة وغيرها من موانئ الخليج مزدهرة، فضلًا عن أن لها حصة من صيد اللؤلؤ وترسل سنويًّا ٥٠٠ مركب للاشتراك في صيد اللؤلؤ، وقد يصل عدد سكانها من ١٢٠٠٠ إلى ١٤٠٠٠ نسمة، وينتمي حاكمها إلى فرع أبو فلاسه من قبيلة بني ياس، وتمتد البحيرة إلى مسافة طويلة إلى الجنوب الشرقي ويوجد عند المدخل حاجز صخري ضحل. والتجارة تكاد تكون برمتها في أيدي الهنود المقيمين، وذلك يرجع إلى الكفاءة التجارية التي يتمتعون بها.

وبين دبي والشارقة، وهي مسافة تسعة أميال. توجد قريتان أبو حيل وخان، وفي الشارقة نجتاز أرض القواسم والشارقة كانت مستقلة عن رأس الخيمة، غير أنَّها الآن تخضع لكبير شيوخها. وتعداد سكان الشارقة عشرة آلاف نسمة، مؤلفة من خليط من القبائل وهي قبائل آل بو علي والشحيين، كما توجد فيها صناعة بناء القوارب والمراكب التجارية بنوعيها الصغير والكبير، ويستعمل في هذه الصناعة

خشب الصنوبر بنوع خاص ويستورد من مليبار في الهند. كما ترسل الشارقة ٣٥٠ مركب صيد إلى أحواض اللؤلؤ بالإضافة إلى نحو ١٠٠ مركب من المراكب العادية. والماء في الشارقة رديء ومالح كما هو الحال في أكثرية مناطق الساحل. أما أشجار النخيل في دبي فهي كثيرة بحيث تنتج ما يكفي الاستهلاك المحلي، الأمر الذي يعتبر من الحالات النادرة في هذه البقاع، وأما الخور فيقع بين البحر والمدينة على امتداد ثلاثة أميال، وله مدخل يقع على بعد ميل من البلدة.

وقد تحطمت سفينة المسح ديسكافري بالقرب من الساحل في شهر فبراير سنة ١٨٢٤م وفقدت كل مراسيها، وفي منطقة غير بعيدة من هذه البلدة تقع أحواض أو مغاصات اللؤلؤ في الخليج وقد أشرنا إلى صناعة صيد اللؤلؤ في موضع آخر من هذا الكتاب. وتمتد هذه المغاصات على طول الجزء الكبر من الساحل العربي حتى الكويت بمساحة ٣٩٠ ميلًا، وهي كلها مغاصات منتجة وهامة وتزخر باللآلئ. وبعد اجتيازنا قريتين من قرى هذا الساحل، وهما قشط وحيرة اللتين تزخران بمزارع النخيل نأتي إلى عجمان التابعة لقبيلة النعيم، وفي هذه البلدة خور يتسع لرسو السفن من طراز البغلة، وتعداد سكان عجمان نحو ١٥٠٠ نسمة، وتمتلك نحو مائة قارب غوص بالإضافة إلى ثلاثين قاربًا عاديًّا لصيد الأسماك، وعلى بعد ٦ أميال من عجمان تقع الحمرية التابعة لقبيلة النعيم، وفيها ميناء له خمسة أبراج، ويقطنها نحو ٦٠٠ نسمة، وعلى بعد سبعة أميال إلى الشمال الشرقي من الحمرية تقع أم القوين، وقد أنشأت هذه المشيخة فوق شبه جزيرة تكونت من إحدى البحيرات العريضة وتتفرع إلى الداخل، غير أن أم القوين القديمة قد هجرها أهلها، وأم القوين الجديدة تقع مكان قرية (لبينه) وهذه البلدة تضمُّ عددًا من الأبراج كما يوجد سور أقيم عند البرزخ، ورغم المزايا التي تتمتع بها أم القوين إلا أنَّها في حالة تدهور، ويبلغ عدد سكانها نحو ألف نسمة يتبعون قبيلة آل علي، وعدد المراكب التي تساهم بها أم القوين في صيد اللؤلؤ نحو ١٠٠ مركب.

ثم إذا نحن مضينا فسنصل إلى جزيرة الحمراء التي هي في الواقع شبه جزيرةٍ تكونت بفعل الخور. وفي هذه القرية حصن صغير يقع على بعد خمسة عشر ميلًا من أم القوين وسكانها من قبيلة كعب، ويخضعون من حيث السلطة لرأس الخيمة، ويرسل هؤلاء بضع قوارب إلى مناطق صيد اللؤلؤ.

وتعتبر رأس الخيمة وهي البلدة الأخيرة التي وصلنا إليها بلدة مستقلة وكانت تعرف قبل قرن أو نحو ذلك باسم جلفار الذي أطلقه عليها الفُرس الذين كانوا يسيطرون عليها، أما العرب فيسمونها السر، وفي أعقاب طرد الفُرس بقليل سنة ١٧٤٤م أطلق عليها اسم رأس الخيمة الذي هو اسمها الآن غير أن أصل هذه التسمية مجهول.

إن هذا الساحل يتميز بخصائص غريبة، إذ أنَّه يضمُّ على امتداده سلسلة من الخيران والبحيرات، والمناطق الخلفية تتصل مع بعضها البعض في معظمها عند البحر، أو تتفرع وتتشقق في اتجاهات عديدة داخل الأراضي، ورغم أنَّ هذه الخيران أو الخلجان ضحلة عند مداخلها إلا أنَّها عميقة في الداخل، وتشكل ملاجئ ممتازة للسفن من كافة الأحجام، ولو لا هذه الخلجان؛ لتعذرت المعيشة على هذا الساحل.

وتعداد سكان رأس الخيمة يبلغ ٥٠٠٠ نسمة، وهي تابعة للقواسم وهي مركز هذه القبيلة، كما تضمُّ عددًا من قبائل بني كعب والمطارة وغيرهم. ويقع الحصن أو الحامية في طرف المدينة، ويوجد فيها أيضًا برج كبير وخلفه بحيرة واسعة يبلغ طول مدخلها نحو ميل واحد على الجانب الشمالي الشرقي للمنطقة السكنية، وفيها العديد من القوارب؛ ولكن لا توجد سفن كبيرة؛ لأن عمق الماء لا يزيد على عشرة أقدام في فترة المد، ومن بين ١٥٠ قاربًا التابعة لهذا الميناء ١١٠ منها قوارب صيد عادية، والباقية مراكب لصيد اللؤلؤ. وهناك ما يبرر الاعتقاد بأنَّ رأس الخيمة كانت في القرن الثامن عشر تحت زعامة قبيلة الهولة، وكانت بؤرة المقاومة ضدَّ نادر شاه. وفي مستهل القرن التاسع عشر بلغ نشاط القواسم وممارستهم القرصنة ضدَّ السفن البريطانية ذروته، مما اضطر حكومة بومباي في سنة ١٨٠٦م إلى تسيير حملة ضدَّهم، غير أن الحملة برهنت عن فشلها في الاضطلاع بتلك المهمة. وفي سنة ١٨٠٩م أرسلت حملة أخرى وتمكنت من قصف رأس الخيمة وتدميرها غير أن نشاط القواسم عاد على بعض المراكب الهندية وقتل بحارتها، وقد تم إيفاد قوة من الأسطول لمعاقبة الجناة، غير أن الشيخ حسن بن رحمة رفض رفضًا باتًا تسليم الجناة أو دفع التعويض المطلوب وقدره ٢٠,٠٠٠ جنيه إسترليني، مما دعا الحكومة البريطانية إلى تكليف الطراد جالينجر وغيره بقصف البلدة، غير أن القذائف لم تصل إلى أهدافها وعادت الحملة تجرُّ أذيال الفشل.

وكغيرها من بحيرات هذا الساحل فإن هذه البحيرة تعج بالأسماك، وبالتالي فإن السكان يجدون حاجتهم من الأسماك على مدار العام.

وتعتبر رأس الخيمة أهم وأبرز مشيخة على الساحل الذي يمتد ١٥٠ ميلاً؛ وذلك بسبب توافر المياه العذبة فيها، بينما يندر وجود الماء العذب في غيرها من المشيخات.

والقرية التي تلي رأس الخيمة والتي تقع شمالها هي رمس، وبها ميناء صغير ومزارع نخيل تخص القواسم، بينما توجد قرية صغيرة أخرى في الداخل على بعد ميلين هي حنيا.

وعلى بعد ١٢ ميلًا من رمس نأتي إلى شعم، حيث تنتهى حدود المشيخات الساحلية. وتقع هذه القرية داخل ممر ضيق منخفض على بعد أكثر من ميل من ساحل البحر، والتي يمكن رؤية أكواخها وهي تتعاقد على جانبي التلال وكأنَّها خلايا نحل، كما يوجد بقربها إلى الجنوب واد صغير مزروع بأشجار النخيل، وفيها ستة عشر بئرًا مستديرة ومربعة، وهي تدل على ما يبدو إلى أن الوادي يشكل قناة ماء (فلج) تتصل بتل مخروطي الشكل على الساحل يرتفع ستين قدمًا، ويسمَّى جبل السنينة، مما يوحي بأنَّ هذا التل ربما كان مكانًا للعبادة في عصر الجاهلية، وبجانبه ضريح الشيخ زهير أحد الأولياء المسلمين، والضريح مبني بالحجر والمرجان وتظهر عليه علامات الطابع الفارسي. وفي شعم كما في غيره من هذا الرأس يصطاد الصيادون كميات هائلة من سمك صغير يسمونه مطوط ويصدرونه في جوالات طول كل منها ثمانية أقدام مصنوعة من سعف النخيل المعقود. وهذه البلدة تشكل أقصى نقطة للحدود العُمَانية وحدود شيخ القواسم حاكم رأس الخيمة وسكان القرية يخضعون لسلطة والي شعم وعددهم نحو ٢٠٠٠ نسمة من الطينجيين، وهم فرع من قبيلة الشحيين.

بين رأس شعم الذي يبلغ ارتفاعه ٣٥٠٠ قدم ورأس شيخ مسعود يقع عدد من القرى والألسنة تسمّى رأس جادى، والتي تنتصب قريبًا من أحد المرتفعات الذي يصل علوه إلى ٤٤٧٠ قدمًا. وعلى الجانب الشرقي من رأس شيخ مسعود يقع خور خصب عمقه ميلان وعرضه أربعة أميال، وبلدة خصب نفسها تقع بين جبلين تحت الوادي. والمرفأ محصن تحصينًا قويًّا ويعتبر موقعًا استراتيجيًّا ممتازًا للتحكم في مدخل الخليج، بينما بني الحصن في القرن السابع عشر من جانب البرتغاليين الذين أطلقوا عليه اسم جوسابو وقد استعمله الأدميرال روي فرير أندرادا كقاعدة

لعملياته في صراعه الطويل لاستعادة هرمز من الفُرس، ويقع الحصن في مكان غير بعيد من الشاطئ، ويتألف من أربع قلاع مربعة، تربطها الحوائط بعضها البعض، ويحيط بها خندق، ويبلغ عدد سكان البلدة نحو ألف مواطن، وهم ينتمون إلى قبيلتين رئيسيتين هما قبيلة الكنيرة (التي تحتل الجزء الأعلى من الوادي) وقبيلة الحتيرة وهي فرع من الشحيين، وأغلبية السكان من أصل فارسي ويزاولون صناعة النسيج. ويتم تعيين الوالي من جانب حكومة مسقط، غير أن الدخل لا يغطي مصاريفه. وفي دائرة هذا الوالي عدد من القرى، بينما يبلغ عدد السكان الذين تحت سلطته نحو ستة آلاف نسمة. وسكان البلدة في خصام دائم مع بعضهم البعض، بحيث يستغرق الوالي كل وقته لتسوية تلك المنازعات. وهناك أربعة جداول تنساب من بعض الينابيع في الجبال، اثنان منها دائمان، وبالتالي فإن الماء العذب متوفر بكثرة، وخصب هي المكان الذي يستمد الرأس اسمه منه على حدِّ رأي بطليموس الذي يسميه جبل أسابو.

وإلى الشرق من خصب يقع وادي قضيبة على الجانب الغربي من المدخل الذي تقع فيه قرية تسمّى القطرى، وقد أقيمت على كتل من الصخر، أما الرأس الهائل المعروف برأس مسندم عند الأوروبيين وبرؤوس الجبال عند العرب، فيتألف من صخور عالية قاحلة ذات انحدار نحو البحر ومرصعة بالخيران والمداخل والممرات، يشكل بعض منها مرافئ كبيرة متسترة، والسكان من قبيلة الشحوح وتعدادهم ١٦,٠٠٠ إلى ١٨,٠٠٠ تقريبًا موزعون على التلال كرعاة أو صيادين. وإن حدود السلطان (ونعني طبعًا سلطان مسقط) والتي تبدأ من شعم تشمل خصب، كمزار، ودبا، بينما خور فكان وغيرها من القرى تخص القواسم.

وعلى بعد ثلاثة أميال من خصب واثنى عشر ميلًا من مسندم يقع مدخل خور الشوام الذي أطلق عليه خبراء المسح (خليج ألفنستون). إن هذا المرفأ أو الخليج الممتاز طوله ثمانية أميال وله جوانب صخرية مائلة، ويشترك في طبيعته مع خصائص الرأس المتعرجة والمثلمة والمليئة بالممرات والمداخل، أنَّه بالأحرى واد مغمور بالماء وفي داخل الخليج على الجهة الشمالية تقع قرية شعم، ثم على بعد مسافةٍ قليلة توجد جزيرة بنفس الاسم. وفي جزيرة أخرى توجد محطة التلغراف، وهو نفس المكان الذي نقل إليه الخط التلغرافي للخليج بموجب اتفاق أبرمه السيّد ثويني بن سعيد

سلطان مسقط. ومدخل هذه الجزيرة لا يزيد عرضه على نصف ميل، ومن الصعب اكتشافه من الجهة البحرية؛ نظرًا لأنه محجوب بجرف منحدر مظلم، وكان هذه المدخل يستعمل سابقًا من جانب ملاحي المنطقة فرارًا من السفن الحربية التابعة لشركة الهند الشرقية، وكان الفُرس يجهلون ذلك المكان، وكانوا يصابون بالدهشة عندما كانت سفن القرصنة تختفي فجأة وبطريقة سحرية، وبعد دخول المراكب إلى ذلك الخور فإنَّها سرعان ما تتسلل داخل الممرات الضيقة وتختفى هناك. وإلى الشمال من خور الشعم فإن تركيب الأرض في غاية الغرابة، فهو يشكل شبه جزيرة مثلثة الشكل لها عنق طويل جدًّا، بينما يوجد على الناحية الجنوبية منها جبل يُسمّى جبل شعم، له جرف انحداري ويرتفع إلى علو ٣٠٠٠ قدم، وكأنَّه حارس منتصب يقف لحراسة الجون. وإلى الشمال من شبه الجزيرة هذه يقع خليج كولفيل ويُسمّيه عرب المنطقة خور غروب علي، وهو مدخل عميق يقع غير بعيد من جزيرة الغنم، ويفصل بينه وبين اليابسة خليج ديسكاوين، ويعرف في أوساط العرب بخور كيوي، وطول جزيرة الغنم ميلان، وتقع على بعد ميلين من أحد الصخور، ويستخدم الكمزاريون هذه الجزيرة لرعي مواشيهم وعلى بعد خمسة أميال من جزيرة الغنم يوجد رأس شيرات، وهو بروز أو لسان غريب الشكل ضيق ويمتد مسافة ميل ونصف. وقرية كمزار هي أقصى الحدود الشمالية لعُمَان، وهي فريدة من حيث أنَّها المنطقة الفارسية الوحيدة على الساحل العربي، وتقع على شقٍّ ضيق داخل جبل انحداري ضيق وعالٍ، بحيث يضفي عليه منظرًا مثيرًا، وليس بهذه القرية مزارع نخيل والأرض الخضراء الوحيدة فيها تتكون من بعض أشجار ليثومية تنمو من جوف الصخور، وفيها بئر واحد فقط بعمق ثمانين قدمًا، والبيوت متلاصقة جدًّا مع بعضها البعض، ومبنية من الحجر والطين ولها سقوف مسطحة والطرق ضيقة جدًّا، وتوجد القبور بين صفوف البيوت لعدم وجود مكان آخَر لها.

ومن رأس مخيليف إلى البلدة تبلغ النقطة الشمالية ميلًا واحدًا وعرضها ثلاثة أرباع الميل، ويقطنها نحو ألف نسمة والرجال كلهم صيادون ويمتلكون نحو مائة من قوارب الصيد، بُني معظمها في البلدة نفسها، وسكانها بيض البشرة بحكم كونهم من أصل فارسي، وهو أمر لا جدال فيه، كما أنَّهم يتحدثون بلهجة فارسية ركيكة، وهي خليط من العربية. ولديهم بعض المواشي من الغنم والماعز، ويتكون

علف الماشية من الأسماك نظرًا لانعدام الخضار، كما يتم تمليح الأسماك بنوع من الماء شديد الملوحة ويعبأ في جرار للاستهلاك. وتتعرض بلدة كمراز من وقت إلى آخَر لكثير من العواصف وهي حارة جدًّا في الصيف.

وإلى الشمال الشرقي من هذا الخليج فإن الساحل معقد وموحش وهائل وجميل المنظر، وإن الجزء الشمالي الأقصى للرأس الذي وصلنا إليه والذي يبعد عن كمزار أربعة أميال يُسمّى رأس الباب، وموقعه أمام جزيرة رأس مسندم، ورأس الباب قمة عالية وعارية وترتفع عند مدخل الممر وعرضها أقل من نصف ميل بين رأس الباب والجزيرة نفسها، وعرب المنطقة يسمّون هذا المكان فك الأسد، وذلك بحكم ما فيه من تيارات جارفة خطيرة أو لعل الاسم مشتق من التشابه الغريب للصخور بفك الأسد.

إن جزيرة مسندم التي يعرف هذا الرأس باسمها بين الأوروبيين طولها ميلان وعرضها على الناحية الجنوبية نصف ميل، وهو أعرض جزء فيها وارتفاعها في أعلى أجزائها ٩٠٠ قدم. ويخبرنا كونستابل أنَّه يمكن مشاهدة بقايا قلعة قديمة على الجزيرة، وهي بمنظرها المبني بالقوالب الحجرية المربعة تبدو وكأنَّها تنتمي إلى العصور الحديثة. وهو يعتقد بأنَّه قد تكون بقايا لمبنى كان يستخدم في الماضي كحامية أو برج للمراقبة.

والجزيرة في امتدادها نحو الطرف الشمالي تنتهي عند جرف يرتفع نحو مائة قدم يُسمّى رأس مسندم. والملاحون العرب الذين يرتادون هذا الممر في ذهابهم وإيابهم يخافون منه؛ بسبب التيارات القوية والأعاصير التي تجتاحه في أكثر الأوقات. ولكي يسترضي الملاحون الأرواح التي تسكن تلك الأعماق فقد اعتادوا منذ زمن بعيد بأن يطلقوا مراكب تجارب أو حتى قشرة جوز هند تحوي مجموعة من الأطعمة والحلويات، ثم يراقبونها بحرص شديد فإن وصل القارب اللعبة إلى الشاطئ بسلام فإنهم يتوخون مرورًا سليمًا، أما إذا انقلبت فإن المخاوف تتملكهم وهذه القوارب النموذج كثيرًا ما تراها السفن المبحرة في المنطقة في الأحوال الجوية الملائمة. ويمكن للمرء أن يتخيل كم من هذه السفن الاختبارية قد أطلقها السندباد البحري، ثم رآها تتمزق إربًا بفعل الأمواج عند مروره من الخليج خلال رحلاته البحرية من البصرة إلى المحيط الهندي.

ومن هذا المنطلق نفسه قام جهاز المسح البحري الذي دشنه مرنستورت ألفنستون حاكم بومباي بهدف رسم المناطق الساحلية والكشف عن أوكار القراصنة ومخابئهم في سنة ١٨٢٠م بعملياته. أما قبل أن يتم القيام بهذا العمل الهام، فقد كانت سواحل الخليج وجزره مجهولة تقريبًا، وكان البحارة الأوروبيون يجدون خطورة وصعوبة في الملاحة فيه. ويعود الفضل في وضع أول خريطة للبحر الداخلي للخليج إلى الأستاذ والرحالة كارستون نيبور في مؤلفه (وصف لشبه الجزيرة) الصادر في سنة ١٧٦٤م، وقد أعقب ذلك تقرير البعثة التي شكلت في بومباي سنة ١٧٧٤م تحت إشراف كل من الكابتن روبنسون على الطراد فوكس، والكابتن بورتر على الطراد دولفن، وبمساعدة كل من اللفتنانت مارفيل، واللفتنانت بلير، وقد قام هؤلاء الضباط بمسح دقيق للخليج وساحل عُمَان ابتداء من مسقط حتى رأس مسندم. وقد اكتسبا معلومات إضافية عززت فيما بعد من جانب المستر دالريميل خبير علم المياه التابع للشركة، وقد اعتمد هذا الخبير في مهمته على معلومات القبطان ماكليور وغيره من الملاحين، وقد ظهرت أعمال ملبرن الأولى في سنة ١٨١٣م بينما بقيت خرائط ودليل هورسبرج مجهولة تمامًا عندما بدأت أعمال مسح لهذا الساحل على الأسس العلمية.

أما مدخل الخليج في أضيق أجزائه ابتداء من مسندم حتى لاريك فطوله ٣٢ ميلًا بحريًّا، ويعرف لدى الفُرس بباب الإسكندر، وذلك إشارة إلى رحلة نيورشيس اليوناني الذي قاد أسطول الإسكندر الكبير.

وعلى بعد تسعة أميال من رأس مسندم إلى الشمال تقع جزر القوين وهي ثلاث جزر إسفينية الشكل وارتفاع أعلاها ٥٤٠ قدمًا، ويُسمّيها العرب (سلامة وبناتها)، وكان القراصنة يحبذون الإحتماء بها تربصًا بالتجار والملاحين الذين يمرون بها في ذهابهم وإيابهم.

وإلى الجنوب الشرقي بمسافة ثلاث أميال يقع الرأس المعروف في أوساط الكتاب الكلاسيكيين باسم (أنكوبريس) وهو تحريف للاسم العربي (رأس قبر الهندي) أما أصل التسمية فغير معروفة إطلاقًا أو أنَّها نسيت، وهو أقصى جزء شرقي للرأس ويرتفع ١٢٠٠ قدم.

وتحت رأس قبر الهندي مباشرة يوجد جوف يُسمّى دوحة الشيصة، ويفصله عن خليج ألفنستون قمة صخرية، وعمق هذا الجوف سبعة أميال، وفيه قرية صغيرة تستمد اسمها منه. ويفصل دوحة الشيصة من الخليج الآخَر غبة شابوص، وهي شبه جزيرة صخرية طولها يزيد على أربعة أميال تعلوها قمة، تُسمّى جبل صبز، وترتفع إلى ٣٠٠٠ قدم.

ولكي تستكمل عملية التثليم لهذا الرأس غير العادي، فإننا نصل الآن إلى ما يمكن اعتباره آخِر الخلجان وأكبرها جميعًا، وأعني به خليج مالكولم والمعروف بين عرب المنطقة بخور جزيرة أو غبة جزيرة الذي يمتد تسعة أميال إلى الداخل، ويحيط به من ناحية خليج ألفنستون سلسلة صخرية بكثافة ميل واحد، وهذا الخليج العظيم كثير التثلّم والتعرج، ويضمُّ عددًا من الجزر الصغيرة والقرى والخيران والجروف، والطرف الجنوبي لمدخل هذا الخليج، ويبلغ عرضه ثلاثة أميال يشكله رأس سركيم، وهو عبارة عن قمة عمودية ترتفع مئات الأقدام. وقد أطلق على هذا الخليج اسم خليج مالكولم، وكان حاكمًا لبومباي في سنة ١٨٢٦م.

أما دوحة كيال وهي الرأس الذي يلي ذلك فيمتد إلى مسافة ثلاثة أميال إلى الجنوب الغربي، حيث يصل علوه إلى ٤٠٠٠ قدم. وفي هذا الوادي توجد آثار مدينة قديمة بنيت منازلها من أحجار كبيرة مربعة يصل طول بعضها إلى ثماني وتسع أقدام. وعلى بعد عشرة أميال من خليج مالكولم يقع خور وقرية وجزيرة ليما، وعلى بعد اثنى عشر ميلًا يصل الجبل إلى أعلى نقطة فيه، وتسمى جبل حريم، وارتفاعه ٦٧٥٠ قدمًا وتبعد القمة خمسة عشر ميلًا من أعلى القمة العالية التالية التي تسمّى جبل كيوي، وتقع أمام دوحة الحفا، واتجاه الساحل هنا عمومًا نحو الجنوب، وهنا نأتي إلى بلدة وخور دبا الشهيرين.

إن هذا الخور المحمي تمامًا عرضه ستة أميال وكان فيما مضى سوقًا تجاريًّا هامة ومشهورة، وربما كان نفس السوق التي أشار إليها القبطان نيارشوس، غير أن الفضل في ذيوع صيته يعود إلى موقعه الذي شهد المعركة التي حددت دخول عُمَان إلى دين الإسلام. في العام (١٢هـ/ ٦٣٣م)، في عهد الخليفة أبو بكر الصديق، وهزم فيها القائد العُمَاني المرتد لقيط على يد القائدين الإسلاميين، كما فصلنا ذلك في موضع آخَر من الكتاب، ويحتمل أن تكون قبيلتا دبا ونزار هما اللتان أنشأتا هذه المدينة،

وكانت القبيلتان قد نزحتا إلى هذه المنطقة من اليمامة؛ ولكنهما أبيدتا خلال الحرب.

إن الانطباع الذي يخرج به المرء عن هذا الرأس هو احتمال أن تكون سلسلته الجبلية متصلة بسلاسل الجبال في فارس في الماضي، ثم نتيجة لانخفاضات أرضية حدثت في تلك المنطقة في مرحلة جيولوجية بعيدة مما أدى إلى اندفاع البحر وتشكيل الخليج، وتدفق المياه إلى الوديان والوهاد والخلجان بالصورة التي عليها اليوم، أما فيما يختص بالتكوينات الجيولوجية لسلاسل الجبال فإن المعلومات الوحيدة عن ذلك هي التي وردت في تقرير الدكتور كارتر الذي ننقله هنا بالحرف الواحد: "من النظرة الأولى تبدو هذه الجبال وكأنَّها مكونة من حجر البازلت؛ بسبب لونها الأسود، وقد وصفها الكابتن ويلستد وويتلوك بهذه الأوصاف، وعلى مرِّ السنين كانت تعتبر صخور هذه الجبال صخورًا بركانية، أما بليني فقد سمّاها الجبال الأبلاتينية، ولعل هذه اللفظة تحريف لكلمة إبليس العربية".

وقد قام اللفتنانت كونستابل من ضباط الأسطول الهندي بفحص هذا الرأس والجزر المحيطة به، وتفضل فأراني نموذجًا من صخورها، وقد تبين لنا أن صخور هذه البلاد ليست من حجر البازلت الأسود حسب ما كان الاعتقاد سابقًا، بل هي خليط من الحجر الكلس الرمادي الداكن، والحجر الأسود الفاحم، تتخلله طبقات وعروق من مادة جيرية لامعة باللونين الأبيض والقرمزي الفاتح، والحجر الكلسي الأسود من تركيبه نقية ويتكسر إلى قطع ناعمة بعكس الألوان الفاتحة التي هي أكثر خشونة وتتكسر إلى فتات خشنة، وتبلغ كثافة طبقة النوع الجيري من ٨ إلى ١٠ أقدام، وهي عمودية الشكل في تبلورها وتتخللها أفقيًا خطوط متعرجة كتلك التي شوهدت في جبل طارق، وبعض تلك الطبقات شديد البياض أشبه بالبلور، وقد ذكر لي الفتنانت كونستابل إن هذه الجبال هي من تركيبة واحدة، وأن طبقتها أفقية الشكل وإن كان بعضها أكثر دقة وأسودادًا من غيره.

والمكان الثاني الذي يستحق منا الاهتمام هو خور فكان، وقد كان لخور فكان أهمية عظيمة في الماضي، غير أنَّها لم تستعد تلك الأهمية بعد ما أمر البكويرك بتدميرها في سنة ١٥٠٧م، وأرغم الجالية التجارية الهندية على مغاردتها. وهذه البلدة تشكل مجموعة من الأكواخ المتواضعة، كما يحيط بها سور، وتعداد سكانها ٦٠٠ نسمة، وتطل على خور صغير عند فتحة وادٍ ضيق. وتنتشر فيها مزراع النخيل،

وتوجد فيها جزيرة صغيرة تسمّى سريت على بعد قليل من الطرف الشمالي الشرقي. وفي أعلى الوادي بقايا قلعة شيّدها القائد الفارسي محمد تقي خان عام ١٧٤٢م، وفي عام ١٨٦٤م عبر الرأس من خور فكان كل من الكولونيل داسبراو والكابتن باول لمدِّ الكابل التلغرافي للخليج. وصخور هذه المنطقة كما يقال صخور بركانية والديورايت الموجود فيها شبيه بالديورايت الموجود في عُمَان.

وخور فكان خاضعة الآن للقواسم الذين يسيطرون على الساحل من دبا إلى المرير، وليس لسلطان مسقط سيادة على هذه المنطقة. وبعد أن نعبر خور كلبا وهو خليج صغير ويبعد ١٣ ميلًا عن خور فكان نصل إلى رأس ملاحة أو خطمة ملاحة، بعد أن نقطع ستة أميال، وهو لا يمثل الطرف الجنوبي الشرقي للرأس فحسب، بل أيضًا حدود إقليم الشميليِّة، وفي أعلى المرير تبدأ سلسلة الجبال في التضاؤل من الساحل، حيث يبدأ إقليم الباطنة.

إن هذا السهل الطويل المنبسط ينحني قليلًا ابتداء من المرير في اتجاه غرب عمومًا، ثم يأخذ في الاتساع تدريجيًّا عند السيب ونخل، حيث ينتهي في هذه المنطقة، وإقليم الباطنة هو أكثر الأقاليم العُمَانية سكانًا ويضمُّ ثلاثة أرباع المليون نسمة تمثل مجموعة واسعة من القبائل العُمَانية المختلفة. وقبيلة آل سعد تحتل مساحة قدرها خمسة وعشرين ميلًا من الساحل وتؤلف ستين ألف نسمة، وهي أكبر القبائل العُمَانية، وتمتلك عددًا من المدن منها الملدة والثرمد والخضراء والطريف... الخ.

وهذه القبيلة غنية بمحاصيل البلح وبقوارب الصيد وبالزراعة، غير أنَّها ليست من القبائل المحاربة أو ذات النزعة الحزبية. وقد أثارت هذه القبيلة سنة ١٨٧٤م بعض المشاكل بقتل أحد التجار الهنود المقيمين فيها ونهب ممتلكات الرعايا البريطانيين، غير أنَّهم عوقبوا على ذلك في حينه. وسكان هذه المنطقة عمومًا موسرين، وحالتهم مزدهرة بشكل يفوق سكان الأقاليم العُمَانية الأخرى، ولما كان آل سعد لا يميلون إلى شنِّ الحروب ويتركز اهتمامهم في ممارسة الحرف الصناعية، فإنَّهم يتعرضون من حين إلى آخَر لمغامرات مدمرة من قبائل الظاهرة العاجزين عن مقاومتها.

والقطاع الهناوي من هذه القبيلة بنوع خاص أقوى بكثير من القطاع الغافري، غير أنَّه يوجد طوائف أخرى قليلة العدد من الفُرس والبلوش والزنوج الذين لا يتمتعون بأي نفوذ سياسي.

وفي الأوساط التجارية في الباطنة يعيش عدد من التجار الهنود الذين وفدوا من منطقة كتش في الهند، وبما أن هؤلاء الهنود يتمتعون بالحماية البريطانية، وبالإعفاء من الضرائب وبما أنَّهم يتعرضون لسوء المعاملة من جانب زعماء المنطقة ونظرًا لتفوقهم وتعليمهم، فقد أتاح لهم ذلك نفوذًا في الأعمال التجارية، ومكنهم من جمع ثروات طائلة من خلال العمليات المصرفية والسمسرة التجارية، وتقديم القروض لمواطني الإقليم، وهم بذلك يقدمون خدمات لا غنى عنها للسكان العرب من كافة الطبقات.

وبعد أن نترك المرير نصل إلى أبو بقرة والخضراوين في وادي التيور على بعد ستة أميال من قرية الأسود التابعة للوشاحات. وبين هذه القرية وشناص تقع قرية العقر التي أشار إليها الرحالة ابن المجاور. أما شناص وهي أول مدينة في الباطنة، والتي تبعد خمسة عشر ميلًا عن خطمة ملاحة فإنَّها تقع في وادي حتا الذي يشكل الطريق الطبيعي العام إلى أبوظبي. ويتبع هذا الوادي قبيلتا الوشاحات والبدوات، ويضمُّ عدة قرى على ضفتيه. ويبلغ عدد سكان شناص ألف نسمة يتألفون من قبائل الدهامنةَ والوشاحات مع وجود أقليات من البلوش والفُرس. وتطل البلدة على بحيرة طولها ثلاثة أميال ونصف وعمقها يستوعب سفن الصيد الكبيرة، وهي تمتد بمحاذاة البحر، وهذه المنطقة تتمتع بالإمكانيات الزراعية الوفيرة ويزرع فيها التبغ ويوجد فيها حصن مهيب خماسي الشكلِ يضمُّ ثلاث حاميات، كما أن الأسوار التي تحيط به يبلغ علوها عشرين قدمًا مليئةً بالثقوب نتيجة القصف الذي وقع سنة ١٨٠٦م، ففي ذلك العام أنزل السير ليونيل سميث قائد الحملة جزءًا من قواته في هذه البلدة لإخلاء القلعة وإعادتها إلى السلطان.

وسكان شناص يمتهنون صيد الأسماك والزراعة، ولا توجد فيها أيّة صناعات غير أن التجارة مزدهرة، وفيها ما لا يقل عن سبعة تجار من الهنود وثلاثة من طائفة الخوجا.

ومن شناص يمتد الساحل حتى صحار، وهي مسافة ثلاثة وثلاثين ميلًا، وهذه المساحة تشغلها تسعة قرى كبيرة، ونحو اثنتى عشر قرية صغيرة منها قريتان هما أسرار وحصفان اللتين زارهما الرحالة ابن المجاور ثم بنا ولوى، وبقرب هاتين القريتين توجد بلدة صغيرة تسمّى فيض، ثم غضفان ومجيس اللتين تتبعان قبائل

الغوافل ووهيبه والحمريين، ثم عمق النسيقة وجعلان وسكان هذه القرى هم خليط من القبائل الفرعية، غير أن الأكثرية من السكان هم من المستوطنين الفُرس والبلوش وبالقرب من صحار يقع وادي ماوه وفيه قرية بنفس الاسم.

وصحار البلدة الرئيسية على ساحل الباطنة تقع على بعد ١٥٠ ميلًا من مسقط، وكان اسمها في السابق عُمَان، وكانت عاصمة للبلاد كلها. وفي الأيّام الأولى للإسلام كانت سفن الصين تزور صحار، ويقول الأصطخري الذي كتب في القرن العاشر من عصرنا "العاصمة هي صحار، وتطل على البحر ويقيم فيها كثير من تجار البحر الذين يتبادلون التجارة مع الأقطار الأخرى، وهي أغنى مدينة في عُمَان وأكثرها سكانًا، ويكاد يستحيل أن نرى على ساحل الخليج بل وفي أقطار الإسلام مدينة تفوق صحار في الثروة وفي الفن المعماري الجميل، وفي السلع الأجنبية التي تملتئ بها أسواقها"، فهي تشكل واحدة من الإقطاعيات العديدة لأبناء الإمام أحمد ابن سعيد الذي كان آخرهم السيّد تركي الذي كان يحكم البلاد أثناء زيارة الرحالة بلجريف سنة ١٨٦١م، ويحيط بالمدينة سور ليست فيه استحكامات، وقطره نحو ميل واحد، وكان البرتغاليون هم الذين أنشأوه، وبقى تحت احتلالهم فترة قرن واحد. وإن المقاومة العنيفة لهذه المدينة بقيادة الإمام أحمد بن سعيد سنة ١٧٤٣م ضدَّ جيش نادر شاه الذي غزا البلاد أدى إلى فشل ذلك الغزو وأرغم القوات الفارسية على الانسحاب والجلاء عن البلاد.

وتوجد في صحار قلعة جميلة يقيم فيها الإمام ويمارس مهامه وهي عبارة عن مبنى مربع عال، له مدخل حصين وفيه عدد من المدافع. وصادرات صحار هي البلح والسمك المملح، غير أن صحار قد تدهورت كثيرًا خلال السنوات الأخيرة. وسكان صحار خليط ويبلغ تعدادهم ٥٠٠٠ نسمة؛ ولكن التجارة في انخفاض مستمر بعد أن تحولت إلى الموانئ المنافسة لها. وتكاد صحار الآن أن تصبح في مستوى موانئ الباطنة الأخرى، وعلى بعد بضعة أميال من صحار تقع العوهي وهي بقعة خصبة كثيفة الأشجار وكانت المنتجع المفضل للأئمة اليعاربة.

وعلى بعد أربعة أميال من صحار على الساحل تقع الصويحرة التي تقع بموازاتها بخمسة عشر ميلًا نحو التلال حورة برغا، وهي قرية هرمية وحيدة ترتفع ١٥٥٠ قدمًا، وتُسمّى قمة صحار، وهي تشكل علامة بارزة للمكان، وبالقرب من هذه

الذروة، وليس بعيدًا جدًّا عن المقابيل توجد آثار لمدينة قديمة تسمّى العبيلة، ومن هذا المكان يقوم الأهالي باستخراج أحجار البناء.

والمدينة الثانية على هذا الساحل هي صحم، وتبعد سبعة عشر ميلًا عن صحار، وفي المنطقة الفاصلة بين البلدتين توجد ست قرى أخرى بما فيها الصوارة، اثنتان منها هما الخشدة وسور الشيادي، ويحيط ببلدة صحم حزام كثيف من مزارع النخيل والأشجار ويسكنها ألفًا نسمة من قبائل بني علي وماجد وبني شموس، ويقيم فيها سبعة من التجار الهنود ويزاولون تجارة واسعة مع إقليم الظاهرة عن طريق وادي العين وبطحاء صحم، والبلدة الرئيسية في هذا الوادي هي حيبي التي كانت سابقًا خاضعة لينقل، ثم قام السيّد عزان بن قيس ففصلها سنة ١٨٧٠م وأصبحت تابعة لصحار، أما الحرف الصناعية في صحم فهي الصيد وتمليح الأسماك وحياكة الأقمشة وصناعة الخزف. وإلى الشرق من السوق توجد آثار القلعة التي أمر بهدمها السيّد ثويني سنة ١٨٦١م.

وفي طريقنا إلى الخابورة التي تبعد ثمانية عشر ميلًا نَمرُّ على أربعة قرى كبرى وسبعة قرى صغيرة والقرية الأولى بعد مغادرتنا صحم هي الرويسة وتتبع قبيلتي الحماديين والزغابيين، ثم قرية مخيليف وتتبع الحماديين والكرارة، بينما أمُّ الجعاريف تتبع آل بو قرين، وديل تتبع أولاد عبدالسلام، وتقع الخابورة عند مصب وادي الحواسنة، ويوجد بها حصن، كما أن الكميات التموينية متوافرة بما فيه الكفاية. والتجارة في أيدي خمسة وعشرين تاجرًا من طائفة الخوجا، ويتمتعون بالرخاء واليسر. وعدد السكان ٦٠٠٠ نسمة ويعملون في النسيج والأسلاك والحبال وبناء السفن.

ومن وادي الحواسنة تقع الطريق المباشرة والمفتوحة إلى الشحيرة وقد تميزت الخابورة بتركيزها للقسم الأكبر من التبادل التجاري فيما بين الإقليمين. والبلدة الرئيسية في هذا الوادي ومقر الشيخ هي غرريم، غير أن الجزء الأعلى من الوادي يتبع بني عمر، بينما تمتد سلطة شيخ الحواسنة على طول الساحل من القصبية إلى الحجيرة.

وعلى امتداد الساحل عن الخابورة إلى السويق وهي البلدة الثانية من حيث التحصينات، وتبعد عن الخابورة بنحو عشرين ميلًا توجد اثنتا عشرة قرية صغيرة وكبيرة تستوطنها عدد من القبائل الصغيرة. والقرية الأولى هي إباصه، وتخص قبيلة قطيف، والثانية هي الحجيرة، ثم الخويرات، وكذلك تتبع قبيلة قطيف. ثم تأتي الغليل

والحجيرة، ثم الخضراء وهي أكبرها جميعًا، وتتبع آل سعد وآل بو راشد، وبالقرب من السويق مباشرة يقع خور ولاد غويف.

وتعتبر السويق بعد كل من صحار وبركاء الحامية الرئيسية على ساحل الباطنة، وتطل على ساحل البحر، حيث ترتفع بارزة وتضمُّ ثلاثة قلاع مزودة بعدد كاف من المدافع، وفيها سوق جميل وتحيط به الأسوار، وفيها ثلاثة تجار هنود يتحكمونَ في تجارتها، وهي تنتج القطن والمنسوجات ونوع خاص من القماش القطني يُسمّى خضرنج، ويتم انتاجه فيها على نطاق واسع، وعدد سكانها أربعة آلاف من قبائل الصوالح والفضول وغيرها من القبائل الفرعية. والزراعة في السويق وفيرة، وتتألف من البلح والموز والليمون والمانجو والبرتقال والبابايا وغيرها من الفواكه، بالإضافة إلى الذرة والسكر والقطن والنيلة.

والوديان على قمم الجبال تساهم في توفير مياه الري من خلال الجداول التي تتفرع منها، بالإضافة إلى وجود واديين كبيرين هما وادي بني غافر والوادي الكبير. وكانت السويق سابقًا ولاية للسيد هلال بن محمد الذي اغتاله السيّد عزان ففي سنة ١٨٧٤م قام إبراهيم بن قيس بفرض حصار على السويق بعد أن زحف عليها من الرستاق غير أنَّه سرعان ما أرغم على فكِّ الحصار والانسحاب، ولعله من الممتع أن نلاحظ أن السويق ترتبط بقصة السندباد البحري الغربية.

بعد أن نقطع ثلاثة عشر ميلًا من السويق نصل إلى المصنعة وعلى امتداد الرقعة الفاصلة تقوم القرى في صفوف متراصة منها الربيعة وصور وودام والشرس وست قرى أخرى على هذا النمط، وإلى الداخل وعلى بعد خمسة أميال من الشرس تقع قريتا الملدة والثرمد وهما متقابلتان ويفصل بينهما وادي بني غافر ومجموع السكان قد يصل إلى ٧٠٠٠ نسمة وتشكل هذه المنطقة أكبر المناطق السكنية في الباطنة، وتزخر بمزارع النخيل وغيرها من النباتات، وكذلك الحرف الصناعية، وفيها تجارة مزدهرة، ويقيم فيها أربعة تجار هنود وعدد آخَر من الخوجا، غير أن الماء شديد الملوحة مما يجبر أهالي القرية على إحضار الماء من وادي الحرادي وهو أحد فروع وادي حمام الذي يبعد نحو ميل واحد، وقلعة المصنعة قديمة ومبنية بطريقة جديدة بعد أن قام الأئمة اليعاربة بتجديدها. وتضمُّ نحو ستين قطعة من المعدات الحربية ومدافع عيار ١٢ و٢٤ بعضها على قوائم وبعضها بغير قوائم، وعدد السكان ١٥٠٠٠

نسمة من قبيلة الموالك وغيرها، مع خليط من البلوش الذين يعمل عدد كبير منهم في صناعة صيد الأسماك الموجودة بكثرة، بحيث يزيد العرض على الطلب. وعلى بعد بضعة أميال إلى الداخل تقع بلدة النُعمان، وهي بيت ريفي قديم يقيم فيه الإمام، وحيث اغتيل في سنة ١٨٠٧م السيّد بدر الذي اغتصب الحكم من أنجال السيّد سلطان الصغار.

وأمام الساحل وعلى بعد ٩ أميال من بركاء والسيب تقع مجموعة من الجزر وعددها سبع، ويطلق عليها جزر الديمانيات، وكلها جزر قاحلة لا ماء فيها وغير مأهولة، واثنتان منها لها اسمان مختلفان عن بقية الجزر، وهما جون والحزارابة. أما الصيادون فيسمّونها الجزر السبع. وقد اكتسبت اسم الديمانيات من اسم قبيلة بذلك الاسم، والتي لا يزال لها بقايا في عُمَان، وقد ظلَّ اسمها كما هو منذ عهد بليني.

وبعد بركاء نصل إلى الحرادي، وهو حصن صغير تابع لقبيلة الشيخ سعيد، وفي هذا المكان يوجد فرع لوادي حمام الذي تستمد بركاء ماءها منه وبعدها يأتي حي عاصم الذي يخص الزغابيين، ولهم حصن صغير أشار إليه ابن المجاور، وبالقرب من هذه القرية توجد بقايا الرميس التي تتبع الآن آل أحمد والمخاريف. وطبقًا لما ورد في القاموس فإن هذه البقايا تعادل مساحة بركاء أربعة أضعاف.

ثم بعد ذلك تأتي الشخلوخات التابعة للموالك. وبعد هذه نصل إلى المعبيلة وهي قرية تخص آل وهيبة، وبعدها سور ولاد حديد، وهي قرية مسورة بها قلعة واحدة تخص تلك القبيلة. وبعد وادي العرا يوجد واد شديد الانحدار مزروع بشجر الخروع، وهو منطقة ظليلة خضراء يأوي إليها النَّاس في القيظ، كما تقع بين هذا الوادي والسيب حلة ابن حية وهي قرية تسكنها قبيلة ابن حية، وفيها قلعة وبرج.

وعلى بعد سبعة عشر ميلًا من بركاء و٢٧ ميلًا من مسقط تقع بلدة السيب وهي كبيرة وغير مسورة ويقطنها ١٥٠٠ نسمة، وتتم زراعة مساحات كبيرة بالفواكه والحبوب بالقرب منها، وفيها ٦ تجار هنود، ويزاولون تجارة مربحة مع نخل وسمائل. ويتم تعيين الشيخ من مسقط ويلقب بالوالي؛ ولكنه من حيث السلطة يخضع لبركاء. وفي عام ١٨٧٥م بنى فيها برج وحامية صغيرة لحماية سوقها الذي كان يتعرض سابقًا لغارات البدو. وعلى بعد ميلين من السيب تقوم بقايا المقر الريفي للسيد ثويني بن سعيد، وقد زاره بلجريف بعد تحطيم سفينته عام ١٨٦١م، غير أن

الإمام عزان بن قيس أمر بتدمير القصر في سنة ١٨٨٩م؛ نظرًا لأن نفسيته لم تكن لتتحمل رؤية ذلك القصر الذي كان خصمه يقيم فيه. وتقع بقايا القصر في مكان مقفر موحش يُسمّى وادي القرش، ويحيط به سور من الطين، أما بلجريف فيُسمّيه بطحة فنجا، وفي السيب تكاد تنتهي حدود الباطنة والساحل شرقًا، ولبعد المسافة يتبع عُمَان الداخل أو الأم.

وبعد أن نغادر السيب فإننا لا يمكن أن نعثر على شيء ذي أهمية إلى أن نصل إلى قاع الوادي الرملي العريض، الذي هو وادي سمائل، والذي ليس له ما يميزه، وقاع الوادي ضحل وعار، وليس فيه سوى قطرات من الماء بوجه عام؛ نظرًا لامتصاص التربة له من ناحية وسحب كميات كبيرة منه لأغراض الري، وعلى أيّة حال ففي أوقات الفيضان كما حدث على سبيل المثال أثناء الإعصار العنيف في سنة ١٨٨٥م الذي سبب دمارًا هائلًا فإن مياه الوادي تتدفق إلى البحر. ويمتد وادي سمائل نحو مائة ميل وتقوم على ضفافه قلاع كثيرة، وتقطنه قبائل عديدة، ويعتبر الشريان الرئيسي للمواصلات من المناطق الساحلية إلى المنطقة الداخلية، كما أنّه أطول الوديان الدائمة في عُمَان. والقرية الأولى في هذا الوادي تسمّى خث، وتبعد عن البحر بنحو ميل ونصف ميل.

وبعد أن نجتاز قرية صغيرة تسمّى حلة ولاد يوسف نصل بطحة فنجا، أو وادي البحائص الذي يستمد سكان السيب مياه الشرب منه، وهذا المجرى بالإضافة إلى المجرى الذي سبق أن أشرنا إليه يشكلان دلتا وادي سمائل.

وبعد عبور قريتين تابعتين لقبيلتي الهواشل والمباسيل نأتي إلى خور الفراد، أو وادي اللوامي ثم إلى الخريس وهي قرية صغيرة تابعة للحبوس والقرية التي نصل إليها بعد تلك هي الحيل، وهي تخص العوامر وعنهم أخذت بلدة الحيل اسمها، وهنا ينحني الساحل على مدار الشمال.

بعد أن نجتاز خور بكرة وقرية المصباح نصل إلى الخليل، وهي قرية صغيرة للشواوي. ثم يأتي بعد ذلك خور العذيبة، وهو مثل الخور الأخير ينبع من سلسلة جبال الطائيين، أما الغبرة فهي القرية الأخيرة في غبة الجبل وتبعد عن جبل الطائيين نحو عشرين ميلًا (وترتفع ٥٢٥٠ قدمًا) عن سطح البحر.

وعلى بعد أربعة أميال من الغبرة تقع قريتا بوشر وغلا، حيث توجد المياه المعدنية

وهي مشهورة بهذا الماء الذي يستعمل كعلاج من بعض الأمراض، ويحج إليه النّاس من كل أرجاء البلاد. وهذه الينابيع كثيرة وهناك عدد منها للاستحمام وهي تحوي بعض عنصر سلفات المنجنيز وتتراوح حرارة المياه من ١٠٣ إلى ١١٤ فهرنهايت، وبعض أحواض هذه المياه تعج بالأسماك، وتُسمّى أسماك الصدْ، رغم أن لكل صنف منها اسمه الخاص.

وعلى بعد تسعة أميال شمالًا من الغبرة يقع الجزء البارز من رأس الحمراء، حيث ينحرف الساحل بحدة نحو الشرق، بينما يوجد بين الغبرة ورأس الأحمر خور القرم، وقريبًا منه تقع الوطيَّة. وهو مقر قديم للسلطان السيّد ثويني؛ ولكنه الآن في طور الإندثار، وفي هذا الخور تنتهي حدود الساحل الرملي، غير أن بعض الجهات تقدر امتداد حدود الباطنة إلى هذه النقطة وأمام رأس الأحمر وعلى بعد ميلين إلى البحر تقع جزيرة الفحل، وهي صخرة ارتفاعها ٢٥٠ قدمًا وشديدة الانحدار. وهي مكان لتوالد الصقور والطيور الجارحة.

وبعد أن نجتاز رأس المالح نصل إلى دارسيت، وهي قرية صغيرة داخل وادي دارسيت، الصغير الخصب، وهو امتداد لسيح الحرمل. وإن التركيب الجيولوجي لوادي دارسيت تركيب فريد، وفيه تضارب واضح بين التكوين البركاني على الجانب الشرقي والصخور الترسبية على جانبه الغربي والأحجار رملية في هذا المكان، ويعتبر محمرًا، ويتم نقل أحجاره إلى مسقط، لاستعماله في البناء. وبعد دارسيت تأتي عينت، ثم نصل إلى رأس شطيفي على زاوية خليج مطرح، ويبعد أربعة أميال عن رأس الأحمر، وحيث يوجد جون وقرية، ومن هنا يبدأ الساحل في الانحدار مرة أخرى في اتجاه الجنوب، حتى أربتى وهي الضاحية الغربية لمطرح.

إن مطرح محصنة تحصينًا قويًّا بسور قوي له مدخلان (باب الكبير) وباب المثاعيب، بالإضافة إلى أربع قلاع، وعلى الجانب الشرقي تحتل القلعة موقعًا بارزًا، وفي وسط المدينة حيٌّ مسور يسمى سور اللواتيا تقيم فيه جالية الخوجا، والذي لا يسمح لغير أفرادها بدخوله. والمدينة تحيط بها سلسلة من الصخور العالية تمتد نحو ميل واحد، وتضمُّ منازل جميلة، أما السوق فأكبر من سوق مسقط، ويكتظ بالمعروضات والسلع.

أما سكان مطرح فهم خليط، يعيشون داخل المنطقة المسورة تفاديًا للغارات التي

تقوم بها القبائل المعادية في الداخل، وتمنع الأهالي من الإقامة خارج المدينة. والميناء واسع، ويضمُّ مراسي جيدة للمراكب الشراعية، والممر الوحيد بين مطرح ومسقط هو واد صخري لا يمكن أن تسير عليه الحيوانات. أما المواصلات التي تقوم بنقل المواطنين من منطقة إلى أخرى على الساحل. فإنَّها تمر في طريقها من وإلى مسقط على القرى الساحلية، وهي مطرح وريام وكلبوه.

إن الخروج من مسقط عن طريق البرِّ يكاد يكون مستحيلًا، ومطرح التي تبعد عن مسقط نصف ميل بَرًّا وميلًا ونصف الميل بحرًا تحتل مكانها كنقطة إنطلاق ومحطة للقوافل والمسافرين من وإلى داخلية عُمَان، وحركة المرور عبر هذا الطريق نشطة جدًّا، أما مسقط فتقع في طرف الجون أسفل سلسلة شامخة من القمم الجبلية بعضها تقوم عليه أبراج، وهي بموقعها هذا بين قلعتين عاليتين بارزتين تمثل مشهدًا جميلًا ومهيبًا. أما الميناء أو الجون فهو بمثابة جزيرة صخرية عارية وانحدارية يبلغ ارتفاعها ٣٥٠ قدمًا وطولها ثلاثة أميال ونصف ويقع خارجها، وهذه الجزيرة يفصلها عن المدينة قناة ضحلة ضيقة ومدخلها من الجهة الشمالية، حيث تحميها قلعة على كل من الجانبين، وتُسمّى التي على الجزيرة الصغيرة الشرقية والأخرى الغربية، ولا يمكن للسفن القادمة إلى مسقط أن تشاهد الميناء حتى تدخل؛ لأنَّ الجزيرة تحجبه عن الأنظار، وبعد الدخول يبرز مشهد المدينة والسفن وقد أطلق عليه الإغريق القدماء اسم (الميناء المخفي) وهو اسم ينطبق عليه. وعلى الرغم من أن هذه الجزيرة تشكل حاجزًا فعالًا ضدَّ الأمواج من الشرق والغرب إلا أنَّها تترك الميناء تحت رحمة الرياح الشمالية الغربية؛ ولهذا فعندما تهب العواصف على المدخل في فصل الشتاء فإنه يتعرض لأمواج شديدة تستمر يومين أو ثلاثة.

وعلى الجانب الغربي من الميناء يوجد خليج صغير يُسمّى خور مكلا، وهو محمي من الرياح على اختلاف اتجاهاتها، وتستخدمه السفن الشراعية التي تلجأ إليه. وخلال القرن السادس عشر كان هذا الجوف يسمى (مكلا شيني) أي الخليج الصيني. وقد ورد تحت هذا الاسم في مذكرات باروس، وكوتا، ولعله المكان الذي كانت ترسو فيه السفن الصينية.

وإن أهم ما يلحظه الداخلون إلى مسقط هو القلعتان البارزتان اللتان تحرسان البلدة. الأولى هي القلعة الشرقية، وقد شيَّدها البرتغاليون عام ١٥٨٩م وأسمّوها سان جوا،

أو سانت جون، ويسمّيها العرب الآن قلعة الجلالي، وتتألف من برجين عاليين يربط بينهما سور، ولا يمكن الوصول إليها؛ نظرًا لأنهما قد أقيمتا على صخرتين منعزلتين ويتم الوصول إليهما عن طريق سلم صخري. وقد سمّى البرتغاليون القلعة الغربية قلعة كابيتان وتعرف بين عرب البلاد بقلعة الميراني، وقد أطلق هذا الاسم تيمنًا باسم قائد البلوش وبنيت في سنة ١٥٨٨م، كما تدل الكتابة التي على المدخل، وهذه القلعة كبيرة وغير منظمة، وقد تم تصميمها بقدر كبير من المهارة والاجتهاد. وفي الجزء الأعلى من القلعة كنيسة مستديرة بنقوش للعذراء، وفيها كوب للماء المقدس خارج الكنيسة؛ ولهذا فقد سمّيت من جانب العرب بقلعة الطاسة إشارة إلى ذلك الكوب، وبعض المدافع الحديدية الموجودة في القلعة صدئة ومثقبة، وقد تنفجر لو أطلقت، غير أن هذا العيب في نظر العرب لا يقلل من أهميتها. وعلى أحد المدافع الملقى به على أرضية القلعة شعار ولقب، دون فيليب، بينما يحمل المدفع الآخَر اسم دون جوان دي كنها ومؤرخ عام ١٦٠٦م.

وتتألف استحكامات المدينة من سور وخندق عريض شيدهما البرتغاليون، والبرج الواقع على الجهة الشرقية يُسمّى بومة صالح، والسور له بابان أو مدخلان، أحدهما كبير والآخَر صغير، والثاني ملاصق للسوق الملئ بالمؤن والسلع. والمدينة مكتظة بالمباني والدور الجميلة، غير أن طرقها ضيقة وقصيرة وغير منظمة ومقسمة إلى عشرين حارة وحي. وأمام المدينة على الساحل يقع قصر الحاكم ومبنى الجمارك وقد بنيت الجمارك سنة ١٦٢٤م طبقًا للتاريخ الموجود على بوابة المبنى، أي بعد طرد البرتغاليين مباشرة من هرمز ونقل مركز تجارتهم إلى مسقط. وقد مضى نحو نصف قرن على إنشاء قصر السلطان، وقد تم وضع أساس مبناه داخل حائط بحري يُسمّى سكة المدفع، وكان قد أقامه البرتغاليون، وهو يمتد على طول الواجهة ومسلح بستين مدفعًا من الحجم الكبير. وفي منطقة قريبة من قصر السلطان تقع الجزيرة القديمة أو الكاتدرائية التي شيّدها البرتغاليون سنة ١٦٣٠م، وهو مبنى منفصل من ثلاثة طوابق يضمُّ الكنيسة والثكنات والمستودعات الخ. وفي أعقاب تحرير العرب لمدينة مسقط سنة ١٦٥٠م تحول المبنى إلى مقر لأئمة عُمَان على مدى سنوات إلى أن تم إنشاء القصر الجديد، وهناك جناح للحريم ملاصق للقصر وله شرفه خشبية عريضة تطل على الميناء وقد بُني لإقامة سيدات البيت الحاكم في عهد السلطان السيّد سعيد.

إن تعداد سكان مسقط قد يصل إلى ٣٠ ألفًا أو ٤٠ ألفًا غير أن نسبة قليلة من هذا العدد هي التي تسكن داخل المدينة نفسها، أما الأغلبية فتسكن الضواحي خارج السور في منازل من الأكواخ الضيقة.

وإذا خرجنا من المدينة بطريق الباب الصغير فإننا نصل إلى ضاحية تسمّى سداب، حيث يوجد جون صغير مقفول تقريبًا. ويمر الطريق خلال ممر منخفض تحمية قلعة ومدخل، حيث يبدو المنظر من هنا مثيرًا. أما الطريق من الباب الكبير فإنَّها تؤدي إلى سبعة طرق فرعية، إحداها إلى كلبوه، وأخرى إلى ريام، والثالثة عميقة ووعرة إلى مطرح، وهناك طريق رابعة تؤدي عن الطويان إلى الوادي الكبير الذي يعلوه ممر يمكن من خلاله النزول إلى ساحل الحرمل وقرية روي. وأثناء الحصار الذي تعرضت له مسقط عام ١٨٧٧م وقع حادث لجراتان جيري نترك له أن يرويه لنا في مؤلفه (رحلة عبر تركيا الآسيوية).

"لم يمض وقت طويل منذ أن قامت السفينة المسلحة تيزر التابعة لصاحبة الجلالة، وكانت ترسو في ميناء مسقط بتوجيه النيران من فوق المدينة على حشد من البدو كانوا قد تجمعوا وراء سلسلة الجبال جنوبًا بأمل الدخول إلى مسقط واحتلالها، غير أن القذائف تركت أثرًا معنويًّا بين أولئك؛ لأنَّهم لم يروا مثلها من قبل، واعتقدوا بأن القذائف لها عيون، وترى أين تسقط، وإلا فكيف يمكن للقذائف أن تسقط فوقهم مباشرة، خصوصًا وأن السفينة بعيدة عن مرآهم؛ لأن الجبال تفصل بينها وبينهم. والواقع أن القصف كان يوجه بواسطة إشارات تصدر من أحد الحصون البرتغالية الواقعة على أحد التلال، ولقد سقطت قذيفة في إحدى الساحات؛ ولكنها لم تنفجر وقد التف حولها على الفور جمع من البدو والمذعورين، وقرروا خلع فتيل النحاس الذي يتحكم في تفجيرها، فخبطوا فوق العين بأطراف نصالهم فانفجرت القذيفة ولقى ١١ بدويًّا مصرعهم على الفور، ثم انسحب الباقون".

وفي مسقط بل وفي جميع الموانئ التجارية الكبرى على ساحل الباطنة يوجد عدد صغير من رجال التجارة الهندوس الذين نزحوا من ولاية كيتش من الهند، واستقروا هناك. إن هؤلاء الهنود الدهاة المغامرين يتحكمون في المعاملات التجارية بحكم خبرتهم وتفوقهم، وهم لا يجمعون ثروات طائلة فحسب، وإنما يقدمون خدمات لا غنى عنها في عمليات السمسرة والإقراض والأعمال المصرفية لكافة

الطبقات من سكان البلاد. ويتركز نشاطهم في استيراد السلع البريطانية والأمريكية والهندية كالمنسوجات والأرز والأدوات المعدنية وغيرها مما تتطلبه حياة العرب.

ولفظة مسقط تعني الرسو، وإذا ترجمت حرفيًا فهي تعني موقع سقوط المرساة، ولا مجال للشك في أن التسمية هذه تعود إلى عصور قديمة جدًا. وبالنظر إلى موقعها المحكم والمناسب كمنطقة حرة على طريق الملاحة التجارية للمحيط الهندي فيما بين الشرق والغرب فهي تنفرد بمميزات تجارية وأستراتيجية. كذلك فإن مرفأها الآمن واتصاله بالبرِّ وإمكانياتها الطبيعية تجعلها موقعًا ذا أهمية وقيمة بالغتين، لا كمفتاح للخليج فحسب، بل وكمركز تجاري للخليج والهند وأفريقيا الشرقية والعراق. وفي الأيام الذهبية لمملكة بابل كانت مسقط أو بالأحرى عُمَان تحتكر وتتحكم في التجارة البحرية بين الهند والعراق، وإنَّ إريان رغم جهله بمركزها الحقيقي يشير إلى أنَّها كانت قاعدة دولية للتجارة في تلك الحقبة، بينما ارتفعت عُمَان في عهد اليعاربة إلى ذروة مجدها ومركزها في الشرق؛ لأنَّها كانت في يد دولة قوية.

والصخور البركانية التي تحيط بمدينة مسقط، ربما تغطي مساحة تقدر بنحو ثلاثين ميلًا مربعًا بدءًا من دارسيت في الغرب حتى رأس الجصة في الشرق، حيث تلتقي هنا بتشكيلات الصخور الجيرية التي تسود البلاد عمومًا. ويقدم لنا الدكتور أ. ح. جي كارتر شرحًا مسهبًا وممتعًا عن هذه التشكيلات فيقول: "بأن هذه المجموعة تتكون من صخور خضراء أفعوانية الشكل، ومن حجر البازلت، وبالتالي فضمن هذه التكوينات الثلاثة نتعرف على كافة أنواع الكتل البركانية المنتشرة في المنطقة الجنوبية الشرقية من شبه الجزيرة"، والنوع الغالب والأبرز في هذه الصخور هو النوع الأسود الهادئ المتعرج الشبيه (برأس ليزارد) في منطقة كورنوول إلا أنَّ المجموعة تضمُّ كذلك الديورايت، وسلكيات الألومنيوم، والكوارتز، والأمفبيول والحجر الصابوني، وعلى المنطقة الساحلية من مسقط ومطرح يظهر خليط متعاصر من الكائنات المائية كالمرجان والمحار وغيرها. وخارج المنطقة البركانية يوجد حجر رملي لونه كلون صدأ الحديد، إلى جانب أنواع جيرية صفراء اللون من الرمال الحجرية والصخور، وعلاوة على المعلومات القيمة عن جيولوجية مسقط التي أعدها الدكتور كارتر الذي سبق أن أشرنا إليه لدينا ملاحظات الكابتن نيوبولت والمستر ديلبوتي بلانفورد حول هذا الموضوع.

وبعد أن نعبر على التوالي السواحل الرملية وقرى الصيادين الصغيرة، كحرامل والروضة والبستان وقنتب، التابعة لقبيلتي بني وهيب وبني حسن نصل إلى الجصة، وهي قرية في حضن وادي علي بعد ستة أميال من مسقط مع جون صغيرة تحميه جزيرة، ونظرًا لصعوبة الوصول إليها من الداخل ولكونها مرفأ فقد استولى عليها القواسم في عهد تفوقهم البحري في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، واتخذوها قاعدة لعملياتهم وفي الجصة فإن الصخور البركانية تحدها وتلفها صخور جيرية ويلاحظ كارتر:

"إن هذه التشكيلة من الصخور الجيرية تتواصل حتى مسافة ثلاثين ميلًا بشكل منكسر، ترتفع بجروفها الواحد تلو الآخر"، بعد هذا الحدّ تفقد السلسلة تكسراتها، وتتحول إلى تلال مستديرة متقطعة، حيث تنتهي عند الجرف الداخلي العظيم القريب من البحر؛ لتشكل البعد الرابع لفجوة الشيطان أو رأس إبليس.

وبعد الجصة تأتي قرية يَتِّي، وهي قرية الصيد الصغيرة الواقعة عند فمِّ وادي الميح، الذي هو امتداد لوادي حطاط، وهو واد وفير المياه والزراعة، ويشكل أحد الأسواق الزراعية لمسقط، ويبلغ عدد السكان في هذا الوادي ألف نسمة يحتلون أربعة قرى، هي المزارع العلاية والمزارع السفالة (وتخص قبيلة المعاشرة) وزرعه ويَتِّي وتخصان بني وهيب، وتقع المساكن على ضفة الوادي، وهو واد مستمر وأغلب المزارع هنا معلقة كما يوجد فيها نبات الدفلى بكثرة.

أما حطاط فهي سهل صغير تحيط به التلال، وله نحو ثلاثة أو أربعة أسماء، والقبائل التي تسكنه هي بني بطاش، وبني وهيب وبني جابر وبني حسن والمعاشرة، وصخور هذا السهل غريبة جدًا، وبألوان وأشكال عديدة، وآثار البراكين أو النيران لا تزال ظاهرة، كما أن طبقات أرضيته معقدة وملتوية، وتستلقي داخل أقواس من قطع الأحجار الجيرية، مما يشير إلى أنَّها في فترة ما من التاريخ كانت منطقة بركانية مشتعلة.

وعلى الضفة اليمنى من وادي الميح، وعلى بعد ميل واحد من يَتِّي توجد آثار حصن صغير، ومن هذه النقطة، وحتى أبو داود يمتد الساحل بغير انتظام مع وجود كهوف منخفضة تارة وسواحل رملية تارة أخرى.

وعلى بعد ٧ أميال من يَتِّي يأتي بندر الخيران، وهو جون بحري من جزيرتين

صغيرتين يستخدم أحيانًا كملجأ للسفن في الأحوال العاصفة، كما يأوي إليه الصيادون من مدينة مسقط غير أنَّه لا يوجد فيه سكنى دائمة؛ لملوحة مائه، ويوجد في أعماق بعيدة من التربة. ويمكن مشاهدة بقايا حصن قديم بالقرب من الشاطئ، وبنو وهيب يدعون بملكيتهم له؛ بسبب وجودهم على المنطقة الساحلية الممتدة من يَتِّي وأبو داود، وفي عام ١٨٧٢م ألقت السلطات المحلية القبض على سفينة كبيرة لجأت إلى هذه البقعة، وعليها شحنة كبيرة من الرقيق واقتيدت إلى مسقط لتقديم أصحابها للقضاء.

ويأتي بعد الخيران جون صغير عمقه نصف ميل تشكل بفعل شبه جزيرة، تعرف باسم قزيا قيجان، ثم بعد ذلك ثلاثة خيران صغيرة، الوسطى منها تسمّى خيشة الشيخ، ثم بعدها خور كبير يُسمّى غبة السيفة فيه قرية بنفس الاسم، وبرج وأشجار النخيل العادية، وفي نفس الخور يوجد مصب وادي السرايا.

وبعد أن نجتاز ظهر البيدر نصل إلى رأس داود على بعد ١٢ ميلًا من السيفة ورأس أبو داود هو أكثر الرؤوس الجبلية بروزًا في المنطقة الواقعة بين رأس مسندم ورأس الحد، وهو ينتصب بارتفاع ٤٠٠٠ قدم، والجرف يبدأ بعد مسافة قدرها أربعة أميال شمال شرق أبو داود، وفواصل على هذا المنوال إلى أن نصل إلى نقطة قرية من قريات. وبعد عبور وادي مجلاص الذي يرتفع داخل التلال فوق السواقم، ويشكل جونًا صغيرًا نصل إلى قريات الكبيرة وهي بلدة قديمة فيها حصن صغير، ولعل الفضل في أهميته ورفاهيته القديمة يعود إلى قربه من وادي ضيقة، ثم الحركة التجارية مع المنطقة الداخلية، ورغم أنَّه مجرد من أيّة وسيلة للجوء السفن إليه إلا أنَّ فيه عددًا من السفن الملاحية الكبيرة من طراز (البغلة)، كما أنَّه يتاجر مع الهند مباشرة. ويصل عدد سكان الإقليم كله إلى نحو ٣٠٠٠ إلى ٤ آلاف نسمة من قبائل بني سنان وبني بطاش وغيرها من القبائل، وفي الإقليم مزارع نخيل كثيرة ومزارع للمانجو، وفي العصور القديمة كان السهل الواقع أعلى قريات مزرعة لتربية الخيول التي كما يذكر المؤرخ ماركو بولو، كانت تصدر من قلهات إلى الهند بأعداد كبيرة، غير أن هذه التجارة قد توقفت على ما يبدو في القرن السادس عشر خلال الاحتلال البرتغالي لعُمَان. إن الكتلة الضخمة من الجبال الواقعة على الناحية الشمالية من وادي يثقب أو هوة الشيطان، يُسمّى جبل نحل أو جبل السنارى وتنتهي السلسلة عند قمة يصل

ارتفاعها ٦٤٠٠ قدم، وتبعد ١٨ ميلًا عن شاطئ البحر، وعند هذه القمة كما يقول الرحالة الشاب الحصيف ابن المجاور تستقر مرساة سفينة نوح.

وعلى بعد سبعة أميال من قريات الكبيرة تقع قريات الصغيرة التي ترقد على المنطقة الجنوبية، ثم بعد ستة أميال تقع مستوطنة الحيل، وإلى جانبها يسيل أحد الوديان الذي يحمل نفس الاسم. أي وادي الحيل. وقد شيَّد هذه البلدة السيّد خلفان والي مسقط عند زيارة فرانكلين لها سنة ١٧٨٧م.

نحن الآن عند الوادي الهائل الذي يسميه العرب وادي ضيقة أو حيل الغاف، ويعرف عند الأوروبيين بهوة الشيطان، وهو مجرى يمر من خلال الجبال قادمًا من وادي الطائيين والجرف الواقع على الجانب الشمالي يُسمّى نوى، بينما يسمى الجرف الواقع على الجنوب بغاف.

والمكان الأول على الساحل بعد قريات هو رأس لويز، ثم بعد ذلك نصل إلى حاجر بني بطاش، بينما يستوطن قرية ضباب التي تلي الحاجر بنو جابر. أما سكان قرية الغضانه وهي القبيلة التي تستوطن دغمر والسيفة أيضًا، فيسكنها فرع من قبيلة بني جابر؛ ولكن بما أن أفراد هذه القبيلة أنفسهم عاجزين عن حمايتهم فقد اتحدوا مع بني بطاش.

وإلى الجنوب من وادي هوة الشيطان تقع الكتلة الجبلية التي تُسمّى جبل جابر، ويستمد الجبل اسمه من اسم القبيلة التي تقيم فيه، وهي قبيلة بني جابر من سلالة ذبيان، وفيما يلي ما كتبه الدكتور كارتر في وصف هذه السلسلة:

"هنا تنقطع السلسلة، فلا يوجد جرف لمسافة بضعة أميال لحدِّ بدء القمة التي تشكل الجهة العكسية أو الحدِّ الجنوبي لفتحة الوادي، وهذه القمة التي يبلغ ارتفاعها ٤٤٠٠ قدم، ولا تبعد عن البحر بأكثر من ٨ أميال تمثل كما نتصور، مسطحًا كبيرًا في هذا الاتجاه.

ومن قمة الجبل، أي جبل جابر، تأخذ الأرض في الانحدار نحو البحر على شكل جرفين هائلين، وهكذا تشق الطريق كلها حتى بلدة صور".

وعلى بعد ثمانية وثلاثين ميلًا من قريات يقع رأس شجر، وهو رقعة منخفضة إلا أنَّه أهم الرؤوس فيما بين مسقط ورأس الحد. والوادي هنا يُسمّى سيل الأسود،

ويوجد واد آخَر قريب منه يُسمّى وادي الغويصة يقع مباشرة أمام الخور الضحل الذي تحطمت عليه السفينة الشراعية ماريون مور عام ١٨٧٩م.

وعند أقصى الرأس تقع قرية لبني جابر تسمّى اللقوط، كما يقع فيما بين رأس شجر وغيل شاب قرية وبرج ونحو عشرة مراكب، وخور ترسو فيه سفن الصيد في أمان.

ومن هذه البقعة من الساحل يمكن مشاهدة قمة سلسلة جبل جابر العالية بوضوح تام. أما قرية شاب فتقع على الضفة اليمنى لخور خلفي وطوله ميل ونصف، ويؤدي إلى شعب صخري انحداري يشكل ممرًّا يؤدي إلى الداخلية. وعلى بعد ثلاثة أميال إلى الجهة العليا يصب الوادي في سلسلة من الشلالات الصغيرة، وهناك العديد من القرى التي تضمُّ حدائق معلقة، والمنظر هنا جميل ورومانتيكي. وتدفق الماء من الجبال دائم وغزير، غير أن الخليج متواز وفيه حاجز رملي عند فتحته، حيث تتسرب مياه البحر إليه في فترة المد. ولفظة شاب تعني مجرى ماء من الصخور، والبحيرة التي تتكون من هذا الوادي عالية وعمودية.

وعلى بعد ميلين من شاب تقع طيوي على مدخل واد عميق بجوانب عميقة تمتد إلى عدة أميال والجزء الأعلى يُسمّى وادي بير، الذي يقال أَنَّه وفير المياه وفيه سكان كثيرون ويضمُّ تسعة قرى هي طيوي، الحصن، وحلة بني عيسى، وحلة بدة، والعقر، وسيما، وسوي، وميبام، وعمق البير.

وطيوي بلدة فيها خليج جميل وبحيرة عذبة المياه وإلى جانبها تقع مزارع النخيل والحدائق وفي منطقة غير بعيدة من الساحل توجد مقبرة ترك كرمان الذين غزوا البلاد، وسقط كثيرون منهم صرعى في معركة درات بالقرب من هذا المكان. كما أنَّها الميناء الرئيسي لبني جابر وتمارس تجارة واسعة وسكانها يملكون ١٤ مركبًا أو زورقًا ساحليًّا. ويعتقد كثير من شيوخ المنطقة أن طيوي تشكل الحدود بين عُمَان وإقليم الشرقية غير أن الحدود المتفق عليها تقع عند فجوة الشيطان كما سبق أن أشرنا.

وإلى الجنوب من وادي طيوي ويفصله عنه جرف ضيق يقع وادي فق الذي يبدو وكأنَّه فجوة أو شق ورغم أنَّه أقصر من خور طيوي إلا أنَّ المياه فيه متوفرة أكثر. وبالقرب من طيوي توجد آثار بلدة قديمة تسمّى جريف لم يبق من معالمها غير برج واحد لا يزال قائمًا. وبعد أربعة أميال من هذا المكان نأتي إلى وادي سيوي وهو واد

صغير يقع عند مفترقات الساحل، حيث التلال تتكون من طبقات جيرية صفراء فاتحة؛ ولكنها صافية، ويتم تصدير هذه الأحجار إلى بومباي لتحول هناك إلى كلس. وتوجد في هذا الوادي قريتان هما حريم وشاب وزعيم القرية الثانية يسيطر على الساحل حتى ضباب.

بعد عبورنا لغبة الحيدي ورأس بو مغيره نصل بعد مسيرة ثمانية أميال عند مدينة قلهات الأثرية الواقعة بين خليجين صغيرين عند فتحة في سلسلة جبلية ترتفع مباشرة من البحر. وهذه المدينة المشهورة هي الآن مدينة مهجورة مقفرة، وكانت في فترة من التاريخ أهم ميناء بحري في عُمَان والسوق التجاري الرئيسي، ولقد زارها ماركو بولو في القرن الثالث عشر ويقدم المعلومات التالية عن حالتها وتجارتها في ذلك الوقت:

"كلاتو (قلهات) بلدة عظيمة داخل خليج يحمل اسمها. أنَّها مدينة فخمة، وتقع على بعد ٦٠٠ ميل من ظَفَار إلى الشمال الغربي على البحر. وسكانها عرب مسلمون وتابعون لهرمز. وإذا اشتبك ملك هرمز في حرب ضدَّ أي أمير أقوى منه فإنه يهرع إلى مدينة كلاتو هذه؛ لأنَّها مدينة قوية التحصين سواء من حيث موقعها أو من حيث استحكاماتها وتحصيناتها. وكلاتو لا تزرع الذرة وإنما تجلبه من الخارج، وكل سفينة تجارية تأتي إليها تحضر كمية منه. والمرفأ كبير جدًّا وممتاز وترتاده عشرات السفن تحمل السلع من الهند، ومن هذه المدينة يجري توزيع التوابل وغيرها من السلع على المدن والمناطق الداخلية، كما أنَّها تصدر كثيرًا من الخيول العربية الأصيلة إلى الهند. وكما ذكرت لكم آنفًا أن عدد الخيول التي تصدر من هذه المدينة وغيرها من المدن إلى الهند سنويًّا يصل إلى أرقام مذهلة".

ويعود الدمار الذي أصاب قلهات، كما يذكر النّاس إلى وقوع زلازل قبل أربعمائة عام. ومنذ ذلك الوقت مضت قلهات في طريق التدهور التام بسرعة على الرغم من أن القائد البرتغالي البكويرك قد وجدها في سنة ١٥٠٧م وهي لا تزال تخضع لهرمز، وفيها والٍ من قبل حكومتها. وتقع الآثار على التعرجات الساحلية لسلسلة جبل قلهات، غيرَ أن هذه المدينة كانت في الأزمنة السابقة زاخرة؛ لأن كل بقعة فيها مُطعمة بأنقاض المنازل والمباني. ويمكن ملاحظة خطوط الاستحكامات التي كانت تحمي المدينة على الناحية الجنوبية بكل سهولة، حيث توجد ثلاث حاميات

تمتد إلى البحر حتى الأجزاء الانحدارية من التلال وراء المدينة، وتنتهي عندها بينما يوجد برجان على الناحية الشمالية للبلدة فوق أحد المرتفعات، ويُسمّى برج الشيخ وأسفل هذا التل توجد قرية قلهات التي يستوطنها الزغابيون، وهي قبيلة يبلغ عدد أفرادها ثلاثمائة نسمة، وهم الذين ورثوا كل أمجاد هذه المدينة التاريخية العريقة.

ويشقُّ البلدة مبتدئًا من التلال واد عميق يُسمّى وادي العسر، وله فتحة واسعة، وقبل وقوع الزلزال كان هذا الموقع يشكل الميناء الذي كانت السفن تدخله إلى مسافة نصف ميل؛ لكي ترسو جنب البلدة في أمان، غير أنَّه قد ردم الآن، بحيث لا يمكن لأصغر سفينة أن تدخله. وكان وادي العسر في ذلك العهد يمثل الطريق الطبيعي العام إلى الداخلية، غير أن هذا الوادي قد تعطل الآن لوجود جنادل من الصخور سقطت فيه من الجبال المحيطة به. وعلى بعد نصف ميل إلى الجهة العليا تقع بركة عميقة أسفل جرف عمودي، ثم على بعد ميل تقع سخرات، حيث يلتقي وادي العسر بوادي كبدى عند الضفة اليسرى للوادي، ومن هنا تنبع القناة التي كانت تزود المدينة العريقة بالمياه، كما أن الوعاء المربع الذي كان يستقبل مياه النبع لا يزال موجودًا حتى الآن.

وبعد قلهات تنحرف السلسلة الجبلية، كما يلاحظ كارتر، إلى جرفين أو ثلاثة جروف هائلة تكاد تكون في مستوى سطح البحر حتى بلدة صور التي تبعد اثنى عشر ميلا عنه. وقريب جدًّا إلى قلهات رأس الحفر وفيه قرية تسكنها قبيلة الفزاسبحه، ثم يليه رأس خور الخبة وقرية الهواجر، ثم بعده نصل إلى رأس صغير هو رأس الحدّ صور، وقد اكتنفت هذه التسمية الالتباس على ما يبدو في مؤلفات الكتاب القدماء الذي يطلقون دائمًا لفظة رأس الخيط على رأس الحد، وبذلك يخلطون بين الاسمين.

أما صور التي تعتبر أهم مرفأ للسفن الشراعية في عُمَان، فهي تأتي في الترتيب بعد ميناء مسقط، وكانت سابقًا تضمُّ بلدتين تقع إحداهما على بعد نحو ميلين إلى الداخل وتُسمّى البلاد، والأخرى على الساحل غير أن البلدة الحالية يشطرها إلى قسمين خور، وتستوطنها قبائل مختلفة.

والجزء الشرقي وهو الأكبر يقع على جرف منخفض يُسمّى العيجة وتخص بني بو علي الذين ينتمون إلى قبيلة بني تميم المشهورة، ويبلغ تعدادهم نحو ست آلاف نسمة، ويوجد في هذه المنطقة أربعة أبراج لحماية البلدة.

أما الجزء الغربي فيضم أربعة أحياء هي أم القريمتين والرشة ومخاء وأم صفية، وأكبرها هي الأولى التي تضمُّ ألفًا وخمسمائة مسكنًا من الأكواخ الحصيرية، كما يوجد فيها قريتان صغيرتان هما الشرية والسنيسلة وفيهما بعض الأبراج. وهذا الجزء يستوطنه الجنبة الذين يبلغ عددهم خمسة آلاف رجل، غير أن هناك قبائل أخرى ممثلة أيضًا. وتزرع هنا الفواكه وأشجار النخيل على نطاق واسع، كما توجد فيها مزروعات كثيرة. والميناء تكون بفعل خور يمتد متعرجًا إلى مسافة ما، ويحيط بالبلدة في شكل نصف دائرة وعمقه يكفي لرسو السفن الكبيرة طراز البغلة التي يمكن بناؤها وتدشينها في فصول المونسون (الرياح الشمالية الشرقية) الشتوية. وسكانها ينشؤون نحو اثنتى عشر سفينة متنوعة الأحجام كل عام، والنجارون خليط من الهنود والعرب ويستعملون خشب التيك في صناعتها عمومًا وتستورد من مليبار. وفي عام ١٨٧٤م كان مجموع السفن الكبيرة التي تملكها صور ستًّا وخمسين سفينة طراز البغلة فضلًا عن الطراز الآخر كالباتيل والزينا ونحو مائة وخمسين مركبًا طراز (البَدنْ).

والجزء الداخلي من عُمَان يتلقى طلباته من البضائع الأجنبية عن طريق صور عمومًا، بينما المناطق الأخرى تتلقى طلباتها عن طريق مسقط التي تربطها خطوط سفن بخارية مع الهند. ويتم تعيين الوالي من جانب حكومة مسقط، غير أن صلاحياته محدودة؛ لأنَّ زعيم قبيلتي بني بو علي وبني بو حسن هو الذي يمارس السلطة الفعلية على أتباعه، وهو المسؤول عن المحافظة على النظام داخلها. ومصلحة الجمارك في صور مؤجرة للتجارة الهنود نظير ألفي ريال، غير أن هذا المبلغ كان يمكن أن يضاعف لو أن السلطان حاول أن يفرض ذلك بالقوة. ومناخ صور جاف وصحي غير أن الماء رديء ويؤتى به في قرب من مناطق بعيدة.

وكلمة صور تعني الصخرة، والتسمية تشبه تسمّية المدينة الفينيقية الواقعة على الساحل الفلسطيني، والتي يطلق عليها الإغريق طيرة، ولعل التسمية لها علاقة بالجرف الذي تقع فيه بلدة العيجة، وربما كانت أقدم من ميناء البحر الأبيض المتوسط، أو من المحتمل أن يكون الفينيقيون قد مروا بعُمَان في طريقهم إلى الخليج. ولقد نزل الرحالة ابن بطوطة في صور وهو في طريقه من ظَفَار إلى فارس، وبما أن جولته في داخلية عُمَان ممتعة فإننا نقتبس عنه ما قال فيها:

إذ أنَّه في عام (٧٣١هـ/ ١٣٣٠م) وصل أشهر الرحالة الشرقيين أبو عبدالله محمد بن عبدالله المعروف بابن بطوطة إلى عُمَان قادمًا من ظَفَار في طريقه إلى فارس وتركيا، وما كتبه عن هذه البلاد وجيز؛ ولكنه في غاية الامتاع والأهمية؛ نظرًا لأنه كتب في فترة تاريخية لم يتناولها أحد من المؤرخين الوطنيين، كما يعتبر ابن بطوطة من أقرب المؤلفين العرب الأجانب عن عُمَان، وهذا ما قاله عن زيارته لعُمَان:

"وسرنا من مرسى حاسك أربعة أيّام ووصلنا إلى جبل لمعان[1]، وهو في وسط البحر؟ وبأعلاه رابطة مبنية بالحجارة وسقفها من عظام السمك، وبخارجها غدير ماء يتجمع من المطر. ولما أرسينا تحت هذا الجبل صعدنا إلى هذه الرابطة فوجدنا بها شيخًا نائمًا، فسلمنا عليه، فاستيقظ وأشار برد السلام، فكلمناه، فلم يكلمنا، وكان يحرك رأسه. فأتاه أهل المركب بطعام فأبى أن يقبله، فطلبنا منه الدعاء، فكان يحرك شفتيه، ولا نعلم ما يقول، وعليه مرقعة وقلنسوه لُبد، وليس معه ركوة ولا إبريق ولا عكاز ولا نعل. وقال أهل المركب: أنَّهم ما رأوه قط بهذا الجبل، وأقمنا تلك الليلة بساحة الجبل، وصلّينا معه العصر والمغرب، وجئناه بطعام فرده، وأقام يُصلّي إلى العشاء، ثم أذن وصلّينا معه. وكان حسن الصوت بالقراءة مجيدًا لها، ولما فرغ من صلاة العشاء أومأ إلينا بالانصراف، فودعناه ونحن نعجب من أمره. ثم أردت الرجوع إليه عند انصرافنا، فلما دنوت منه انتابني الخوف، ورجعت إلى أصحابي وانصرفت معهم.

وركبنا البحر ووصلنا بعد يومين إلى جزيرة الطير[2]، وليست بها عمارة، فأرسيت وصعدنا إليها، فوجدناها مليئة بالطيور التي تشبه الشقاشق إلا أنَّها أعظم منها. وجاء النّاس ببيض تلك الطيور فطبخوه وأكلوه، واصطادوا جملة من تلك الطيور فطبخوها وأكلوها. وكان يجالسني تاجر من أهل جزيرة مصيرة، ساكن بظَفَار واسمه مسلم. ورأيته يأكل معهم تلك الطيور فأنكرت عليه ذلك، فاشتد خجله، وقال لي: (ظننت أنَّهم ذبحوها) وانقطع عني بعد ذلك، فكان لا يقربني حتى أدعوه، وكان طعامي في تلك الأيّام بذلك المركب يتكون من التمر والسمك. وكانوا يصطادون بالغدو والعشي سمكا يُسمّى بالفارسية (شير ماهي) ومعناه (أسد

---

(١) ربما هي جزيرة الحلانية إحدى الجزر في أرخبيل كوريا موريا (الحلانيات).

(٢) تسمّى اليوم حمر النفور.

السمك)؛ لأنَّ (شير) هو الأسد، و(ماهي) السمك، وهو يشبه الحوت المُسمّى عندنا (بتارزت)، وهم يقطعونه قطعًا ويشوونه، ويعطون كل مَنْ في المركب قطعة، ولا يفضلون أحدًا على أحد، ولا صاحب المركب، ولا سواه، ويأكلونه بالتمر. وكان عندي خبز وكعك استصحبتها من ظَفَار، فلما نفدا كنت أقتات من ذلك السمك. وعَيَّدنا عيد الأضحى على ظهر البحر، وهبت علينا في يومه ريحٌ عاصف بعد طلوع الفجر، ودامت إلى طلوع الشمس، وكادت تغرقنا، وكان معنا في المركب حاج من أهل الهند يُدعى خضر، كما أنَّه يدعى بمولانا؛ لأنه يحفظ القرآن، ويحسن الكتابة. فلما رأى هول البحر لفَّ رأسه بعباءة، فلما فرج الله ما نزل بنا قلت له: (يا مولانا خضر كيف رأيت؟) قال: كنت عند الهول، أفتح عيني أنظر هل أرى الملائكة الذين يقبضون الأرواح جاءوا؟ فلا أراهم، فأقول: الحمد لله، لو كان الغرق لأتوا لقبض الأرواح، ثم أغلق عيني، ثم أفتحها، فأنظر كذلك إلى أن فرج الله عنا، وكان قد تقدمنا مركب لبعض التجار فغرق، ولم ينج منه إلا رجل واحد خرج عومًا بعد جهد شديد. وتناولت في ذلك المركب نوعًا من الطعام لم أذقه من قبل، وكان قد جهزه بعض تجار عُمَان، وهو من الذرة طبخها من غير طحن وصبَّ عليه عسل التمر، وأكلناه.

ثم وصلنا إلى جزيرة مصيرة التي ينتمي إليها صاحب المركب الذي كنا فيه، وهي جزيرة كبيرة يعيش أهلها على السمك، ولم ننزل إليها لبعد مرساها عن الساحل، ومكثنا بها يومًا على ظهر المركب، حيث توجه صاحب المركب إلى داره وعاد إلينا.

ثم سرنا يومًا وليلةً، ووصلنا إلى مرسى قرية كبيرة على ساحل البحر تعرف بصور، ورأينا مدينة قلهات في سفح جبل فخيل إلينا أنَّها قريبة[1]. وكان وصولنا إلى المرسى وقت الزوال أو قبله، فلما ظهرت لنا المدينة أحببت المشي إليها والمبيت بها، وكنت قد كرهت صحبة أهل المركب، وسألت عن الطريق إليها، فأخبرت بوصولي إليها في العصر، وصحبني خضر الهندي، وتركت أصحابي بالمركب ليلحقوا بي في غد ذلك اليوم. وأخذت أثوابًا كانت لي فدفعتها للدليل، وحملت في يدي رمحًا، خوفًا من استيلاء الدليل على الأثواب، وصحت تنبؤاتي عن نية هذا الدليل في الاستيلاء على الأثواب، وأنَّه أراد أن يغرقنا في البحر؛ ولكننا كشفنا لعبته، وأظهرت له الحزم،

(١) المسافة بينهما على خط مستقيم تعادل ١٣ ميلًا.

وكنت أهزُّ الرمح للتخويف، فهابني ذلك الدليل، ثم خرجنا إلى صحراء لا ماء فيها واشتد بنا الأمر، فبعث الله لنا فارسًا مع جماعة من أصحابه، وبيد أحدهم ركوة ماء، فسقاني وسقى صاحبي، ولم نزل كذلك حتى الصبح، ثم خرجنا إلى الطريق، فوجدنا النّاس ذاهبين بالمرافق إلى المدينة، فبعثت بالدليل ليأتينا بماء.

ووصلنا بعد ذلك مدينة قلهات ونحن في تعب شديد، وكنت قد ضاقت نعلي على رجلي حتى كاد الدم يخرج من تحت أظفارها، فلمّا وصلنا باب المدينة كان ختام المشقة أن قال لنا الموكل بالباب: لا بُدَّ أن تذهب معي إلى أمير المدينة؛ ليعرف قَضيتك ومن أين أتيت؟ فذهبت معه؛ فرأيت الأمير رجلًا فاضلًا حسن الخلق، فسألني عن حالي، وأكرم وفادتي.

ومدينة قلهات على الساحل، وبها سوق كبيرة، وبها مسجد حيطانه بالقيشاني، وهو مرتفع ينظر منه إلى البحر والمرسى. وهو من عمارة الصالحة بيبي مريم، ومعنى بيبي عندهم الحرة. وأكلت بهذه المدينة سمكا لم آكل مثله في إقليم من الأقاليم، وكنت أفضله على جميع اللحوم، وهم يشوونه على ورق الشجر ويجعلونه على الأرز، والأرز يجلب إليهم من الهند، وهم أهل تجارة ومعيشتهم مما يأتي إليهم من تجارتهم في البحر الهندي.

وبمقربة من قلهات قرية طيبي (تُسمّى الآن طيوي) واسمها على نحو اسم الطيب إذا أضافه المتكلم لنفسه. وهي من أجمل القرى وأبدعها حسنًا ذات أنهار جارية وأشجار نضرة وبساتين كثيرة. ومنها تجلب الفواكه إلى قلهات، وبها الموز المعروف (بالمرواري) وتعني بالفارسية الجوهر، وهو كثير، وبها أيضًا التنبول؛ لكن ورقته صغيرة، والتمر يجلب إلى هذه المناطق من عُمَان.

قصدنا بلاد عُمَان، فسرنا ستة أيّام في صحراء، ثم وصلنا عُمَان في اليوم السابع، وهي خصيبة ذات أنهار وأشجار وبساتين وحدائق ونخل وفاكهة كثيرة مختلفة الأجناس، ووصلنا إلى قاعدة هذه البلاد (العاصمة) وهي مدينة نزوى، وهي مدينة في سفح جبل تحفُّ بها البساتين والأنهار، وعند تناولهم الطعام يأتي كل فرد بما عنده من طعام، ويجتمعون لتناول الطعام في صَحن المسجد، ويأكل معهم الحاضر والقادم، ولهم نجدة وشجاعة والحرب قائمة فيما بينهم، وهم إباضيو المذهب.

وسلطان عُمَان عربي من قبيلة الأزد بن الغوث، ويُسمّى بأبي محمد بن نبهان،

وأبو محمد عندهم اسم لكل سلطان يحكم عُمَان، وعادته أن يجلس خارج باب قصره في مجلس هنالك، ولا صاحب ولا وزير، ولا يمنع أحد من الدخول إليه، ويكرم الضيف على عادة العرب، وله أخلاق حسنة ومن مدن عُمَان مدينة إزكي، لم أدخلها، وهي على ما ذكر لي مدينة عظيمة، ومنها القريات وشبا وكلبا وخور فكان وصحار، وكلها ذات أنهار وحدائق وأشجار ونخل وأكثر مواطني هذه البلاد في عمالة هرمز".

وإلى الجهة الشرقية من صور توجد سلسلة من التلال المنخفضة، فيها جرف يُسمّى رأس خرابة، بينما يقع على بعد ستة أميال قدما رأس شيّاع عند فتحة واد يجري إلى مسافة بعيدة مكونًا عدة غدران، وهو واد غير مأهول بصورة دائمة، وإنما يرتاده أو يأوي إليه الرعاة؛ ليطلقوا خرافهم ونعاجهم ترعى.

ثم بعد مسيرة خمسة أميال نأتي خور جراما، وهو خور كبير وعميق له مدخل طويل ضيق ومتعرج بعرض مائة وخمسين ياردة، حيث ينفتح على حوض واسع. وطول القناة قرابة ميل واحد؛ ولكن التيارات الهوائية التي تهب عليه تجعل دخول السفن إليه صعب إلا في أوقات الرخاء وبمجرد أن تدخله السفينة فإنَّها تجد نفسها في مياه هادئة وترتاد هذا الخور السفن الشراعية الكبيرة من طراز (البغلة)، حيث تنتظر هناك بعض الوقت قبل أن تقلع في رحلاتها إلى الهند أو زنجبار. وفي الطرف الجنوبي من الوادي توجد بقايا قرية تسمّى لبيد، كانت تستوطنها سابقًا قبيلة الموالخ، وعلى الناحية الغربية بعض الأكواخ وخمائل المانجو وخور جراما هذا هو كورودامون بطليموس، وقد عرفه الإغريق وجابوه قبل ألفي سنة عندما كانوا يلجأون إليه قبل أن يستأنفوا رحلاتهم إلى الساحل المواجه.

وهذا الخور يتبع الموالخ الذين يعتبرون وادي شيّاع الحدود القبلية بينهم وبين قبائل بني بو علي. وقريبًا منه جدًّا خور حجرة، وهو خور محمي صغير بمدخل ضيق يقع بين ضفاف عالية، ويمتد نحو ميلين، إلا أنَّه جاف في الجزء الضحل، ولا يستخدم فيه إلا مراكب (البَدنْ)؛ لأنه لا يوجد فيه عمق مائي يصلح لرسو السفن الكبيرة.

نصل الآن إلى رأس الحد ويسمّيه الأوروبيون رأس فينيستير؛ حيث يتجه الساحل جنوبًا. وهو منخفض جدًّا؛ لأنه منطقة رملية، وطوله ثلاثمائة ياردة، وفيه قرية

تسمّى بلاد رأس الحد، وفيه حديقة نخيل وقلعة بها ثلاثة بروج، ويُسمّى سكانها بني ويني؛ لأنهم من قبائل شتى لا يقلون عن ثلاثة هي بني مالخ، وبني غزال، وبني مهيد، والأخيرة تمت بالصلة لقبائل المهرة المشهورة، وخلف القرية سهل مربع قطره ميلان أو ثلاثة أميال. وابتداء من رأس الحد ينحرف الساحل عمومًا في اتجاه جنوبي غربي حتى رأس الشجر الذي هو نهاية حدود السلطان، وهي مسافة ستة آلاف ميل ويشكل سلسلة من الخيران الرملية، وهي خالية من أي ميناء أو مرفأ، ولما كانت الصحراء الكبرى يحدها البحر، فتوجد فيها بعض معالم الحياة. وجنوب رأس الحد تقع منطقة القطنة التي تستوطنها قبيلة الموالخ، وأسفل هذه المنطقة وعلى بعد سبعة أميال من الرأس يقع رأس الجيز، وهو جرف منخفض ويشكل الطرف الشرقي الأقصى لشبه الجزيرة. وبالقرب من هذا الرأس وعلى بعد عشرة أميال من رأس الحد يقع جبلان لهما أهميتهما، وهما متلاصقان تقريبًا؛ ولكنهما منفصلان وبارتفاع واحد (٨٥٠ قدمًا) ويشكلان علامة حدود مميزة. وهما على شكل زاوية، ويُسمّيان جبل صفان، ولعلهما كما يرى كارتر من طبقة بركائية.

ووراء رأس الجنز يقع رأس الخبة وخيسة الجيرة ورأس الدفع، وهذه المناطق تتبع ولاد حربي، وحتى رأس الخبة التي تقع على بعد عشرين ميلا من رأس الحد يمتد الساحل شمالاً وجنوبًا وهو صلب وصخري.

النقطة التالية هي رأس الرويس الذي يعتبر من الناحية الجيولوجية هامًا، والجروف الصغرى منه تتكون من الجير الأصفر وترتفع نحو ١٠٠ قدم مع طبقات أفقية. ورأس الرويس شأنه شأن رأس الجنبة يتبع قبائل الجنبة الذين لهم قرية كبيرة في الرأس الأخير. بعد رأس الروميس، تأتي أم الروميس التابعة لبني بو علي، ثم سويح بني بو علي، وتميزه صخرة ضخمة تؤدي إلى منطقة داخلية منخفضة، وكان الماء يغمرها سابقًا.

وبين رأس الرويس ورأس قميلة، وهي مسافة تمتد اثنى عشر ميلًا إلى الجنوب الغربي يقع الرأس الصغير الذي يُسمّى رأس الصليب، وقد أخذ هذا الاسم من الصليب الصخري الموجود على أحد المقابر البرتغالية. ورأس قميلة رأس رملي منخفض على جبل عمودي يقع خلفه، ويُسمّى بنفس الاسم، بالإضافة إلى قرية كبيرة تقع على بعد ميل إلى الشمال وتخص الجنبة. ويقال أنَّه توجد في هذا المكان خزانات ماء كان البرتغاليون أنشأوه على الساحل، وغير بعيد من هذه البقعة.

بعد أن نجتاز قرية عجيصة التابعة للجنبة نأتي بعد مسيرة عشرة أميال إلى الأشخرة وهي بلدة سكانها نحو ألف نسمة، وتخص الجعافرة المتفرعة من بني بو علي. وتقع الأشخرة بالقرب من البحر، وبعض مبانيها من الحجر؛ ولكنها متفرقة عن بعضها البعض، وفيها برجان، ويملك أهلها ثلاثين مركبًا من طراز البَدنْ، بين أحد الشعاب البحرية المنخفضة. وفي سنة ١٨٢٠م اغتيل مترجم السفينة ميركري التابعة لشركة الهند الشرقية في هذا المكان، وقد نتج عن هذا الحادث تسيير حملتين عسكريتين ضدَّ هذه القبيلة تأديبًا لها. كما أنَّه في عام ١٨٦٤م تحطم مركب كان قادمًا من الهند بالقرب من هذا المكان، وقام سكانه العرب بنهب محتوياته والاستيلاء عليه. وعلى أيّة حال فقد عومل ركابه الأوروبيون معاملة حسنة، وأرسلوا إلى مسقط. والطعام الذي قدم لهم أثناء الطريق هو البلح ولبن الإبل، مما لم يوافق معدتهم وتمت معالجتهم بالكي وهو العلاج البلدي المعمول به هناك، وبالتالي فقد وصل البحارة إلى مسقط وكانت أجسامهم مرقطة كجسم الفهد. وفي عام ١٨٧٤م قام الجعافرة بالاعتداء على إحدى السفن الهولندية في جزر كوريا موريا (الحلانيات)؛ ولكن المعتمد السياسي توجه على الطراد فيلو ميل للحصول على تعويض من رجال القبيلة، وقد رفضوا في البداية تسليم الجناة ففرضت عليهم غرامة لم يدفعوها إلا بعد أخذ ثمانية رهائن من رجالها.

من هنا حتى أثل الطين، فإن الساحل مقفر وغير مستو ويتبع قبيلة الجنبة. وأول بروز نصل إليه رأس جفان، ثم رأسين آخرين هما رأس سارِق، ورأس مسقلة، ثم بعد ذلك نصل إلى رأس جبش أو قرون على بعد ثلاثين ميلًا من الأشخرة. وهذا رأس أسود ارتفاعه مائة قدم تقريبًا من تكوين بركاني يضمُّ الديورايت والهوربليد واليوفوتايد، وعليه برج قديم على قمته وقرية صغيرة على الناحية الجنوبية الغربية، وعلى الجهة الشمالية من رأس جبش يوجد خور صغير كان في الماضي موصولًا بخور مربع قطره ميلين؛ ولكنه جفَّ الآن ويرتفع اثنى عشر قدمًا عن سطح البحر. ومن هذه النقطة يمكن أن نلقى النظرة الأخيرة على جبل جعلان في أقصى الطريق الغربي لسلسلة الجبال العُمَانية الكبرى، والذي يبلغ ارتفاعه في طرفه الغربي ألفي قدم بعيدًا عنه بخمسين ميلًا. وكثير من المناطق على الساحل تحمل أكثر من اسم واحد يستخدم بعضها البحارة والبعض الآخَر لسكان البدو المقيمين على السواحل مثل: جبل رأس عشرين الذي يعرفه الملاحون برأس شبيلة.

ومن رأس جبشٍ إلى رأس عشرين أو رأس شبيلة توجد رقعة أرض مساحتها خمسة وأربعون ميلًا رملية وصخرية، مع وجود أعشاب أو أكمات برية، وما عدا ذلك فهي منطقة جدباء، بينما المناطق الواقعة عبرها هي رأس هانو أو قرون واثل الطين أو شرخ، وتقع في منتصف الطريق بينما تعرف بين الملاحين عمومًا باسم البطين. وهذا المكان المسمّى شرخ، والذي يبعد ٢٢ ميلًا عن رأس عشرين كان يستخدم قديمًا في تفريغ شحنات الرقيق لنقلها من هناك إلى جعلان.

وإلى الغرب من شرخ باثنى عشر ميلًا تقع إحدى قرى الصيادين من بدو آل وهيبة. ورأس عشرينٍ أو رأس الشبيلة وهو بمثابة صخرة منخفضة وتضمُّ قرية صغيرة لآل وهيبة تبعد قليلًا عن الساحل.

ومن هنا يبدأ شكل الساحل يتغير إذ تغوص الأرض حتى سطح البحر، وتقع ابتداء من هذا الرأس غربًا سلسلة من كثبان الرمال البيضاء ارتفاعها مائة قدم ممتدة نحو الداخل. وعلى بعد خمسة عشر ميلًا إلى الجنوب الغربي يقع رأس كليت وشيحة البحار، ثم يليه رأس محمد بن ماجد.

ويشكل رأس كليت المدخل الشمالي لقناة مصيرة الخطرة التي تعزل الجزيرة عن الأرض الأم، بينما يقع المدخل الجنوبي عند رأس أم الشيوع أو مسيسيح على بعد أربعة وثلاثين ميلًا، بينما يقع على بعد ثلاثة أميال من رأس كليت جزيرة صغيرة تسمّى جزيرة معاول. وأمام جزيرة مصيرة تنخفض الأرض الأم إلى حدٍّ لا تكاد ترتفع عن سطح البحر وتغطيها تلال من الرمال. بحيث أن الرمال في بعض الأجزاء دقيقة لدرجة يتعذر إدراكها. وللقناة معدل عمق قدره عشرة أميال وهي شديدة الضحولة ويصعب على السفن الكبير أن تمر فيها.

إن مصيرة هي أكبر الجزر العُمَانية، غير أن هناك جزيرةً أخرى اسمها (سقطرى) تقع في البحر العربي، ويبلغ طولها ثمانية وثلاثين ميلًا ونصف، بمعدل عرض ستة أميال غير أن العرض الأقصى هي تسعة أميال، والعرض الأدنى هو أربعة أميال، والسلسلة الجبلية لهذه الجزيرة والتي تشكل عمودها الفقري يبلغ ارتفاعها ٦٢٩ قدمًا من جبل مغرب الواقع على طرفها الشمالي، ثم يتناقص هذا الارتفاع تدريجيًّا من طرفها الجنوبي، حيث لا يزيد على نصف الحد الأقصى للارتفاع، ومظهر هذه السلسلة ليس أكثر من كتلة عارية من الصخر تقطعها من حيز واحد رقع رملية خاوية

من أي نبت، وتمثل مشهدًا جافًا مقفرًا. وطبيعة هذه السلسلة بركانية. وتتألف من حجر الحية والديورايت شبيه بتلك الأنواع الموجودة في جبش ومسقط، غير أنَّه يوجد فيها الكثير من الجير الأحفوري[1]. ولا تزال توجد بقايا أفران صهر الرصاص والنحاس التي كانت تعمل في العصور القديمة وتم اكتشافها.

ويبلغ سكان مصيرة ألف نسمة. وينتمون إلى قبيلة الجنبة، ويشغلون أربعة قرى كبيرة، وثلاث أو أربع قرى صغيرة، هي أم رصاص، وصافيز اللتين يوجد فيهما برج مراقبة، وحكيم والدوا، وهما أكبر القرى، وتضمُّ بعض المزارع، وبعضها مزارع نخيل وسكانها خمسمائة نسمة. وفي هذه القرية يقيم شيخ الجزيرة، ويعمل سكان الجزيرة في صيد الأسماك، وفي تربية بعض الحمير شبه المتوحشة التي تباع في صور وغيرها من المناطق، ورغم أن هذا النوع من الحمير ليس كبيرًا، غير أنَّها قوية وتتحمل العمل الشاق غير أنَّها متوحشة.

ويشير هاملتون إلى أن أهالي هذا الساحل سحرة، والدليل على ذلك أنَّهم في عام ١٦٨٤م توجهت سفينة اسمها مرشنت ديلايت من لندن تحت إمرة القبطان أدوارد سي إلى شاطئ جزيرة مصيرة؛ ولكنها ارتطمت على بعض صخور الساحل، وفي الصباح شاهد بحارتها تجمعًا لعرب الساحل بالقرب منهم، وقد سبح العرب إلى السفينة وجلبوا معهم حبلًا لشدِّ السفينة وطلبوا من البحارة التفاهم، ونتيجة لذلك تم الاتفاق على تقسيم حمولة السفينة والأموال التي فيها بين العرب والإنجليز بالتساوي وعلى أن يتم نقل البحارة الإنجليز مع حصتهم سالمين إلى مسقط. وقد عومل الإنجليز معاملة حسنة كريمة، وتم تنفيذ الاتفاق من جانب العرب بمنتهى الأمانة؛ والسبب كما رواه العرب للمترجم هو كما يلي:

"إنه قبل ثمانية أيّام من تحطم السفينة تنبأ أحد الزهاد أو الأولياء بأنَّ سفينة سوف يجرفها البحر إلى الشاطئ، وطلب الولي من الأهالي أن يتجمعوا على الساحل لمساعدة البحارة والتنازل لهم عن نصف الحمولة وهكذا تحققت نبوءة الولي، ونفذت توصيته بمنتهى الأمانة".

وجنوب الجزيرة يقع على خليج مصيرة الذي يسميه عرب عُمَان (البحر الحدري) وإلى الجهة العليا من الخليج تقع غبة حشيس، وهو خور ضحل صغير يضمُّ ثلاثة

(١) الأحفور هو: بقايا الحيوانات المتحجرة تحت الأرض.

جزر صغيرة أو مداخل هي محوت ورج وأبانا. وقد اكتسب هذا الخور اسمه من العشب الذي ينبت عليه في المناطق القريبة منه وبكثرة. وعلى بعد ميلين إلى الشمال الشرقي من محوت يوجد خليج صغير تصب فيه الأودية التي تنبع من مرتفعات الجبل الأخضر، وهذه الأودية هي كلبوه وعندام والأثلي وحلفين، وكلها تتجمع لتصب مياهها في هذه البحيرة في فصل الفيضان.

وبين غبة حشيش وقناة مصيرة تقع شبه جزيرة بحر الحكمان الذي يعتبر رأس زويني طرفه الجنوبي الغربي وأم الشيوع طرفه الجنوبي الشرقي. وبالقرب من الأخير يقع خور الملح، وهو بحيرة تستخرج منها كميات كبيرة من الملح تصدر إلى زنجبار.

وتعتبر جزيرة محوت المركز التجاري الرئيسي في هذا الجزء من الساحل وهي منطقة رملية منخفضة لا أثر لأي نبات أو يابس فيها عدا مزارع المانجو التي تغطي ثلثيها. ومنطقة النزول تقع على الجانب الشمالي الشرقي، غير أن غابات المانجو تحجبها عن الأنظار. ولا يوجد فيها بيوت من حجر، وأكواخها التي يبلغ عددها مائة وخمسون كوخًا هي عمومًا بيضاوية أو مستديرة الشكل. وهي من عيدان المانجو والقصب ويبلغ مجموع الذين يقيمون في هذه الأكواخ من أربعمائة إلى خمسمائة ساكن. وماء هذه الجزيرة مالحٌ جدًّا، ويتم جلب مياه الشرب من آبار تقع على بعد أربعة أميال منها. ويقوم في هذه المهمة الجواري ويقمن بجلب الماء في قرب أو جرار. ويتم تخزين هذه المياه في براميل من الخشب، ويتم وضعها في مناطق ظليلة.

وإن حركة المد والجزر في محوت واسعة ويصل مداها إلى ثماني أو تسع أقدام. ويستوطن الجزيرة بالمشاركة أفراد من قبيلة الجنبة والحكمان، غير أنَّه يوجد بالإضافة إلى تلك القبيلة بعض العوامر وآل وهيبة. وإلى الشرق تمتد مناطق الحكمان حتى موطن يعيش فيه محمد بن ماجد في يوجه، حيث يجوب أفراد هذه القبيلة الصحراء بجمالهم وماشيتهم ويصل عددهم إلى ٣٥٠٠ فرد وهم فقراء، بينما يقيم آل وهيبة إلى الغرب من غبة حتش، وتمتد مواطنهم حتى حمراء النفور.

ومع أن مظهر محوت لا تُوحي لأحد بالأهمية إلا أنها ميناء تجاري نشط ومزدهر، وسكانها موسرون حتى أن نساءها يرتدين الحَلي الفضية بكثرة، وتتميز محوت بكونها الميناء التجاري الوحيد بين رأس الحد وظَفَار، فضلًا عن أنَّها أقرب ميناء إلى زنجبار، ثم أنَّها منطقة حرة، والبلدة التي تتبادل معها محوت تجارتها عمومًا هي أدم

وتبعد ١٢٨ ميلًا عنها، وتستغرق رحلة القوافل إليها خمسة أيّام، وأثناء الطريق التي تقطعها القافلة يوجد ثلاثون مكانًا أو أكثر للتزود بالماء والعلف للحيوانات، كذلك فإنَّ محوت لها علاقات تجارية إلى حدٍّ أقل مع إزكي وجعلان. بينما تجارة الرقيق في هذه المنطقة تكاد أن تكون قد توقفت نهائيًا.

وخلال الأيَّام الذهبية لتجارة الرقيق كانت محوت أكثر ازدهارًا وأكثر سكانًا منها الآن؛ نظرًا لأنَّها كانت ميناء أكثر أمانًا وملائمة لإنزال شحنات الرقيق من حيث كان يتم إرسالهم إلى أدم.

وواردات محوت هي الحنطة والأرز والأقمشة والخزف وغيرها من مستلزمات الحياة العربية، أما صادراتها فهي البلح وزعانف القرش (وكان هذا يشحن إلى بومباي، ثم منها إلى الصين)، وحواصل الأسماك وعظام السلاحف والقديد والملح والأسقطري.

في يوم ٢١ سبتمبر أرتطم الطراد الأمريكي (بيكوك)، وكان يقل المستر روبرت المبعوث الأمريكي الخاص إلى مسقط بشعب مرجاني بالقرب من محوت غير أنَّه أمكن انتشال الطراد بعد أن أسقط نصف مدافعه في البحر (وكان الطراد يقوم بعمليات سبر للأعماق امتدت مسافة تزيد على أربعين ميلًا قبل أن يرتطم)، وقد خيب ذلك أمل العرب الذين كانوا قد تجمعوا على الشاطئ انتظارًا لارتطام السفينة للاستيلاء عليها، وعلى حمولتها. وفي نوفمبر ١٨٨٣م قام الطراد الملكي البريطاني، وكان في طريقه إلى ظفار بزيارة محوت وبقى راسيًا فيها يومين.

وإذا واصلنا السير عبر الساحل من غبة حشيش الذي يعتبر بمثابة طرفه الغربي فإننا نصل إلى غبة ورأس بن ثرت. الذي يقع جبل شربثات على بعد تسعة أميال منه إلى الداخل، وارتفاعه ٤٨٠ قدمًا، بينما يوجد خلف رأس بن ثرت غبة بني سراب، وتبعد الأخيرة ٣٨ ميلًا عن رأس عبابه. ويقول كارتر عن رأس سراب أن صخوره الحدية بارزة من ثنايا تلال الرمال وبعضها مغناطيسي وسميك ولونه رمادي.

ثم على بعد عشرة أميال غربًا يقع رأس صغير يُسمّى رأس أركيت، وعلى بعد أربعة أميال أخرى من هذا يقع رأس نحريز، وهو رأس شديد التحدر، ارتفاعه ٤٦٥ قدمًا والجرف هنا وإلى مسافة ما شديد الانحدار، وأخيرًا نصل إلى رأس سديرة، ثم بعده إلى السويد، وهي قوية صغيرة تابعة لآل وهيبة.

وأمام هذا الرأس وعلى بعد أربعة أميال نحو البحر تقع جزيرة حمراء النفور، وترتفع ٣٢٠ قدمًا وطولها ١٢٠٠ قدمًا، وترتادها جميع طيور النورس والأطيشن، وتغطي أرضها طبقة من السماد الطبيعي من ذرف الطيور.

ويتحدث كارتر عن هذه الجزيرة فيقول: "بأن العينات التي أخذها منها هامة ومثيرة ورغم أن أرض الجزيرة مسطحة إلا أنَّها مقسمة إلى عدة اتجاهات وتتكون من جير بركاني أبيض، ومن الحجر الصوان الذي يصل عمقه إلى ١٥٠ قدمًا وتحته رواسب جيرية متحجرة، ثم تحت هذه الرواسب طبقة من الصلصال الأبيض الضارب إلى الخضرة".

وبين رأس السديرة ورأس قريات، وهي مسافة خمسة عشر ميلًا، تقع غبة قريات، ثم بعد هذه الغبة توجد سلسلة من الجروف العالية تمتد حتى رأس مدركة، الذي تتجمع عند نقطة التقائه بهذا الرأس عدد من الرؤوس، وهي رأس منح، ورأس خيسة اليرخ، ورأس العيني، والعرق ورأس مرقاص ورأس الدلة.

والسكان الذين يحتلون هذا الجزء من الساحل من شبه الجزيرة هم على خلاف مع قطاع عريض من البدو الرحلِ الذين يشتهرون بتربية الجمال؛ ولكنهم جماعة مسالمة وفقيرة، وعددها ليس قليلًا وحسب، وإنما يعاني أهلها من سوء التغذية وقلة الكساء والسلاح. ويمكن أن يعثر الإنسان على عدد من القرى الصغيرة، غير أن سكان هذه القرى يقطنون في العراء غالبًا لا يظللهم غير خيام من الشعر يقيمون تحت أشجار الأكاسيا أو الأعشاب الطويلة. ويقال أن هذه الجماعات لا تمارس أي نوع من الزراعة، وتعتمد في حياتها على صيد الأسماك وتربية الماشية، وطعامهم يتكون من السمك واللبن والبلح والأرز، ويندر أن يحصلوا على الرغيف.

ونظرًا لقلة القوارب عندهم فإنَّهم عمومًا يستعملون القرب المنفوخة في تنقلاتهم، كما أنَّهم يزاولون صيد أسماك القرش. ولعل سمك القرش هو أكثر الأسماك قيمة لديهم، ويستفيدون من كل عضو من أعضاء جسمها وأطرافها.

وعند رأس مدركة الذي يبعد أربعين ميلًا عن قريات ومائة ميل عن غبة حشيش ويشكل أقصى الطرف الغربي لخليج مصيرة، ينحرف الساحل بحدة في اتجاه الغرب. ويُسمِّي العرب بصورة خاصّة رأس مدركة رأس جزيرة وهو ترجمة لفظية كيب إيسوليتا التي كان يطلقها عليه البرتغاليون سابقًا. وهو بروز داكن اللون وتوجد

جزيرة صغيرة بالقرب منه ارتفاعها ٤٨٠ قدمًا، ويعتبره جميع الملاحين علامة ملاحية لرواد البحر. وعلى الجانب الشمالي منه يوجد نبع ماء عذب، كما يوجد نبع آخر في الشقِّ الواقع بين رأس مدركة ورأس دلة، ويبعد ستة أميال. ورأس مدركة هو الطرف الشرقي لرأس ثلاثي غريب الشكل طوله ٩ أميال، بينما يبلغ ارتفاع الطرفين الأخرين، وهما طاقة أبوك ٣٣٣ قدمًا، ويعتقد السكان العرب أن هذين الطرفين صناعيان، وكان قد زراهما أبو المكارم الجنابي، وأقام في كهف قريب منهما.

وعلى أيّة حال فإن هذه التكوينات أمر طبيعي وأسبابها انفجارات بركانية ولها نفس الخصائص المتصلة سواء في لونها الأبيض أو في وجودها فوق أرضية واسعة وعند مشاهدتها من الجانب الشمالي فإن صورتهما تبدو وكأنها صورة لجامع تعلوه قبة بيضاء. وإن التركيب الجيولوجي لهذا البروز تركيب غير عادي، ويذكر كارتر تعليلًا لذلك، أنَّه يعود إلى انفجار بركاني وقع بين الصخور، وبالتالي فإن شكل هذا الرأس يؤيد الفكرة التي تذهب إلى حدوث مثل هذا الانفجار، وعملية الامتداد لهذا الجرف، والتي تتميز بالتناسق والشكل الأفقي بين كلا الجانبين تنقطع هنا؛ بسبب وجود الصخور البركانية وانفصال طبقاته وتناثرها في عدة أجزاء، وتحولها إلى تركيبات وأشكال متعددة.

وبين رأس خشم وهو جرف عالٍ شديد الانحدار، ويشكل الطرف الغربي لكل من هذا الرأس ورأس طاقة أبوك، يوجد خور صغير له ساحل رملي يُسمَّى بندر جزيرة، حيث يقيم بعض الصيادين الذين يركزون على صيد أسماك القرش.

وإلى الغرب من رأس خشم تقع غبة صوقرة وهي أكبر خور على هذا الساحل وطوله ٦٤ ميلًا، وهنا تتكرر التشكيلات الجيرية الموجودة في حمراء النفور وغيرها من المناطق، وتوجد في الخور موارد مياه قليلة وأكواخ الصيادين الذين يقومون فيها بتمليح الأسماك، واثنان من أحياء هذا الخور يُسمَّيان جديسة وعضيب والحي الأخير، والذي يقع عند فتحة وادي العنينة هو الموقع الذي نزل فيه بحارة السفينة نايت أوف باث من قاربهم وهاجمهم العوامر الرحل، وجردوهم من ملابسهم، غير أن صيادًا عربيًّا يدعى سليمان هو الذي أسعفهم وقدم لهم الطعام، وقد وقع هذا الحادث سنة ١٨٨٤م. ويرتفع وادي العنينة عبر التلال إلى الشمال الشرقي من

سويتره وهو واد بالطبع خاو من المياه إلا في أوقات الفيضان ويمكن بالحفر فقط العثور على الماءً فيه. وقد وضع الدكتور كارتر علامة مميزة عليه في الخريطة التي أعدها. وإحدى قمم هذا الوادي يقع خلف الخور تسمّى جبل حرزيت، والقبائل التي تسكنه هي العوامر والجنبة وآل وهيبة.

وفي خور صوقرة يوجد شعب مرجاني طوله عشرون ميلًا، وعرضه خمسة عشر ميلًا، ويُسمَّى رج الجزيرة، وهي إحدى العلامات المميزة للذين يرتادون الساحل، وقد أطلق العرب اسمه على الخور كله. ويعتقد الملاحون أن هذا الشعب خطر على الملاحة إلى حدٍّ كبير وهم يتفادون دخوله بقدر الإمكان، وخلال فصل الرياح الموسمية الجنوبية الغربية لا تقترب منه أيّة سفينة على الإطلاق؛ لأنَّ الأمواج تتكسر عليه بشدة فائقة. ويقول هينز الذي كان يشرف على عمليات المسح: بأنَّه عانى من صعوبات بالغة في عمليات المسح التي كان يقوم بها لذلك الجزء التعس من الساحل الواقع بين صوقرة وقشين، إذ أنَّه خلال فصل الرياح الموسمية الشمالية الشرقية واجه باستمرار تيارات عنيفة، وكانت سفينته تتأرجح، ورغم سوء الأحوال الجوية، فقد استطاعت السفينة بإصرار ضباطها ودأبِّهم على إنجاز ذلك الجزء من المسح وإجراء عمليات سبر الأعماق بلغت ٥٠٠ ميل في أقل من شهرين. أما رأس صوقرة الذي يبلغ ارتفاعه ٦٢٢ قدمًا فهو بروز صخري يتكون من طبقات جيرية أفقية وبمزاج من المواد الطباشيرية وأحجار الصوان. وقد ورد اسم هذا الرأس الذي يطالب به الجنبة في (دليل ملبورن) وسَمَّاه برأس شانسلي تفصل بين رأس صوقرة ورأس شربثات مسافة ١٥ ميلًا، والساحل هنا عبارة عن جرف شديد الانحدار بمعدل ارتفاع قدره ستمائة قدم على الساحل، ويشكل رأس شربثات مع رأس قرواو ورأس العيجة بروزًا مثلثا غير متناسق بسعة ميلين في طرفه الشرقي من خور كوريا موريا، وله مقدمة شديدة الانحدار، وهو كرأس قرواو مليء بالكهوف والمغارات، وبعضها كبيرٌ جدًّا، وقد حفرها البحر تمامًا كتلك الكهوف الموجودة في بيل بيورتلاند، والبدو يرتادون هذه الكهوف بين حين وآخَر، والارتفاع هنا هو ٨٠٠ قدم، والساحل هنا يأخذ في الارتفاع التدريجي ابتداء من رأس حشيش، وفي أعلى القمة رأس عيجة، وهو الاسم الذي يعرف به الطرف الغربي لرأس قرواو، أقام السكان العرب متراسًا من

الأحجار الخشنة يراقبون منه الأفق انتظارًا للسفن، وبالقرب منه يقع وادي غزالة الذي لا يصب في البحر وإنما يصب داخل بحيرة ضيقة متعرجة، تقع داخل شقّ بين الصخور يُسمَّى لقوق. وماء هذ البحيرة مالحة قليلًا عند طرف البحيرة الأسفل غير أنَّه زاخر بالأسماك وتؤمه أسراب طيور الماء كالبط ومالك الحزين. وفي فصل الشتاء تزور قبائل الجنبة هذا المكان مع عائلتهم غير أنَّهم لا يجرأون على التوغل إلى الداخل، بينما تلجأ السفن العربية إلى المنطقة الغربية من رأس قرواو ويُسمّى المرفأ بندر شربثات ويقع على بعد ميلين شرقًا.

وفي بعض القوائم بأسماء المناطق التي قدمها الشيوخ يتبيّن أنَّ اسمّي شربثات وقرواو قد تغيرا، فأصبح الاسم الثاني يطلق على الطرف الشرقي مما يبرر الاعتقاد بأن هذين الاسمين قد تغيرا في العصر الحديث.

وإن الجزء الداخلي الواقع خلف الساحل الشمالي لخور كوريا موريا يقال عنه أنَّه سهل متعرج أو يعج بالنباتات الصحراوية وأنَّه غير خاو من المياه، ويشكل حدودًا صحراوية غير مرسومة، حيث تلتقي عنده جموع القبائل العُمَانية من الشرق والمهرة من الغرب، وتختلط مع بعضها البعض. إن هذا الجزء من الربع الخالي كما هو معروف تمامًا، هو موطن سلالات الجمال الأصلية التي تربى فيه. ولا يوجد فيه سكان مستقرون وإنما ترتاده جماعات البدو الرحل التي تنتقل وفقًا لتوافر المرعى وموارد المياه. أما فصائل الحيوانات التي تستوطنه فهي الحمير الوحشية والأرانب ونوعان من الظباء وبقر الوحش.

وعلى بعد ثلاثة عشر ميلًا من رأس العيجة تقع منجى، وترتفع عن سطح البحر بمقدار ٧٠٠ قدم، وتضمُّ بحيرة صغيرة ماؤها عذب؛ ولكن الجروف فيما بين هذه الرؤوس تأخذ في الانحدار من الجهة البحرية إلى حدٍّ ما.

بعد أن نَمرَّ على خور آخَر طوله اثنى عشر ميلًا تسنده من الخلف جروف عالية، نأتي إلى رأس الشوماقية، وهو الرأس الذي يشكل الطرف الشرقي لأحد البروزات الهامة، وتمتد اثنى عشر ميلًا، ويعتبر رأس الجزينية طرفه الغربي، وإن هذا الرأس العريض البارز والذي يبلغ معدل ارتفاعه خمسمائة قدم يُسمَّى عمومًا جبل الشراميره، وقد تكون بتجمع انفجارات صخرية بركانية، وهو على نقيض صارخ للرواسب الفاتحة الألوان لطبقات الرؤوس الواقعة شرقًا. ويرى كارتر أن

هذا الحد الشرقي للمنطقة المرتفعة من جنوب شبه الجزيرة العربية، والحد الغربي للمنطقة المنخفضة المعروفة بصحراء الأحقاف. ولا تقتصر أهمية رأس الجنبيزة على تكويناته أو تركيباته الجيولوجية فحسب، بل هو المنطقة الفاصلة التي لا يتجاوز حدودها قبائل الجنبة في تحركاتهم نحو الغرب. وابتداء من رأس جنبيزة يمتد خور رملي منخفض نحو الغرب حتى مسافة خمسة وعشرين ميلًا في اتجاه رأس منتخب، وهو قمة وعرة ويوجد سهل يقع خلفه، كما يقع هذا الرأس أيضًا عند مصب وادي ريكوت وشمالي غبة دوم على الزاوية الشمالية الغربية لخور كوريا موريا.

## جزر كوريا موريا (الحلانيات)

تمتد هذه الجزر التي تتكون من مجموعة قمم عمودية منفصلة عن بعضها البعض لمسافة خمسة وثلاثين ميلًا في خط متواز مع وإلى الشرق من حاسك، وهي قمم لسلسلة جبلية يغطيها الماء، وعلى الناحية الجنوبية من حاجز خور كوريا موريا (الحلانيات) والتي تبعد عن ساحله الشمالي أكثر من خمسة وعشرين ميلًا.

والحاكسية هي أقصى غرب بين المجموعة، وترتفع خمسمائة قدم عن سطح البحر، وطولها يزيد على ميل، وكانت سابقًا مغطاة بطبقة كثيفة، من السماد الطبيعي، والذي أزيل منذ ذلك الوقت.

أما السودة فهي الجزيرة الكبرى الثانية وطولها ثلاثة أميال وارتفاعها ١٣١٠ قدمًا، وكانت مأهولة في السابق ثم هجرها السكان.

أما الجزيرة الثالثة فهي الحلانية وهي أكبر جزر المجموعة والمأهولة الوحيدة فيها وطولها ثمانية أميال وقطرها ثلاثة وعشرون ميلًا، وكانت تضمُّ في سنة ١٨٨٤م ثلاثًا وأربعين نسمة من السكان كلهم من المهرة. وهي جزر قاحلة، وتتكون مثل حاسكية والسودة من صخور بركانية بوجه عام من الجرانيت الممزوج بالكوارتز والهربلند وغيره. أما تركيبة الطرف الشمالي الشرقي لهذه الجزيرة فإنه عبارة عن مسطح ضخم من كتل الصخور الجيرية والرواسب الحجرية التي ترتفع إلى علو ١٦٤٥ قدم، والماء متوفر في كل مكان من هذه الجزيرة؛ ولكنه مالح.

وإن المخزون الكبير من السماد الطبيعي الموجود في اثنتين من هذه الجزر حاسكية

وقَبْليَّة، تم اكتشافه أثناء عمليات المسح البحري لهذا الساحل في سنة ١٨٣٥م، ثم في السنوات التالية فوض الكابتن فريمانتل قائد السفينة الملكية البريطانية جونو بالتفاوض مع سلطان مسقط لشراء هذه الجزر؛ ولكن السلطان السيّد سعيد بن سلطان الذي رفض بيع هذه الجزر، قدمها كهدية للحكومة البريطانية، وقد عقدت معاهدة تنص على ذلك في ١٤ يوليو ١٨٥٤م. وقد اشتركت مؤسسة أورد هندسن أندهيز مع القبطان فريمانتل في هذه الصفقة، ثم بعد ذلك حصلت على عقد إيجار لتلك الجزيرة مدته خمس سنوات. وكان سمك السماد في جزيرة قَبْليَّة ست أقدام وبمعدل عمق مقداره قدمان، وقد قدر المجموع الكلي للسماد الموجود في كلتا الجزيرتين بـ ٢٠٠ ألف طن. وفيما بين عام ١٨٥٥م و ١٨٦٠م، وهو التاريخ الذي تم فيه نزح كل كمية السماد كانت جزر كوريا موريا (الحلانيات) مسرحًا لنشاط كبير، فقد زار عدد السفن التي كانت ترسو فيها على خمسين سفينة.

وفي عام ١٨٦١م تم إنزال كابل شركة البحر الأحمر وكراتشي في جزيرة الحلانية، وأقيمت محطة فيها، غير أنَّه صرف النظر عن تلك المحطة سنة ١٨٦٢م؛ بسبب فشل الكابل. وقد حال عدم وجود المياه في الجزيرة دون قيام القراصنة الأوروبيين الذين كان يعج بهم المحيط الهندي في السنوات الأولى من القرن الثامن عشر من احتلالهم لهذه الجزيرة، وإلا لاختاروها كأحسن قاعدة لمراقبة واقتحام الملاحة التجارية القائمة بين الهند والبحر الأحمر.

والعرب يسمون هذه الجزر (جزر بني غلفان) أما بين الأوروبيين فإنها تعرف بالاسم الذي أطلقه عليها الجغرفيون العرب، ونعني به جزر كوريا موريا، أو كما يسميه البعض جزر (فرتان مرتان). أما بالنسبة لبني غلفان، فيذكر هلتون بأنَّ زعيم أسرة بني غلفان، ويدعى الشيخ سعيد بن عمر بن غلفان قد حاول جمع ثروة هائلة، وتعب كثيرًا للاستيلاء على حكومة مرباط، غير أنَّه اضطر بعد فشله إلى الانسحاب إلى جزيرة الحلانية، وبعد فترة عاد الشيخ إلى الظهور في الحويَّة القريبة من مرباط، واحتفظ بسيطرتة على كافة الجزر، ولا يزال خلفاؤه يزورون الجزر من وقت إلى آخَر لجمع الزكاة، ويبدو أن هذا الحق أصبح معترفًا به من كافة القبائل في هذه المنطقة وقد انخفض عدد السكان إلى درجة كبيرة عن ذي قبل عندما زارها في سنة ١٨١٨م رهط من سفن القراصنة التابع لرأس الخيمة.

أما الجزيرة الرابعة وهي قبليّة فتبعد اثنى عشر ميلًا عن جزيرة الحلانية، وهي رأس جيري ارتفاعه خمسمائة وخمسون قدمًا وطوله ميلان وعرضه ميلًا واحدًا. وفي هذه الجزيرة توجد كهوف عديدة، وتغطى أرضها طبقة كثيفة من السماد الطبيعي، وأثناء عمليات نقل هذا السماد كان يقيم فيها وكيل الشركة مستر ماكالمونت، وكانت تقوم بحراسته إحدى السفن التابعة للأسطول الهندي.

أما أصغر جزر كوريا موريا (الحلانيات) فتسمى جرزوت وهي جزيرة من الجرانيت الأحمر وارتفعها ٢٣٠ قدمًا ويُسمّيها الملاحون البرتغاليون رودوندو وتقع على بعد نحو نصف ميل بين جزيرة الحلانية وجزيرة قَبْليَّة.

* * *

# الفصل العاشر

# تاريخ ظَفار وجغرافيتها

# وصف لظَفار والبريمي

لأسباب عديدة تستأثر منطقة ظَفَار رغم صغرها باهتمام الباحثين، وعلى الرغم من أن أهميتها التاريخية قد عفى عليها الزمن، إلا أنَّها تحتفظ ببعض الأهمية من خلال ما ورد عنها في اللوحات القديمة، باعتبارها تشكل الحدود الشرقية لأسرة القحطانيين، ومن الشهرة التي اكتسبتها من كونها أحد مصادر اللبان في العالم، وهو الذي كان يصدر منذ العهود الغابرة إلى كثير من الأقطار النائية في العالم المعروف.

ففي الفصل العاشر من سفر التكوين نقف على تقسيمات الجنس العربي من خلال أسماء أولاد سام، فقد استولى أحد أحفاد هؤلاء الأبناء وهو قحطان على الجزء الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة العربية، ومن بين هؤلاء الأحفاد الثلاثة عشر الذين انحدروا من ذلك الجد المؤسس يمكننا التعرف على عدد كبير منهم بطريقة مرضية، وموطن هذه الأسر، كما جاء في الفقرة الثلاثين هو ميشا، وهو المكان الذي يقع في اتجاه سفار، وهو جبل يقع في الشرق.

وبالتالي فإن اسم وأوصاف ظَفَار وهي التي تقع إلى الشرق من حضرموت تتطابق مع أوصاف سفار، كما ورد ذكرها في الإنجيل، وقد جاءت الأوصاف متطابقة ودقيقة، بحيث لا تترك أي مجال للشك أو التساؤل.

أما المخطوط الإسكندري في المتحف البريطاني فإنه يحدد بدقة أكثر الاسم، وهو سوفار، مما يعني أنَّه اسم أكثر شبهًا بالاسم العربي وهو ظَفَار.

وقبل الفترة التي تناولها الإنجيل بوقت طويل، ورد في السجلات المصرية القديمة اسم المادة الرئيسية التي تنتجها ظَفَار، مما يعني أنَّ ظَفَار كانت ميناءً مزدهرةً وسوقًا رائجًا في فترة مبكرة من التاريخ، وأنَّها كما يذكر سبرنجر كان إنتاجها من اللبان محورًا للتبادل التجاري.

ويعطينا الكُتَّاب الجغرافيون الإغريق والرومان أمثال هيرودوتس، وسترابو، وبليني، وديو دروس، وبوليمي، وغيرهم معلومات عن أرض اللبان، ويحكون قصصًا غريبةً عن الأرقام الضخام الذين يحرسون مزارع اللبان في تلك المنطقة، فقد كان اللبان واحدًا من أثمن وأغلى المنتجات. والواقع أن ظَفَار بلدًا كانت تحوطها هالات من القصص الخرافية والروايات الغامضة، فقد كان اللبان في ذلك الزمان من المواد العطرية التي تستخدم في المعابد، وكان الطلب عليها كبيرًا، وكان يتم نقله بالبحر إلى جميع أركان العالم شرقًا وغربًا وشمالاً.

ولقد عاصر المؤلفون الكلاسيكيون فترة نشوء مملكة حمير في جنوب الجزيرة، والتي لم تتورع بعد أن استولت على مقاليد السلطة من ضمِّ ظَفار إليها، وبذلك الإجراء تمكنت من احتكار تجارة اللبان الرابحة، وعلى أيّة حال فقد كانت ظَفار بعيدًا جدًّا عن المراكز الحميرية، بحيث تعذر اتخاذها عاصمة للمملكة، كما يعتقد البعض. أما ظَفَار التي ألمح إليها المؤرخون العرب بوصفها مركز الحكم ومقر للحكام، فقد كانت تقع بالقرب من صنعاء وهي إحدى المناطق الأثرية التي نوه عنها المؤرخ نيبور.

وقد حاول عدد من الجغرافيين العرب أن يخلطوا بين ظَفَار وأخرى، وأدلوا بمعلومات غير دقيقة عنها، إلا أنَّنا نعلم علم اليقين أن ثمة مدينتين بنفس الاسم تعرف إحداهما بظفار آل زيد، والأخرى بظَفَار الساحل التي هي الآن محور حديثنا، فقد سقطت الأولى بنهاية الأسرة الحميرية في القرن السادس من عصرنا أي قبل وقت قريب من ظهور النبي محمد (ﷺ)، ولم يكن عمرها يتعدى أكثر من ستة قرون على وجه التقريب بينما ظفَار الساحل من ناحية أخرى استمرت في التوسع والازدهار وبقيت لآلاف السنين ميناء مزدهرًا كثيف السكان، غير أن تاريخها القديم قد تلاشى من الذاكرة، ولم تسلط عليها الأضواء إلا بعد انتشار الإسلام في الجزيرة العربية، وحتى بعد ذلك فإن الأضواء التي سلطت عليها كانت باهتة وعابرة، بحيث لا نستطيع أن نرسم صورة مستفيضة عن أحداثها التاريخية.

وبعد عامين من وفاة الرسول (ﷺ)، وقيام القوات التي أوفدها الخليفة أبو بكر إلى عُمَان بقيادة عكرمة لإعادة تثبيت الدعوة التي قام بها بعض المرتدين في بعض الأقاليم العُمَانية.

وصل عكرمة إلى ظَفَار قادمًا من عُمَان بعد أن تمكن من إخماد نار الفتنة الدفينة في المعركة المشهورة التي دارت رحاها في دبا، وكان عكرمة قد ترك حذيفة في عُمَان لإخضاع القبائل وتهدئتها، وقد عبر الصحراء التي تفصل بين المنطقتين، وسرعان ما نجح في إعادة تثبيت العقيدة الإسلامية فيما بين المهرة وقبائل الأزد في تلك المنطقة، ثم زحف منها إلى حضرموت لفرض الطاعة والانضباط هناك، وبعد أن تحقق له ذلك عَيّن سعيد بن لبيد حاكمًا على الإقليم.

وخلال القرنين التاليين ترسخت جذور الدين الإسلامي ووسع الخلفاء المسلمون

من رقعة أمبراطوريتهم. وقد خلف عباس بن سعيد بن العاص كوال على اليمن جليه بن علي عمير الذي فصله الخليفة في سنة (٣٥هـ/ ٦٥٥م) وعين بدلًا منه واليًا جديدًا هو عبدالله بن عباس.

وبانتهاء حكم أسرة الأمويين في سنة (١٣٢هـ/ ٧٤٩م) عين القائد العباسي الذي فتح اليمن، ويدعى محمد أبو محمد، محمد بن زيد واليًا على الإقليم، ويحتمل أن تكون سلطة الوالي قد شملت ظَفَار وحضرموت.

وفي بداية القرن الثالث الهجري تم تعيين محمد بن زياد الذي اقترن اسمه بالثورة التي نشبت ضدَّ الخليفة المأمون بعد توليه السلطة مباشرة سنة (١٩٨هـ/ ٨١٣م)، والذي عفى عنه الخليفة وعَيّنه أميرًا على اليمن سنة (٢٠٤هـ/ ٨١٩م) وبعد استيلائه على تهامة بنى مدينة زبيد، وجعل منها عاصمة لحكمه. واستطاع هذا بسياسته الشديدة أن يوسع من آفاق سلطته لتشمل حضرموت وظَفَار وغيرها من المناطق، وعين عليها ولاة من اختياره.

وبعد استيلاء محمد بن زياد على ظَفَار مباشرة وصل إليها الأمير الهندي أمير كرانجانور شاريمان باريمال.

أما أسرة بني زياد فإنَّها لم يكن مقدرًا لها أن تدوم طويلًا في الحكم وكما يتضح، فإنَّه في عهد أبو جيش حفيد محمد بن زياد ثارت مناطق عديدة بما فيها ظَفَار على سلطته حتى أنَّه في عام (٢٩٧هـ/ ٩٠٠م) مَدَّ القرامطة حكام اليمن فتوحاتهم إلى تلك البلاد.

وقد نلاحظ مما أشار إليه الأصطخري الذي زار المنطقة في الفترة المبكرة من القرن الرابع الهجري بأن ظَفَار كانت تابعة عُمَان. كما ورد في (صفات جزيرة العرب) لأحمد بن يوسف الهمداني المتوفى عام (٣٣٤هـ/ ٩٤٥م) بعض الملاحظات عن قبائل هذه المنطقة، كما نقلها الدكتور سبرنجر، والتي يمكن أن نورد بعضا منها هنا:

"إن الأقوام الذين يقطنون المنطقة السفلى من جبال القمر هم من بني خنزريت، وكان هؤلاء قد طردوا سكان ريسوت منها، ثم انسحبوا إلى منطقة الغيث التابعة للمهرة، واحتلوا بلدة حاسك ومرباط لفترة من الوقت، إلا أنَّ قبيلة ثفارة شجعتهم فيما بعد على استرداد ريسوت وطرد سكانها الخنزريت منها. أما زعيم الخنزريت محمد بن خالد، فقد توجه بمعية قبيلته إلى الأرض التابعة لبني ريام، وهي فرع من قبيلة

القمر استقرت هناك. أما السكان الأوائل لريسوت فهم البياسرة، والتي كانت قبيلة جديد الأزدية تسكن بجوارهم. إلا أنَّ قبيلة جديد قد اقصيت من جانب إحدى القبائل العربية التي كانت قد تزاوجت مع المهرة، وإن الرجل الذي حكم المنطقة فيما بعد هو موسى بن ربيعة بن عبدالدار".

وفي منتصف القرن الرابع من الهجرة ولفترة سبقت ذلك بعدة قرون وتحت حكم أسر حاكمة متتابعة عديدة لا نعرف شيئًا عنها، فإنه من المحتمل أن تكون هناك مدينة باسم مرباط، وكانت عاصمة لإقليم ظَفَار. وكانت تقع على الطرف الشرقي للسهل الذي تقع عليه الآن قرية طاقة، حيث لا تزال توجد آثار مدينة كبيرة كثيرة السكان. أما مرباط نفسها التي تمثل المرفأ الرئيسي لرسو السفن، والتي تحدث عنها كل الجغرافيين العرب الأوائل تقريبًا فإنَّها تقع على بعد نحو عشرين ميلا شمال قرية مرباط الحالية، والتي كانت على ما يبدو مرسى خارجيًّا للسفن خلال مرحلة المونسون الشمالية الشرقية.

والمدينة القديمة تتوافر فيها مصادر وفيرة للمياه التي تنحدر من المرتفعات الجبلية، وكان فيها ثلاثة خلجان كانت كلها مرافئ ومراسي للسفن العربية، وقد أشار إليها كل من هينز وكارتر وبنت. وكان أكبر تلك المرافئ يسمى روري، ويمتد إلى مسافة ميلين تقريبًا.

إلا أنَّ مدينة مرباط القديمة التي تميزت لقرون كثيرة بوصفها الميناء والسوق الرئيسية لتجارة اللبان، فقد انتهت فجأة في منتصف أو نهاية القرن الهجري الرابع عندما ظهر على المسرح مؤسسو حكم أسرة المنجوي واستولت على مرباط، واستمر احتلالهم لها بعض الوقت، ثم قاموا بعد ذلك بتدميرها ونقل العاصمة إلى ضفة أحد الخلجان الواقع على بعد عشرين ميلًا تقريبًا إلى الغرب، كما أنَّهم على ما يبدو أنشأوا في موقع إحدى المدن القديمة مدينة أخرى في نفس الموقع الذي يضمُّ الآن الآثار والبقايا ويُسمّى البلاد (البليد)، وهي نفس المنطقة التي أفاض كارتر في وصف معالمها.

أما ابن مجاور فيذكر لنا بأنَّ الذين بنوا مرباط هم الفُرس، وأن آخِر أسرة من الفُرس حكمت المنطقة هي المنجويين، وفي إطار هذا القول فإنَّه يشير بالطبع إلى البلاد التي ينطبق تصميمها وفنها المعماري بالطابع الفارسي بشكل لا يسمح بالشك، كما يدل

ذلك إلى أنَّ المنجويين قد نقلوا اسم وموقع عاصمتهم وأطلقوا على البلدة الجديدة اسم مرباط.

أما عن أصل المنجويين والأحداث التي اتسمَّ بها حكمهم، ومتى ظهروا، وإلى أين اتجهوا؟ فإنَّها كلها أمور افتراضية؛ نظرًا لأنَّ المؤرخين العرب لم يتطرقوا إليهم (ويقول كارتر بأنَّ هذه الأسرة جاءت من بلخ)، ويلاحظ أيضًا أنَّ تلك الأسرة الهامة قد تركت مؤثراتها العميقة على عقول ووجدان سكان المنطقة، وذلك على خلاف أغلب الغزاة، وبالتالي فإنَّ مجموعات الأنقاض المبعثرة على الساحل كدليل على المدن القديمة التي أنشاؤها إنما تعزى إليهم، وأنَّه ليبدو شيئًا غريبًا حقًا أن الإشارة إلى تلك الأسرة ضئيلة فيما بين المؤرخين، فربما جاءوا من سيراف أو البصرة أو قلهات، أما الاعتقاد بأنَّهم نزحوا عن مواطنهم الأصلية؛ بسبب أعمال اضطهاد سياسية أو دينية الأمر الذي كان يقع كثيرًا فإننا لم نتأكد منه.

ومن كتاب الكامل لابن الأثير نقف على معلومات أوسع عن ظَفَار من أي مؤرخ آخَر، فهو يذكر أنَّه في عام (٤٩٠هـ/ ١٠٩٦م) توفي في ظَفَار راشد بن أحمد بن عبده الذي يمكن أن نأخذه كملك في ذلك الوقت، وبأنَّ قبيلة القمر قد اتصلت في عام (٥١٠هـ/ ١١١٦م) بعبدالله بن راشد تطلب مساعدة من أهل ظَفَار، وقد قدمت لهم تلك المساعدة.

ويخبرنا الإدريسي بأن حاكم ظَفَار في سنة (٥٤٠هـ/ ١١٤٥م) كان أحمد المنجوي، وبأنَّ ظَفَار في ذلك الوقت كانت تابعة لعُمَان، ويبدو أن مدينة مرباط التي كانت محمية عُمَانية في ذلك الوقت قد تعرضت لعملية نهب وسلب من سكان جزيرة قيس، وكان هؤلاء القراصنة يقصدون عدن.

وفي سنة (٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) قام جنود من حضرموت بالزحف على ظَفَار ومحاصرتها لمدة خمسين يومًا؛ ولكنهم ردوا على أعقابهم.

في سنة (٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م) اغتيل هيبوب في ظَفَار، وكان واليًا على ظَفَار في ذلك الوقت، على حدِّ قول كارتر، شخص يدعى محمد بن محمد يعتقد أنَّه ابن المنجوي الذي اغتيل عام (٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م)، وربما كان هيبوب هو الأمير المنجوي الذي عقد معاهدة صداقة مع الحبوضي وكان هذا الأخير تاجرًا؛ ولكن الحبوضي الذي اغتصب الحكم في سنة (٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م)، كما ذكرنا قام بإعدامه.

وهذا المغامر الذي أسس الأسرة الثانية كان يُسمى أحمد بن محمد الحميري الحبوضي، وكان من أصل حضرمي، وقد بدأ حياته كبائع، ثم أصبح تاجرًا وصاحب سفن. ويقال أيضًا: أنَّه كان رجل علم ومن سلالة مظهر، كما وصلتنا معلومات عن مغامراته، وكيف أن أمير ظَفَار المنجوي قد منحه سفينة بعد أن فقد سفينته التي تحطمت، كما حصل على سفينة أخرى من سيف الإسلام حاكم عدن. ويتحدث عنه ابن خلدون وابن الأثير وابن المجاور بأسلوب ممتع وقد أشاد هؤلاء بمواهبة التي هيأته ليتقلد منصب الوزير، ثم اغتصابه الحكم في نهاية الأمر عندما تم له خلع آخِر حاكم من أسرة المنجوي.

ويؤكد العديد من المؤرخين العرب بأنَّ الحبوضي قد أنشأ عاصمة أخرى بدأ العمل فيها سنة (٦١٨هـ/ ١٢٢١م)، واستغرق بناؤها ثلاث سنوات، وقد سماها باسمه، وكان الدافع الواضح من عمله هذا هو أن العاصمة القديمة تبعد كثيرًا عن الساحل، وبالتالي فإنَّ موقعها بعيد عن مرافئ السفن، حيث يجعلها غير مفيدة، وهذه القصة رغم أنَّها ترتبط بالظروف فإنها غير صحيحة. ورغم أن الحبوضي قد أقام تلك العاصمة إلا أنَّها بالتأكيد لم تكن مرباط الجديدة، التي أنشأها المنجويون قبل ذلك بمائتي عام، وكانت قريبة من البحر مع وجود خليج أو مرفأ عميق تحتمي به السفن. وكعربي لم يكن في وسع الحبوضي إنشاء مدينة كمرباط أو كما كانت تسمّى البلاد، فالزخرفة والنقوش في مبانيها والتصميمات الرائعة وطريقة بنائها والذوق الرفيع لأعمال الحفر والنحت كان ذلك لا يوحي بأنَّ له نظيرًا في شبه الجزيرة، مما يدل على أن الذين أنشأوا تلك المدينة كانوا متفوقين حضاريًّا.

أما عن أحداث تلك الفترة من الحكم فلسنا نعلم شيئًا عنها، غير أن ابن مجاور يحكي لنا أنَّه في عام (٦١٦هـ/ ١٢١٩م) وصل بعض رجال البدو من اليمامة عبر الصحراء؛ لبيع بعض الخيول، وقد استقبلهم الحبوضي بالحفاوة والترحيب، وعاد أولئك البدو من نفس الطريق التي جاءوا منها، غير أنَّه لا يبدو أنَّهم عادوا مرة أخرى لزيارة البلاد، فأسرة الحبوضي بقيت لأسباب لم تعرف منسية بعد وفاته من سنة (٦٢٥هـ/ ١٢٢٧م)، وانتقل زمام السلطة إلى غيره من الحكام، غير أن ورثته حضروا فيما بعد مطالبين بتركته.

وقد أعقبه في الحكم محمد بن علي بن الحسن القلعي الذي استمد لقبه من قلعة

حلب، وقد توفي هذا الرجل عام (٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م)، ودفن في رويات، ويبدو أن رجلًا من المنجوي قد خلفه على الحكم يدعى أبو بكر محمد بن عمر الهزاز الذي قتل هو الآخَر في سنة (٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م)، وقد خلف أبو بكر ولدين هما محمد وعبدالرحمن، وقد أختير وصيًّا عليهما أحمد بن علي الظَفَاري.

وفي عام (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) استولى الأتراك على بغداد، وسقطت الأمبراطورية العربية التي كان يطلق عليها الخلافة الشرقية، غير أن هذه البقعة النائية من شبه الجزيرة العربية لم تحس أو تتأثر بها، سيّما وأنَّه لم يكن من عادة الحكومة المركزية أن تتدخل في شؤون ممتلكاتها.

وفي العام التالي (٦٥٧هـ/ ١٢٥٨م) وعلى حدِّ قول روس في سنة (٦٦٠هـ/ ١٢٦١م) قاد سيّد هرمز ركن الدين محمد بن أحمد الكوشي الذي كانت له أطماع عسكرية حملة إلى قلهات، ومنها زحف على ظَفَار. غير أن محمد أبو بكر تمكن من رده على أعقابه إلا أنَّه قام بعمليات سلب ونهب في المناطق الساحلية، وقد ورد هذا القول في كتاب تاريخي عثر عليه في ظَفَار. أما الحملة العسكرية نفسها فقد تعرضت على ما يبدو لكارثة في طريق عودتها؛ بسبب العطش والجوع اللذين فتكا بأفرادها حتى تقلص عددها إلى ٥٠٠٠ فرد فقط.

وبعد بضع سنوات تمت استعادة مرباط أو الأحمدية عندما تمكن من احتلالها سالم ابن إدريس الحبوضي الذي جاء من حضرموت بقوة واستولى عليها. وهذه الحادثة ربما وقعت في عام (٦٧٠هـ/ ١٢٧١م)، وكانت أسرة الرسولي هي التي تحكم في اليمن، وكان ملكها الملك المظفر يحاول توسيع مملكته عبر الأقاليم المجاورة، وثبت سلطانه فيها.

ويخبرنا الخزرجي مؤرخ أسرة الرسوليين الذي ترجمة أعماله منذ وقت قريب، وقام بها ردهاوس بأنَّ الحُجَّة التي اعتمدت عليها الحملة للاستيلاء على ظَفَار كانت على النحو التالي:

"لقد حدثت مجاعة رهيبة في حضرموت مما حدا بحاكمها إلى الاتصال بسالم بن إدريس ومقابل مساعدته تنحى له عن حصن شبام وغيره من الحصون، مما جعل سالم ابن إدريس يتصور أنَّه باستيلائه على تلك المواقع قد أصبح حاكم البلاد. غير أن أهل حضرموت تمكنوا من إعادة الاستيلاء على شبام، وبذلك جردوا سالم بن إدريس مما

كان يعتقد أنَّه أصبح ملك له. وصادف أن الملك المظفر الحاكم الثاني لأسرة الرسوليين قد بعث برسول إلى فارس، غير أن السفينة التي سافر بها المبعوث تحطمت على مقربة من ظَفَار، فرأى سالم الحبوضي في تلك العملية الفاشلة مخرجًا له، فقام بالاستيلاء على كافة الهدايا الثمينة التي كان يحملها المبعوث لشاه فارس كتعويض له عمَّا خسره في حضرموت، وعقابًا عن هذه العملية تعرض سالم الحبوضي للتوبيخ من جانب الأمير الرسولي - غير أنَّه تعذر تحصيل أي تعويض منه، وبالتالي فقد صدرت الأوامر إلى حاكم عدن، شهاب الدين غازي بإرسال قوة بحرية للهجوم على ظَفَار لاسترجاع أموال المبعوث بالقوة، غير أن قائد القوة البحرية هُزم خلال المعركة، وجرت مطاردة أسطوله حتى مياه عدن. وأمام هذا الفشل جهز ملك اليمن الرسولي حملة أخرى تحركت إلى ظَفَار على ثلاثة أقسام، اثنان عن طريق البر والثالث عن طريق البحر، وقد دارت معركة كبرى بين الطرفين على السهل الواقع بالقرب من قرية عوقد القريبة من ريسوت قتل فيها سالم بن إدريس مع نحو ٣٠٠ من رجاله، وتم أسر ٨٠٠ آخَرين.

وفي يوم ٢٨ من شهر رجب عام (٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م) وهو اليوم التالي للمعركة تم احتلال مدينة مرباط أو الأحمدية من جانب قوات اليمن، وذلك باسم الملك المظفر. كما قام الأمير شمس الدين قائد الحملة بترحيل من بقى من أسرة الحبوضي إلى زبيد، وعين نائبًا وحاكمًا على المنطقة. وعند انتشار نبأ ذلك الانتصار في الخارج بعث كثير من الأمراء بتهانيهم وهداياهم إلى الأمير، وكان من بينهم ملك عُمَان قحطان ابن عمر النبهاني الذي بعث بجوادين ونسرين ذهبيين.

أما المؤرخ المحلي فإنه يقدم صيغة مغايرة لذلك الغزو فيقول، بأنَّ المجاعة التي أصابت حضرموت وهي السبب البعيد للحرب وقعت في سنة (٦٧٣هـ/ ١٢٧٤م)، وأن الملك المظفر يوسف بن علي قد بعث بالجيش في سنة (٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م) بقيادة ابن الحابك، بينما أرسل جيشًا آخَر بقيادة نجل الملك الثالث بطريق البحر، وبأنَّ القوتين التقيتا تحت أسوار المنصورة أو مرباط، حيث نشبت معركة قتل أثناءها سالم ابن إدريس، ودخل الجيش المنتصر المدينة، وعاث فيها سلبًا ونهبًا. وعلى أيّة حال فقد صمد حمد بن إدريس بشجاعة فائقة مما أرغم الواثق بن يوسف على رفع الحصار عن البلدة والانسحاب إلى زبيد مصطحبًا معه غنائمه وأسراه. وفي العام التالي (٦٧٩هـ/

١٢٨٠م) أرسل الملك المظفر قوة عسكرية أكبر لتحقيق هدفه ونشبت معركة دموية مكنت المهاجمين من اكتساح القلعة، ووقوع موسى بن إدريس أسيرًا في أيديهم. وقد عين ملك اليمن نجله الواثق بالله كحاكم على ظَفَار، وبذلك استمرت أسرة الرسوليين التي بدأت منذ ذلك الوقت قرابة مائة وخمسين عامًا.

وقد حدث في أعقاب استيلاء الرسوليين على ظَفَار وربما سنة (٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م) وصول المؤرخ الشهير ماركو بولو إلى مرباط التي وصفها على النحو التالي:

"ظفار بلد عريق وجميل ويقع على منطقة تبعد مسافة ٥٠٠ ميل إلى الشمال الشرقي من الشحر، وسكانها عرب، وهم يحترمون زعيمهم الذي يخضع لسلطان عدن؛ لأن هذه البلدة لا تزال تابعة لعدن، وهي تطل على البحر ولها ميناء جميل يتيح لحركة نشطة بين السفن، ويقوم التجار بنقل أعداد كبيرة من الخيول العربية إلى الأسواق، ويربحون من ورائها أرباحًا طائلةً. وللبلدة قرى ومناطق كثيرة تابعة لسلطتها، وهي تنتج كميات هائلة من اللبان، وسوف أقص عليكم كيف يتم انتاج هذه المادة، فأشجار اللبان تشبه أشجار التنوب الصغيرة، ويتم شقُّ شقوق في مواضع عديدة فيها بالسكين، ومن تلك الشقوق ينبثق اللبان، وأحيانًا يسيل اللبان من شجرته من تلقاء نفسه عند اشتداد حرارة الشمس".

ومعلومات ماركو بولو توضح بجلاء كبير أن ظَفَار في تلك الفترة كانت مركزًا تجاريًّا مزدهرًا كثيف السكان، وأن محصولاتها من اللبان وهو المحصول الرئيسي كان أغلبه يصدر إلى الخارج. وفي أيّامنا هذه لا تصدر خيول من جنوب شبه الجزيرة، كما أن عدد الخيول في المنطقة الجنوبية منها قليلة جدًّا.

وفي عام ٦٨٥م اجتاح ظَفَار إعصار مدمر وأحدث دمارًا كبيرًا فيها، فأصاب مزارعها بالتلف، ومات كثير من أهلها وأصيبوا بخسائر فادحة.

إن تسلسل الملوك اليمنيين في ظَفَار خلال هيمنة الرسوليين عليها متناقضة وغير وافيةٍ حتى أن مؤرخي المنطقة أنفسهم لا يدلون بمعلومات يعتد بها عن هذه الفترة، وجل ما يقولونه أن السلطان إبراهيم بن يوسف نجل الملك المظفر دخل مدينة ظَفَار في يوم الاثنين من آخِر يوم من أيّام ذي الحجة (٦٩١هـ/ ١٢٩١م) ،وحكمها خمسة عشر عامًا، والاحتمال الأكبر أن السلطان إبراهيم بن يوسف الذي هو نجل الملك مظفر هو الواثق نفسه، وأن والده هو الذي منحه حكم ظَفَار بعد احتلالها

عام (٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م) وهو نفس الشخص الذي تناوله الخزرجي وسماه الواثق إبراهيم وقد تستنتج من هذا القول أن الواثق إبراهيم حكم فترة امتدت خمسة وعشرين عامًا وأنَّه توفي عام (٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م). ويبدو أن الواثق قد خلفه على حكم ظَفار نجله الأشرف، إلا أنَّه بعد أن وصل خبر توليه الحكم إلى أخيه مؤيد الدين النجل الثاني للملك مظفر أعد الأخير جيشًا في منطقة الشحر لشنِّ هجوم على أخيه الأشرف والاستيلاء على ظَفَار، غير أن أخبار تلك الحملة لم يتكلم عنها المؤرخون.

وفي سنة (٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م) اجتاح ظَفَار إعصار آخَر وأحدث دمارًا واسعًا فيها، غير أن المؤرخ ابن بطوطة الذي كان في زيارة ظَفَار في نفس العام لم يشر إليها وهو يخبرنا بأنَّ حاكم ظَفَار في ذلك الوقت هو ناصر بن الملك المغيث. وقد عاد ابن بطوطة إلى ظَفَار في عام (٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م) ووجد السلطان نفسه لا يزال في الحكم ومعلومات ابن بطوطة عن زيارته لظفار هامةً جدًّا، وقد ألحقت تلك المعلومات في الطبعة الفرنسية المترجمة لرحلاته. وغير واضح ما إذا كان السلطان ناصر هو من أسرة الرسوليين، أو أنَّه حاكمًا عينه الملك، ويبدو أن الأخير قد قضى معظم أوقاته في العاصمة اليمنية، وعين واليًا لإدارة السلطة في ظَفَار، وكان يزورها من وقت إلى آخَر لمجرد الحصول على الدخل.

وفي ختام القرن الهجري الثامنِ أصبح الكثيريون وهم من القبائل الحضرمية البارزة أقوياء مما دفعهم إلى شنِّ غزو لظَفَار بقيادة أحد محاربيهم المشهورين الشيخ بدر ابن الجيرلي واستطاعوا طرد حاكمها وتجريد أسرة الرسوليين من السلطة والاستيلاء على ذلك السهل الخصب، والملاحظات التالية مأخوذة من أحد الكتب التاريخية المحلية:

"في منتصف شهر رجب (٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م) تولى الأمير محمد بن أحمد القرا منصب والي الشحر خلفًا لسعيد بن شماسه وفي شهر ذي الحجة من نفس العام اغتيل شهاب الدين أحمد بن عمر الجيرلي في ظَفَار.

وفي العام التالي توفي الأمير ناصر الدين محمد بن عمر الترياقي الظَفَاري في ظَفَار، وفي عام (٧٩٨هـ/ ١٣٩٥م) دمرت منطقة السواقي والمخاليف، كما اغتيل الشيخ الحبشي وابنه، وتم الاستيلاء على الحصن المعروف باسم الإحساء. ومن ناحية أخرى خرج بدر الشهاب الجيرلي الذي عرف فيما بعد بالظَفاري بجيش من حضرموت

إلى ظَفَار واستولى عليها بعد معركة مع الترياقي. وقد عاد إلى البلاد في شهر ربيع الأولى. وفي العام التالي (٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م)، شنَّ بدر هجومًا آخَر على الترياقي في ظَفَار وحاصرا البلاد ليوم واحد، ثم توجه إلى رويات متعقبًا فلول قوات الرسولي في انسحابها من المنطقة.

وبعد تسعة شهور وفي شهر رمضان من نفس العام جدد الوالي الرسولي شهاب أحمد بن الترياقي بالاشتراك مع ابن جدوان ضربهم في محاولة لاسترداد المنطقة من بدر بن الجيرلي الذي كان يهيمن عليها. وقد دارت المعركة على الطريق وهزم فيها الرسولي متكبدًا خسائر فادحة بينما انسحب ابن جدوان مع رجاله البدو فورًا إلى المنطقة، وفي العام التالي (٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م) حضر العالم الديني محمد بن حكم أبو قشير والي ظَفَار قادمًا من حضرموت وحقق السلام فيها، ويضيف هذا المؤرخ أنَّه بعد مضي فترة من الوقت هاجم سعيد بن علي العبد الشيخ محمد بن أبي بكر في رويات وقضى على أفراد أسرته.

ويبدو أن الرسوليين قد عادوا في شهر شوال فقاموا بمحاولة أخرى أنجح لاسترداد ظَفَار، ونعلم أن سلطان المجاهد الواثق الظَفَاري قد دخل الشحر. ومنها توجه إلى اليمن لجمع جيش زحف به على ظَفَار واحتلها، غير أن المؤرخ لا يذهب إلى أبعد من هذا الحد؛ ولكننا قد نتصور أن النصر الذي حققه الرسوليون كان قصيرًا. وأنَّ الشيخ بدر ظلَّ محتفظًا بسلطانه على ظَفَار، ويقال أن هذا الشيخ الذي يعرفه الكثيريون باسم بدر بو طويرق كان مقيمًا في بلده سيئون، ثم أصبح سيِّدًا على ظَفَار وحضرموت. ومدَّ فتوحاته حتى حدود رأس الشربيتات. وتجدر الإشارة إلى أن كارتر لم يذكر شيئًا عن فتوحاته حتى حدود رأس شربثات. كما أنَّه لم يذكر شيئًا عن بدر. إلا أنَّه أبلغ بأن مؤسس أسرة الكثيري هو علي بن عمر الكثيري. ويبدو أن جماعات أخرى تمكنت من تجربة الكثيريين عن السلطة فيما بعد إلا أنَّهم في النهاية استردوا سيطرتهم، وظلوا محتفظين بها حتى الوقت الحاضر. وقد عثر على شواهد القبور الكبيرة من المرمر في رويات على لوحة تذكارية باسم مالك الفاتح عبدالقادر ابن عبدالوحيد بن الواثق إبراهيم بن المظفر عمر بن علي. وتعتبر هذه اللوحة من المخلفات القيمة، غير أن تاريخها غير واضح. ولعل عبدالقادر هذا حفيد الواثق وهو الذي حكم ظَفَار في وقت من الأوقات.

لقد كان آخَر حاكم لظَفَار من أسرة الرسوليين في اليمن هو المظفر يوسف بن منصور الذي نقل عاصمة الحكم من صنعاء إلى تعز وتوفي عام (٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م).

وبعد نصف قرن على وفاته ظهر البرتغاليون في المحيط الهندي بعد نجاحهم في الدوران حول رأس الرجاء الصالح، ونظرًا لسيطرتهم في البحر فقد فرضوا أنفسهم على مناطق الساحل العربي.

وفي سنة (٩١٣هـ/ ١٥٠٧م) قام الفاتح الأكبر ألفونسو دي البكويرك بالإبحار بسفينته التي تسلمها من ترستان داكنها بالقرب من جزر كوريا موريا (الحلانيات) في الطريق إلى مسقط وهرمز. ثم بعد سنوات مرَّ بظَفَار في طريقه لشنِّ هجوم على عدن. غير أنَّه لا يبدو أن دي البكويرك أظهر أي اهتمام بظفَار.

وفي عام (٩٣٣هـ/ ١٥٢٦م) أرسل نائب الملك في جوا وحدة من الأسطول للاحتكاك بالعرب سكان البحر الأحمر، وكان الأسطول تحت قيادة هكتور دا سلفيرا، وفي طريقه رسا الأسطول على ساحل مرباط أو المنصورة ثم هاجمها، غير أن الهجوم مُنيَّ بالفشل وصُدَّ المهاجمون على أعقابهم غير أن القائد سبلنيرا تمكن من نهب البلدَة وغادرها عائدًا.

وبعد بضعة سنوات وفي عام ١٥٣٩م رسا القائد سليمان باشا، وكان عائدًا من حملته الفاشلة على ديو بالقرب من مخا، واستولى على مدينة زبيد، وأسس حكم الأتراك في اليمن. وقد وقع الجزء الشرقي حتى صحار تحت سيطرته، وعين حاكمًا على البلدة هو مصطفى بك، أما بالنسبة لظفَار فإن القائد التركي لم يتدخل في شؤونها أكثر من تحصيله للزكاة من سكانها.

وفي سنة ١٥٥٣م، قام البرتغاليون بمحاولة أخرى ويائسة لإخضاع ظَفَار كحلمهم. غير أن المحاولة هذه أسفرت عن كارثة محققة لأسطولهم.

وكان نائب الملك البرتغالي في جوا أفونسو دي نورنها قد أرسل نجله فرناندس على رأس أسطول لتدمير التجارة العربية في البحر الأحمر، وكان هذا القائد الشاب قد عقد العزم على اختبار فتوته وقوته الناشئة في ظَفَار؛ لكن عرب ظَفَار دافعوا عن مدينتهم ببسالة فائقة مما أرغم سفن الأسطول المهاجم على الانسحاب تاركين عددًا هائلًا من القتلى في ساحة المعركة. وأثناء عودة القائد دوم فرناندس من البحر الأحمر حاول على كل حال الاحتكاك بالأسطول التركي الذي كان يقوده علي

بك بالقرب من مسقط واستولى على ست سفن من الخمس عشر سفينة التي كان يتكون منها الأسطول. ثم يمرُّ قرن ونصف قرن يسدل الستار فيها على أخبار ظَفَار وشؤونها ولا نعرف ما إذا كان الإقليم خاضعًا لليمن أو لعُمَان أو أنَّه بقى مستقلًا.

في سنة ١٦٩٢م زار أوفينجتون ظَفَار ووصفها بأنَّها بلد مزدهر بالتجارة ويقع على الساحل؛ ولكنه لم يذكر شيئًا عن اسم حاكمها؛ ولكنه قال بأنَّ سكان ظَفَار في حروب مستمرة مع الشحر وكيشين، كما أنَّه وجد النّاس فيها لا يميلون إلى الأجانب أو يقدمون لهم الضيافة، وأنَّ ظَفَار تنتج اللبان وجوز الهند والزبدة.

وبعد ذلك ببعض الوقت تحدث الكابتن هملتون مؤلف كتاب (معلومات جديدة عن الهند الشرقية) عن زيارته لظَفَار، فأيَّد رأي أوفينجتون عن أهل ظَفَار تجاه الأجانب بأنَّه موقف يتسم بالريبة والحذر؛ ولكنه هو الآخر لم يعط أيّة معلومات عن الأوضاع السياسية للبلاد، وهو يذكر أنَّه في سنة ١٧٠٥م رست سفينة إنجليزية على ساحل ظَفَار للتزود بالماء، وأن أهلها توافدوا على السفينة يعرضون منتجاتهم للبيع. وقد شعروا أن بحارة السفينة الإنجليزية الذين لم يكن يتجاوز عددهم الستة أو السبعة غير مسلحين مما شجع الظَفَاريين على مهاجمة البحارة ونهب السفينة ثم خرقها. ويقدم الكابتن سيمون نفس الرأي عبر الزيارة لميناء ظَفَار فيما يختص بما تنتجه من محاصيل وفقًا لما ذكره أوفنجتون. ففي تلك الفترة كان القراصنة الإنجليز يرتادون إقليم ظَفَار طلبًا للماء والترويح، غير أننا لم نسمع أن هؤلاء القراصنة قد تعرضوا بالأذى لأهل ظَفَار.

وخلال القرن الثامن عشر ظهرت بعض الآراء الوهمية عن ظَفَار إلا أننا علمنا أنَّها في بداية القرن التاسع عشر أصبحت معقلًا ووكرًا لأشهر قرصان في المنطقة، اقترف عمليات اعتداء ونهب خطيرة ضدَّ السفن التي ترتاد البحر الأحمر، وكان هذا القرصان يدعى سيِّد محمد عقيل، ويقال أن أصله من بلد مخا، حيث كان يتاجر بالاشتراك مع أخيه عبدالرحمن، وكان الاثنان يمارسان العمل التجاري في سفينة يملكها والدهما، وكان هذا الأخ أو أخ غيره له يقوم في مكة بحملة ضدَّ احتلال الفرنسيين لمصر، ثم توجه مع نفر من قومه إلى مصر واشترك مع المماليك في عمليات ضدَّ الجنود الفرنسيين في مصر العليا. كما أنَّ أحد الإخوة كان عميلًا أمريكيًّا من مخا.

وكان سيّد محمد عقيل يستمد قوته ونفوذه من كونه من سلالة الرسول (ﷺ) وقد توجه إلى جزر موريشيوس، وعاد منها في شهر أغسطس سنة ١٨٠٥م ومعه سفينتان جميلتان هما بنجوين وبيجوه، وكانت الأخيرة سفينة غنمها الفرنسيون من الإنجليز واستولوا عليها، وقد حملها بكميات كبيرة من الذخيرة والأسلحة، وأثناء وجود سيّد عقيل في كمران ركب السفينة أسكس التي كان يقودها الكابتن أورم، وقد تظاهر بالصداقة للأمريكيين ووعدهم بالعمل لمصلحتهم، وقد قبل القبطان منه ذلك العرض؛ ولكن رجال سيّد عقيل صعدوا إلى السفينة واستولوا عليها بالقوة، ثم توجهوا إلى كمران، حيث تم إعدام كل من الكابتن أورم والمستر كارتر وجميع البحار وألقي بهم في البحر فيما عدا عامل القمرات الذي احتفظ به سيّد عقيل في خدمته، ثم بعد ذلك استولى على محتويات السفينة، بما في ذلك مبلغ ١٢٠٠٠٠ دولار أمريكيًّا وأغرقها. وكنتيجة لتلك الجريمة وربما رغبة في الحيلولة دون احتلال كمران لمصلحة الفرنسيين تم إرسال الطرادان البريطانيان مورنتجتون وترنيت من الهند؛ ليتعقب سيّد محمد عقيل والقبض عليه، غير أن الأخير تمكن على أيّة حال من الإفلات، وإدراكًا منه لوجود الطرادين في البحر الأحمر انتقل إلى ظَفَار وذلك في سنة ١٨٠٦م، وتمكن من احتلال البلدة وإعداد حرس خاص له مكون من خمسمائة زنجي، ثم بدأ يمارس الإرهاب ضدّ المناطق المجاورة.

وبعد بضع سنوات أقلع عن القرصنة ووجه اهتمامه إلى الزراعة والتجارة؛ لتحسين أحوال البلاد، غير أنّه لا بُدّ من الإشارة إلى أنَّه لم يتحول عن حرفته السابقة إلا مرغمًا، بعد أن اضطر إلى ذلك، وليس بيقظة من ضميره وإنما إحساسًا بالوجود البريطاني المتمثل في الحملة العسكرية التي أرسلت إلى رأس الخيمة؛ لتصفية أوكار القراصنة في الخليج سنة ١٨٠٩م.

ثم زاد سيّد عقيل عدد حرسه الخاص إلى ١٠٠٠ رجل، وضمَّ إليه قرية مرباط وبنى قلعة هناك ونجح في التغلب على قبائل القرا الذين كانوا يناصبونه العداء. وقد ظلَّ هؤلاء يتربصون له حتى تمكنوا من نصب كمين له أثناء عودته من مرباط إلى ظَفَار، وهكذا انتهت حياته. وما إن وقع ذلك حتى لاذ أنصاره بالفرار. ويقول لنا هينز أنَّ سيّد عقيل كان تقيًّا وورعًا وكان يحظى باحترام الجميع لرقته ونزاهته، وأن تجارة البلاد وسكانها قد تطورت وزادت خلال عهده، ولا يزال لسيّد عقيل

معجبوه ومريدوه، غير أن الحكايات في ظَفَار عن قسوته وبطشه وتعطشه للدماء كثيرة، وأنَّ كثيرين يعتبرونه طاغيةً شرسًا حتى آخِر يوم في حياته.

وعندما وصل خبر مصرع سيّد محمد عقيل إلى السيّد سعيد سلطان عُمَان أرسل قوة عسكرية للإستيلاء على ظَفَار. وتسليم السلطة إلى نجل محمد الرابع وهو عبدالرحمن، غير أن هذا لم يقبل السلطة، وعاد إلى مسقط رأسه مخا. أما السيّد سعيد فإنه سرعان ما أمر بسحب القوات من ظَفَار التي بقيت كجزء من مملكته منذ ذلك الوقت.

## جغرافية ظفار:

يقع الإقليم على الحافة الغربية لخليج كوريا موريا (الحلانيات) مدخلٍ إقليم ظَفَار الذي يمتد إلى رأس الشجر بمسافة ١٣٠ ميلا، وباتساع حوالي ١٨ ميلا من البحر وحتى التلال الممتدة إلى الصحراء.

ويتكون الإقليم من سهل بحري باتساع عشرة أميال في المركز، وحوالي أربعين ميلًا طولًا، وينتهي بسلسلة من التلال على شكل هلال يبلغ ارتفاعها من ألفين إلى أربعة آلاف قدم، منحدرة نحو صحراء الأحقاف، وهي تغطي منطقة تبلغ مساحتها ألفين من الأميال المربعة تقريبًا، وهذه المنطقة تمثل بسكانها ومنتجاتها الطبيعية واحدة من أكثر مناطق شبه الجزيرة العربية إثارة. ويبدو أن التسمية ظَفَار هي اسم لكل الإقليم، وليس للمدينة وحدها، حيث أن تسميتها القديمة كما يخبرنا هينز أنَّها كانت للجبل وليس للمدينة.

وتنتهي الأرض الخصبة الطميية على الساحل بانحدار حاد عند كلِ حافة، في الشرق مرباط وفي الغرب بندر ريسوت، ويعتبر بندر ريسوت ملجأ جيّدًا للرسو في وقت الرياح الشمالية الشرقية، وهناك العديد من جداول المياه الصغيرة التي تأتي من التلال، وتروي السهل، وهناك العديد من أراضي الحشائش وتنبت بعض الحبوب، فالتربة غنية ومنتجة، ويقال أن هناك ثلاثة محاصيل في العام ويمكننا أن نرى البساتين بكميات كبيرة، ويزرع الدخن والقطن وأشجار النيلة والخضروات.

وينتمي غالبية سكان السهل إلى قبيلة الكثيري، وهي إحدى القبائل الرئيسية في حضرموت، حيث تشغل المنطقة بين شبام وسيئون، وتمتلك سيئون وتريم، ويقال أن الكثيريين هم أول من غزا ظَفَار في بداية القرن التاسع للهجرة تحت قيادة القائد الشهير بدر بو طويرق الذي غزا المدينة وأصبح قائدًا لحضرموت وظَفَار.

واستمرت قبيلة الكثيري تسيطر على السهل. وكان رجال القبيلة على خلاف مع قبيلة القرا، حيث كان رجالها يهاجمون الكثيرين ويزعجونهم. وكان الكثيريون ينقسمون إلى قسمين، قسم يتبع عمر بن كثير، والآخَر يتبع عَمْرو بن كثير، وكلاهما ممثل في ظَفَار، حيث يبلغ عددهم حوالي ٢٥٠٠ يسكنون سبع قرى. وتنتشر في السهل بقايا عدة مدن قديمة تشهد على كثافة ورخاء العصور الماضية، وقد شهدت مدينتين من هذه المدن عصرًا ذهبيًّا هما مرباط القديمة والبليد؛ ولكن هذا القول لم يتأكد بدرجة كافية.

وعلى الحافة الغربية من خليج كوريا موريا (الحلانيات) توجد غبة دوم التي يقع فيها وادي ريكوت، وهو أحد وديان الصرف الطويلة والهامة في الجزء الشمالي من سلسلة سمحان، وهو يفصلها عن الصحراء، ويقال إن هذا الوادي خصيب، وأنَّه يشكل سيلًا غاضبًا جارفًا بعد الأمطار. وإلى جنوب خور ريكوت بمسافة قصيرة تقع أطلال حاسك، وهي المدينة القديمة التي ذكرها بطليموس، والتي كانت في وقت من الأوقات مخزنًا لتصدير اللبان إلى جانب سوق حاسك والتي تقع داخل المرفأ، وتنتمي هذه المدينة إلى قبيلة بامالك التي دمرها العتوب في نهاية القرن التاسع عشر، وقد استمدت مدينة حاسك اسمها من القبيلة القديمة التي سكنتها. وقبيلة حاسك القديمة ما زال اسمها موجودًا كذلك في الجزيرة الصغيرة القديمة، وهم فرع من عبدالقيس. وخلف حاسك توجد كتل المنحدرات الجيرية العارية لسلسلة سمحان، وهناك جرف شديد الانحدار معروف باسم جبل حبروت، وهو على ارتفاع ٤ آلاف قدم، ولعله قبر النبي هود.

وإلى الجنوب من رأس حاسك بعشرة أميال، وفي الركن الجنوبي الغربي من خور كوريا موريا (الحلانيات) تقع رأس النوس، وبالقرب منها قبر صالح بن هود، وهو بناء صخري متهدم للغاية، وفوقه تمامًا جبل النوس على ارتفاع ١٢٠٠ قدمٍ مشكلًا الكتلة الشرقية من سلسلة سمحان، ومن هنا إلى مرباط ولمسافة أربعين ميلًا توجد المنطقة الصخرية الخاصّة بالساحل، وهي تكوين جرانيتي يعرف باسم صالحو، وفي منتصف الطريق خلاله يقع جبل جنجيري وهو حافة هرمية من تكوينات صخرية دائرية على ارتفاع ١٣٠٠ قدم.

وحول رأس زهير أو مرباط يوجد خور مرباط وهو مرفأ آمن من الرياح الشمالية الشرقية وكذلك هناك قرية صغيرة بها حوالي عشرين منزلًا صخريًّا وعدد قليل من الأكواخ البسيطة، وهناك عدد قليل من الخوجا الهنود الذي تتركز بينهم كل تجارة اللبان في ظَفار وحامية يرابط فيها ستة عشر من عرب مسقط لحمايتهم من غارات بدو القرا، الذين يسببون المتاعب أحيانًا. وترتاد الميناء السفن الشراعية التي تنقل التجارة بينها وبين بومباي في الهند؛ ولكن الماء هنا سيء ومالح، وأقرب مكان لإمداد الماء العذب يقع على بعد أربعة أميال، ومقبرة محمد بن علي التي تحمل تاريخ (٥٥٦هـ/ ١١٦٠م) على بعد ميل واحد، والعوائد التي يدفعها التجار الهنود تدفع للوالي في صلالة.

ومن مرباط يتجه حزام ساحلي ضيق باتجاه الشمال لمسافة عشرين ميلًا إلى طاقة، وفي نصف المسافة تقريبًا يوجد منحدر صخري منخفض بارتفاع مائة قدم الذي يمتد فوقه سهل جبل سمحان، وقد تكونت هذه الكتلة العظيمة، كما علمنا من صخور رملية تعلوها طبقة طينية وفوقها طبقة الصخور البيضاء التي تشقها عموديًّا من الطريق بسلاسل جبلية كبيرة، وعلى الحافة الأخرى من السلسلة نجد أن رأس الشجر تمثل تكوينًا مشابهًا لدرجة كبيرة.

أما طاقة فهي قرية يبلغ تعداد سكانها نحو أربعمائة نسمة، وبها القليل من الزراعة، وهناك ثلاثة خلجان بجوارها، وهي خور طاقة، وخور سيعث وخور روري، والأخير يمتاز بعمقه واتساعه، وهو يمتد لحوالي ميلين، وهذه الخلجان تستقبل مياهها من أودية صغيرة في الجبال، والماء فيها بصفة عامّة عذب.

وبالقرب من طاقة هناك بقايا مدينة واسعة من العصور الوسطى ويقول (بنت): أن هذه هي مدينة مرباط التي ذكرها الجغرافيون العرب في القرن الثالث والرابع من الهجرة، وربما كان على حق؛ وبسبب الأمواج العنيفة التي تلاطم الساحل لفترة كبيرة من العام تحتاج السفن التي تصل ظَفَار إلى الحماية والأمن؛ ولكن تلك الحماية يمكن وجودها في الخلجان الصغيرة قرب طاقة في ذلك الوقت. وكلمة مرباط تعني في الأدب الروابط أو المواثيق، والتسمية أقرب إلى الخليج الصغير بجوار طاقة منه إلى مرباط لعدة اعتبارات؛ لذلك تقودنا إلى النتيجة وهي أن هذا كان هو السوق التجاري والميناء الذي أشار إليه ستاكاري وابن حوقل والمسعودي... الخ، وأنَّه كان مزدهرًا في عصرهم، وهو المكان الذي يقع بالقرب من طاقة.

وبمواصلة السير غربًا عبر السهل البحري إلى بندر ريسوت نصل أولًا إلى الدهاريز التي كانت ذات مرة عاصمة قبيلة الكثيري. ثم بعد ذلك إلى مرباط التي بالقرب منها يقع مزار أو ضريح الراجا الهندي المعروف السامري. وأطلال مدينة البليد التي سنتحدث عنها كثيرًا بعد ذلك. وبعدها نعود إلى طاقة وصلالة، حيث يقيم الوالي، وقريتي عوقد المسماة بالشرقي والغربي، والغربي على بعد أربعة أميال من ريسوت، وعبر السهل لمسافة أربعين ميلًا هناك طبقًا لما ذكره كراتندون أحد عشر خليجًا خمسة منها مياهها عذبة. وعبر منحنى سلسلة سمحان من الشرق إلى الغرب ولعدة أميال طولًا.

والاسم سمحان رغم ذلك ينتمي إلى القسم الشرقي، حيث ترتفع قمم الجبال إلى أربعة آلاف قدم، وهي في بعض الأجزاء كثيفة الأشجار وباتجاه الغرب يقل ارتفاع التلال، وأشجارها أقل خضرة ونموًّا، وقممها تقريبًا عارية من الأشجار، ومن السهل ترتفع السلسلة بسرعة بمواجهة البحر. بينما تنحدر تدريجيًّا من الجانب الشمالي نحو الصحراء، ولا يبدو أن هناك أي اسم عام بالنسبة للقسم الغربي من السلسلة، وكل قمة فيها منفصلة، والأسماء التالية أطلقت على تلك الجبال والهضاب من رأس حنون إلى رأس الشجر وهي: جبال بيكان، جبل ويرين وصلات. جبل القرا، جبل ميت فاية، جبل جدباد ومعره، جبل نحيز، جبل أرزات، جبل بيت زبيد، جبل راشام وجبل أرقم، وهذه التلال يحتوي معظمها على كهوف بأحجام مختلفة، تسكن معظمها في الطقس البارد قبائل القرا.

أما الحيوانات الموجودة في ظَفَار فهي القط الوحشي، والثعلب والضبع، والأرنب الوحشي، والغزال والوعل... الخ. وبين الحياة النباتية هناك ينمو شجر الجميز وأشجار السنط والصمغ والرمان والصبر والتين والتمر الهندي والطرفاء وشجر النيلة والنبق وجوز الهند والكثير من النباتات التي لم يتم تحديدها.

والتقرير البحري للساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية يشكل مناسبة جيّدة للعديد من الذكريات القيمة للكابتن هينز والدكتور كارتر وآخَرين، ورغم كل ما وصفوه في أعمالهم تبعًا لمعلوماتنا عن الجغرافيا الطبيعية للأرض إلا أنَّ سلسلة ظَفَار ظلت مجهولة حتى عام ١٨٩٤م، عندما زارها مستر بنت، حيث وضح الصورة الرومانسية والمثيرة للذهن عن الجرف والوادي والبحيرات ومساقط المياه والكهوف، والخضرة

التي يشاهدها المرء على الجبال، وكذلك أمكن العثور على مساكن تلك التلال من القرا الذين يتكلمون لغة خاصّة بهم؛ ولكن مرتبطة بالمهرة.

وعلى الحافة الغربية للسهل البحري لظَفَار هناك مجرى صغير شكلته الأراضي المنخفضة المعروفة برأس ريسوت، وهذا المجرى مرفأ ممتاز في الرياح الجنوبية الغربية وبجواره بقايا مدينة قديمة كانت في وقت ما سوقًا تجاريًا وتوجد بحيرة طويلة هنا بداخلها واد صغير تتجمع فيه المياه من التلال، حيث غرقت باخرة الرحالة وليم الفاتح عام ١٨٦٠م؛ ولكن تم انقاذ الركاب وطاقم السفينة وأرسلوا إلى الهند في خمسة قوارب.

ومن رأس ريسوت يبدأ منحدر صخري منخفض يمتد غربًا، وبعد مسافة خمسة أميال من رأس الأحمر، وبعد غبة مزيحه فإن الجزء البارز من السلسلة الذي يرتفع نحو ٣٨٠ قدمًا يبدأ في الانحدار إلى البحر على خطوات ثلاث عملاقة مكونًا بذلك رأس الشجر، وهو أعلى وأضخم قمة جبلية، وإن لم تكن أكثر بروزًا في منطقة الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية، أما الجرف الثاني لهذه الرأس فامتداده يصل إلى ٢٧٧٥ قدم.

وعند رأس الشجر تنتهي حدود أراضي سلطنة عُمَان، وكذلك الخط الفاصل بين قبائل المهرة وقبائل القرا، بالرغم من أن القرا في الحقيقة يطالبون ويحتلون جزءًا يمتد غربًا حتى قرية ريادت إلى مسافة ١٢٠ ميلًا.

ومن الناحية الجغرافية يقرر كارتر أن تكون رأس الشجر مشابهة لتكوين جبل سمحان بالقرب من مرباط في كونها من صخور رملية ثم طبقة طينية فوقها طبقة جيرية بيضاء، وأن تلك الطبقة هي من نفس النوع الموجود بالانحدار للشمال الشرقي.

## زيارة إلى الأشخرة عام ١٨٧٤م

### ٢١ أغسطس:

تركت مسقط في الرابعة ظهرًا إلى الأشخرة مع سعيد بن سالم على ظهر الطراد فيلوميل للاستعلام عن موضوع القرصنة.

### ١ سبتمبر:

شاهدت قلهات في العاشرة صباحًا، ووصلت صور في الثامنة بعد الظهر، وأرسلنا درويش وسعيد إلى الساحل لزيارة الوالي، وفي الخامسة مساء نزلنا ووجدنا الوالي قد وصل في نفس الوقت، وعقدنا مؤتمرًا في منزل شتو، وقررنا أنَّه يجب الكتابة إلى ماجد وعبدالله لمقابلتنا في الأشخرة، وعلمنا أنَّه قد حدث تصادم في اليوم السابق قتل فيه اثنان أو ثلاثة.

كان الوالي ناصر بن محمد البوسعيدي قد وصل إلى صور منذ ثمانية أيّام؛ ولكن لم يكن من المحتمل أن يبقى هناك، حيث لم يكن يحصل على أيّة دخول، وكان عليه أن يدفع ستين دولارًا البدو بني بو حسن، وقمنا بزيارة الخور والمدينة بعد ذلك، وشاهدنا عدة قوارب جيّدة في الخليج، وعدنا في المساء وبقى درويش.

### ٢ سبتمبر:

حضر درويش وشتو وكتبا إلى ماجد وحمود ، وقال شتو إنه ليست هناك أخطارًا في السفر عبر المدينة بشرط وجود بعض الخفراء من الغافريين والهناويين ، وهؤلاء الحراس ضروريون لتأكيد الأمان فإذا وجدك العدو وحيدًا حتى ولو في غياب مؤقت من هؤلاء الحراس فسوف يسرقونك بالتأكيد.

فسكان جعلان لا يمكن الثقة بهم إذا ما تدخلت النقود : ذهب شتو إلى قلهات حيث توجد قلعة أو قصر يقول الناس إن تحته يوجد كنز كبير مدفون ولكنهم يخشون الحفر بسبب الجنبة وبني بوعلي الذين قد يأتون ويسرقونهم ، وربما طردوهم ، فبعضهم يأتي أحيانًا للبحث عن العملات الذهبية حيث يبيعونها لسكان صور ، بريال للقطعة الواحدة ، وهذه العملات كوفية الأصل كما يتبين من الكتابة عليها.

وفي الرابعة بعد الظهر ذهبنا إلى البلاد حيث مررنا بطريق صخري مرتفع ،

وخارج البلدة يبدو الخور ممتدًا إلى بعض المسافة ولكنه ضحل ، وعلى يميننا يقع حصن سنيسلة وشنو ، وتوجد في كل القلاع مدافع ولكن لا توجد بها حامية.

ويتجه الطريق يسارًا حتى يصل إلى عيمى، وفيها كذلك قلعة على القمة، وقد دمرها ثويني وهي تخص قبيلة الجنبة. وها نحن أولًا نرى مدينة البلاد الآن، وهي على سهل منخفض أو واد، وهي عبارة عن كتلة من أشجار النخيل بها عدد قليل من المنازل، وعند وصولنا إلى القلعة استقبلني الوالي بالتحية، وجلسنا أمام بوابة القلعة لبعض الوقت، ثم تجولنا في أرجاء المكان، وخارج القلعة هناك السوق القديمة التي دمرها الوهابيون، وليست هناك زراعة كثيرة وهناك القليل من الشمام والذرة. وقد دعاني شيوخ بني بو حسن لزيارة مدينتهم، والوالي يبدو عليه الذكاء والشجاعة. وعدت إلى الساحل حوالي السابعة والنصف صباحًا. وكان الظلام يغلف المكان وجاء علي بن مبارك الذي أتى مع درويش في العاشرة وسكان صور يطلقون على المنطقة الساحل أما المدينة الجنوبية فتعرف بالبلاد.

### ٣ سبتمبر:

بدأنا سيرنا في الخامسة والنصف صباحًا، ووصلنا رأس الحد في التاسعة صباحًا والتلال خلف رأس الحد يمكن رؤيتها من مسافة كبيرة؛ ولكن الشيخ يقيم في حصن صغير له ثلاثة أبراج، والقرية الصغيرة تسمّى ببلاد رأس الحد، وربما كان هناك ستمائة نسمة يحكمهم الشيخ وهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام الموالخ وبني غزال وبني مهيرة، وبنو مهيرة هؤلاء يستمدون أصولهم من الجد مهرة، والساحل منحدر؛ ولكن الصخور عالية حتى رأس خبة، وقد شاهدت عددًا قليلًا من البدو على تلال بني حربي وكانوا قطاعًا صغيرًا من حوالي ثلاثين رجلًا، وبين خبة رويس يطلق على الساحل اسم سويح بني بو علي.

ووصلنا الأشخرة في الرابعة صباحًا والرياح هناك كانت أقل كثيرًا مما توقعت حول الرأس، ويبدو أن المدينة واسعة، وهناك حوالي أربعين من قوارب الصيد، ولا توجد قلاع؛ ولكن هناك برجان قديمان على الشاطئ، وهناك صفٌّ من الصخور إلى جنوب المدينة، وهو يعتبر مرفأ للقوارب وقد شاهدنا قاربًا واحدًا ما زال في الماء.

**٤ سبتمبر:**

وصل الشيوخ هذا الصباح وقد نصبو خيمة على الشاطئ ويبدو أنَّها صنعت من شراع قديم، وفي العاشرة وصلني خطابات من ماجد وعبدالله، ويقول ماجد أنَّه مريض وعبدالله يريدني أن أرسل واحدًا إلى الشاطئ، وقد أرسلت سعيد بن مسلم وطلبت منهما أن يحضرا ووعدتهما بالأمان، وقال أحدهم أنَّه لم يصل هذا العام عبيد من زنجبار، وهناك عدد قليل من العبيد في الأشخرة؛ ولكن معظمهم أحرار، وفي الثانية عشر عاد القارب وبه الشيخ عبدالله ويوسف بن علي شيخ طنيبة، وكذلك علي بن خلفان، وشرح الدليل لهم لماذا جئت أنا هنا، وسمع تفسيراتهم عن الموضوع، وعندما رأوا الاضطراب بين رجال كيتيا على الجزيرة ذهبوا لفض النزاع؛ ولكن رجال كيتيا بمجرد رؤيتهم لهم خافوا وهربوا، وقد أخبرتهم أنني قد أتيت لكي أطلب رد ما سلبوه وإعادة الجناة لقواربهم، وقد أعادوا ما سلبوه وهو حوالي ثلاثمائة دولار ووافقوا على دفعها، وقالوا أنَّهم يسلمون في الحال بطلبات الحكومة مهما كانت، وقد أعطيتهم مهلة حتى اليوم التالي للرد، وقال علي بن مبارك أنَّه يعتبر حدود عُمَان هي آخِر أراضي الجنبة ورأس نوس. والجنبة تمتد إلى جبش، ثم حكمان، ثم البر الحدري، وهيبة، ثم الوهيبة، ثم الجنبة، حتى قبيلة القرا... وتبدأ حضرموت شرقًا ومدينة المهرة ليس فيها، وليس هناك اسم عام للمدينة بين جعلان والقرا والمزينة تخصُّ الجنبة. وليس هناك زراعة والسكان من البدو الذين يعيشون على اللبن واللحم، وتمثل أدم حدود عُمَان باتجاه الصحراء والعوامر في رأس نوس من البدو، وهم يرتدون ملابس حضرمية ويتكلمون لهجة مختلفة عن عُمَان، وهي وإن كانت أصعب إلا أنَّها أفضل اللهجات العربية.

وقد وصل بعض العوامر مؤخرًا إلى مسقط وانضمُّوا إلى السيّد تركي، وقد جاءوا على ظهور الجمال وظلوا بدون ماء لمدة خمسة أو ستة أيّام، ولم يدفعوا أي ضرائب في الطريق؛ ولكنهم اضطروا إلى أخذ خفراء معهم، والجمال في بعض المناطق يتم سقايتها مرة أو مرتين شهريًا، وعند مرورها من المناطق نادرة المياه لا تشرب الجمال، ويشرب الرجال اللبن فقط. وقد تحطم مركب شراعي في هذا الساحل في عهد راسام، وأخذ البدو طاقم المركب إلى مسقط وأطعموهم لبن الإبل، وقد عالجهم البدو بالكيِّ بالنار بعد أن أكلوا البلح الذي سبب لهم الإسهال.

**٥ سبتمبر:**

في العاشرة صباحًا أرسلت قاربًا للشيوخ الذين جاءوا، وقالوا: أنَّه أثناء الليل فرَّ المتهمون من المدينة إلى الداخل، وإنَّهم أرسلوا البعض وراءهم، وإنَّهم سيتوقعون عودتهم، وكانوا قد وافقوا في الليلة السابقة على تسليم أنفسهم بشرط أن يذهب الشيوخ معهم إلى مسقط، وأنَّه إذا لم يقم الجناه بتسليم أنفسهم فسوف يسلمون هم القوارب الستة الخاصّة بهم، وقلت أننا نستطيع التمييز بين الأعمال الحسنة والأعمال الخبيثة، وإننا لم ننس بعد سلوكهم بالنسبة للسفن الغارقة حتى يعودوا إلى ارتكاب مخالفة أخرى. عندئذ قلت أنني يجب أن أخذ ستمائة ريال مقابل الأشياء المسروقة وإنني أريدها في الحال، فقال الشيوخ: أنَّهم لا يستطيعون جمعها في ثلاثة أو أربعة أيّام، وإنَّهم يعطونني بعض المجوهرات كضمان لحين الدفع. وقد أعطيت عبدالله بندقية وبعض الملابس. وفي الخامسة بعد الظهر أرسلت سعيدًا؛ ليأتي بهم؛ ولكنه عاد وحده قائلًا إن الشيوخ لم يستطيعوا جمع أي شيء؛ ولذلك لم يحضروا، وأن الرجال الستة قد عادوا إلى المدينة.

**٦ سبتمبر**

أرسلت سعيدًا في التاسعة للشاطئ وقد عاد في الثامنة بعد الظهر مع الشيوخ، وقال يوسف: أنَّهم ما زالوا يحاولون جمع النقود والمجوهرات؛ ولكن ما جمعوه قليل، فقد جمعوا أقل من مائتي ريال وبعض الحلي التي خجلوا من أن يظهروها لقلتها، وقد وعدوا بأن يأتوا معي إلى صور - يوسف وعبدالله - وإنَّهم سيقترضون بعض النقود من شتو ويسلمونها لي هناك.

**٧ سبتمبر:**

في تلك الأثناء وعلى أساس منع الجعافرة من النزول إلى البحر ومصادرة نخيلهم حتى يتم دفع الغرامة طلبت أيضا أن يأتي بعض الجعافرة إلى صور. وقد تم ذلك بالفعل ورافقنا ثمانية منهم وطلبت منهم أن يكونوا مستعدين . وأرسلت قاربًا في منتصف النهار ، ولكنه لم يعد عند ظهور النهار غدًا ، فأرسلت سعيدًا وجاءوا في التاسعة والنصف - عبدالله ويوسف - وثمانية أو عشرة آخرون واتضح أن سبب تأخرهم هو أنهم أرسلوا إلى المتهمين الستة الذين رفضوا المجئ بدون قتال ، وبدأ

الموضوع يأخذ صورة خطرة، وطلب سعيد مني إطلاق سراحهم، وقد ألزم الشيوخ الجعافرة بعدم النزول إلى البحر هذا الموسم حتى يتم دفع الغرامة المطلوبة كما أخذت نخيلهم رهينة لدي حتى يتم الإفراج عنهم.

وقبائل بني بو علي والجنبة لا يأكلون اللحم الذي يذبحه غيرهم، وقد كان لدى الشيوخ مائتا ريال ويلزمهم أربعمائة أخرى، ويبدو أن عبدالله قد تعامل مع شتو، وقد وصلت صور في السادسة بعد الظهر، وأرسلتهم ليفعلوا ما يستطيعونه مع شتو، ولم يعد القارب حتى الثامنة.

**٨ سبتمبر:**

جاء الوالي ناصر والشيوخ مع شتو في الحادية عشر قبل الظهر، وقالوا أنَّهم اتخذوا ترتيباتهم، وحصلوا على المبلغ، وقد أعطيتهم بعض النصائح والتحذيرات، وخاصّة فيما يتعلق بتجارة الرقيق، وقلت لهم إنَّهم لن يتدخل أحد ضدَّهم إذا امتنعوا عن نقل الرقيق في قواربهم، وقال شتو: أنَّه أقرضهم النقود، وقال الوالي: أنَّه ليست هناك أي أخبار جديدة من مسقط عن السلطان، وقد عاد الشيوخ في الواحدة، وفي الساعة الرابعة مساء نزلت مع جارفورت وذهبنا إلى شتو، حيث قابلنا الوالي والشيوخ، وذهب جارفورت وآخَرون بعد ذلك مع الوالي إلى البلاد، بينما ذهبت أنا على ظهر أحد الجمال إلى سنيسلة لمعاينة الحصن هناك، وهو صالح للاستخدام رغم أنَّه قديم ومهجور، وكانت بوابته هي أقوى جزء فيه، وهو يطل على البحر؛ ولكن له جدار في المقدمة.

وسنيسلة أهلها غافريون من الناحية السياسية، ويبلغ عددهم مائتين، وبها عدد كبير من المساجد والمنازل، وقد عدت وتناقشت مع عبدالله ويوسف فقالا: إن صالح ابن علي قد هاجم مطرح، وهو يرابط على إحدى المغارز في المدينة، وإنَّهم يخشون أن يقنع هو جماعة السيّد تركي بمهاجمة بني بو علي، حيث كان صالح عدوًّا لهم؛ بسبب قتلهم السيّد عزان، وتنصيبهم السيّد تركي على العرش، وقد ذكرتهم أنَّه عندما وصل الشيخ صالح إلى مطرح لم يرفع أحد الغافريين إصبعًا لمساعدة السيّد تركي وإن بني بو علي كانوا أصدقاء له، وأنني على استعداد لإقامة تفاهم وسلام لمنع نشوب صراع في المدينة إذا حدث أي شيء.

**٩ سبتمبر**

وصلت قلهات في التاسعة صباحًا، وقمت في العاشرة بزيارة أطلال المدينة وهي تقع بين الساحل والتلال المرتفعة إلى حوالي ميل، وهي أرض غير مستوية، وتغطيها أحجار وصخور ومرجان والحد الجنوبي لقلهات عبارة عن سور يبدأ من البحر وحتى التلال بمواجهة صور، وللسور ثلاثة أبراج، سقط واحد منها في العام الماضي فقط، وأساسات العديد من المنازل ما زالت موجودة وجدران عدد قليل منها ما زالت واقفة، وتوجد مقبرة على شكل قبة وكذلك سرداب أو قبو.

وإلى الشمال هناك وادي عبسن الذي يبدأ من وادي بني خالد، ومياهه متدفقة وهي تروي بوفرة بعض الحقول في وادي سكرات الذي يقع على بعد خمسة أو ستة أميال، حيث توجد بعض القنوات، ويوجد كذلك حوض مياه كبير تذهب إليه النساء للغسيل والاستحمام وجلب المياه، وهو واسع ويحتوي على كمية كبيرة من المياه بداخله، وإلى الشمال من هذا توجد قلهات الحالية وهي الآن مجرد قرية للصيد يسكنها الشعيبيون، وهم قبيلة صغيرة قوامها مائتا نسمة يحصلون على مياههم من الآبار الضحلة ويربون الأغنام والغزلان. وإلى الشمال من هذا هناك بعض الأطلال القديمة ويبدو أن هذا هو الجزء الرئيسي من المدينة القديمة، ويوجد هنا برج وربما سور كذلك، ويقال: إن هناك توجد بقايا القناة المؤدية إلى الداخل واسمها علا، وقد وجدت هنا بعض العملات المضروبة في عُمَان أو نزوى في عصر أسرة البويهيين، وتبدو قلهات كمكان متواضع غير مناسب لمدينة من أول نظرة؛ ولكن من نظرة أبعد سنجد فيه وفرة من المياه الصالحة والنادرة في صور التي هي بالتأكيد أنسب بالنسبة لميناء كبير؛ ولكنني أدركت بسهولة لماذا اختيرت قلهات كمنطقة متميزة في العصور القديمة فوجود الحاجز والغياب الكامل للمياه العذبة شجع على اختيار قلهات، والمباني والدور مبنية كلها من الحجر الأحمر، ولم نعثر على أحجار مشكلة أو منسقة في المكان، وقد قدم لي الشيخ عينة من حجر جاء به من أحد القبور في فارس، ولوحة منقوشة بالألوان صنعها أحد الفنانين الفُرس. والماء على ساحل البحر عميق جدًا، وإلى جنوب السور الجنوبي حلقة كبيرة من الحديد ومشدودة بصخرة في البحر لعلها كانت تستعمل لرباط مرساة السفن. والساحل هنا بطوله منحدر، بحيث يصل العمق فيه إلى ياردة من بعض أجزائه، وفي مكان ما من جنوب الخور

يبرز أحد الرؤوس الصخرية، وبالطبع فإن صور مناسبة أكثر كميناء كبير، غير أني أستطيع أن أدرك بسهولة لماذا اختيرت قلهات في الماضي لاتخاذها ميناء، ذلك أن الحواجز وانتفاء وجود المياه العذبة في صور هي العوامل التي حالت دون ذلك.

في الساعة الثانية عشر: توجهت إلى السفينة بعد أن نقدت الشيخ بعض الريالات وبعض البارود نظير اللوحة التي أهداني إيَّاها. وفي الساعة الثانية: رسا الطراد على شاطئ طيوي الواقعة على مدخل واد عميق له جوانب انحدارية، غير أنني لاحظت وجود بقع مزروعة من النخيل وبعض مجاري الماء والقرية نفسها تقع على شمال الوادي وملاصقة للشاطئ. وفي الخامسة حضر الشيخ إلى الطراد، ثم نزلت أنا ومشيت عبر الوادي إلى القرية، وكانت القرية نظيفة فيها كثير من البيوت المبنية بالحجر، وسكانها لا يزيدون على خمسمائة أو ستمائة نسمة كلهم من بني جابر، وحتى خمسة عشر عامًا مضت كانت خطبة الجمعة تقرأ باسم سلطان تركيا، ولا يزال السنيون والإباضيون في جعلان يفعلون نفس الشيء.

وكان الشيخ يعتقد أن سلطان الأتراك هو خليفة المسلمين وفي أعلى الوادي يوجد ضريح ابن المقرب، وهو شاعر شهير من شعراء الإحساء، وكان قد اعتكف في هذا المكان وبنى بنفسه ذلك الضريح فوق التل، وإلى الجنوب من طيوي يقع وادي فق، وهو يختلف كل الاختلاف عن وادي طيوي وأقصر منه؛ ولكن تدفق الماء فيه أقوى، وإلى الجنوب من طيوي توجد أطلال جريف وهي مدينة قديمة اندثرت في وقت مبكر؛ ولكن هناك برج ما زال موجودًا وبعض الأطلال.

## زيارة قلهات ١٨٧٤م

**٢٥ سبتمبر:**

تركت مسقط إلى السـاحل الجنوبي

**٢٦ سبتمبر:**

عبرنا طيوي ووصلنا قلهات في السادسة صباحًا، ونزلنا في الحادية عشرة في جدول منخفض وواصلنا السير إلى القرية، ثم ذهبنا إلى الشيخ حاكم المدينة، حيث بعض الأطلال، أنَّها كانت مقرًا للحاكم وبقايا برج صغير، وهذا يبدو محتملًا، ثم مجموعة من التلال يصل ارتفاعها إلى مائة وعشرين قدمًا، وهي تقع في القرية الحالية والجدول الصغير الذي يخص وادي العيسر؛ ولكنه يقع على الجانب الآخَر لمصب الوادي، ثم بدأنا بعد ذلك زيارة ميدا وسخرات على الحمير، وبعد نصف ميل وصلنا ميدا وهي عبارة عن حوض عميق يقع مباشرة تحت النتوءات العالية التي تكون ضفاف الوادي وترتفع إلى ألف قدم، وعلى بعد مئات قليلة من الياردات توجد عدة أحواض عميقة أخرى، تسمّى صفن، ثم ينحدر إلى الوادي تدريجيًا على امتداد ميلين تقريبًا، ويتغير من الشرق والغرب إلى الشمال والجنوب، حيث نصل سخرات ووادي كبدى على الجانب الأيمن، وعلى يسارنا مزرع وهي منطقة صغيرة للزراعة. وخلف هذا يوجد البرج الفارسي القديم على شكل بقايا، وفي ركن وادي كبدى هناك الطريق المؤدي من التل إلى كبدى وهو طريق صغير للحمير، وقد استرحنا في سخرات لمدة ساعة بجانب مجرى مائي به الكثير من السمك الصغير، وهذا المجرى تغذيه العيون المائية القريبة، والقناة التي كانت تستخدم لإمداد قلهات بالماء التي رأينا آثارها عبر الوادي على الجانب الأيسر، ويمكن رؤيتها، رغم أنها مدمرة إلى حدٍّ كبير، والبقايا تظهر أن هذه هي نهايتها، وقد كانت العيون المائية القريبة هي التي تمدَّها بالماء، وقد كان لهذه القناة فائدة هامة بالتأكيد، ويقال: بوجود عدد كبير من الآبار بقلهات يبلغ مائه بئر، كانت قلهات تستمد الماء منها، والكثير من هذه الآبار ما زالت بقاياها واضحة. وخلف سخرات هناك قرى عديدة منها قوضى ومحط وشوفي وصفن أم صفرين وقعب وقصعة وحول... الخ.

وربما كان المناخ جيّدًا في الأيّام القديمة، حيث كان في مقدور السفن أن ترسو لمدة طويلة حتى مخرج الوادي والميناء، ومن المحتمل وجود اثنين من الخلجان الصغيرة اختفيا سواء كان ذلك بامتلائه من الصخور الصغيرة أو بالأتربة نتيجة لعوامل التعرية أو سواء كان ذلك نتيجة للزلزال الذي حدث من ثلاثمائة عام، ومن المحتمل أنَّه قد اختفى نتيجة للزلازل فهذا أقرب للصحة، وواصلنا السير حتى صور؛ حيث أقمنا هناك تلك الليلة.

### ٢٧ سبتمبر:

نزل جوتري وأحضر شتو وشيخ العيجة، وفي الحادية عشر قبل الظهر نزلت مع جوتري وذهبنا إلى الشيخ علي الذي كان يقيم فوق تل يطل من أعلى على صور، وتوجهنا حيث أخذنا بعض الصور الفوتوغرافية، وعدنا في الثالثة بعد الظهر بعد أن أخذنا فكرة جيدة عن صور بصفة عامة.

### ٢٨ سبتمبر:

في السابعة صباحًا نزلت ومعي جوتري وذهبنا إلى شتو الذي أخبرنا بأنَّ السيّد ناصر قد توجه إلى الوافي؛ ليفض منازعات البدو، فقد قامت مشاجرة بين قبائل بني بو علي والحجريين إثر سرقة ثماني جمال محملين بالأرز تخص الحجريين، وهناك رأيت شيخ العيجة، وصالح بن جمعه.

وفي الساعة العاشرة صباحًا بدأت رحلتي مع دليل للذهاب إلى خور جراما، ووصلت عند الظهر تقريبًا، حيث ذهبت إلى السفينة في العاشرة مساء، وعندها صمم جوتري أن يأخذ المركبة البخارية.

### ٢٩ سبتمبر:

خرجت عند شروق الشمس وعبرت قلهات في الثامنة صباحًا، ووصلت شاب في العاشر، ثم نزلت وذهبت إلى الخور على بعد ميل وجوانب الخور عالية للغاية وشديدة الانحدار، وعلى بعد نصف ميل من المياه المختلطة بالملح يؤدي الطريق إلى مكان رومانسي جميل تملؤه أشجار الفواكه المختلفة واستمر جوتري حتى وصل إلى فلج وقرية صغيرة هي موطن سكان شاب، وهذا الطريق وعر جدًّا حتى أن

الحمير لا تستطيع السير فيه، ويقال أنَّ خلف هذا الطريق يوجد منحدر به شلال ماء لا يعرف مصدره، وكان هذا يخص بني جابر، وسكان شاب هم من ريام إحدى عشائر قبيلة بني جابر، ثم عدنا وأخذنا بعض الصور الفوتوغرافية للوادي، وقد كان شيخ شاب وقت وصولنا في طيوي؛ ولكنهم أرسلوا له وجاء قبل أن نرحل.

## زيارة البريمي ١٨٧٥م

عاهدت نفسي على أن أزور البريمي - في واحدة من أولى رحلاتي إلى داخل عُمَان.

### وفي ١٧ يناير ١٨٧٥م:

نزلت صحار من الطراد رايغلمان، وحصلت على تصريح مرور من مسقط أعطاني إيَّاه الكابتن كلانتون بعد توقيع حاكم مسقط السيّد بدر بن سيف للإعداد للرحلة، حيث توقعت أن أخذ بعض الوقت في جمع الجمال، وانتهزت الفرصة لمشاهدة المدينة وما يجاورها.

وقد كانت صحار ولعدة قرون هي أكبر وأهم المدن على ساحل الباطنة رغم أنَّها في ذلك الوقت كانت حالتها قد تداعت، وهناك بعض السكان في جزء صغير فقط من المنطقة يبلغ عددهم أربعة آلاف ومن المحتمل أن تلك المدينة كانت في العصور القديمة مركزًا تجاريًا ثريًا، حيث كانت هي المُلتقى التجاري بين باسليوننا والهند. ويعتقد عمومًا أنَّها السوق التجارية القديمة التي ورد ذكرها في رحلات نيورتيسي في عام ٣٢٠ق م، ثم نقرأ إشارات عنها في أبحاث الكُتَّاب القدماء، وهذا إذا كنا نوافق على تشبيه صحار أو اعتبارها بالمدينة العُمَانية القديمة، وهذا القول لا يعتمد على أقوال المؤرخين العرب، وإنما هي أمور متفق عليها من جميع الأساتذة الأوروبيين الذين يرونها هي عُمَانا أو عمنا القديمة التي ورد ذكرها في كتاب بطليموس، وعلى أيّة حال فإن تحديد الفترة التي تم فيها تغيير اسم تلك البلاد فَموضوع لا يمكن القطع به؛ لأنَّ كُتب التواريخ والروايات لا تذكر أي دليل عليه. وعلى الرغم من أن المؤرخين المحليين قد أشاروا إشارة عابرة إلى صحار إبان العصور الوسطى إلا أنَّ أحسن وصف لتلك المدينة هي وصف ابن المجاور الذي يقول:

"كان في صحار اثنا عشر ألف منزل وكل ملاح كان يقيم في بيت مستقل، وكان السكان يحصلون على الماء منه، وقد اعتاد سكان المدينة الحصول على مياه الشرب من إحدى القنوات، وقد أخبرني البعض أنَّه يوجد مائة واثنان وتسعون ياردة حديدية تستخدم كمقاييس تجارية بين البائعين والمشترين، وقد بُنيت المدينة من الطوب اللبن وخشب التيك؛ ولكنها اندثرت وقد علمت من أبي بكر البصري أن المدينة كانت

أول الأمر تابعة لملوك كرمان من سلالة السلاجقة، ثم حكمها الغُز إلى أن هجرت بعد أن دمرها العرب".

والقناة أو فلج المطارد هو أحد علامات الرخاء السابق في صحار، وقد كان هذا الفلج يمدَّها بالمياه في العصور القديمة، وهو عبارة عن بناء صخري جيّد يصله بسطح الأرض وادي الجزي القريب من حورا برغا - أو هضبة صحار كما نسميها - إلى الشاطئ بمسافة تبلغ من أربعة عشر إلى خمسة عشر ميلًا، وآثاره ما زالت موجودة إلى الآن وقد لاحظت مثل هذا البناء بجوار جبل غرابة.

وصحار معروفة بين العرب بأنَّها الحصن المدافع عنهم ضدَّ الفُرس عام ١٧٤٣م، بقيادة أحمد بن سعيد مؤسس أسرة آل بوسعيد الحاكمة الآن لعُمَان، وليس في المدينة ميناء أو مرفأ للسفن الوطنية.

وقد تم بناء مدخل قوي للقلعة التي تضمُّ مقر إقامة الحاكم، وهي عبارة عن سهل مربع وفي الطابق الثاني من القلعة يوجد ضريح السيد ثويني بن سعيد؛ ولكني لم أره، حيث كانت الحجرة قد تهدمت. ومن السطح شاهدت منظرًا بديعًا يحيط بالمدينة، فهناك حزام من أشجار النخيل والحدائق والمزارع يحيط بشاطئ البحر لمسافة ثلاثة أميال، بينما يرتفع السهل تدريجيًا - في الخلفية - حتى يتلاقى مع نهايات السلسلة لجبل الحجر. وقد بدأت في الصباح وفي حوالي الساعة العاشرة زيارة المقر الريفي للإمام مرورًا بالعوهي، على مسافة ثلاثة أميال، وكان معي الشيخ راشد ابن حامد الذي كان ولفترة سابقة حاكم البريمي، والذي أختاره السيّد بدر ليكون دليلي. ويأخذنا الطريق إلى وادي الجزي عند قدم التلال، ونلاحظ في الطريق جانبًا من المدينة القديمة يغطي مساحة كبيرة من الأرض، وتحدد أكوام الصخور البازلتية السوداء مختلفة الأشكال ما بين بيضاوية ومستطيلة الشكل مكان السكنى، بينما تظلُّ أنقاض وأطلال الأبراج الدائرية على ارتفاعات مجاورة. وقد علمت أن المدينة كانت مزدهرة خلال الاحتلال الفارسي أيّام الجاهلية، وذلك قبل ظهور الإسلام فإنَّ الله سبحانه وتعالى قد أصابها بالخراب؛ لرفض الفُرس الدخول في دين الله الحق.

واسترحنا حتى تأكل الجمال في سهلات، وهي قرية صغيرة على بعد عشرة أميال، وفي المليّنة وجدنا الوادي شديد الانحدار شديد الرياح حتى وصلنا الحيل، وبالقرب من المليّنة هناك قناة يبدو أن بناءها قديم للغاية، وقد بناها الفُرس قبل الإسلام، وهي

الآن تخص بني غيث، وهي ما زالت مستخدمة حتى الآن وتمد قرية غوارق من فلج ماء على الضفة الأخرى، وهنا أخذنا على غرة بعاصفة رعدية شديدة وتبللنا حتى الجلد وأصبح الطريق مقلقلاً حتى إن الجمال لم تغامر بالسير فيه، وكان من المستحيل إلا أدهش بجمال المنظر، فالتلال الزرقاء الداكنة قد تلاقت مع الأودية والمجاري المائية العميقة مع سلسلة فوق سلسلة من التلال المنخفضة في المقدمة التي كانت أشعة الشمس تنشر أشعتها هنا وهناك. وبالقرب من موقعنا تقف كتل ثقيلة من السحب الداكنة، وأخيرًا وبعد الظلام وصلنا إلى بساتين سهيل، وهي قرية تبعد ثلاثين ميلاً عن صحار، وهنا ضلَّ العرب الطريق في ذلك الظلام الدامس، وارتبكوا بين قنوات الري والحقول والنخيل حتى وصل الفلاحون لإنقاذنا وأوضحوا لنا المكان الذي نعسكر فيه تلك الليلة.

وفي اليوم التالي كان الرجال أسرع، فقد عبرنا بعد ساعة رافدًا متدفقًا على الضفة اليمني واسمه وادي السنام، وأعلاه تقع قرية بنفس الاسم، وعلى بعد عدة أميال نأتي إلى برج الشقيري، ثم إلى قرية أخرى، ثم في شناص، وبعد مسيرة ساعة ونصف نأتي إلى وادي الواسط، وبعده وصلنا إلى قرية الخويرج، حيث بساتين النخيل والزراعة الكثيفة تقدم منظرًا سارًا بعد رحلتنا الطويلة خلال التلال الكئيبة القاحلة، ومن الخويرج مباشرة تأتي الحيل، وهي قرية كبيرة أخرى، والقريتان تشكلان معًا أعظم مكان استيطان قابلته بين صحار والبريمي.

ويقع فوق شبه جزيرة صخرية مواجهة لقرية الحيل برج الدابي، وهو برج قديم، وربما كان علامة لحدود الاحتلال الفارسي قبل الإسلام، وبالقرب من الحيل نجد رافدًا آخَر يرتبط بوادي الجزي، وأعلاه يوجد وادي العبيلة الذي يقودنا إليه الطريق الآن، وهو يؤدي بنا إلى الجنوب الغربي باتجاه القابل والسنينة. وعلى بعد عدة أميال قليلة من وادي الجزي على ما علمت هناك ممر ضيق، وهو على ما أعتقد الحدّ بين الظاهرة والباطنة، ونصل الآن إلى أعلى نقطة في الرحلة يبلغ ارتفاعها ١٨٦٠ قدمًا، حيث ترتفع قمم الجبال مؤقتًا، وعلى الجانب الآخر نصل بعد ساعة إلى وادي العين، ونستمر عبر السهل إلى البريمي، ويحد الرقعة الفسيحة الممتدة أمامنا سلسلة جبال حفيت التي تبدو إلى الجنوب الغربي على مسافة عشرين ميلاً.

وعند وصولنا إلى البريمي توجهت إلى منزل الشيخ سالم بن محمد الذي كان والده رئيس قبيلة النعيم، ويقيم في ضنك، وفي صباح اليوم التالي ذهبت لزيارة الوالي الشيخ حامد الذي استقبلني بحفاوة، وجلسنا نتحدث بينما أكواب القهوة تدور، وقد كان للشيخ كتف مخلوع؛ بسبب سقوطه من على ظهر جمله منذ أيّام قليلة قبل وصولنا، وقد لاحظت أن جدران الفناء قد زودت بفتحات للرمي الخاص بالأسلحة الصغيرة، وأن هناك بندقية حديدية قديمة موجودة بجوارها، ونصفها مدفون في الأرض، بعد ذلك ذهبت لزيارة الحصن، حيث استقبلت بالتحية بإطلاق الرصاص.

وقد قام ابن أخت الشيخ حامد؛ ليشرح كل شيء في الحصن، وقد كان فخورًا وسعيدًا؛ وذلك لاعتقادهم بقوة وأهمية الحصن الكبير. وقد كان الحصن على شكل مربع بُني من الطين أو الطوب الآجر، وهو مكون من أربعة أبراج يحيط بها خندق عميق يبلغ اتساعه حوالي خمسة وعشرين قدمًا، وجزء منه مرتفع للغاية يقابله جزء آخَر بنفس الارتفاع، بينما يبدو أن الأبراج تصل لنصف هذا الارتفاع، ويبلغ طول كل جانب حوالي مائة وخمسين قدمًا، أما الأسلحة فتتكون من ثماني بنادق بأحجام كبيرة لا يمكن استخدامها، وبالقرب من البوابة الخارجية يوجد مدفع من النحاس الأصفر كقطعة من أسلحة الميدان، عليها اسم السيّد سعيد بن سلطان (١٢٥٨هـ/ ١٨٤٢م) باللغة العربية والتاريخ ١٨٤٢م بالإنجليزية، وهو واحد من المدافع التي أحضرها السيد سعيد من أمريكا بسفينته الحربية "سلطانة"، وقد تم إحضاره إلى هناك من صحار عام ١٨٧٤م بواسطة السيّد عزان بن قيس.

وينظر العرب إلى البريمي دائمًا على أنَّها فاتحة الطريق من الإحساء ونجد، ويعتبرونها ضرورية في موقعها القوي في حالة حدوث أي غزو على عُمَان من ذلك الاتجاه.

واسم (البريمي) يطلق على مجموعة من سبع قرى في منطقة يبلغ طولها أربعة أميال، أهمها المدينة الكبيرة الهامة، والبقية هي سوار إلى الشمال، والجيمي وقطارة وهيلي (إلى الشمال الغربي)، والعين ومطارد إلى الجنوب الشرقي، ويبلغ سكان تلك القرى ١٥ ألفًا وظروف معيشتهم متوسطة بصفة عامة فهم يعيشون في أكواخ من الحصير ومن سعف النخيل، وهناك القليل من المنازل المبنية بالصخور، وهم لا يعتمدون على المطر السنوي، وهو قليل؛ ولكنهم يعتمدون في ري حقولهم على

نظم الأفلاج أو القنوات من التلال، وكذلك من الآبار، والمياه وفيرة وليست على أعماق كبيرة، ولكل مستوطنة على الأقل واحد من هذه الأفلاج.

الجو: وهي المنطقة التي تقع فيها البريمي، وتشكل الجزء الشمالي الغربي من إقليم الظاهرة، ويربطها بالجنوب جبل حفيت وبالشمال سمائل وبالغرب الصحراء. والقبيلة الغافرية المسيطرة هي قبيلة النعيم المنقسمة إلى قسمين رئيسيين: وشيخ القبيلة هو محمد بن علي بن حمود، والقبيلة الهناوية الأساسية هنا هي قبيلة بني ياس الذين مارسوا سابقًا الكثير من أعمال القرصنة، وهم يشغلون قرى الجيمي وقطارة وهيلي، وكذلك وادي مسودى في البريمي وشيخهم هو زايد بن خليفة، الذي يقيم في أبوظبي، والقبيلة الغافرية التالية في الأهمية هي قبيلة بني كعب التي يصل تعدادها إلى ١٥ ألف نسمة، وتشغل منطقة محضة التي تشمل سلسلة الجبال والأودية فيما بين وادي الجزي ووادي حطاط، ولهم عشرون قرية أكبرها ألماظة، حيث يقيم الشيخ علي بن سيف وقد زارني هذا الشيخ.

وأول منطقة خلف الجو هي بينونة، حيث العوقة، وهي قرية صغيرة يسكنها بنو قتب، وبعدها مباشرة تقع قرية الغافي التي يسكنها البدو المناصير، حيث يوجد وادي دامس، وهو من الأدوية الكثيرة العشب، وفير الماء ويزوره البدو الرحالة بغرض الرعي، وبعد هذا يأتي الجافور أو الصحراء، وهناك يظهر طريقان رئيسيان أحدهما يستخدم في الشتاء والآخَر في الصيف والجزء الشرقي من هذا الطريق يستخدمه المناصير وبنو ياس، أما الجزء الغربي فيستخدمه المرا، وليست هناك تلال في هذا الطريق وهناك واديان فقط: وادي الصقر ووادي الصحبة.

السبخة أو سبخة مطي كما يطلقون عليها أحيانًا - وهي عبارة عن واد جيري داخل الخليج بين درجتي ٥١ درجة طولًا و٢٤ درجة عرضًا، ويقال إن الجمال تضلُّ طريقها وتغوص في الطين في بعض الأجزاء، حيث المستنقعات ومناطق الرمال المتحركة، والسبخة هي نفس المنطقة التي تحدث عنها بطليموس على حدِّ قول سبرنجر؛ ولكنِ اللفظة التي وردت على لسان بطليموس كانت محرفة مما يقطع أن ذلك كان خطأً مطبعيًّا، وهذا التحديد هام لأنه تصحيح للفظة، وحسب آراء الشيوخ وغيرهم من المطلعين الذين تحدثت إليهم في هذا الشأن يجمعون على أن سبخة مطي

هي الحدود الفاصلة بين عُمَان والإحساء، وإن هذا التحديد متفق عليه منذ الأزمنة الغابرة. ومجمع الأمطار في منطقة الرد واليمامة يقع على ما يبدو في الجنوب الشرقي لوادي حنيفة، وأن كل الأودية الأخرى تتجه في مجراها إلى منطقة الروضة، حيث تتجمع كلها في وادي سبخة الذي يصب في مياه الخليج في أعلا سبخة مطي، وربما في خور الدون، والطريق هنا ليست جافة من المياه، وإنما يمكن الحصول على ماء مالح منها بالحفر في التربة. وإلى الجنوب من اليمامة بمسيرة ثلاثة أيّام من الإحساء يقع الوادي الخصيب، ووادي يبرين الذي يقال إن بساتين النخيل فيه تمتد لعدة أميال، وفي وسط الصحراء خلف حدود نجد كانت توجد منطقة استيطان كثيفة السكان؛ ولكن السكان هجروها؛ بسبب الملاريا وبعض الظروف غير الصحية الأخرى، ويقال إن البدو يلتقطون بعض العملات الذهبية بعد الفيضانات الثقيلة، وأشجار النخيل تخص قبائل مرة والدواسر الذين يأتون إلى يبرين في سبتمبر للحصاد الذي يحملونه للبيع في نجد والإحساء، ثم يعود إليها البدو الرحالة بقطعانهم للرعي.

وقد اعتذرت عن عدم إمكانية أن أمدَّ إقامتي في البريمي، حيث استقبلوني بحفاوة رغم أن هناك الكثير مما يستحق المشاهدة؛ ولكنهم احتجوا بقوة وانهالت الدعوات؛ لكي نبقى فترة أطول، وقد عرض الشيخ سالم بن محمد النعيمي أن يصحبني حتى حدود الجو، وقد قبلت الدعوة بسعادة، ووصلنا في الثالثة ظهرًا تاركين البريمي من نفس الطريق الذي أتينا منه وبعد عدة أميال شاهدنا قمم جبال مخروصة على اليسار، وتضمُّ أطلالًا فارسية، وكان الظلام قد حلَّ عندما وصلنا الخروصي، حيث كان علينا أن نعسكر لتلك الليلة، وحيث سيتركنا الشيخ سالم.

وفي اليوم التالي ذهبنا إلى هيلي وتناولنا فيها الإفطار وبعد مسافة ثلاث ساعات وعلى بعد أربعين ميلًا من البريمي تنتهي هنا صحار.

وبمواصلة السير جنوب وادي الجزي وصلنا، والليل يرخي سدوله، إلى الغرابة التي تقع بقاياها القديمة على بعد ساعة ونصف، والتي كنت قد قررت زيارتها، وهذه الأطلال التي كانت لدى فرصة استكشافها كانت من أعظم الآثار التي يمكن وجودها حسب اعتقادي. والتل ليس مرتفعًا، وربما يصل إلى مائتين وخمسين قدمًا وفوق قمة التل القريبة هناك حصن يمتد على مسافة نصف ميل، ما زالت جدرانه

موجودة على ارتفاع من قدمين إلى ست أقدام، ويمكن ملاحظة السهل من المباني في أعلى مكان عبر صفّ الحصون، وهناك بعض الأبراج الدائرية الصغيرة وما زال العديد منها واضحًا رائعًا، وهناك مدفع صغير وصهريجان، واحد منهما فوق القمة تمامًا، وهو على شكل مستطيل، والآخَر بيضاوي الشكل؛ ولكن أسفل التل، وكلاهما صغير، وإذا تم تنظيفه فإنه يمكن استخدامه، وقد بحثت دون جدوى عن بئر أو صهريج يستخدم لتخزين الماء، وإلى أسفل تلك النقطة العالية هناك قوس منخفض في الجدار، ولا يبدو أنَّه كان البوابة، وهناك قوس وبرج آخَر أسفل؛ ولكنه مصنوع من الصخور الموضوعة فوق بعضها دون استخدام الإسمنت.

وليس هناك شك، حسب ما أعتقد في تطابق جبل غرابة أو فلج السوق مع دستجرد الميناء العظيم في أرجاء الجزيرة العربية في القرن السابع ففي تلك الفترة وطبقًا لما كتبه روس عن عُمان أنشأ الفُرس سواحل الباطنة من صحار إلى الرستاق، وكان المرزبان أو الحاكم يقيم في دستجرد كمركز للقوة بالقرب من صحار. وفي هذا المكان قابل رسل النبي (ﷺ) الحاكم، وعند رفضه قبول الإسلام تم الاستيلاء على دستجرد، وبالتأكيد كان لموقع وقوة جبل غرابة أهمية عظيمة في تلك الفترة، حيث كان يسيطر على كل الجزء الشمالي من الباطنة، ويمكن رؤية عدد قليل من مساحات الأراضي المزروعة بالقرب من تلك الأطلال، أما السكان العرب فقد كانوا مشتبهين فينا. وعلى أيّة حال فقد نجحنا أن نطمئنهم وسرنا إلى مقر الشيخ، وبما أننا كنا متأخرين فقد عدنا إلى السفينة بسرعة.

## زيارة لظَفَار [1]

وفي اليوم الحادي عشر نزلت مرة أخرى؛ ولكن تم نزولنا هذه المرة على الناحية الجنوبية من الجزيرة، وكان علينا أن نشقَّ طريقنا وسط طريق ضيق من خلال غابة طولها نصف ميل تقريبًا. وترتفع الأرض ويزداد المستنقع؛ بحيث حجبت القرية عن الأنظار، ويوجد فيها نحو ١٥٠ منزلًا بيضاوية أو مستديرة الشكل مبنية من سعف النخيل والحصر، ومشبكة بالحبال، ولا توجد في القرية بيوت من الصخر ويجلب الماء إلى القرية من مكان يبعد أربعة أميال إلى الشمال، ويتم نقله داخل خزان، وتقوم الجواري بالأعمال، وهن كثيرات هنا، وقد تذوقت الماء داخل وعاء من المحار فوجدته عذبًا؛ ولكنه غير نقي، وكان الشيخ متحفظًا معي في الحديث؛ ولكني عرفت بعض المعلومات من قبائل حكمان والأمين فيما يختص بالقبائل، ومجاري الوديان التي كانت تصبُّ داخل البحر العربي أو البحر الحدري كما يسمونه هناك، ولا يوجد نخيل أو أشجار أخرى أو مزراع في الجزيرة، ورغم منظر الجزيرة اليابس فقد كان هناك حركة تبادل تجاري مع أدم والقوافل تصل باستمرار بحمولاتها من البلح للتصدير. وتتركز التجارة مع زنجبار ومسقط والمحاصيل التي تصدر هي البلح وزعانف الأسماك والأسماك المملحة والملح والسلاحف.

إن الموقع المنعزل لمحوت يضفي عليها حصانة من هجمات البدو، ولا شكَّ أن هذا هو السبب الذي أدى إلى اختيار الجزيرة للاستيطان رغم عدم وجود الماء فيها، وقد قال لي الشيخ: أنَّه انفق أموالًا كثيرةً للبحث عن الماء، غير أنَّه لم يحصل إلا على ماء مالح. وكان كل العرب الذين تحدثت إليهم مجمعين على أن تسمية المنطقة بغبة حشيش يعود إلى نمو الأعشاب البحرية (الطحالب البحرية)، وليس إلى الأعشاب التي تنمو على الساحل، رغم أن الأعشاب الطويلة تنمو بكثرة في المناطق المجاورة وتشكل علفًا للماشية من الإبل والماعز. وقد غادرنا محوت في نفس اليوم ووصلنا مرباط يوم ١٤، وقد حضر قائد الحصن وثلاثة مواطنين من جماعة الخوجا وذكروا بأنَّ كل شيء على ما يرام. ويبدو أن البيوت الحجرية معظمها مخازن وللشبابيك جوانب عريضة تحيط بها وقد بُنيت لكي تقاوم غارات البدو.

(١) أضيف هذا العنوان للفصل بينه وبين زيارة البريمي.

وبعد الظهر توجهت أنا ولانج لزيارة ضريح السيّد زبير بن عبدالله الهاشمي، وكان الضريح متهدمًا وتاريخه قد محي، وأبلغني المواطنون الخوجا أنَّهم نزحوا من بومباي، وإنَّهم يتاجرون بنجاح مع بدو القرا في بيع الأرز والأقمشة والنحاسيات وغيرها، ويبادلونها باللبان والصمغ والسمن، وينقسم اللبان الذي يتعامل فيه البدو إلى ثلاثة أصناف نجدي ورامي وديزوني، والأول هو الأجود، وتنمو بعض أشجار اللبان من على بعد ساعتين من هنا؛ لكنها توجد بكثافة أكثر على المرتفعات، والسواحل الصخرية في مرباط تعج بالربيان وجراد البحر والسرطان (الكابوريا)، كما ذكروا لي أن البدو كانوا يسببون المتاعب في الماضي غير أنَّه منذ أمر سلطان مسقط ببناء الحصن وزوده بحامية عسكرية صغيرة، كفَّ القرا عن خلق المشاكل.

زرنا ضريح محمد بن علي، ويبعد مقدار نصف ميل عن الحصن وهو بناء كبير ويحتفظ بجماله وعليه كتابة تشير إلى تاريخ (٥٥٦هـ/ ١١٦٠م) وتوجد منابع مياه قليلة بالقرب من المكان، ويستمد أهل القرية حاجتهم منها.

كما ذهبت مع لانج لمشاهدة جزيرة الحلانية التي تبعد ١٩٩ ياردة من الشاطئ، وفوق الجزيرة صخرة غير ثابتة غريبة الشكل، وترتفع خمسين قدمًا عن سطح البحر وهي وعرة وانحدارية، وعلى الحرف في الأرض المقابلة توجد بقايا حصن؛ لكن لا توجد عليه كتابة. وفي نفس ذلك الحرف كهف ذو طابقين وربما تشكل بفعل تلاطم المياه عليه. وعمق الطابق الأسفل ٦٠ قدمًا وعرضه مائة قدم وعلوه ٨٠ قدمًا.

وفي مرباط التقيت بعلي بن محمد، وهو شيخ يتميز بالذكاء الحاد وكان مرشدًا للسفينة باليموروس التي قامت بالمسح، وللطراد جوبر سنة ١٨٥٤م، وقد أراني ورقة أعطاه إيَّاها قبطان الطراد، تشهد بحسن خدماته في حماية أحد قادة الدفة وأحد البحارة، وكان المواطنون العرب قد قبضوا عليهما أثناء مطاردتهم لإحدى سفن العبيد.

ومن مرباط سرنا إلى صلالة، حيث بلغناها في الثانية بعد ظهر يوم ١٥ ونزلنا بعد ساعتين من وصولنا، وسرنا أنا ولانج إلى منزل الوالي ومنه إلى الحافة. وقد أخبرني الوالي سليمان أن ثمة هدنة بينه وبين القرا؛ ولكنها لا تشمل بلدة طاقة، حيث لا يزال في عداء مع قبيلة المسنتي، وفي آخِر معركة نشبت قبل ثلاثة أشهر بين طاقة ومنطقة المرتفعات قتل رجل من الطرفين.

والبقول التي تزرع هنا هي الذرة والمسيبلو، كما توجد مزارع كثيرة للقطن، وقد شاهدنا أكوامًا من سمك السردين معروضة للجفاف قبل تقديمها علفًا للأغنام والمواشي، ويتم تجفيف السردين بعد اصطياده في أفران حتى يخرج منه الزيت، ثم يتم تجفيفه داخل قدور وتخلط غالبًا مع الجير، وتفرش بها غلاف السفينة تحت الماء.

عند عودتنا في المساء وجدنا البحر هائجًا واضطررنا إلى الاستعانة بسفينة القرية؛ لتوصلنا إلى الطراد.

وفي اليوم التالي نزلت بمعية عدد من ضباط الطراد، وكنا قد رتبنا رحلة صيد، وبعد أن زرنا بيت الوالي تفرقنا وتوجهت أنا لمشاهدة الآثارفي البلاد، وأكبر منطقة أثرية وأهمها على سهل ظَفَار تغطي مساحة ميلين تقريبًا بين الحافة والدهاريز، وتبلغ مساحتها نحو نصف ميل، ولا تزال أبراج الحصن والجامع قائمة في بعض أجزائها، ويمكن التعرف على سور البلدة ومبنى جماركها والخندق بوضوح. وقد قمت في البداية بفحص الجامع وهو مبنى كبير له أعمدة مستديرة وخماسية، ترتفع ثمانية أقدام ولها قواعد وتيجان، ولا يزال المحراب قائمًا والمدخل غير أن الشاهد وهو كتلة كبيرة طولها ستة أقدام وتربيعتها نحو قدم ونصف قدم كانت ملقاة على الأرض، ولا يزال الخط الأول والأقل قيمة من الكتابة على اللوحة واضحًا بما فيه الكفاية، غير أن السطور السفلى قد تآكلت، وقد طلبت قلب الكتلة وتنظيفها بالماء غير أننا لم نستطيع تبين تاريخها.

أما الجزء الغربي من هذه البقعة فهي مغطاة بأنقاض الجزء الأسفل وغير المسور من المدينة القديمة، غير أنَّها ليست ذات أهمية إذ أنَّها لا تضمُّ بقايا معمارية أو نحتية، ولما كانت الأحجار الجيرية التي بنيت بها المنازل قد اسودت بفعل الزمن، فإنها تبدو كئيبة وداكنة المنظر.

وإن الجزء الشرقي من المدينة الذي بُني على شكل مربع وهو الذي يضمُّ الجامع ومبنى الجمارك، فإنه أهم جزء وأكثر جاذبية، وفيه رأينا اللوحات المنحوتة والأعمدة المنقوشة ونصوصًا من القرآن الكريم، وغيره من الأدلة التي توحي بوجود فئة متحضرة من الناس.

أما الحصون أو وسائل الدفاع فتتكون من خنادق واستحكامات ومتاريس على جوانب ثلاثة، بينما تقف القلعة على ربوة ترتفع ١٠٠ قدم، وتعرف حتى الآن

باسم الهشم، وهي مربعة بحوائط عريضة، ولها بابان أو مدخل يطل أحدهما على الشرق، ويطل الثاني على الغرب، كما توجد بئر بعمق ٣٠ قدمًا على الجهة الشمالية الغربية، ولا تزال أساسات مبنى الجمارك قائمة بما فيها المدفع المواجه للناحية الشرقية.

أما الخليج الذي يحمي المدينة من الجهة الشمالية والشرقية فهو على أيّة حال يستحق اهتمامًا خاصًّا، إذ أنَّه مما لا شكَّ فيه أن وجوده هو الذي حدد بموجبه الموقع الأصلي للمدينة، ويبلغ طول الخليج مائة ياردة، والماء فيه عذبٌ جدًّا، وهو الذي يستخدم لتزويد السكان بالماء. وعلى الجانب الغربي يوجد خندق بُني لأغراض الدفاع وهو يمتد من الخور إلى البحر، وخلف هذا توجد قناة يجري من خلالها الماء لري الحقول، وعلى فمِّ الخليج حاجز ولو أزيل هذا الحاجز أو السد، فإن الخليج سوف يصبح مرة أخرى مرفأ أو مرسى للسفن.

وليس ثمة شيء يمكن أن يساهم في رخاء ظَفَار وازدهارها من بناء موانى حقيقية للسفن؛ نظرًا لأن الميناء الحالي غير مأمون وحركة الموج فيه عنيفة جدًّا، مما يضطر السفن إلى التوجه إلى مرباط، وبالتالي فان حركة التجارة تعاني من الخسارة. ولقد أكد لي عرب هذه المنطقة بأن الزوابع التي عصفت على المكان قبل ٣٠ عامًا سببت فيضانًا عنيفًا اكتسح معه الجمال والأغنام والماشية، وألقى بها في البحر، وتمخض عن تهدم الحاجز وتخريب الخليج. كما أكدوا أن عملية الفيضان قد كشفت عن سلسلة حديدية متينة كانت ممدودة عبر الخليج أمام الجمرك، وأن تلك السلسلة إذا ما صدقنا الحكاية كان القصد منها حماية السفن الداخلة إلى الخليج خلف مبنى الجمارك؛ ولكنها كانت تلوث المياه العذبة في الجزء الأعلى من المنطقة الذي كانت تستمد البلدة مياه الشرب منه. وكان الخليج مليئًا بالأعواد وغيرها من المواد التي تسمّى هناك بالكشط بينما الأعواد التي رأيناها تشبه الأعواد الموجودة في خليج عدن. وحسب رواية السكان فإن أسرة المنجويين هي التي أسست تلك المدينة، وهي التي وصلت إلى أوج قوتها في القرن الخامس من الهجرة، كما أنَّها الآثار الوحيدة المتبقية للاحتلال الأجنبي في كل السواحل الجنوبية أو الشرقية لشبه الجزيرة، وهي بدون شك ليست من صنع العرب الذين لم تكن تسمح لهم بساطة أسلوبهم ونظرتهم غير الفنية بإبداع مثل تلك الأعمال الفنية والنحتية الرائعة التي شاهدناها في منطقة البلاد بظَفَار، وهي دليل واضح على وجود مدينة وميناء في ظَفَار يأتي في المرتبة الثانية بعد

ميناء طاقة أو مرباط القديمة، ولعل تلك الآثار كانت موقعًا لمدينة نشأت في العصور البعيدة قبل وصول المنجويين إلى المنطقة، أما ما هو الاسم الذي أطلقه المنجوبين على عاصمتهم فأمر مجهول حتى الآن وقد طواه الزمن فيما طوى.

وبعد مشاهدة تلك الآثار قمت بجولة عبر الناحية الغربية للمدينة، فبدت لي تلك المنطقة خصبة جدًّا وفيها زراعة وفيرة أما الآبار فقد كانت ضحلة المياه وكان يؤتى بالماء على ظهور الجمال التي كانت تقوم بتلك المهمة فرادى وجماعات، ويبدو أن الإبل كانت مدربة على تلك المهمة فقد كانت تدور حول الآبار بغير قائد يسوقها أو دليل معها. ويوجد في عقود تقبع على ناحية الشرقية، أنقاض قرية قديمة تسمّى أبلد، والمنطقة فيما بين عوقد وريسوت تسكنها قبيلة بني سعيد.

وفي اليوم التالي، وهو السابع عشر، زارني الشيخ أحمد الحداد قاضي الدهاريز، ثم خمسة من شيوخ الكثيري كان أحدهما الشيخ بخيت وكان عجوزًا ضريرًا، ثم تبعه التجار الهنود الذين أدلوا بمعلومات عن تجارة ظَفَار.

وأخبروني بأنَّ قبائل القرا عندهم اللبان وغيره من الأصباغ والجلود المدبوغة والسمن المادة الأولى وثمنه هو ثلاثة ريالات. وإنَّ المنسوجات التي تستورد من الهند هي نوع من الأقمشة السوداء على الأغلب، وإن كانت كمية أخرى من الأثواب البيضاء تستورد أيضًا، أما ما عدا ذلك فلا توجد أقمشة أخرى، وكان قيمة مجموع الوارد السنوي هو ٥٠,٠٠٠ كما يستورد الأرز والبلح أيضًا. وقد قيل لي بأنَّ رجال الكثيري على علاقة ودية مع الوالي، وكانوا يدفعون ٢,٥٪ على المحصول.

أما البدو فإنَّهم يدفعون ضريبة مقدارها ريال واحد عن كل خمسة جمال، ويسلمون عنزًا واحدة عن كلٍ عشرين ماعزًا، ثم توجهت بعد الظهر لمشاهدة آثار رويات ووجدتها آثارًا واسعةً، ولابد أن رويات كانت بلدًا كثيف السكان، كما تدل على ذلك كثرة المباني والمداخل المطلة على كل الاتجاهات، كما رأيت بئرًا مربعة كبيرة مبنية؛ ولكنها جافة من الماء. أما المقبرة فإنها لا تزال تحتفظ برونقها، إذا وضعت في الاعتبار الفترة الزمنية التي قد تصل إلى ألف عام، واثنان أو ثلاثة من الأضرحة تخص المنجويين، وكان أحدهما يحمل تاريخ (٤١١هـ/ ١٠٢٠م) أما أضرحة السلاطين اليمنيين فكثيرة ومألوفة وكان على أحدها رخامة عليها نقوش غاية في الجمال، وعلى أحدها صورة مصباح يتدلى من سلسلة بينما الآخر يحمل

نقشًا لثلاثة قناديل بالحفر. أما الجامع القديم فلا يحمل تاريخ بنائه بينما الجامع الجديد مؤرخ في سنة (١٢٣٣هـ/ ١٨١٧م)، والمنطقة الواقعة بين صلالة وورويات قابلة للزراعة وفيها مزارع للقطن وتغطيها الأعشاب والتربة فيها خفيفة ورملية.

وفي يوم ١٨ نوفمبر حضر قاض الدهاريز، ولقد حاولت أن أعرف منه شيئًا عن تاريخ البلدة، فذكر لي أن سكان الدهاريز يبلغ تعدادهم نحو ٢٥٠ نسمة، وأنَّها من العواصم القديمة، وقال بأنَّ الأشراف والسادة كانوا يشرفون على قطعان القرا، وأما السهول فهي بين بين، وأن القضاة والمحكمون يتمتعون باحترام المواطنين باعتبارهم من رجال التقوى والورع. غير أنَّه لم يبد أنَّه كان ملمًّا بتاريخ ظَفَار، غير أنني كنت سعيد الحظ بحصولي على مخطوط من الشيخ عبدالرحمن الذي كانت أسرته هي التي تمد المنطقة برجال القضاء لعدة أجيال، غير أنَّه لم يتنازل عنه إلا بعد مشقة كبيرة، ورغم ذلك فقد طلب ٢٠ ريالًا. وبعد توزيع بعض الهدايا أبحرنا إلى مرباط، حيث رسا الطراد، لتمضية الليلة هناك.

### يوم ١٩ نوفمبر:

بعد مغادرة مرباط مررنا بجنجري وسدح، حيث أيضًا تعتبر خورًا وقرية صغيرة، وفي اليوم الثاني وصلنا إلى الحلانية، وهي أكبر جزر مجموعة كوريا موريا (الحلانيات)، والجزيرة المأهولة الوحيدة بينها، وسرت مع لانج إلى أكواخ الجزيرة وكانت أكثرها بدائية، كما كانت بيضاوية الشكل أو مستديرة بقطر ستة أقدام وبعلو ثلاثة إلى أربعة أقدام ومبنية بأحجار غير مفكوكة وتغطيها سقوف من الحصر مثبتة على أعمدة من العصى وعظام الأسماك ويكاد لا يستطيع الإنسان أن يجلس فيها مستقيمًا، وفي هذه الأكواخ المتواضعة وفي بعض الكهوف يعيش سكان هذه الجزيرة معتمدين في معيشتهم على الأسماك والمحار ولبن الأغنام وأحيانًا يقايضون أسماكهم الجافة بالبلح والأرز مع السفن العابرة. وعدد السكان ٣٦ فردًا ويتألفون من ٥ رجال وعشرين امرأة و١١ طفلًا، امرأتان منهم من قبيلة بني غلفان وتعتبران ملكتا الجزيرة، ورئيس الجزيرة هو حمد بن مبارك وهو الشخص الوحيد الذي يتحدث العربية بينما يتكلم الباقون لغة المهرة، وقد ذكر لي بأنَّ السكان كلهم قد جاءوا من الساحل المقابل لمرباط وحاسك، وكانت لديه أوراق كثيرة، وقال أن عامل التلغراف أم. أج. نيكولاس قد أخذ معه جميع الأوراق عندما أقفلت المحطة سنة

١٨٦١م، وهم يصطادون الأسماك بالسنارة، وليست لديهم قوارب أو زوارق أو شبكات. وتوجد بالجزيرة ثلاثة أو أربعة آبار، كما توجد على الجانب الشرقي من الجزيرة أنقاض مدينة مما يعني أن سكان الجزيرة كانوا أكثر عددًا في الماضي، وقد شكا حمد بن مبارك من سفن العرب التي كانت تصل من ساحل القراصنة، وعلى الأخص من دبي وعجمان، وكانت تعتدي عليهم وتنهب ممتلكاتهم. وكان بالجزيرة نحو ٢٠٠ إلى ٣٠٠ رأس غنم بعضها كان متوحشًا جدًّا، بينما القسم الآخَر كان في رعاية النساء والأطفال، وقد سرَّ سكان الجزيرة مما حصلوا عليه من هدايا السكر والأرز والتبغ والأقمشة القطنية.

وفي صباح اليوم الثاني والعشرين كنا نسير غير بعيد عن رأس شربثات، وكان البحر مضطربًا تقريبًا، وكان الطراد يجري بسرعة أربعة عقدة في الساعة في اتجاه ريح وتيار لا يزال ضدَّنا، وكانت منطقة شربيتات تعتبر الحدود بين قبليتي المهرة والجنبة، وفي الساعة الثامنة من يوم ٢٧ وصل فيلوميل إلى مسقط.

وفي العام التالي وبعد أن وافقت حكومة الهند على تقديم الهدايا إلى سلطان كشين وغيره كتقدير على تكريمهم لبحارة الطراد إيري الذي تحطم بالقرب من رأس فرتك، غادرت مسقط متوجهًا إلى ذلك المكان على ظهر الطراد دراجون الذي تفضل قائده الكابتن إنسون بتوصيلي يوم ١٠ ديسمبر ١٨٨٤م، وعند رسو السفينة في كشين، يوم ١٥ خرجنا أنا والكابتن إنسون إلى منزل علي بن عبدالله بن سالم بن طواري عفرير، وقد استقبلنا بطريقة مهذبة وبعد أن شكرنا على الحماية والمعاملة الكريمة التي لقيها منه بحارة السفينة إيري، وقد قدمت إليه الهدية التي جئت بها إليه، وهي خنجر مرصع بصقاع ذهبية وغيرها من الأشياء. وقد أجاب سلطان أنَّه سرَّ جدًّا بأنَّ عمله قد لقى الاستحسان والتقدير من الحكومة، كما ذكر بأنَّ منطقة نفوذه تمتد ساحليًّا من مسينات إلى رأس ضربة علي. ووعد بأنَّ البحارة الأوروبيين الذين تتحطم سفنهم سوف يلقون الأمان وحسن الضيافة لدى أهل الجزيرة. كما بدا لنا الشيخ أنَّه واهن وعاجز ولا يستطيع التحدث بالعربية، وكان هناك قاض مسن هو الذي يتحدث نيابة عنه، وكان الحاكم الفعلي للجزيرة. أما عبدالله بن محمد الذي سبق أن أنقذ بحارة إيري فوصل إلى الاجتماع وأخذ في تقبيل الحاكم وغيره من الأعيان بطريقة حكِّ الأنف.

أما كشين فإنها جزيرة نائية فيها نحو ٢٠٠ بيت من الطين شيدت فوق الرمال، كما أن فيها عشرة مساجد بعضها فيه مغارات. أما المواد الغذائية فمعظمها يأتي إلى الجزيرة من بومباي في الهند ومسقط غير أنَّه لا يوجد فيها تجار هنود، وأهم صادراتها اللبان والمر والماشية والأسماك.

### الثلاثاء ١٦ ديسمبر:

تحركنا في الساعة الخامسة والنصف صباحًا، ووصلنا سيحوت في العاشرة وقمنا بزيارة الحاكم الشاب سعد بن سالم الذي كان يتولى السلطة في البلدة أثناء غياب الحاكم الأصلي، وهو محمد بن عمر والأخير هو نجل آخِر حكام أو سلاطين كشين عمر بن طواري الذي سبق أن زاره الكابتن هينز، وبما أنَّه كان صغيرًا جدًّا أثناء وفاة والده، فقد انتقلت السلطة إلى علي بن عبدالله السلطان الحالي.

أما سيحوت فإنَّها بلدة كبيرة غير منظمة تحوي ٢٥٠ منزلًا، ونحو ٢٠٠٠ نسمة من السكان معظمهم من الزنوج. وفيها مساجد كثيرة بمناراتها كما أن الماء فيها متوافر وجيّد، وهناك أحواض كثيرة؛ ليأخذ السكان حاجتهم من الماء، ولاحظت وجود موازين عمومية في السوق، حيث يتم وزن وبيع اللبان والنيلة، ويوجد فيها ٤ هنود من مدينة كتش في الهند يزاولون التجارة وصادراتها اللبان والسمك المملح القديد، والذرة وزيت السردين وزعانف السمك، بينما الواردات متنوعة؛ لأن سكان وادي مسيلة يتزودون من سيحوت.

ومن سيحوت تحركنا غربًا لبضعة أميال لمشاهدة وادي مسيلة وكان مظهره متواضعًا أكثر مما توقعت، وكانت الضفة الغربية منه أكثر ارتفاعًا من الضفة الشرقية، كما أن الخريطة لا تبين سلسلة الجبال بوضوح.

وفي القرن الثاني الميلادي عندما وقعت هجرة إلى عُمَان من اليمن، سلكت الدفعة الأولى من المهاجرين الأزد من مأرب عن طريق وادي مسيلة في القوارب التي نقلتهم إلى قلهات التي منها خرجوا إلى وجهتهم ويذكر روس في مؤلفه (تاريخ عُمَان) أن الميناء الذي ركبوا منه هو ريسوت، غير أنَّه مما لا شكَّ فيه أن ريسوت كانت هي المقصودة، وبعد تغيير الاتجاه تحركت دارجون نحو رأس فرتك الذي توجد على جانبه الغربي قرية صيد صغيرة اسمها قصد أو خصد، وكان سفن زنجبار ترتاد هذا المكان سابقًا لإنزال شحناتها من العبيد الذين يصدرون إلى أسواق حضرموت،

وتقع في الداخل نحو خمسة أميال. وقد نزلت في خصد داخل مركب من نوع السمبوق، وتوجهت إلى منزل الشيخ. وهذه القرية فقيرة جدًّا، ولا يسكنها أكثر من خمسين نسمة رغم أن العديد من السفن الكبيرة يرسو فيها.

وتحت بروز رأس فرتك نتوء يسمى الهشم وهي بقايا قلعة قديمة ومن فوق ذلك النتوء يمكن التعرف على مواقع المنطقة، وتوجد صخرة هائلة كانت قد سقطت من أعلى الجبل، وتُسمّى محرم. وإن رأس فرتك هو أبرز وأهم موقع طبيعي في الساحل الجنوبي من شبه الجزيرة العربية، وعلى الجانب الغربي ترتفع سلسلة الجبال تدريجيًّا، والسلسلة التي تقع وراء السهل الساحلي لكيشين تنتهي فجأة عند النقطة التي يدور فيها الساحل بصورة فجائية نحو الشمال، ويشكل في اتجاه الشرق خندقًا عموديًّا ارتفاعه ٢٥٠٠ قدم، وطوله ستة أميال، بحيث يرتفع الخندق الساحلي في شكل عمودي من البحر نحو القمة، وعلى الرغم من أن المنحدر على ما يبدو ناعمًا إلا أنَّه في الواقع يكون سلسلة من المضايق والممرات تتساير مع طبيعة الأرض التي هي أفقية؛ ولكنها عمومًا ذات منحنيات، والجزء الرئيسي في هذا البروز تتخلله أو ترصعه كهوف عديدة يقطنها رجال قبائل القرا الذين يعيشون بالكاد على صيد الأسماك، وإذا انحدرنا إلى الممرات والأجزاء البارزة نجد مجموعة من الصخور التي تبرز إلى داخل البحر، وهو موقع خطر، وأن الكثيرين على ما يبدو يهلكون بالسقوط إلى البحر تحت السلسلة، وفي الليل تضفي الأنوار التي يستخدمها أهل الجزيرة منظرًا فريدًا على المكان، وهي الدليل الوحيد على وجود جماعات تستوطن هذا المكان؛ نظرًا لأن الكهوف لا تظهر في النهار.

وفي نشتون حيث رسا الطراد فيما بعد، قابلت أحد رجال سالم بن مبارك، وهو نفس الرجل الذي أنقذ وقدم الطعام لبحارة (أس. أس. سايث أوف باث) في شهر يونيو سنة ١٨٨٣م، بالقرب من رأس صوقرة، ولقد أعرب هذا المواطن عن عميق شكره على المعاملة الكريمة التي لقيها من رجال الطراد واهتمامهم به عندما قابلوه في بومباي، معقبًا على أنَّه بعد أن كان صيادًا فقيرًا أصبح الآن تاجرًا وعمدة للقرية. ثم تأكدت فيما بعد أن قصة ثراء سالم بن مبارك قد انتشرت على طول الساحل، ويمكن التوقع بأنَّ الموقف الذي اتخذه بشأن هذه المسألة، وبشأن الطراد أيري قد يكون له تأثير على تشجيع العرب لتقديم المساعدة إلى الأوروبيين الذين قد تتحطم سفنهم

على السواحل العربية، وكسب صداقتهم. أما الطراد أيري فيبدو أنَّه ارتطم بساحل أو شعب بالقرب من خليج نشتون، ثم انحرف إلى عمق البحر فيما بعد، غير أن التغليفة النحاسية لسلندراتها كانت لا تزال ظاهرة. وقد أخبرني سالم بن مبارك بأنَّه لم يكن موجودًا في نشتون عندما تحطم المركب. أما محمد وموسى الرئيسان فقد تسلما هداياهما في نفس الوقت الذي تسلمها فيه الشيخ عوض شيخ ضحيوت وكان قد قام بإيواء بحارة الطراد بعد أن غادر الأخيران نشتون.

ويوجد في ضحيوت حيث رسا الطراد لقضاء الليلة مبنى كبير مربع أو حصن، وهو المكان الذي أقام فيه البحارة أثناء وجودهم، والقرية صغيرة؛ ولكنها مزودة بالماء.

### وفي يوم ١٨ ديسمبر:

تحركنا نحو دمكوت وهي قرية بها مائة كوخ وتقع على مدخل أحد الجروف، ويُسمّى شويقه، وتوجد أيضًا بحيرة تستمد ماءها من مياه النهر غير أن الماء ليس عذبًا في الجزء الأسفل من المكان. ولقد اصطحبني إنسون إلى الشاطئ وسرنا إلى بيت الشيخ؛ ولكن الشيخ أو المقدم لم يكن موجودًا هناك وكان نائبه رجلًا هرمًا وعاجزًا؛ ولكنه قال لنا بأنَّه يتذكر زوارق (يالينوروس) التي كانت تقوم بأعمال المسح على الساحل، غير أنَّه لم يشاهد سفينة في دمكوت بعد ذلك، كما أن أحدًا من رجاله لم يشاهد باخرة من قبل. وقد سلمني الشيخ قائمة بأسماء قبائل المهرة، والطريق من غيثه إلى تريم، والمقبرة قديمة وتقع فيما بين البحر والبلدة وكبيرة ويعتقد أنَّها تعود تاريخها إلى ما قبل الإسلام، وفيها حركة تجارية محدودة، غير أن أهلها في فقر مدقع، ولا يملكون إلا قليلًا من الجمال والأغنام والأبقار وصادراتها السمن الطبيعي وزيت سمك السردين واللبان.

وبعد أن مررنا برأس شجر أو الشجر الذي يشكل الحدود الجنوبية لحدود سلطان عُمَان، وصل الطراد دراجون صلالة وألقى مرساته فيها يوم ١٩ديسمبر ١٨٨٤م. وقد نزلت إلى الشاطئ بصحبة إنسون لمقابلة الوالي الذي ذكر لنا أنَّه الآن يعيش في سلام مع فخور زعيم القرا، وبأنَّ هذا الزعيم قد سدد كل ما عليه من مستحقات، وفي حينه لم يكن أحد من التجار الهنود موجودًا في المدينة؛ حيث كانوا قد توجهوا إلى مرباط في مهمات تجارية؛ ولهذا ذهبت مع إنسون لمعاينة آثار البلاد وتصويرها، وأخذت معي ثمانية أفلام تم طبعها في مسقط فيما بعد. ولقد قمت بفحص المقبرة

للعثور على أضرحة المنجويين غير أنني لم أعثر على شيء وكثير مما في هذه المقبرة يعود تاريخه إلى القرن الثاني عشر الهجري غير أنَّه لم يبق أثر لأضرحة أي من المنجويين أو الحبوضيين على ما يبدو.

وغادرنا صلالة في نفس المساء متجهين إلى الدهاريز، حيث نزلت إلى الشاطئ في اليوم التالي، وقد قابلت هناك القاضي السابق سيد أحمد.

الذي أدلى إليَّ ببعض المعلومات عن القرا والسامري، فقد ذكر بأن السامري كان كافرًا فأسلم، وأن البركة تعود إليه في المطر الذي هطل على ظَفَار لأول مرة، أما قبل ذلك فإن ظَفَار لم تعرف ماء السماء؛ ولهذا فقد أصبح قبره مزارًا للنّاس، ويحج إليه كافة النّاس من مختلف الفئات والمستويات الاجتماعية، وقد أضيف اسمه في سجل أسماء الأمراء والعلماء، كما أن النّاس يتوسلون له؛ ليدعو ربَّ العباد عندما تكون الأرض في حاجة ماسة إلى الأمطار.

ويقع ضريح السامري في مكان يبعد نحو نصف ميل من البحر ويحيط به سور غير مسقوف، وحجم القبر ١٨ قدم في ٤ أقدام ويقع على الجبهتين الشمالية والجنوبية وتعلوه صخرة سوداء (شاهد) من الجير أو البازلت الأسود، والكتابة عليه غير واضحة، وتاريخ الضريح الذي يقع في الجزء الأسفل منه قد انمحى، بينما يوجد أسفل الضريح تجويف أو فتحة للمصباح الذي يستمر مضيئًا طوال العام عن طريق المريدين، وقد تهدم سقف المبنى منذ سنوات عديدة، غير أنَّه في العام الماضي رأى أحد العبيد واسمه سعيد، وليًا في منامه حذره بأنَّه إذا بقى الضريح مكشوفا ومعرضًا للشمس فإن البلاد سوف تصاب بالقحط؛ ولهذا فقد افتتح الأهالي اكتتابًا، ثم بموجبه جمع بعض المال، وأجريت بعض الاصلاحات للضريح، غير أن تجديد السقف كان يتطلب مالًا أكثر لم يكن متوافرًا.

ولعل أوفى معلومات عن هذا الولي الذي يعتبر ضريحه المزار الأكبر، هي التي وردت في مؤلف دبليو لوجان بعنوان (مليبار) وأنَّه لمن المهم إعطاء صورة عن هذا الحادث الذي اقترن بقصة اعتناق السامري للإسلام.

فقد رأى الملك شاريمان باريمال آخِر ملوك كرانجانور رؤيا في إحدى ليالي اكتمال البدر، وأنَّه عندما وصل البدر في مجراه إلى منتصف السماء انشق إلى نصفين فنزل أحد النصفين إلى سفح الجبل، حيث عاد الجزءان، فالتقيا وواصلا جريانهما، وبعد

ذلك رست إحدى سفن الحجاج المسلمين التي كانت قادمة من الخليج إلى سيلان في مدينة كرانجانور، وعندما استقبلهم ملك البلاد روى أحد الحجاج، ويدعى الشيخ سراج الدين، قصته للملك مما دعاه إلى اعتناق الإسلام، وعند مرور هذا الشيخ بكرانجانور في طريق العودة طلب منه الملك إعداد سفينة للقيام برحلة وبعد ثمانية أيّام ركب الملك السفينة ومعه الشيخ ومرافقوه متوجهين إلى الشحر على الساحل العربي، ومن الشحر توجه الملك باريمال إلى ظَفَار حيث استقر هناك، غير أنّه بعد مضي بضع سنوات قرر العودة إلى بلاده؛ ليجعل أهله يعتنقون الإسلام غير أنه أصيب بداء قاتل فمات؛ ولكنه قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة حثَّ مرافقيه ومنهم مالك بن دينار وغيره، أن ينفذوا وصيته ويقوموا بالتبشير للإسلام في مليبار.

وقد تأكدت تواريخ هذه الوقائع على ما يبدو، فالمعروف أن الملك شاريمان باريمال غادر الهند في سنة (٢١٠هـ/ ٢٥ أغسطس ٨٢٥م) وأقام في الشحر عامين، ثم وصل ظَفَار في سنة (٢١٢هـ/ ٨٢٧م)، وتوفي فيها سنة (٢١٦هـ/ ٨٣١م). وكما يقال فإن هذا الملك قد تسمّى باسم عبدالرحمن بعد وصوله إلى الشحر، وتعني لفظة السامري (العجل)، وتطلق على عباد البقرة، ولعلها اقترنت بباريمال بحكم كونه هندي الديانة قبل اعتناقه الإسلام، كما أنَّها اختلطت بلفظة زامررين، وهو اللقب الذي أطلقه البرتغاليون على ملك كاليكوت، غير أن اللفظة الأخيرة مشتقة من السنسكريتية.

ومن الدهاريز توجهنا إلى طاقة، حيث نزلت إلى الشاطئ في أحد القوارب الساحلية، وقابلت سيّد عبدالله شقيق الشيخ سيّد علوي الذي كان متغيبًا في الجبل، وأن جد هذين الزعيمين هو أبو بكر الذي نزح من عينات في حضرموت، وكان عدد بيوت طاقة عند وجودنا ٤٠ منزلًا وسكانها ٢٠٠ نسمة، غير أنَّها على ما يبدو كانت تتدهور، وكان يستولى عليها البلى، ولم أتمكن إلا من إلقاء نظرة عابرة على الخلجان والأنقاض القديمة المجاورة، وأسفت على أن الوقت لم يسنح لي بفحصها بصورة أوفى. والخلجان هي خور طاقة، وسيف، ورروري والأخير أكبرها جميعًا ولعله في الأزمنة الغابرة كان يشكل مأوى للسفن والملاحة. وقبل أن نغادرها اغتنمت الفرصة لمعاينة أقدم وأهم ضريح في المدينة، وهو ضريح الوالي السيّد عفيف، وكان

يعتبر من الأولياء، وعلى الشاهد تاريخ عام (٣٠٩هـ/ ٩٢١م)؛ ولكن الضريح كان قد انشق إلى نصفين وتم اصلاحه بربط الجزءين بحبل.

وكانت محطتنا التالية هي مرباط، حيث رسا الطراد بنا في الساعة الثانية بعد الظهر، وبعد استقبالنا للقائد البلوشي والتجار الهنود توجهت مع إنسون إلى الشاطئ لمشاهدة أنقاض القلعة القديمة التي بناها القرصان محمد عقيل سنة ١٨٠٦م، ودفن فيها، وقد التقطت صورًا للمدينة ولمجموعات من السكان المهرة، وفي مرباط، وجدنا الشيخ يحبح شيخ نشتون الذي كان غائبًا أثناء وجودنا فيها، ولقد انتهزت الفرصة لأشكره على موقفه الإنساني بخصوص بحارة الطراد أيري، وقد عملنا ترتيبات مع شيخ القرا محمد بن بخيت؛ ليوفر لنا بعض الجمال للقيام برحلة قنص، وربما يبلغ عدد سكان هذه البلدة نحو ٣٠٠ فرد، ولما كنا قد نجحنا في الحصول على بعض الشتلات لشجيرات اللبان فقد أخذتها معي؛ لكي أغرسها في مسقط، وكانت الشتلات لا تزال طور النمو عندما غادرت مسقط بعد ذلك ببضع سنوات.

### الثلاثاء ٢٣ ديسمبر:

تحركنا من مرباط وبعد عبورنا خور حمسه أو حماسه إلى رأس كوكري أو جنجري على بعد عشرين ميلًا لمحنا رأس نوس، حيث يوجد قبر النبي هود أو قبر صالح بن هود، وأن التشابه بين هذا الاسم واسم الجبل الأكبر جبل حبروت، يؤكد الفكرة القائلة باحتمال اشتقاق أحد الاسمين من الاسم الآخر. ولعل اسم الجبل قد يبرهن على قصة قبر ذلك النبي أو ربما كان لفظة جروي تحريفًا لقبر هود.

إن الساحل بين رأس مرباط وحاسك غير مأهول، وقد تحولت بلدة حاسك القديمة إلى أنقاض وآثار. ولقد لمحنا بعض الأفراد يختبئون بين الصخور غير موافقين على الخروج؛ ولكنهم أخيرًا خرجوا، وقالوا أنَّهم من قرا المشاعنة، وإنَّهم كانوا يرعون بعض الجمال والأغنام إلا أنَّهم لم يستطيعوا أن يدلوا بأية معلومات عن تاريخ المكان فيما عدا أن القراصنة قد اجتاحوه، وأخذوا النساء والأطفال عبيدًا. وكانت الآثار التي أشرت إليها على الضفة الشمالية للوادي على بعد ميل من البحر. كما أن معالم البلدة لم تكن تحيط بها أسوار، وكانت لا تزال واضحة، والمنازل صغيرة ومبنية من الحجر الأسود، والمباني التي لا تزال باقية هي مباني المساجد ودكان لأحد الصاغة،

وقد قام العرب بتحديد تلك الأماكن لي، كما كان هناك برجان مستديران للمراقبة، وقد أقيما فوق قمتين كل منهما على أحد الضفتين وتطلان على البلدة، غير أننا لم نعثر على ماء عذب بالقرب من الأطلال. ويقع سوق البلدة قريبًا من الشاطئ في رأس حاسك؛ وذلك لقربه من مرسى السفن والميناء.

وفي جزيرة الحلانية التي نزلنا فيها من بعد، نزلت والكابتن إنسون؛ ولكننا وجدنا الأحوال لا تزال كما هي عندما زرناها سابقًا في سنة ١٨٨٣م، وقد تجمع النّاس لتقبيل الأيدي، وقد تعرفوا على أولئك الذين جاءوا من قبل على الطراد فيلوميل، ولم يقدموا لنا أيّة شكاوى، وقالوا أن عرب الخليج قد كفوا عن إيذائهم منذ السنة الماضية، غير أن عدد السكان قد تناقص إلى النصف، ولم يبق فيها غير خمسة رجال واثنى عشر ولدًا وسبع عشر سيّدة. وقد طلب الرجال مِنّي سنارات لصيد السمك، وقالوا بأنَّ التي يستعملونها لصيد السمك عندهم مصنوعة من عيدان الأكاسيا، وتُسمّى جاجور، وذكر لي إنسون أنه عد ٢٠٠ قبرًا في المقبرة القديمة. وفي الظهيرة عدنا الطراد، وأقلع بنا إلى رأس قرقاو، الذي وصلنا إليه في الساعة الرابعة مساء، وقد جاء النّاس لاستقبالنا على الشاطئ وكانوا في غاية الود، وقالوا بأنَّهم كانوا يرقبون بين الصخور اقترابنا، وكانوا يأملون أن تتحطم سفينتنا فيستطيعون نهب محتوياتها، إلا أنَّ أملهم خاب عندما رأوا السفينة سالمة لم يصبها شيء، وسكان هذه المنطقة كلهم من الجنبة، وذكروا بأنَّهم دائمًا يأتون إلى هذا المكان في فصل الشتاء، ويعودون شرقًا عند اقتراب موسم الحصاد، وهم يدينون بالولاء لزعيمهم سيف بن حمد. وكان عدد كبير من المهرة والعوامر ينتقلون في المنطقة الداخلية غير البعيدة عنا، غير أن حدود المهرة المعترف بها هي رأس الشويمية، كما ورد في الخريطة غير أن هذا الاسم غير معروف للبدو.

ويوم عيد الميلاد ٢٥ديسمبر عدنا إلى الشاطئ، وتحدثت مع زعيم الجنبة الذي سلمنا قائمة بالأماكن الواقعة فيما بين ريخوت ورأس مدركة وقال إن هناك واديًا كبيرًا يُسمَّى وادي عنينة شرقي سفيره الذي يتدفق نحو الغيزة التي لا تبعد كثيرًا عن العنيزة، حيث تم انقاذ بحارة نايت أوف ذي باث. وقد أجابني شيخ الجنبة على سؤال وجهته إليه بأنَّ الحسينة لا يتعدوا غربًا رأس حاسك، ويمتد وادي عنينة مسيرة

ثلاثة أيّام ويلف في اتجاه الغرب، ووراءه سلسلة من المرتفعات المنخفضة. وبعد الظهر تجولت مع إنسون حتى وصلنا بحيرة لقيت التي تمتد ميلًا واحدًا طولًا، وتستمد مياهها من وادي غزالة، وماؤها مالح في جزئه الأسفل والبحيرة مليئة بالأسماك التي يتغذى منها كثير من جنود مالك الحزين والغاقة والطيور المائية.

* * *

## فهرس الأعلام والقبائل والأقوام

### حرف الألف (أ)

## حرف الباء (ب)

## حرف التاء (ت)



## حرف الثاء (ث)

## حرف الجيم (ج)

## حرف الحاء (ح)

## حرف الخاء (خ)



## حرف الدال (د)

## حرف الذال (ذ)



## حرف الراء (ر)

## حرف الزاء (ز)



## حرف السين (س)

## حرف الشين (ش)



## حرف الصاد (ص)

## حرف الطاء (ط)



## حرف الظاء (ظ)



## حرف العين (ع)

## حرف الغين (غ)



## حرف الفاء (ف)

## حرف القاف (ق)

## حرف الكاف (ك)

**حرف اللام (ل)**



**حرف الميم (م)**

## حرف النون (ن)

**حرف الواو (و)**

## حرف الهاء (هـ)

## حرف الياء (ي)

## فهرس المواضع

## حرف الباء (ب)

## حرف التاء (ت)

**حرف الثاء (ث)**



**حرف الجيم (ج)**

## حرف الحاء (ح)

## حرف الخاء (خ)

### حرف الدال (د)

## حرف الذال (ذ)



## حرف الراء (ر)

## حرف الزاء (ز)



## حرف السين (س)

## حرف الشين (ش)

## حرف الصاد (ص)

## حرف الضاد (ض)



## حرف الطاء (ط)



## حرف الظاء (ظ)

## حرف العين (ع)

## حرف الغين (غ)

### حرف الفاء (ف)



### حرف القاف (ق)

## حرف الكاف (ك)

**حرف اللام (ل)**



**حرف الميم (م)**

## حرف النون (ن)

## حرف الواو (و)

## حرف الهاء (هـ)



## حرف الياء (ي)

## قائمة المحتويات

**الفصل العاشر:**

تم بحمد الله